التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة البروج إلى سورة التين

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثالث والأربعون – القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ
ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٤/٣٥٣

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٣
ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)

إعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

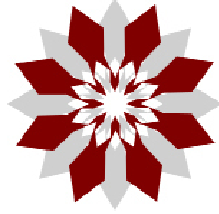
المجلد الثالث والأبعون

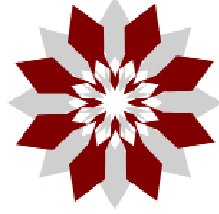
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

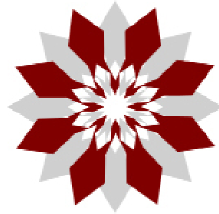
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ البُرُوجِ







سورةُ البُرُوجِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (البُروجِ)[١].

وسُمِّيتْ أيضًا بـ (السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعصرِ بـ«السَّماءِ والطَّارقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[٢].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه المتقدِّمِ.

بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ البُروجِ مكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ البُروجِ في أوَّلِها، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.
قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٥).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه عمَّا أصابَهم مِن أعدائِهم، وتثبيتُ المؤمنينَ على الحقِّ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بقَسَمِ الله تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه.

٢- ذِكرُ خبرِ أصحابِ الأُخْدودِ.

٣- وعيدُ الطُّغاةِ الَّذين يَفْتِنونَ المؤمنينَ بعذابِ جهنَّمَ.

٤- البِشارةُ بنَعيمِ الجنَّةِ الَّذي يَنتظِرُ المؤمنينَ.

٥- التَّلويحُ ببَطشِ الله الشَّديدِ، وذِكرُ بعضِ صِفاتِه تعالى.

٦- ضربُ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيفَ كانت عاقِبةُ أمرِهم.

٧- التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ المَجيدِ.



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٤١).

الآيات (١-٩)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾: أي: النُّجومِ؛ لأنَّها تتبَرَّجُ، أي: تظهَرُ، أو مَنازِلِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وهي اثنا عَشَرَ بُرجًا، وسُمِّيت بالبُروجِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لهذه الكواكِبِ كالمنازِلِ لساكِنيها، وأصلُ (برج): البُروزُ والظُّهورُ، وأيضًا الملجأُ[1].

﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: أي: الشَّقِّ العَظيمِ في الأرضِ يُحفَرُ مُستطيلًا، وأصلُ (خدد): يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ[2].

﴿ٱلۡوَقُودِ﴾: أي: الحَطَبِ المَجعولِ للاتِّقادِ، وأصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ النَّارِ[3].

﴿نَقَمُواْ﴾: أي: كَرِهوا وأنكَروا وعابُوا، وأصلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، =

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّة القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدْرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّة القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالِبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّة الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[١].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابيُّ: (والعِزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدْرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوك فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويَتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالبِ =

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: المحمودِ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودِ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خَلْقِه، المُستحِقِّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ(١).

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: شاهِدٌ، حاضرٌ، مُطَّلِعٌ، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، يَسمَعُ جميعَ الأصواتِ خَفيِّها وجَليِّها، ويُبصِرُ جميعَ الموجوداتِ دقيقِها وجَليلِها، صغيرِها وكبيرِها، قد أحاط عِلْمُه بكلِّ شَيءٍ، ويَشهَدُ لعِبادِه وعلى عِبادِه بما عَمِلوه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ(٢).

= القاهِر، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عِزَّةُ القوَّةِ، وعِزَّةُ الامتِناعِ، وعِزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العِزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتِباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٣)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال ابن الأثير: («فَعيلٌ» مِن أبنيةِ المُبالَغةِ في «فاعِلٍ»، فإذا اعْتُبِرَ العِلمُ مُطْلَقًا فهو العَليمُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الباطِنةِ فهو الخَبيرُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الظَّاهِرةِ فهو الشَّهيدُ، وقد يُعتبَرُ =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿قُتِلَ﴾: قيل: هو جوابُ القَسَمِ على حَذفِ اللَّامِ منه للطُّولِ، والأصلُ «لَقُتِلَ». وقيل: على حَذفِ اللَّامِ و(قد)، والأصلُ «لَقَدْ قُتِلَ»، وعلى هذا فقَولُه: ﴿قُتِلَ﴾ خبرٌ لا دُعاءٌ عليهم. وقيل: بل هو دُعاءٌ عليهم، فلا يكونُ جوابًا. وعلى هذا فجُملةُ ﴿قُتِلَ﴾ دُعائيَّةٌ دالَّةٌ على الجَوابِ المحذوفِ، كأنَّه قيل: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَمَلعونونَ أحِقَّاءُ بأن يُقالَ فيهم: قُتِلوا، كما هو شأنُ أصحابِ الأُخدودِ. وقيل: الجوابُ مَذكورٌ، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ [البروج: ١٠]، أو هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

- قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾: مجرورٌ، بَدَلُ اشتِمالٍ(١) مِن ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾؛ لأنَّ الأخدودَ مُشتَمِلٌ عليها، والرَّابطُ مُقَدَّرٌ، تقديرُه: «النَّارِ فيه»، أو أُقيمَت «أل» في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مُقامَ الضَّميرِ، تقديرُه: نارِه، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ، وعُوِّضَ عنه «أل». وقيل: بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ، على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: أُخدودِ النَّارِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَمِ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما، وبيَومِ القيامةِ الموعودِ،

= مع هذا أن يَشهَدَ على الخَلْقِ يومَ القيامةِ بما عَلِم). ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٢/ ٥١٣).

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٧-٢٩٩).

وبكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ؛ ثمَّ قال سبحانَه: أُهْلِكَ ولُعِنَ الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا متأجِّجًا بالنَّارِ العَظيمةِ الاشتِعالِ، لُعِنوا حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحترِقونَ فيه!

ثمَّ بيَّن سُبحانَه ما حمَلَهم على فِعلِ ما فعَلوا، فقال: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ إلَّا إيمانَهم باللهِ الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، الَّذي يَملِكُ وَحْدَه السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبروجِ: منازلُ الشَّمسِ والقَمرِ، وهي البروجُ الاثنا عشرَ: ابنُ جرير، والزَّمخشري، والرَّسْعني، والنَّسفي، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وجلال الدِّين المحلي، والعُلَيمي، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).
وهذه البروج هي: الحَمَلُ والثَّورُ والجَوْزاءُ والسَّرطانُ والأسدُ والسُّنبُلةُ والمِيزانُ والعَقْربُ والقَوسُ والجَدْيُ والدَّلْوُ والحُوتُ، فثلاثةٌ منها للرَّبيعِ، وثلاثةٌ للصَّيفِ، وثلاثةٌ للخريفِ، وثلاثةٌ للشِّتاءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٢٤).
قال ابنُ جرير: (هي اثنا عَشَرَ بُرْجًا، فمَسيرُ القَمَرِ في كُلِّ بُرجٍ منها يَومانِ وثُلُثٌ، فذلك ثمانيةٌ =

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢)﴾.

أي: وأُقسِمُ بيَومِ القيامةِ الَّذي وَعَد اللهُ تعالى عِبادَه بمَجيئِه والقَضاءِ فيه بيْنَهم، فيَبعَثُهم ويُحاسِبُهم ويُجازيهم فيه على أعمالِهم(١).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

= وعِشرونَ منزلًا، ثمَّ يَستَسِرُّ لَيلتَينِ، ومَسيرُ الشَّمسِ في كُلِّ بُرجٍ منها شَهرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (البُرجُ السَّماويُّ يتألَّفُ مِن مجموعةِ نُجومٍ قَريبٍ بَعضُها مِن بعضٍ، لا تختَلِفُ أبعادُها أبدًا، وإنَّما سُمِّيَ بُرجًا؛ لأنَّ المُصطَلِحينَ تخَيَّلوا أنَّ الشَّمسَ تحُلُّ فيه مدَّةً... ولَمَّا وَجَدوا كلَّ مجموعةٍ منها يُخالُ منها شَكلٌ لو أُحيطَ بإطارٍ لِخَطٍّ مفروضٍ لَأَشْبَهَ مُحيطُها مُحيطَ صُورةٍ تخيُّليَّةٍ لبعضِ الذَّواتِ مِن حَيوانٍ أو نباتٍ أو آلاتٍ؛ مَيَّزوا بعضَ تلك البُروجِ مِن بعضٍ بإضافته إلى اسمِ ما تُشبِهُه تلك الصُّورةُ تقريبًا... وهذه البُروجُ هي في التَّحقيقِ: سُمُوتٌ تُقابِلُها الشَّمسُ في فَلَكِها مُدَّةَ شَهرٍ كاملٍ مِن أشهُرِ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ، يُوَقِّتونَ بها الأشهُرَ والفُصولَ بمَوقِعِ الشَّمسِ نهارًا في المكانِ الَّذي تطلُعُ فيه نجومُ تلك البُروجِ ليلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بالبروجِ: النُّجومُ، وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، والسَّمعاني، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

حكى الواحديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بـ (الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ): يومُ القيامةِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجَمْعُ مِن أجْلِ العَرْضِ، وكان العَرْضُ لا بُدَّ فيه مِن شُهودٍ ومَشهودٍ عليهم وجدالٍ على عُهودٍ؛ قال[1]:

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

اختَلَف المفَسِّرون في معنى الشَّاهِدِ والمشهودِ اختِلافًا كبيرًا، والأكثَرونَ على أنَّ الشَّاهِدَ: هو يومُ الجُمُعةِ، والمشهودَ: هو يومُ عَرَفةَ. وممَّن نسَبَه إلى الجُمهورِ: الواحديُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

قال الرَّسْعَني: (وإلى هذا القَولِ ذَهَب عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ في بعضِ الرِّواياتِ عنه، وهو قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ. قال بعضُهم: سُمِّيَ يومُ الجُمُعةِ شاهِدًا؛ لأنَّه يَشهَدُ على كُلِّ عامِلٍ بما عَمِلَ فيه، وسُمِّيَ يومُ عرفةَ مَشهودًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَشهَدونَ فيه [مَوسِمَ] الحَجِّ، وتَشهَدُه الملائكةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

وقيل: الشَّاهِدُ: هم الخلائِقُ، والمشهودُ: هو ما في يومِ القيامةِ مِنَ العَجائبِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعودِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩).

وقيل: الشَّاهِدُ: هو اللهُ تعالى، والمشهودُ: هم المَعرُوضونَ للحِسابِ يومَ القيامةِ. وقد جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (ذكَرَ عُلَماءُ التَّفسيرِ في الشَّاهِدِ والمشهودِ عِدَّةَ أقوالٍ يَجمَعُها أنَّ اللهَ أقسَمَ بكلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ، والشُّهودُ كثيرونَ؛ منهم محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ شهيدٌ علينا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ومنهم =

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾﴾.

أي: أُهْلِكَ ولُعِنَ أولئك الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا[1].

= هذه الأُمَّةُ شُهَداءُ على النَّاسِ ﴿وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأعضاءُ الإنسانِ يومَ القيامةِ تَشهَدُ عليه بما عَمِلَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ومنهم الملائكةُ يَشهَدونَ يومَ القيامةِ، فكُلُّ مَن شَهِد بحَقٍّ فهو داخِلٌ في قَولِه: ﴿وَشَاهِدٖ﴾. وأمَّا المشهودُ فهو يومُ القيامةِ وما يَعرِضُ فيه مِن الأهوالِ العظيمةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، فأقسَمَ اللهُ بكُلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه بالشَّاهِدِ والمَشهودِ مُطلَقَينِ غَيرَ مُعيَّنَينِ، وأعَمُّ المعاني فيه أنَّه المُدْرِكُ والمُدْرَكُ، والعالِمُ والمعلومُ، والرَّائي والمَرْئيُّ، وهذا ألْيَقُ المعاني به، وما عَداه مِن الأقوالِ ذُكِرَت على وَجهِ التَّمثيلِ، لا على وَجْهِ التَّخصيصِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨٩).

وقال السعدي: (﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ وشمِل هذا كلَّ مَن اتَّصَف بهذا الوصفِ، أي: مُبصِرٍ ومُبصَرٍ، وحاضِرٍ ومَحضورٍ، وراءٍ ومَرئيٍّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣- ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

قال ابن كثير: (هذا خَبَرٌ عن قَومٍ مِن الكفَّارِ عَمَدوا إلى مَن عِندَهم مِن المؤمِنينَ باللهِ عزَّ وجَلَّ، فقَهَروهم وأرادوهم أنْ يَرْجِعوا عن دِينِهم، فأبَوْا عليهم، فحَفَروا لهم في الأرضِ أُخْدُودًا وأجَّجوا فيه نارًا، وأعَدُّوا لها وَقُودًا يُسَعِّرونَها به، ثُمَّ أرادوهم فلم يَقْبَلوا منهم، فَقَذَفوهم فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

ويُنظر للخِلافِ في أهلِ هذه القِصَّةِ، مَن هم، وأين كانوا: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

وقد اختلَفَ المفسِّرونَ في جوابِ القَسَمِ؛ فقيل هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. ومِمَّن ذهب إليه: المُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((المقتضب)) للمُبَرِّد =

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان مَلِكٌ فيمَنْ كان قَبْلَكم، وكان له ساحِرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للمَلِكِ: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْه السِّحرَ، فبَعَث إليه غُلامًا يعَلِّمُه، فكان في طريقِه إذا سلَكَ راهِبٌ، فقَعَد إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجَبَه، فكان إذا أتى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وقَعَد إليه، فإذا أتَى السَّاحِرَ ضَرَبه، فشكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسَني أهلي، وإذا خَشِيتَ أهْلَك فقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ، فبَيْنَما هو كذلك إذ أتَى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَتِ النَّاسَ، فقال: اليَومَ أعلَمُ آلسَّاحِرُ أفضَلُ أمِ

= (٢/ ٣٣٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٥).

ونسَبَ السَّمعانيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠).

وقيل: هو قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. وممَّن ذهب إليه: الأخفَشُ، والخازنُ، وأبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبيُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وذهب ابنُ الأنباريِّ ومكِّيٌّ والزمخشريُّ إلى أنَّ جوابَ القَسَم محذوفٌ، وقيل إنَّ تقديرَه: لَتُبْعَثُنَّ، وذهب الزمخشريُّ وتبعه البيضاويُّ والعُلَيميُّ إلى أنَّ تقديرَه: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مَلْعونونَ كما لُعِنَ أصحابُ الأخدودِ. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٧٢، ٩٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأحسَنُ أن يكونَ هذا القَسَمُ مُستغنيًا عن الجوابِ؛ لأنَّ القِصَّةَ للتَّنبيهِ على المقسَم به، وأنَّه من آياتِ الرَّبِّ العظيمةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٩١).

وقال الواحديُّ: (و﴿قُتِلَ﴾ معناه: لُعِنَ. في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٨٤).

وقال أيضًا: (قال ابنُ الأنباريِّ: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤).

الرَّاهِبُ أفضَلُ؟ فأخَذ حَجَرًا، فقال: اللَّهُمَّ إن كان أمرُ الرَّاهِبِ أحَبَّ إليك مِن أمرِ السَّاحِرِ فاقتُلْ هذه الدَّابَّةَ؛ حتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فرماها فقَتَلها، ومضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخبَرَه، فقال له الرَّاهِبُ: أيْ بُنَيَّ، أنت اليومَ أفضَلُ مِنِّي، قد بلَغ مِن أمْرِك ما أرَى! وإنَّك ستُبتَلى، فإنِ ابتُليتَ فلا تَدُلَّ علَيَّ، وكان الغُلامُ يُبرِئُ الأكْمَهَ[١] والأبْرَصَ، ويُداوي النَّاسَ مِن سائرِ الأدواءِ، فسَمِعَ جَليسٌ للمَلِكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما هاهنا لك أجْمَعُ إنْ أنت شفَيْتَني، فقال: إنِّي لا أَشْفي أحدًا، إنَّما يَشفي اللهُ، فإنْ أنت آمَنْتَ باللهِ دَعَوتُ اللهَ فشَفاك، فآمَنَ باللهِ فشَفاه اللهُ، فأتَى المَلِكَ فجَلَس إليه كما كان يجلِسُ، فقال له الملِكُ: مَن رَدَّ عليك بَصَرَك؟! قال: رَبِّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: رَبِّي ورَبُّك اللهُ! فأخَذه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الغلامِ، فجِيءَ بالغُلامِ، فقال له الملِكُ: أيْ بُنَيَّ، قد بلَغ مِن سِحْرِك ما تُبرِئُ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ، وتفعَلُ وتفعَلُ! فقال: إنِّي لا أَشفي أحدًا، إنَّما يَشْفي اللهُ، فأخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الرَّاهِبِ، فجِيءَ بالرَّاهِبِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبَى، فدَعا بالمِئْشارِ[٢]، فوضَع المِئْشارَ في مَفرِقِ رأسِه[٣]، فشَقَّه حتَّى وقع شِقَّاه! ثُمَّ جيءَ بجليسِ المَلِكِ فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فوُضِعَ المِئْشارُ في مَفرِقِ رأسِه، فشَقَّه به حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بالغلامِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فدفعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصعَدوا به الجَبَلَ، فإذا بلَغْتُم ذِرْوتَه[٤]، فإنْ رَجَع

(١) الأكْمَهَ: هو الَّذي يُولدُ أعمى. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٢) المِئْشارُ والمِنشارُ: هو آلةُ النَّشرِ والقطعِ الَّذي يُشَقُّ بها الخشَبُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٨١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٧).

(٣) مَفرِقِ رأسِه: هو المكانُ الَّذي يفترِقُ فيه الشَّعرُ في وسَطِ الرَّأسِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩٨).

(٤) ذِرْوتَه: أي: أعلاه. وذروةُ كلِّ شَيءٍ: أعلاه. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي =

عن دينِه وإلَّا فاطْرَحوه، فذَهَبوا به، فصَعِدوا به الجَبَلَ، فقال: اللَّهمَّ اكْفِنِيهم بما شِئْتَ، فرَجَف بهم الجبلُ فسَقَطوا، وجاء يمشي إلى الملِكِ! فقال له المَلِكُ: ما فعَلَ أصحابُك؟! قال: كَفانِيهِمُ اللهُ، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابِه، فقال: اذهَبوا به فاحمِلوه في قُرقُورٍ[(١)]، فتوسَّطوا به البَحْرَ، فإن رجَعَ عن دينِه وإلَّا فاقذِفوه، فذَهَبوا به، فقال: اللَّهمَّ اكفِنِيهم بما شِئتَ، فانكفَأَتْ[(٢)] بهم السَّفينةُ، فغَرِقوا، وجاء يمشي إلى المَلِكِ! فقال له الملِكُ: ما فعل أصحابُك؟! قال: كفانيهم اللهُ، فقال للمَلِكِ: إنَّك لستَ بقاتِلي حتَّى تَفعَلَ ما آمُرُك به، قال: وما هو؟ قال: تجمَعُ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصلِبُني على جِذْعٍ، ثمَّ خُذْ سَهمًا من كِنانتي[(٣)]، ثمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ[(٤)]، ثمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ ارمِني؛ فإنَّك إذا فعَلْتَ ذلك قتَلْتَني، فجَمَع النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذعٍ، ثمَّ أخذَ سَهمًا من كنانتِه، ثمَّ وَضَع السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثمَّ قال: باسمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثمَّ رماه فوقع السَّهمُ في صُدْغِه[(٥)]، فوَضَع يَدَه في صُدْغِه في موضِعِ السَّهمِ، فمات، فقال النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا بربِّ الغلامِ، آمَنَّا بربِّ الغلامِ، فأُتيَ المَلِكُ فقيل له: أرأَيْتَ ما كنتَ تَحذَرُ؟ قد -واللهِ- نزَل بك حَذَرُك؛ قد آمَنَ النَّاسُ! فأمَر بالأُخدودِ في أفواهِ السِّكَكِ[(٦)]، فخُدَّتْ[(٧)]، ....

= عياض (٨/ ٥٥٦).

(١) قُرْقُورٍ: هو السَّفينةُ العظيمةُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٤٨).

(٢) انكَفَأَت: أي: انْقَلَبَت. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) الكِنانة: الوِعاءُ الَّذي فيه السِّهامُ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (١/ ٢١).

(٤) كَبِدِ القَوسِ: أي: وسَطِها. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٥) صُدْغِه: هو ما بيْنَ العَينِ إلى شَحمةِ الأُذُنِ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٨).

(٦) أفواهِ السِّكَكِ: أي: أبوابِ الطُّرُقِ. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٧) فخُدَّتْ: أي: شُقَّتِ الأخاديدُ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٩).

وأَضرَمَ النِّيرانَ، وقال: مَن لم يَرجِعْ عن دينِه فأَحْمُوه[١] فيها، أو قيل له: اقتَحِمْ، ففعَلوا، حتَّى جاءت امرأةٌ ومعها صَبيٌّ لها، فتقاعَسَت[٢] أن تقَعَ فيها، فقال لها الغُلامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِري؛ فإنَّك على الحَقِّ))[٣].

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّهم سُبحانَه وتعالى، بَيَّن وَجْهَ ذَمِّهم ببَدَلِ اشتِمالٍ[٤] مِن أُخْدودِهم، فقال[٥]:

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾.

أي: وذلك الأُخدودُ متأجِّجٌ بالنَّارِ الَّتي أُضرِمَت بالحَطَبِ أو غَيرِه حتَّى اشتَدَّ توَقُّدُها ولهيبُها، واشتَعَلَت اشتِعالًا عَظيمًا[٦].

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكُفَّارُ حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وحافَاتِه[٧]!

(١) فأَحْمُوه: أي: ارْمُوه. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).
(٢) فتَقاعَسَتْ: أي: توَقَّفَت، ولَزِمَت مَوضِعَها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٣).
(٣) رواه مسلم (٣٠٠٥).
(٤) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦). =

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾.

أي: وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحترِقونَ فيه[١].

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾.

أي: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ شَيئًا سِوى إيمانِهم باللهِ الممتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٣]، ....

= قال الرَّسْعَني: (قَولُه: ﴿إِذۡ﴾ ظَرفٌ لـ «قُتِلَ»، على معنى: لُعِنوا حينَ قَعَدوا على حافَاتِ الأُخدُودِ يَعرِضونَ المؤمِنينَ على الكُفرِ أو الإحراقِ. قال مجاهِدٌ: كانوا قُعودًا على الكراسيِّ عندَ الأُخدودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

(٣) ما دُونَ لَحمِه: أي تحتَه أو عندَه. وفيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤)، ((إرشاد الساري)) =

وما يَصُدُّه ذلك عن دينه!))[١].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى الأوصافَ الَّتي يَستَحِقُّ بها أن يؤمَنَ به ويُعبَدَ -وهو كَونُه عزيزًا غالبًا قادرًا يُخشَى عِقابُه، حميدًا مُنعِمًا يجِبُ الحَمدُ على نِعَمِه، ويُرجى ثوابُه-؛ قَرَّر ذلك بقَولِه تعالى[٢]:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الَّذي يَملِكُ وَحْدَه جَميعَ السَّمَواتِ السَّبْعِ والأرضِ، وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ومِن ذلك إحراقُ الكافِرينَ للمُؤمِنينَ في الأُخدُودِ، وسيُجازيهم عليه[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في هذه الآيةِ

= للقسطلاني (٦/ ٦٠).

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

مِنَ العِبَرِ: أنَّ هؤلاء الكفَّارَ لم يأخُذوا على المسلمينَ ذَنْبًا إلَّا شيئًا واحدًا، وهو: أنَّهم يُؤمِنونَ باللهِ العزيزِ الحَميدِ! وهذا ليس بذَنْب، بل هذا هو الحقُّ، ومَن أنْكَرَه فهو الَّذي يُنْكَرُ عليه[(١)]، وهكذا المُشرِكُ؛ إنَّما يَنْقِمُ على الموحِّدِ تجريدَه للتَّوحيدِ، وأنَّه لا يَشُوبُه بالإشراكِ، وهكذا المبتدِعُ؛ إنَّما يَنقِمُ على السُّنِّيِّ تجريدَه مُتابَعةَ الرَّسولِ، وأنَّه لم يَشُبْها بآراءِ الرِّجالِ، ولا بشَيءٍ ممَّا خالَفَها، فصَبرُ الموحِّدِ المتَّبِعِ للرَّسولِ على ما يَنقِمُه عليه أهلُ الشِّركِ والبِدْعةِ خيرٌ له وأنفَعُ، وأسهَلُ عليه مِن صَبْرِه على ما يَنقِمُه اللهُ ورَسولُه عليه مِن مُوافَقةِ أهلِ الشِّركِ والبِدْعةِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِ خَلْقِه، لا يخفَى عليه خافيةٌ، وهذا وعدٌ عَظيمٌ للمُطيعينَ، ووعيدٌ للمُجرِمينَ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ * وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ * وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ إنْ قيلَ: ما وَجهُ الارتباطِ بيْن هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ المُقسَمِ بها؟

قيل: هي بحَمْدِ اللهِ في غايةِ الارتباطِ، والإقسامُ بها مُتناوِلٌ لكُلِّ مَوجودٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكُلٌّ منها آيةٌ مُستقِلَّةٌ دالَّةٌ على رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه؛ فأقسَمَ بالعالَمِ العُلويِّ، وهو السَّماءُ وما فيها مِن البُروجِ الَّتي هي أعظَمُ الأمكِنةِ وأوسَعُها، ثمَّ أقسَمَ بأعظَمِ الأيَّامِ، وأجَلِّها قَدْرًا، الَّذي هو مَظهَرُ مُلْكِه، وأمْرِه ونَهْيِه، وثَوابِه وعِقابِه، ومَجمَعُ أوليائِه وأعدائِه، والحُكْم بَيْنَهم بعِلْمِه وعَدْلِه، ثمَّ أقسَمَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك كُلِّه، وهو الشَّاهِدُ والمشهودُ، وناسَبَ هذا القسَمَ ذِكرُ أصحابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٧).

ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ العلميَّةِ (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٥٣).

الأُخدودِ الَّذين عَذَّبوا أولياءَه وهم شُهودٌ على ما يَفعَلونَ بهم[١].

٢- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۞ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى الأوصافَ الَّتي بها يَستَحِقُّ الإلهُ أن يُؤمَنَ به ويُعبَدَ:

فأوَّلُها: العزيزُ، وهو القادِرُ الَّذي لا يُغلَبُ، والقاهِرُ الَّذي لا يُدفَعُ، وبالجُملةِ فهو إشارةٌ إلى القُدْرةِ التَّامَّةِ.

وثانيها: الحميدُ، وهو الَّذي يَستَحِقُّ الحَمدَ والثَّناءَ على ألْسِنَةِ عِبادِه المؤمنينَ، وإن كان بَعضُ الأشياءِ لا يَحمَدُه بلِسانِه فنَفْسُه شاهدةٌ على أنَّ المحمودَ في الحقيقةِ هو هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذلك إشارةٌ إلى العِلْمِ؛ لأنَّ مَن لا يكونُ عالِمًا بعواقِبِ الأشياءِ لا يُمكِنُه أن يَفعَلَ الأفعالَ الحَميدةَ، فالحَميدُ يدُلُّ على العِلْمِ التَّامِّ مِن هذا الوَجْهِ.

وثالِثُها: الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو مالِكُهما والقَيِّمُ بهما، ولو شاء لَأَفْناهما، وهو إشارةٌ إلى المُلْكِ التَّامِّ، وإنَّما أخَّرَ هذه الصِّفةَ عن الأوَّلَينِ؛ لأنَّ المُلْكَ التَّامَّ لا يَحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ الكَمالِ في القُدرةِ والعِلْمِ؛ فثَبَت أنَّ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ كان هو المُستَحِقَّ للإيمانِ به، وغَيرُه لا يستَحِقُّ ذلك البتَّةَ، فكيف حَكَم أولئك الكُفَّارُ الجُهَّالُ بكونِ مِثْلِ هذا الإيمانِ ذَنْبًا[٢]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ شأنُ أعداءِ اللهِ دائمًا أنَّهم يَنقِمونَ على أوليائِه ما يَنبغي أن يُحَبُّوا ويُكْرَموا من أجْلِه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩، ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. كذلك اللُّوطيَّةُ نقَموا مِن عِبادِ الله تَنَزُّهَهُم عن مِثلِ فِعلِهِم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وكذلك أهلُ الإشراكِ يَنقِمونَ مِن الموحِّدينَ تجريدَهم التَّوحيدَ وإخلاصَ الدَّعوةِ والعُبوديَّةِ لله وحْدَه. وكذلك أهلُ البِدَعِ يَنقِمونَ مِن أهلِ السُّنَّةِ تجريدَ مُتابَعتِها، وتَرْكَ ما خالَفَها. وكذلك المُعَطِّلةُ يَنقِمونَ مِن أهلِ الإثباتِ إثباتَهم لله صِفاتِ كَمالِه، ونُعوتَ جلالِه، وعُلُوَّه على مَخلوقاتِه، ويُعادُونَهم على ذلك، ويَرمُونَهم مِن أجْلِه بالعَظائمِ. وكذلك الرَّافِضةُ يَنقِمونَ على أهلِ السُّنَّةِ مَحَبَّتَهم للصَّحابةِ جميعِهم، وتَرَضِّيَهم عنهم، وولايتَهم إيَّاهم، وتقديمَ مَن قدَّمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وتنزيلَهم مَنازِلَهم الَّتي أنزَلَهم اللهُ ورسولُه بها. وكذلك أهلُ الرَّأيِ المُحْدَثِ يَنقِمونَ على أهلِ الحديثِ وحزبِ الرَّسولِ أخْذَهم بحديثِه، وتَرْكَهم ما خالفه. وكلُّ هؤلاء لهم نصيبٌ مِن هذه الآيةِ، وفيهم شَبَهٌ مِن أصحابِ الأُخدودِ، وبيْنَهم وبيْنَهم نسَبٌ قريبٌ أو بعيدٌ(١).

٤- إنَّما قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾؛ لأنَّ التَّعذيبَ إنَّما كان واقعًا على الإيمانِ في المستقبَلِ، ولو كَفَروا في المستقبَلِ لم يُعذَّبوا على ما مَضَى، فكأنَّه قال: إلَّا أنْ يَدومُوا على إيمانِهم(٢).

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو شاء لَمَنَع أولئك الجبابرةَ مِن تعذيبِ أولئك المؤمنينَ، ولَأطفأَ نيرانَهم، ولَأماتَهم، وأشار بقَولِه: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى أنَّ المُعتبَرَ عندَه سُبحانَه مِن الأفعالِ عَواقِبُها؛ فهو وإن كان قد أمهَلَ لكِنَّه ما أهمَلَ؛ فإنَّه

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).

تعالى يُوصِلُ ثوابَ أولئك المؤمنينَ إليهم، وعِقابَ أولئك الكَفَرةِ إليهم[١].

وقيل: جاء وَصْفُه بالحميدِ؛ لِيُشعِرَ بأمْرَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ المؤمنينَ آمَنوا رغبةً ورَهبةً؛ رغبةً في ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، ورهبةً مِنَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وهذا كمالُ الإيمانِ -رغبةٌ ورَهبةٌ- وأحسَنُ حالاتِ المؤمِنِ. والأمرُ الثَّاني: حتَّى لا ييأسَ أولئك الكُفَّارُ مِن فَضْلِه ورَحمتِه، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]؛ إذ إعطاؤُهم المُهْلَةَ مِن آثارِ صِفتِه الحَميدِ سُبْحانَه[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إذا كان رَبُّ العِزَّةِ سُبحانَه وتعالى، وهو على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ، وبكُلِّ شَيءٍ عليمٌ، ومُوكِّلٌ حَفَظةً يَكتُبونَ أعمالَ العِبادِ، ومع ذلك لم يَقْضِ بيْن الخلائِقِ بما يَعلَمُه منهم، ولا بما سجَّلَتْه ملائكتُه، ويَستَنطِقُ أعضاءَهم، ويَستَشهِدُ الرُّسُلَ على الأُمَمِ، والرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الرُّسُلِ، أي: بأنَّهم بَلَّغوا أُمَمَهم رسالاتِ اللهِ إليهم؛ فلَأَلَّا يَقضيَ القاضي بعِلْمِه مِن بابِ أَوْلى[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

- ابتُدِئتْ أغراضُ هذه السُّورةِ الكريمةِ بضَربِ المَثَلِ للَّذين فَتَنوا المُسلِمينَ بمكَّةَ بأنَّهم مِثْلُ قَومٍ فتَنوا فريقًا ممَّن آمَنَ باللهِ، فجَعَلوا أُخْدودًا مِن نارٍ لتَعْذيبِهم؛ ليَكونَ المَثَلُ تَثْبيتًا للمُسلِمينَ، وتَصْبيرًا لهم على أذَى المُشرِكين، وتذكيرًا لهم بما جَرى على سَلَفِهم في الإيمانِ مِن شِدَّةِ التَّعذيبِ الَّذي لم يَنَلْهم مِثْلُه، ولم يَصُدَّهم ذلك عن دِينِهم. وإشعارِ المُسلِمينَ بأنَّ قوَّةَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٨٠).

عَظيمةٌ، فسَيَلْقى المُشركون جَزاءَ صَنيعِهم، ويَلْقى المُسلِمونَ النَّعيمَ الأَبَديَّ والنَّصرَ. والتَّعريضِ للمُسلِمينَ بكَرامتِهم عندَ اللهِ تعالَى. وضربِ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيف كانت عاقِبةُ أَمْرِهم لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُلَ، فحَصَلَتِ العِبْرةُ للمُشرِكين في فَتْنِهم المُسلِمينَ، وفي تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ[١].

- وفي افتِتاحِ السُّورةِ بهذا القَسَمِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ تَشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعْدَه، وإشْعارٌ بأهمِّيَّةِ المُقسَمِ عليه، وهو معَ ذلك يَلْفِتُ أَلْبابَ السَّامِعينَ إلى الأُمورِ المُقسَمِ بها؛ لأنَّ بَعضَها مِن دَلائلِ عَظيمِ القُدرةِ الإلَهيَّةِ المُقتَضيةِ تفرُّدَ اللهِ تعالَى بالإلَهيَّةِ، وإبْطالَ الشَّريكِ، وبَعضَها مُذَكِّرٌ بيَومِ البَعثِ المَوعودِ، ورَمزٌ إلى تَحقيقِ وُقوعِه؛ إذِ القَسَمُ لا يَكونُ إلَّا بشَيءٍ ثابتِ الوُقوعِ، وبَعضَها بِما فيه مِن الإبْهامِ يوَجِّهُ أَنفُسَ السَّامِعينَ إلى تَطَلُّبِ بَيانِه[٢].

- وأيضًا مُناسَبةُ القَسَمِ لِما أُقسِمَ عليه أنَّ المُقسَمَ عليه تَضمَّنَ العِبرةَ بقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدودِ، ولَمَّا كانت الأخاديدُ خُطوطًا مَجْعولةً في الأرضِ مُستَعِرةً بالنَّارِ، أُقسِمَ على ما تَضمَّنَها بالسَّماءِ، بقَيدِ صِفةٍ مِن صِفاتِها الَّتي يَلوحُ فيها للنَّاظِرينَ في نُجومِها ما سَمَّاه العرَبُ بُروجًا، وهي تُشبِهُ داراتٍ مُتلَألِئةً بأنوارِ النُّجومِ اللَّامِعةِ الشَّبيهةِ بتَلَهُّبِ النَّارِ. والقَسَمُ بـ (السَّماءِ) بوَصفِ (ذاتِ البُروجِ) يَتَضمَّنُ قَسَمًا بالأمْرَينِ معًا؛ لتَلْتَفِتَ أفكارُ المُتدبِّرينَ إلى ما في هذه المَخلوقاتِ وهذه الأحوالِ مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٧).

وسَعةِ العِلمِ الإلَهيِّ؛ إذ خَلَقَها على تلك المَقاديرِ المَضبوطةِ؛ ليَنتفِعَ بها النَّاسُ في مَواقيتِ الأشهُرِ والفُصولِ. وأمَّا مُناسَبةُ القَسَمِ باليَومِ المَوعودِ فلأنَّه يَومُ القِيامةِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ بوُقوعِه؛ قال تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤]، مع ما في القَسَمِ به مِن إدماجٍ[١] الإيماءِ إلى وَعيدِ أصْحابِ القِصَّةِ المُقسَمِ على مَضمونِها، ووَعيدِ أمثالِهم المُعرَّضِ بهم. ومُناسَبةُ القسَمِ بـ (شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) قَريبةٌ مِن مُناسَبةِ القسَمِ باليَومِ الموعودِ، ويُقابِلُه في المُقسَمِ عليه قولُه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[٢].

- وتَنكيرُ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ إمَّا للمُبالَغةِ في الكثرةِ، كأنَّه قيلَ: وما أُفرِطَتْ كَثرتُه مِن شاهِدٍ ومَشهودٍ، وإمَّا للإبْهامِ في الوصْفِ، كأنَّه قيلَ: وشاهِدٍ ومَشهودٍ لا يُكتَنَهُ وَصْفُهما[٣].

وقيلَ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ هذان مُنكَّرانِ، ويَنبَغي حَمْلُهما على العُمومِ؛ كقولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وإنْ كان اللَّفظُ لا يَقتَضيه، لكنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ إذ لا يُقسَمُ بنَكِرةٍ ولا يُدْرَى مَن هي، فإذا لُوحِظَ فيها مَعنى العُمومِ اندَرَجَ فيها المَعرِفةُ؛ فحَسُنَ القَسَمُ[٤].

وقيلَ: الشَّاهِدُ: يومُ الجُمُعةِ، والمَشهودُ: يومُ عَرَفةَ، ونَكَّرَهما دُون بَقيَّةِ ما أَقسَمَ به؛ لاختِصاصِهما مِن بيْنِ الأيَّامِ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِهما، فلمْ يَجْمَعْ بيْنَهما

---

(١) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٢).

وبيْنَ البَقيَّةِ بلامِ الجِنسِ، وإنَّما لم يُعرَّفَا بلامِ العَهدِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[١].

وقيل: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ مُرادٌ بهما النَّوعُ، فالشَّاهِدُ: الرَّائي، أو المَخبِرُ بحَقٍّ لإلْزامِ مُنكِرِه، والمَشهودُ: المَرئيُّ أو المَشهودُ عليه بحَقٍّ، وحُذِفَ مُتعَلَّقُ الوَصفَينِ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه. وعلى مُختَلَفِ الوُجوه، فالمُناسَبةُ ظاهِرةٌ بيْنَ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، وبيْنَ ما في المُقسَمِ عليْه مِن قولِه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ جُملةٌ دُعائيَّةٌ -على قولٍ- دالَّةٌ على الجَوابِ، كأنَّه قيلَ: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ السَّابِقةِ، إنَّهم -أي: كُفَّارَ مَكَّةَ- مَلْعونون، كما لُعِنَ أصحابُ الأُخْدودِ؛ لِمَا أنَّ السُّورةَ ورَدَتْ لتَثبيتِ المُؤمِنينَ على ما هُم عليه مِنَ الإيمانِ، وتَصبيرِهم على أذيَّةِ الكَفَرةِ، وتَذْكيرِهم بما جَرى على مَن تَقدَّمَهم مِنَ التَّعذيبِ على الإيمانِ وصَبرِهم على ذلك؛ حتَّى يأْتَسُوا بهم، ويَصبِروا على ما كانوا يَلْقَون مِن قَومِهم، ويَعلَموا أنَّ هؤلاءِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمَنزِلةِ أولئك المُعذِّبين؛ مَلْعونون مِثلَهم، أَحِقَّاءُ بأنْ يُقالَ فيهم ما قد قيلَ فيهم. فالجَوابُ دَليلٌ على لَعنةِ اللهِ على مَن فعَلَ ذلك، وطَرْدِه من رحمةِ اللهِ، وتَنبيهٌ لكُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين يُؤذونَ المُؤمِنينَ ليَفتِنوهم عن دِينِهم، على أنَّهم مَلْعونونَ، بجامِعِ ما اشترَكا فيه مِن تَعذيبِ المُؤمِنينَ. وقيل: تَقديرُ الجوابِ: إنَّ الأمرَ لَحقٌّ في الجزاءِ على الأعمالِ، أو: لَتُبْعَثُنَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩، ٧٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير =

وقيلَ: الجوابُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ فيكونُ ﴿قُتِلَ﴾ خبرًا لا دُعاءً ولا شَتْمًا، ولا يَلزَمُ ذِكرُ (قدْ) في الجوابِ مع كَونِ الجوابِ ماضيًا؛ لأنَّ (قد) تُحذَفُ بِناءً على أنَّ حَذْفَها ليس مَشروطًا بالضَّرورةِ. ويَتعيَّنُ على هذا أنْ يكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِ مَعناهُ مِن الإنذارِ للَّذين يَفتِنونَ المؤمنينَ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بفاتِني أصحابِ الأُخدودِ، وإلَّا فإنَّ الخبَرَ عن أصحابِ الأُخدودِ لا يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ بالقسَمِ؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ، فهو قِصَّةٌ مَعلومةٌ للعرَبِ، وتَقديرُ الكلامِ: لَقَدْ قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ، فيَكونُ المُرادُ مِن أصحابِ الأُخدودِ الَّذين أُلقُوا فيه، وعُذِّبوا به، ويَكونُ لَفظُ (أَصْحَابُ) مُستعمَلًا في مَعنى مُجرَّدِ المُقارَنةِ والمُلازَمةِ[1].

وقيلَ: الجَوابُ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أو جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، والكَلامُ الَّذي بيْنَهما اعتِراضٌ قُصِدَ به التَّوطِئةُ للمُقسَمِ عليه، وتَوكيدُ التَّحقيقِ الَّذي أفادَه القَسَمُ بتَحقيقِ ذِكرِ النَّظيرِ[2].

- وقيل: صِيغةُ قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ تُشعِرُ بأنَّه إنشاءُ شَتْمٍ لهم؛ شَتْمِ خِزيٍ وغضَبٍ، وهؤلاء لم يُقتَلوا، فِفعلُ ﴿قُتِلَ﴾ ليس بخَبَرٍ، بل شَتْمٌ، نَحوَ قولِهم: قاتَلَه اللهُ! وصُدورُه مِن اللهِ يُفيدُ مَعنى اللَّعنِ، ويدُلُّ على الوَعيدِ؛ لأنَّ الغضَبَ واللَّعنَ يَستَلزِمانِ العِقابَ على الفِعلِ المَلْعونِ مِن أجْلِه. وقيلَ: هو دُعاءٌ على أَصحابِ الأُخْدودِ بالقَتلِ، والقَتلُ مُعبَّرٌ به عن أشدِّ العَذابِ، كما يُقالُ: أَهلَكَه اللهُ، أي: أَوقَعَه في أَشدِّ العَناءِ. وأيًّا ما كان فجُملةُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ

= أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ على هذا مَعترِضةٌ بيْنَ القَسَمِ وما بعْدَه[١].

- قولُه: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن الأُخدودِ، و﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ وصْفٌ لها بأنَّها نارٌ عظيمةٌ لها ما يَرتفِعُ به لهبُها مِن الحَطَبِ الكثيرِ وأبدانِ النَّاسِ، وهو وصْفٌ للنَّارِ بغايةِ العِظَمِ[٣].

- قولُه: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ ضَميرُ ﴿هُمۡ﴾ عائِدٌ إلى أصحابِ الأُخْدودِ؛ فإنَّ المَلِكَ يَحضُرُ تَنفيذَ أَمرِه ومعه مَلَؤُه، أو أُريدَ بهم المأْمورونَ مِن المَلِكِ، والقُعودُ: الجُلوسُ، كُنِّيَ به عن المُلازَمةِ للأُخْدودِ؛ لئلَّا يَتهاوَنَ الَّذين يُوقِدونَ النَّارَ بتَسعيرِها، و(عَلى) للاستِعلاءِ؛ لأنَّهم لا يَقعُدونَ فوقَ النَّارِ، ولكنْ حوْلَها، وإنَّما عَبَّرَ عن القُربِ والمُراقَبةِ بالاستعلاءِ[٤].

- وضَميرُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ فمَعْنى كَونِهم شُهودًا على ما يَفعَلونه: أنَّ بَعضَهم يَشهَدُ لبَعضٍ عندَ المَلِكِ بأنَّ أَحَدًا لم يُفرِّطْ فيما وُكِّلَ به مِن تَحريقِ المُؤمِنينَ، فضَمائرُ الجَمْعِ وصِيغتُه مُوزَّعةٌ. ويَجوزُ أنْ يَعودَ ضَميرُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ إلى ما تَقتَضيه دَلالةُ الاقتِضاءِ[٥] مِن تَقسيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠).

(٢) بَدَلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة =

أصحابِ الأُخْدودِ إلى أُمَراءَ ومَأْمورينَ، شأْنَ الأعمالِ العَظيمةِ، فلمَّا أخبَرَ عن أصحابِ الأُخْدودِ بأنَّهم قُعودٌ على النَّارِ عُلِمَ أنَّهم المُوَكَّلونَ بمُراقَبةِ العُمَّالِ، فعُلِمَ أنَّ لهم أتْباعًا مِن سَعَّارينَ ووَزَعةٍ[١]، فـ(هُمْ) مُعادُ ضَميرِ (يَفْعَلُونَ)، وعلى هذا الوَجْهِ يَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿شُهُودٌ﴾ جَمْعَ شاهِدٍ، بمَعْنى: مُخبِرٍ بحَقٍّ، وأنْ يَكونَ بمَعْنى حاضِرٍ ومُراقِبٍ؛ لظُهورِ أنَّ أحَدًا لا يَشهَدُ على فِعلِ نفْسِه[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، كأنَّه قيلَ: قُعودٌ شاهِدينَ على فِعلِهم بالمُؤمِنينَ، وفائِدةُ هذه الحالِ تَفظيعُ ذلك القُعودِ وتَعظيمُ جُرْمِه؛ إذ كانوا يُشاهِدون تَعذيبَ المُؤمِنينَ، لا يَرْأَفون في ذلك ولا يَشمَئِزُّون، وبذلك فارَقَ مَضمونُ هذه الجُملةِ مَضمونَ جُملةِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، باعتِبارِ تَعلُّقِ قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[٣].

- وفي الإتْيانِ بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن الإبْهامِ ما يُفيدُ أنَّ لِمُوقِدي النَّارِ مِن الوَزَعةِ والعَمَلةِ، ومَن يُباشِرون إلْقاءَ المُؤمِنينَ فيها، غِلْظةً وقَسوةً في تَعذيبِ المُؤمِنينَ وإهانتِهم والتَّمثيلِ بهم، وذلك زائِدٌ على الإحْراقِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

= في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(١) الوَزَعةُ: جَمعُ وازِعٍ، وهو: الَّذي يتقدَّمُ الصَّفَّ فيُصلِحُه ويُقَدِّمُ ويؤخِّرُ، ويَحبِسُ أوَّلَهم على آخِرِهم. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾

- في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بتَوكيدِ المَدحِ بِما يُشبِهُ الذَّمَّ؛ فهو استِئنافٌ مُفصِحٌ عن بَراءتِهم عمَّا يُعابُ ويُنكَرُ بالكُلِّيَّةِ[١].

- وقيل: جُملةُ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أو عاطِفةٌ على الحالِ الَّتي قبْلَها، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن ظُلمِ أهلِ الأُخْدودِ أنَّهم يأتون بمِثلِ هذه الفَظاعةِ، لا لجُرْمٍ مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ مِن فاعِلِه، فإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ يَهودًا -كما كان غالِبُ أهْلِ اليَمَنِ يَومَئذٍ- فالكَلامُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، أي: ما نَقَموا منهم شَيئًا يُنقَمُ، بل لأنَّهم آمَنوا باللهِ وحْدَه كما آمَنَ به الَّذين عَذَّبوهم. وإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ مُشرِكين فليس الاستِثناءُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّ شأْنَ تأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه أنْ يَكونَ ما يُشبِهُ ضِدَّ المَقصودِ هو في الواقِعِ مِن نَوعِ المَقصودِ، فلذلك يُؤَكَّدُ به المَقصودُ، وما هُنا ليس كذلك؛ لأنَّ المَلِكَ وجُندَه نَقَموا منهم الإيمانَ باللهِ حَقيقةً إنْ كان المَلِكُ مُشرِكًا[٢].

- وإجْراءُ الصِّفاتِ الثَّلاثِ على اسمِ الجَلالةِ -وهي: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾-؛ لزِيادةِ تَقريرِ أنَّ ما نَقَموه منهم ليس مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ، بل هو حَقيقٌ بأنْ يُمدَحوا به؛ لأنَّهم آمَنوا برَبٍّ حَقيقٍ بأنْ يُؤمَنَ به مِن أجْلِ صِفاتِه الَّتي تَقتَضي عِبادتَه، ونَبْذَ ما عَداه؛ لأنَّه يَنصُرُ مَواليَه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

ويُثيبُهم، ولأنَّه يَملِكُهم، وما عَداه ضَعيفُ العِزَّةِ لا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ منهم شَيئًا، فيَقْوى التَّعجيبُ منهم بهذا[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تَذييلٌ بوَعيدٍ للَّذين اتَّخَذوا الأُخْدودَ وعَذَّبوا المُؤمِنينَ، وبوَعدِ الَّذين عُذِّبوا في جَنْبِ اللهِ، ووَعيدٌ لأَمثالِ أولئك مِن كُفَّارِ قُريشٍ وغَيرِهم مِن كُلِّ مَن تَصَدَّوْا لأذى المُؤمِنينَ، ووَعدُ المُسلِمينَ الَّذين عَذَّبَهم المُشرِكون، مِثلَ بِلالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيبٍ وسُمَيَّةَ؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بجَميعِ الأشياءِ -الَّتي مِن جُملتِها أعمالُ الفَريقَينِ- يَستَدْعي تَوفيرَ جَزاءِ كُلٍّ منهما حَتْمًا[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

الآيتان (١٠-١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَتَنُواْ﴾: أي: أَحْرَقوا، يُقالُ: فَتنتُ الشَّيءَ: إذا أحرَقْتَه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[١].

﴿ٱلْحَرِيقِ﴾: أي: النَّارِ، وأصلُ (حرق): يدُلُّ على حرارةٍ والْتِهابٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لِصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلَهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عَذابُ الحَريقِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعَدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنُوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وذلك هو الفَوزُ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه قِصَّةَ أصحابِ الأُخدودِ؛ أَتْبَعَها بما يتفَرَّعُ عليها مِن أحكامِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

الثَّوابِ والعِقابِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

أي: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عذابُ الحَريقِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥-٢٤٧).

قال ابن عثيمين: (قال العُلماءُ: ﴿فَتَنُواْ﴾ بمعنى: أحرَقوا ... وقيل: فَتَنُوهم أي: صَدُّوهم عن دينِهم. والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ شامِلةٌ للمعنيَينِ جميعًا... والقاعدةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتمِلُ معنيَينِ لا مُرَجِّحَ لأحَدِهما عن الآخَرِ، ولا يَتضادَّانِ؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا، فنقولُ: هم فتَنوا المؤمنينَ بصَدِّهم عن سبيلِ الله، وفتَنوهم بالإحراقِ أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال الزمخشري: (يجوزُ أن يُريدَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾: أصحابَ الأخدودِ خاصَّةً، وبـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البروج: ١١]: المَطروحينَ في الأُخْدودِ. ومعنَى فتَنوهم: عذَّبوهم بالنَّارِ وأحرَقوهم... ويجوزُ أن يريدَ: ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بَلَوْهم بالأذى على العُمومِ، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: المَفتُونينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي =

= (١/ ٣٢٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حرَّقوا، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ أَبْزَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

وقال الرازي: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه أصحابَ الأُخدودِ فقط، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ كلَّ مَن فعَلَ ذلك، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ، والحُكمَ عامٌّ، فالتَّخصيصُ تركٌ للظَّاهرِ مِن غيرِ دليلٍ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

وقال الألوسي: (والمرادُ بالَّذين فتَنوا وبالمؤمنينَ والمؤمناتِ المَفتونينَ، إمَّا أصحابُ الأُخدودِ والمُطرَحونَ فيه خاصَّةً، وإمَّا الأعَمُّ ويَدخُلُ المَذكورونَ دُخولًا أوَّليًّا، وهو الأظهَرُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: كفَّارُ قُرَيشٍ، والفِتنةُ بمعنى المِحنةِ والتَّعذيبِ. واستظهَره ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

قال ابن جزي: (لقولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾؛ لأنَّ أصحابَ الأُخدودِ لم يَتوبوا، بل ماتوا على كفرِهم. وأمَّا قُرَيشٌ فمنهم مَن أسلَمَ وتاب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٢).

وذهب أكثَرُ المفَسِّرينَ إلى عدَمِ التَّفريقِ بيْن عذابِ جَهنَّمَ وعذابِ الحَريقِ، كما نقله عنهم ابنُ الجَوزيِّ، وجعَلوا كِلا العذابَينِ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧).

وذهب بَعضُ المفَسِّرين إلى التَّفريقِ بيْن العذابَينِ؛ بأنَّ عذابَ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابَ الحَريقِ في الدُّنيا. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥).

قال الواحدي: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يعني: في الدُّنيا؛ وذلك أنَّ النَّارَ ارتفعَتْ مِن الأُخدودِ إلى المَلِكِ وأصحابِه فأحرَقَتْهم. وهو قولُ الكلبيِّ، وذكره الفَرَّاءُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣).

وقيل: عَذابُ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابُ الحَريقِ لهم في الدُّنيا والآخرةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٥٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بعذابِ الحَريقِ تعذيبَهم بنارٍ في القَبْرِ قَبلَ الحِسابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ في الآخرةِ، فيكونَ تأكيدًا لعذابِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر عُقوبةَ الظَّالِمينَ؛ ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، فقال تعالى[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنُوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ فامتَثَلوا أوامِرَه، واجتَنَبوا نواهِيَه: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ[2].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ما يَحصُلُ في الآخِرةِ لِمَن آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ: هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا يُدانيه فَوزٌ[3].

= جهنَّمَ، أو نَوعًا مِن العذابِ زيادةً إلى عذابِ جهنَّمَ. ويحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا، وذلك على روايةِ أنَّ الكفَّارَ أصحابَ الأُخدودِ أحرَقَتْهم النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٣-١٣٦).

قال ابنُ جرير: (هم هؤلاء القَومُ الَّذين حَرَّقَهم أصحابُ الأُخدودِ، وغَيرُهم مِن سائرِ أهلِ التَّوحيدِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (قال العُلَماءُ: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وإلَّا فهي على السَّطحِ فَوق، ثمَّ هذه الأنهارُ جاء في الأحاديثِ أنَّها لا تحتاجُ إلى حَفرٍ، ولا تحتاجُ إلى بناءِ أُخدودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُسَلِّطُ أعداءَه على أوليائِه، فلا تَسْتَغْرِبْ إذا سَلَّطَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكُفَّارَ على المؤمنينَ، وقَتَلُوهم وحَرَّقُوهم، وانتَهَكوا أعراضَهم! لا تَسْتَغْرِبْ؛ فلِلَّهِ تعالى في هذا حِكمةٌ، المُصابُونَ مِن المؤمنينَ أَجْرُهم عندَ اللهِ عظيمٌ، وهؤلاءِ الكُفَّارُ المعتَدُونَ أَمْلَى لهم اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويَسْتَدْرِجُهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، والمُسلِمونَ الباقُونَ لهم عِبْرَةٌ وعِظَةٌ فيما حصَلَ لإخوانِهم[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سَبَقَتْ غَضَبَه؛ ولهذا أولئك الَّذين يُعَذِّبُون أولياءَه ويُحْرِقُونَهم بالنَّارِ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم ذلك، وقد عَرَضَ عليهم التَّوبةَ، وكلُّ هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحِبُّ العفوَ أكثرَ مِن العِقابِ[2]، وفيه

= للبقاعي (٢١/ ٣٦٠، ٣٦١). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الإشارةَ إلى ما تقدَّم ذِكرُه ممَّا أعَدَّه اللهُ لهم في الآخرةِ مِن اختِصاصِهم بالجنَّاتِ والأنهارِ، وما أُعْطُوا مِنَ النَّعيمِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يقولُ: مَن زُحْزِحَ عن النَّارِ، وأُدخِلَ الجنَّةَ؛ فقد نَجَا نَجاءً عظيمًا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٩).

وقال الألوسي: (﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كَونِ ما ذُكِر لهم، وحِيازَتِهم إيَّاه. وقيل: للجنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتأويلِها بـ: ما ذُكِر). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٦).

دليلٌ على سَعَةِ حِلْمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مِن سُنَّتِه سُبحانَه وتعالى أنْ يَعْرِضَ التَّوبةَ على المُذنِبينَ[1]. قال الحَسَنُ البصريُّ رحمه الله: (انظُروا إلى هذا الكَرَمِ؛ عَذَّبوا أولياءَه وفَتَنوهم، ثمَّ هو يَدْعوهم إلى التَّوبةِ!)[2].

٣- قِصَّةُ أصحابِ الأُخدودِ -ولا سيَّما هذه الآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾- تدُلُّ على أنَّ المُكْرَهَ على الكُفرِ بالإهلاكِ العَظيمِ الأَوْلى له أن يَصبِرَ على ما خُوِّفَ منه، وأنَّ إظهارَ كَلِمةِ الكُفرِ كالرُّخصةِ في ذلك[3]. ورُبَّما لم يكُنْ في شريعتِهم رُخصةٌ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ للتَّنويهِ بشَأنِهنَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ هذه المزِيَّةَ خاصَّةٌ بالرِّجالِ، ولزيادةِ تَفظيعِ فِعْلِ الفاتِنينَ بأنَّهم اعتَدَوا على النِّساءِ؛ والشَّأنُ ألَّا يُتعرَّضَ لهنَّ بالغِلْظةِ[4]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ لَمَّا كانت التَّوبةُ مَقبولةً قبْلَ الغرغَرةِ ولو طال الزَّمانُ، عَبَّرَ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾[5].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بسَبَبٍ، سَبَّبَ عن ذَنْبِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).

وعدَمِ تَوبتِهم قولَه تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أنَّ العقوبةَ بالذُّنوبِ في الآخرةِ في جهنَّمَ تندفعُ بالتَّوبةِ؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنْبِ كمَن لا ذَنْبَ له، والتَّوبةُ مَقبولةٌ مِن جميعِ الذُّنوبِ: الكُفْرِ، والفُسوقِ، والعِصْيانِ[(٢)].

٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ دَلالةٌ على أنَّهم لو تابوا لخَرَجوا عن هذا الوَعيدِ، وذلك يدُلُّ على القَطْعِ بأنَّ اللهَ تعالى يَقبَلُ التَّوبةَ، ويدُلُّ على أنَّ تَوبةَ القاتِلِ عَمْدًا مَقبولةٌ[(٣)]، وقد أَجْمَعَ المسلِمونَ أنَّها مِن الكافرِ مَقبولةٌ في جملةِ تَوبتِه مِن الكُفرِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قَبْلَه[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ التَّوبةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَها[(٥)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أنَّه لَمَّا كان اللهُ سُبحانَه مِن رحمتِه قد تغَمَّد أولياءَه بعِنايتِه، ولم يَكِلْهم إلى أعمالِهم؛ لم يَجعَلْها سبَبَ سَعادتِهم؛ فلم يَقرِنْ بالفاءِ قَولَه: ﴿لَهُمْ﴾[(٦)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ قيل: إنَّما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ ولم يقُلْ: «تِلْكَ»؛ لدقيقةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى إخبارِ اللهِ تعالى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٠).

بحُصولِ هذه الجنَّاتِ، وقَولَه: (تلك) إشارةٌ إلى الجنَّاتِ، وإخبارُ الله تعالى عن ذلك يدُلُّ على كَونِه راضيًا، والفوزُ الكَبيرُ هو رِضا اللهِ، لا حُصولُ الجنَّةِ(١).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ كلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ وَعيدِ المُجرِمين أوَّلًا، ثمَّ يُردِفُه بذِكرِ ما أَعَدَّ للمُؤمِنينَ(٢).

- قيل: يَجوزُ أنْ يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أصحابُ الأُخْدودِ خاصَّةً، وبـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المُطرَحونَ؛ فيَكونَ تَتميمًا لمُجرَّدِ مَعنى ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، مِن بابِ المُظهَرِ الَّذي وُضِعَ وأُقيمَ مَوضِعَ المُضمَرِ. وقيل: يجوزُ أنْ يُرادَ: الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ -أي: بَلَوْهُم بالأذَى- على العُمومِ، فـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن ابْتَلَى المؤمنينَ والمؤمناتِ بتَعذيبٍ أو أذًى؛ فمَعنى الآيةِ تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ، وتَوكيدٌ لمَعنى قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾(٣). وقيل: الَّذين فَتَنوا المُؤمنينَ والمُؤمناتِ هُم مُشرِكو قُرَيشٍ، وليس المُرادُ أصحابَ الأُخْدودِ؛ لأنَّه لا يُلاقي قولَه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ فيه تَعريضٌ للمُشرِكين بالتَّرغيبِ في التَّوبةِ، وبأنَّهم إنْ تابوا وآمَنوا سَلِموا من عَذابِ جَهنَّمَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٩)، وما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٤٥).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥، ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٦).

- وإنْ كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ جوابًا للقَسَمِ، كان ما بيْنَ القَسَمِ وما بيْنَ هذا كَلامًا مُعترِضًا يُقصَدُ منه التَّوطِئةُ لوَعيدِهم بالعَذابِ والهَلاكِ بذِكرِ ما تُوُعِّدَ به نَظيرُهم، وإنْ كان الجَوابُ في قولِه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ[١] لِما أُقسِمَ عليه؛ إذ المَقصودُ بالقَسَمِ وما أُقسِمَ عليه هو تَهديدُ الَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) للرَّدِّ على المُشرِكين الَّذين يُنكِرون أنْ تَكونَ عليهم تَبِعةٌ مِن فَتْنِ المُؤمِنينَ[٢].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ مُعترِضةٌ، و(ثمَّ) فيها للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ الاستِمرارَ على الكُفرِ أعظَمُ مِن فِتنةِ المُؤمِنينَ[٣].

- ودُخولُ الفاءِ في خبَرِ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ اسمَ (إنَّ) وقَعَ مَوصولًا، والموصولُ يُضمَّنُ معْنى الشَّرطِ في الاستعمالِ كثيرًا، فالتَّقديرُ: إنَّ الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ ثمَّ إنْ لم يَتوبوا، فلَهُمْ عَذابُ جهنَّمَ؛ لأنَّ عطْفَ قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ مَقصودٌ به معْنى التَّقييدِ، فهو كالشَّرطِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ عَطفٌ في مَعنى التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لجُملةِ (لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)، واقترانُها بواوِ العَطفِ للمُبالَغةِ في التَّأكيدِ، بإيهامِ أنَّ مَن يُريدُ زِيادةَ تَهديدِهم بوَعيدٍ آخَرَ، فلا يُوجَدُ أَعظَمُ مِن الوَعيدِ الأوَّلِ، مع ما بيْنَ عَذابِ جهنَّمَ وعَذابِ الحَريقِ مِن اختِلافٍ في المَدلولِ، وإنْ كان مآلُ

(١) تقدَّم تعريفُها (٤٢/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَدْلولَين واحِدًا، وهذا ضَرْبٌ مِن المُغايَرةِ يُحسِّنُ عَطْفَ التَّأكيدِ، على أنَّ الزَّجَّ بهم في عَذابِ جَهنَّمَ قبْلَ أنْ يَذوقوا حَريقَها؛ لِما فيه مِن الخِزْيِ والدَّفْعِ بهم في طَريقِهم؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فحَصَل بذلك اختِلافُ ما بيْنَ الجُملتَينِ(١)؛ فهُما عذابانِ مُنوَّعانِ على الكُفرِ، وعلى الفِتنةِ. أو هُما واحدٌ وأنَّه مِن عطفِ التَّفسيرِ والتَّوضيحِ. أو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ للمُبالَغةِ فيه؛ لأنَّ عذابَ جهنَّمَ بالزَّمْهَريرِ والإحراقِ وغيرِهما(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ المُقتَضي أنَّهم إنْ تابوا لم يكُنْ لهم عَذابُ جهنَّمَ، فيَتَشوَّفُ السَّامِعُ إلى مَعرِفةِ حالِهم؛ أمَقْصورةٌ على السَّلامةِ مِن عَذابِ جَهنَّمَ، أمْ هي فوقَ ذلك؟ فأُخبِرَ بأنَّ لهم جَنَّاتٍ؛ فإنَّ التَّوبةَ الإيمانُ، فلِذلك جِيءَ بصِلةِ ﴿آمَنُوا﴾ دُون (تَابُوا)؛ لِيَدُلَّ على أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ هو التَّوبةُ مِن الشِّركِ الباعِثِ على فَتْنِ المُؤمنينَ، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ اعتِراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] وجُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] اعتِراضًا بالبِشارةِ في خِلالِ الإنْذارِ؛ لتَرغيبِ المُنذَرينَ في الإيمانِ، ولتَثْبيتِ المُؤمنينَ على ما يُلاقونَه مِن أذى المُشركينَ، على عادةِ القُرآنِ في إرْدافِ الإرهابِ بالتَّرغيبِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخَبَرِ[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إمَّا إلى الجَنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتَأويلِها بـ: ما ذُكِرَ؛ للإشْعارِ بأنَّ مَدارَ الحُكمِ عُنوانُها الَّذي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسون؛ فإنَّ اسمَ الإشارةِ مُتعرِّضٌ لذاتِ المُشارِ إليه مِن حَيثُ اتِّصافُه بأَوصافِه المَذكورةِ، لا لِذَاتِه فقط، كما هو شأْنُ الضَّميرِ، فإذا أُشيرَ إلى الجَنَّاتِ مِن حَيثُ ذِكرُها فقد اعتُبِر منها عُنوانُها المَذكورُ حَتْمًا. وإمَّا إلى ما يُفيدُه قولُه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ إلخ، مِن حِيازتِهم لها؛ فإنَّ حُصولَها لهم مُستَلزِمٌ لِحيازتِهم لها قَطْعًا، وأيًّا ما كان فما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفَضلِ والشَّرفِ، ومَحلُّه الرَّفعُ على الابتِداءِ، خَبَرُه ما بَعْدَه، أي: ذلك المَذكورُ العَظيمُ الشَّأنِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الَّذي تَصغُرُ عِندَه الدُّنيا وما فيها مِن فُنونِ الرَّغائبِ بحَذافيرِها، فَعلى الأوَّلِ هو مَصدَرٌ أُطلِقَ على المَفعولِ مُبالَغةً، وعلى الثَّاني مَصدَرٌ على حالِه[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨).

الآيات (١٢-١٦)

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَطْشَ﴾: البطشُ: الانتقامُ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿ٱلْوَدُودُ﴾: أي: المحِبُّ لأوليائِه، والوُدُّ أصفَى الحُبِّ وألطفُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محَبَّةٍ[٢].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أي صاحبُ العَرشِ، والعرشُ معروفٌ فوقَ السَّمَواتِ، وهو الَّذي استوى اللهُ عليه، وله قَوائِمُ تَحمِلُه المَلائكةُ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ، وهو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعلاها وأكبَرُها، والعرشُ في اللُّغةِ سَريرُ المَلِكِ، وهو سريرٌ بالنِّسبةِ إلى ما فوقَه، وكالسَّقفِ بالنِّسبةِ إلى ما تحتَه، وقيل: هو في الأصلِ شيءٌ مُسقَّفٌ، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ، وسُمِّيَ العرشُ بذلك؛ لارتفاعِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢) و(٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٠)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٢).
قال ابنُ تيميَّةَ: (فإذا كان القرآنُ قد جعَل لله عرشًا وليس هو بالنِّسبةِ إليه كالسَّقفِ، عُلِم أنَّه =

﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾: أي: الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، والمجْدُ: العُلُوُّ والعَظَمةُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقويٌّ عَظيمٌ؛ إنَّه هو يَبدَأُ ويُوجِدُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه، وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، المحِبُّ لعبادِه التَّائبينَ والصَّالِحينَ، صاحِبُ العَرْشِ، الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، وهو فَعَّالٌ في مُلْكِه وخَلْقِه ما يُريدُه سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ الَّذين فَتَنوا المؤمِنينَ والمؤمِناتِ أوَّلًا، وذَكَر وَعْدَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ثانيًا؛ أردَفَ ذلك الوَعدَ والوعيدَ بالتَّأكيدِ؛ فقال لتأكيدِ الوَعيدِ: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ثمَّ قال لتأكيدِ الوَعْدِ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾[٢].

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

أي: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقويٌّ عَظيمٌ[٣]!

= بالنِّسبةِ إليه كالسَّريرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٠، ٧٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَن يَبدَأُ بإيجادِ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه[1].

= قال ابن عاشور: (وبَطْشُ اللهِ يَشملُ تَعذيبَه إيَّاهم في جهنَّمَ، ويَشملُ ما قَبْلَه مِمَّا يَقَعُ في الآخرةِ، وما يقَعُ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

قيل: المرادُ: يَبدَأُ إنشاءَ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم، فيَبعَثُهم أحياءً يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقُرطبيُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ العُلَماءِ، واختاره: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ الخَلْقَ؛ يَخلُقُهم أوَّلًا في الدُّنيا، ويُعيدُهم أحياءً بعدَ الموتِ. وهذا قولُ المفسِّرينَ جميعًا). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩٢).

وقيل: المعنى: يَبدأُ العَذابَ للكُفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ يُعيدُ عَذابَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

وذهب ابنُ عُثيمينَ إلى العُمومِ، فقال: (يعني: أنَّ الأمرَ إليه ابتِداءً وإعادةً؛ فهو الَّذي بدأ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ١٤﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، فيَمحوها ويُذهِبُ آثارَها، ويَستُرُها، وهو المحِبُّ لعبادِه التَّائبينَ والصَّالِحينَ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنْتُه(٢) بالحَرْبِ، وما تقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افترَضْتُ عليه، وما يَزالُ عبدي يتقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويَدَه الَّتي

= الأشياءَ، وإليه تنتهي الأشياءُ، الأشياءُ منه وإليه في كلِّ شَيءٍ؛ الخَلقُ مِنَ اللهِ وإليه، الشَّرائِعُ مِنَ اللهِ وإليه، كُلُّ الأمورِ مِنَ اللهِ وإليه... لم يَذكُرْ ما الَّذي يَبدَؤُه، فمعناه: يَبدأُ كُلَّ شَيءٍ، ويُعيدُ كُلَّ شَيءٍ، فكُلُّ الأمرِ بيَدِه عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٣، ٣٦١-٣٦٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٨).

(٢) آذَنْتُه: أي: أعلَمْتُه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).

يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمشي بها[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى إذا أحَبَّ عَبدًا نادى جِبريلَ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جِبْريلُ، ثمَّ يُنادي جِبْريلُ في السَّماءِ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ويُوضَعُ له القَبولُ في أهلِ الأرضِ))[٣].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن صِفاتِه ما تعَلُّقُه بمَخلوقاتِه بحَسَبِ ما يَستأهِلونَه مِن جزاءٍ؛ أعقَبَ ذلك بصِفاتِه الذَّاتيَّةِ على وَجهِ الاستِطرادِ والتَّكْملةِ[٤].

(١) أي: يَجعَلُ اللهُ حواسَّه وآلاتِه وسائِلَ إلى رِضائِه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه. وقيل: أي: يجعَلُ اللهُ سُلطانَ حُبِّه غالبًا عليه حتَّى لا يرى إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ تعالى، ولا يَسمَعَ إلَّا ما يحِبُّه، ولا يَفعَلُ إلَّا ما يحِبُّه، ويكونُ اللهُ سُبحانَه في ذلك له يدًا وعَونًا ووكيلًا يَحمي سَمْعَه وبَصَرَه ويَدَه ورِجْلَه عمَّا لا يَرضاه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).
وقال ابن رجب: (المرادُ بهذا الكلامِ: أنَّ مَن اجتهَد بالتَّقرُّبِ إلى الله بالفرائض، ثمَّ بالنَّوافلِ؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه من درجةِ الإيمانِ إلى درجةِ الإحسانِ، فيَصيرُ يَعبُدُ اللهَ على الحُضورِ والمُراقَبةِ كأنَّه يَراه، فيَمتلئُ قلبُه بمعرفةِ الله تعالى، ومحَبَّتِه، وعظَمَتِه، وخَوفِه، ومَهابَتِه، وإجلالِه، والأُنسِ به، والشَّوقِ إليه، حتَّى يَصيرَ هذا الَّذي في قلبِه مِن المعرفةِ مُشاهَدًا له بعَينِ البصيرةِ...
فمتى امتلأ القلبُ بعَظَمةِ الله تعالى، مَحَا ذلك مِن القلبِ كلَّ ما سِواه، ولم يَبْقَ للعبدِ شَيءٌ مِن نفْسِه وهَواه، ولا إرادةٌ إلَّا لِما يُريدُه منه مَولاه، فحينَئذٍ لا يَنطِقُ العبدُ إلَّا بذِكْرِه، ولا يتحرَّكُ إلا بأمْرِه، فإنْ نطَقَ نطَقَ بالله، وإنْ سَمِعَ سمِعَ به، وإنْ نظَرَ نظَرَ به، وإنْ بطَشَ بطَشَ به). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٧).
(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) رواه البخاري (٧٤٨٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿الْمَجِيدِ﴾ بكَسْرِ الدَّالِ، صِفةً للعَرْشِ، أي: العَرْشُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[1].

٢- قِراءةُ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ بضَمِّ الدَّالِ، صِفةً لله سُبحانَه وتعالى، أي: اللهُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[2].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

أي: هو الَّذي له العَرْشُ العظيمُ، وهو الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ الكَثيرةُ الواسِعةُ[3].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾.

أي: مهما أراد شيئًا فعَلَه، ولا يَمنَعُه مانعٌ مِن فِعلِ ما أراد في مُلْكِه وخَلْقِه، ومِن ذلك مَغفِرةُ ذُنوبِ عِبادِه المؤمِنينَ، وشِدَّةُ البَطْشِ بالكافِرينَ والظَّالِمينَ[4].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- اقترانُ هذينِ الاسمَينِ ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ فيه ما يَهيجُ القلبَ السَّليمَ، ويأخُذُ بمَجامعِه، ويجعَلُه عاكِفًا على ربِّه -الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، ولا رَبَّ له سِواه- عُكوفَ المُحِبِّ الصَّادقِ على محبوبِه الَّذي لا غِنَى له عنه، ولا بُدَّ له منه، ولا تَندَفِعُ ضَرورتُه بغَيرِه أبدًا[١].

و(الوَدودُ) أصلُه مِن المَوَدَّةِ، بمعنى: وادٍّ. ويَشهَدُ لذلك أنَّ (فَعولًا) في صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى (فاعِلٌ)؛ كغَفورٍ بمعنى غافرٍ، وشَكورٍ بمعنى شاكِرٍ، وصَبورٍ بمعنى صابرٍ، وأيضًا لاقترانِه بالغَفورِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وبالرَّحيمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سِرٌّ لطيفٌ، وهو أنَّه يحِبُّ التَّوَّابينَ، وأنَّه يحِبُّ عَبْدَه بَعْدَ المغفرةِ، فيَغفِرُ له ويُحِبُّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتَّائِبُ حبيبُ اللهِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه تَنبيهٌ للعِبادِ إلى وُجوبِ عِبادتِه لاستِحقاقِه العِبادةَ لجَلالِه، كما يَعبُدونه لاتِّقاءِ عِقابِه، ورَجاءِ نَوالِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] لَطيفةٌ في اقترانِ اسمِ «الوَدودِ» بـ«الرَّحيم» وبـ«الغَفور»؛ فإنَّ الرَّجُلَ قد يَغفِرُ لِمَن أساء إليه، ولا يُحِبُّه، وكذلك قد يَرْحَمُ مَن لا يُحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يَغْفِرُ لعَبْدِه إذا تاب إليه، ويَرحَمُه ويُحِبُّه

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

مع ذلك؛ فإنَّه يُحِبُّ التَّوَّابينَ، وإذا تاب إليه عَبْدُه أَحَبَّه، ولو كان منه ما كان[١].

فلا يُقالُ: بل تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يَرجِعُ إليهم الوُدُّ، كما قاله بَعضُ الغالِطِينَ[٢].

فاقتِرانُ الاسمَينِ فيه ردٌّ وإنكارٌ على مَن قال: لا يَعودُ الوُدُّ والمحبَّةُ منه سبحانَه لِعَبْدِه أبدًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنَّ ثُبوتَ الصِّفاتِ لا يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ نفْسَه بأوصافٍ كثيرةٍ، مع أنَّه الواحِدُ الأحَدُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ إثباتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى، وهي مِن صِفاتِه الفِعْلِيَّةِ؛ فإنَّ الوُدَّ: خالِصُ المحبَّةِ، ولا يجوزُ تفسيرُ المحبَّةِ بالثَّوابِ؛ لأنَّه مخالِفٌ لظاهِرِ اللَّفظِ، وإجماعِ السَّلَفِ، وليس عليه دَليلٌ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إثباتُ إرادةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهو كذلك؛ فإنَّه تعالى له إرادةٌ كامِلةٌ تامَّةٌ في خَلْقِه، حتَّى فيما يتعَلَّقُ بأفعالِ الخَلْقِ، لا يكونُ فِعْلٌ مِن النَّاسِ إلَّا بإرادةِ اللهِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]؛ فعَلَّقَ مَشيئتَهم بمشيئتِه سُبحانَه وتعالى[٦].

٥- لَفظُ الإرادةِ في كِتابِ اللهِ تعالى نَوعانِ:

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧١).

(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٤٢).

إرادةٌ كَونيَّةٌ شامِلةٌ لجَميعِ المخلوقاتِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]، ونظائِرِ ذلك.

وإرادةٌ دِينيَّةٌ أَمْريَّةٌ لا يجِبُ وُقوعُ مُرادِها، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] [النساء: ٢٧].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ القائلينَ: إنَّه تعالى لا يُريدُ الشَّرَّ. وقد دَلَّت هذه الآيةُ أنَّ جَميعَ أفعالِ العِبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليلٌ على أُمورٍ:

أحَدُها: أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ بإرادتِه ومَشيئتِه.

الثَّاني: أنَّه لم يَزَلْ كذلك؛ لأنَّه ساق ذلك في مَعرِضِ المدحِ والثَّناءِ على نَفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كَمالِه سُبحانَه؛ فلا يجوزُ أن يكونَ عادمًا لهذا الكَمالِ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وما كان مِن أوصافِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه لم يكُنْ حادِثًا بَعْدَ أنْ لم يكُنْ.

الثَّالثُ: أنَّه إذا أراد شيئًا فَعَلَه؛ فإنَّ «ما» مَوصولةٌ عامَّةٌ، أي: يَفعَلُ كلَّ ما يريدُ أن يفعَلَه، وهذا في إرادتِه المتعلِّقةِ بفِعْلِه، وأمَّا إرادتُه المتعلِّقةُ بفِعلِ العَبدِ فتلك لها شأنٌ آخَرُ؛ فإنْ أراد فِعْلَ العَبْدِ ولم يُرِدْ من نَفْسِه أن يُعينَه عليه ويجعَلَه فاعِلًا، لم يُوجَدِ الفِعلُ وإن أراده، حتَّى يُريدَه مِن نَفْسِه أن يجعَلَه فاعِلًا.

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٥).

الرَّابعُ: أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وإرادتَه مُتلازِمانِ؛ فما أراد أن يَفعَلَه فَعَلَه، وما فَعَلَه فقد أرادَه، بخِلافِ المخلوقِ؛ فإنَّه يُريدُ ما لا يَفعَلُ، وقد يَفعَلُ ما لا يُريدُ، فما ثَمَّ فعَّالٌ لِما يُريدُ إلَّا اللهُ وَحْدَه.

الخامِسُ: إثباتُ إراداتٍ متعدِّدةٍ بحَسَبِ الأفعالِ، وأنَّ كلَّ فعلٍ له إرادةٌ تخصُّه، وهذا هو المعقولُ في الفِطَرِ، وهو الَّذي يَعقِلُه النَّاسُ مِن الإرادةِ، فشَأنُه تعالى أنْ يُريدَ على الدَّوامِ، ويَفعَلَ ما يُريدُ.

السَّادِسُ: أنَّ كُلَّ ما صحَّ أن تتعَلَّقَ به إرادتُه جازَ فِعْلُه؛ فإذا أراد أن يَنزِلَ كُلَّ لَيلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، وأن يَجيءَ يومَ القيامةِ لِفَصلِ القَضاءِ، وأن يُرِيَ نفْسَه لِعِبادِه، وأنْ يَتجلَّى لهم كيف شاء، وأن يُخاطِبَهم، ويَضحَكَ إليهم، وغيرَ ذلك ممَّا يريدُ سُبحانَه- لم يمتَنِعْ عليه فِعْلُه؛ فإنَّه فعَّالٌ لِما يُريدُ، وإنَّما يتوقَّفُ صِحَّةُ ذلك على إخبارِ الصَّادِقِ به، فإذا أخبَرَ به وجَبَ التَّصديقُ به، وكان رَدُّهُ ردًّا لكمالِه الَّذي أخبَرَ به عن نَفْسِه، وهذا عَينُ الباطِلِ، وكذلك إذا أمكَنَ إرادتُه سُبحانَه مَحْوَ ما شاء، وإثباتَ ما شاء؛ أمكَنَ فِعْلُه، وكانت تلك الإرادةُ والفِعلُ مِن مُقتَضَياتِ كَمالِه المقَدَّسِ(١).

٨- قد اشتملتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ -على اختِصارِها- مِن التَّوحيدِ على: وَصْفِه سُبحانَه بالعِزَّةِ المتضَمِّنةِ للقُدرةِ والقوَّةِ وعدمِ النَّظيرِ، والحمدِ المتضمِّنِ لِصفاتِ الكمالِ والتَّنزيهِ عن أضْدادِها، مع محَبَّتِه وإلَهيَّتِه ومُلْكِه السَّمواتِ والأرضَ المتضَمِّنِ لكمالِ غِناه وسَعَةِ مُلْكِه، وشَهادتِه على كلِّ شيءٍ المتضمِّنِ لعُمومِ اطِّلاعِه على ظَواهِرِ الأمورِ وبَواطِنِها، وإحاطةِ بصرِه بمَرئيَّاتِها، وسمْعِه بمَسموعاتِها، وعِلْمِه بمعلوماتِها، ووَصْفِه بشِدَّةِ البَطشِ المتضمِّنِ لكمالِ القوَّةِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧).

والعِزَّةِ والقُدرةِ، وتَفَرُّده بالإبداءِ والإعادةِ المتضمِّنِ لتوحيدِ رُبوبيَّتِه، وتصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإبداءِ والإعادةِ، وانقيادِها لقُدرتِه، فلا يَستعصي عليه منها شيءٌ، ووَصْفِه بالمغفرةِ المتضمِّنِ لكمالِ جُوْدِه وإحسانِه وغِناه ورحمتِه، ووصْفِه بالوَدودِ المتضمِّنِ لكَونِه حبيبًا إلى عبادِه، مُحِبًّا لهم، ووصْفِه بأنه ذو العرشِ الَّذي لا يَقْدُرُ قَدْرَه سِواه، وأنَّ عَرْشَه المختصَّ به لا يليقُ بغيرِه أنْ يستويَ عليه! ووصْفِه بالمَجْدِ المتضمِّنِ لسَعَةِ العِلمِ والقدرةِ والمُلْكِ والغِنى والجُودِ والإحسانِ والكرمِ، وكَونِه فعَّالًا لِما يُريدُ المتضمِّنِ لحياتِه وعِلْمِه وقدرتِه ومشيئتِه وحِكمتِه وغيرِ ذلك مِن أوصافِ كمالِه. فهذه السُّورةُ كتابٌ مستقِلٌّ في أصولِ الدِّينِ تَكفي مَن فَهِمَها؛ فالحمدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ على عبْدِه الكتابَ، وتبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبْدِه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ استِئنافٌ خُوطِبَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّ لكُفَّارِ قَومِه نَصيبًا مَوفورًا مِن مَضمونِه، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يُكابِدُه مِن كُفَّارِ قَومِه. أو هو عِلَّةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: لأنَّ بَطْشَ اللهِ شَديدٌ على الَّذين فَتَنوا الَّذين آمَنوا به؛ فمَوقِعُ (إنَّ) في التَّعليلِ يُغْني عن فاءِ التَّسبُّبِ(٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥).

- وأُكِّدَ الكَلامُ بـ (إنَّ) واللَّامِ[١].

- والبَطْشُ: الأَخْذُ بالعُنفِ، ووُصِفَ بالشِّدَّةِ؛ للدَّلالةِ على تَضاعُفِه وتَفاقُمِه. ووُجِّهَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَطْشَ اللهِ بالَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ فيه نَصرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَثبيتٌ له[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ هذه الجُملةُ تَصلُحُ لأنْ تَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا، انتُقِلَ به مِن وَعيدِهم بعَذابِ الآخِرةِ إلى تَوعُّدِهم بعَذابٍ في الدُّنيا يَكونُ مِن بَطْشِ اللهِ، أُردِفَ به وَعيدُ عَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّه أوقَعُ في قُلوبِ المُشرِكين؛ إذ هُم يَحسَبونَ أنَّهم في أَمْنٍ مِن العِقابِ؛ إذ هُم لا يُصدِّقون بالبَعثِ، فحَسِبوا أنَّهم فازوا بطِيبِ الحياةِ الدُّنيا، والمَعنى: أنَّ اللهَ يَبطِشُ بهم في البَدْءِ والعَوْدِ، أي: في الدُّنيا والآخِرةِ. وتَصلُحُ لأنْ تكونَ تَعليلًا لجُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ لأنَّ الَّذي يُبْدئُ ويُعيدُ قادِرٌ على إيقاعِ البَطْشِ الشَّديدِ في الدُّنيا، وهو: الإبْداءُ، وفي الآخِرةِ، وهو: إعادةُ البَطْشِ. وتَصلُحُ لأنْ تَكونَ إدْماجًا[٣] للاستِدلالِ على إمْكانِ البَعثِ، أي: إنَّ اللهَ يُبْدِئُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه. وحُذِفَ مَفعولَا الفِعلَينِ ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ لإفادةِ أنَّه يُبدِئُ المَخلوقاتِ كلَّها ويُعيدُها بأَسْرِها، ولقَصْدِ عُمومِ تَعلُّقِ الفِعلَينِ بكُلِّ ما يَقَعُ ابتِداءً، ويُعادُ بعدَ ذلك؛ فشَمِلَ بَدْءَ الخَلْقِ وإعادتَه، وهو: البَعثُ، وشَمِلَ البَطْشَ الأوَّلَ في الدُّنيا، والبَطْشَ في الآخِرةِ، وشَمِلَ إيجادَ الأَجيالِ وإخْلافَها بعدَ هَلاكِ أوائِلِها، وفي هذه الاعتِباراتِ مِن التَّهديدِ للمُشرِكين مَحامِلُ كَثيرةٌ؛ فدَلَّ باقتِدارِه على الإبْداءِ والإعادةِ على

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

شِدَّةِ بَطْشِه، وأَوعَدَ الكَفَرةَ بأنَّه يُعيدُهم كما أَبدَأَهم ليَبطِشَ بهم؛ إذ لم يَشْكروا نِعمةَ الإبْداءِ، وكَذَّبوا بالإعادةِ[(١)].

- وضَميرُ (هُوَ) للتَّقَوِّي، أي: لتَحقيقِ الخَبَرِ، ولا مَوقِعَ للقَصرِ هُنا؛ إذْ ليس في المَقامِ ردٌّ على مَن يَدَّعي أنَّ غيرَ اللهِ يُبدِئُ ويُعيدُ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ومَضمونُها قَسيمٌ لمَضمونِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا أُفيدَ تَعْليلُ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] إلى آخِرِه، ناسَبَ أنْ يُقابَلَ بتَعليلِ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ [البروج: ١١] إلى آخِرِه، فعُلِّلَ بقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، فهو يَغفِرُ للَّذين تابوا وآمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ما فَرَطَ منهم، وهو يُحِبُّ التَّوَّابين ويَوَدُّهم[(٣)].

- والوَدودُ مُبالَغةٌ في (الوادِّ)[(٤)].

- وخَصَّ العَرشَ في قولِه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ بإضافةِ نفْسِه تَشْريفًا للعَرشِ، وتَنبيهًا على أنَّه أَعظَمُ المَخلوقاتِ[(٥)]، ولأنَّه أخصُّ المخلوقاتِ بالقُربِ منه تعالى[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

- وقدْ ذُيِّلَ ذلك بصِفةٍ جامِعةٍ لعَظَمتِه الذَّاتيَّةِ وعَظَمةِ نِعَمِه بقَولِه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: إذا تَعلَّقَتْ إرادتُه بفِعلٍ فَعَلَه على أكمَلِ ما تعَلَّقَتْ به إرادتُه، لا يَنقُصُه شَيءٌ، ولا يُبْطئُ به ما أَرادَ تَعجيلَه؛ فصِيغةُ المُبالَغةِ في قولِه: ﴿فَعَّالٌ﴾ للدَّلالةِ على الكَثرةِ في الكَمِّيَّةِ والكَيفيَّةِ[1].

- وقولُه: ﴿فَعَّالٌ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وإنَّما فَصَلَه -أي: لم يَعطِفْه على ما قبْلَه-؛ لأنَّه كالفَذْلَكةِ[2] للأوصافِ السَّابِقةِ والخاتِمةِ لها. والتَّنكيرُ لضَرْبٍ مِن التَّعظيمِ، يَتَلاشى عندَه الأوْهامُ والعُقولُ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٦).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۢ ٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحِيطُۢ﴾: أي: عالِمٌ بهم، وقادِرٌ عليهم، وهم لا يُعجِزونَه ولا يَفوتونَه، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يدُلُّ على شدَّةِ بَطْشِه: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجُنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ فِرْعَونَ وثمودَ؟! ولا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ، بل هم في تكذيبٍ بالقُرآنِ والبَعْثِ والحسابِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها. ثمَّ يردُّ اللهُ على المكذِّبينَ بالقرآنِ، فيقولُ: بل هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ، في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، وعن وُصولِ الشَّياطينِ إليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى قصصَ أصحابِ الأخدودِ وبيَّن حالَهم، ووصَف ما كان من إيذائِهم للمؤمنينَ- أردَف ذلك ببيانِ أنَّ حالَ الكفَّارِ في كلِّ عصرٍ كذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٠٦).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ لكُفْرِهم باللهِ ورُسُلِه(١)؟

﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾.

أي: فِرْعَونَ الَّذي كَذَّبَ هو وقَومُه بموسى عليه السَّلامُ، وقَومِ ثَمودَ الَّذين كَذَّبوا نبيَّهم صالِحًا عليه السَّلامُ(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ * وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ [الفجر: ٩، ١٠].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ ١٩﴾.

أي: لا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ؛ فسَجِيَّتُهم الدَّائِمةُ وعادتُهم المستَمِرَّةُ هي شِدَّةُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ والبَعْثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فهم مُنغَمِسونَ فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

قال ابنُ كثير: (هذا تقريرٌ لِقَولِه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أي: إذا أخَذَ الظَّالِمَ أخَذَه أخذًا أليمًا شديدًا، أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا موَجَّهٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يَتوَجَّهَ إليه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

عنادًا منهم، واتِّباعًا لأهوائِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا طَيَّبَ سُبحانَه قَلْبَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بحِكايةِ أحوالِ الأوَّلِينَ في هذا البابِ؛ سَلَّاه بَعْدَ ذلك مِن وَجهٍ آخَرَ(٢)، فقال:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها؛ فهُم في قَبْضتِه، وهو قادِرٌ على عَذابِهم، فلا يُعجِزونَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [الأنفال: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).
قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: نعَمْ قد أتاني ذلك وعَلِمْتُ مِن خبَرِهما وغيرِه أنَّك قادرٌ على ما تُريدُ، ولكنَّ الكفَّارَ لا يُصَدِّقونَني؛ عطَف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعلُّقُ هذا بما قَبْلَه هو أنَّ هذا القُرآنَ مَجيدٌ مَصونٌ عن التَّغَيُّرِ والتَّبَدُّلِ، فلمَّا حَكَم فيه بسَعادةِ قَومٍ وشَقاوةِ قَومٍ، وبتأذِّي قَومٍ مِن قَومٍ؛ امتنَع تغَيُّرُه وتبَدُّلُه؛ فوَجَب الرِّضا به، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن أعظَمِ مُوجِباتِ التَّسليةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أنَّهم في تَكذيبٍ، وأنَّ التَّكذيبَ عَمَّهم حتَّى صارَ كالوِعاءِ لهم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد كَذَّبوه وكَذَّبوا ما جاءَ به -وهو القُرآنُ-؛ أخبَرَ تعالى عن الَّذي جاءَ به فكَذَّبوا، فقال[٢]:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ الكُفَّارُ في القُرآنِ، وإنَّما هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ[٣].

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَه في نَفْسِه بما يأبَى له لَحاقَ شَيءٍ مِن شُبهةٍ؛ وَصَف محَلَّه في الملأِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٤).

الأعلى إعلامًا بأنَّه لا يَطرَأُ عليه ما يُغَيِّرُه؛ فقال تعالى[(١)]:

﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بضَمِّ الظَّاءِ، صِفةً للقُرآنِ، أي: القُرآنُ مَحفوظٌ[(٢)].

٢- قِراءةُ: ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾ بكَسْرِ الظَّاءِ، صِفةً للَّوحِ، أي: القُرآنُ في اللَّوحِ المحفوظِ[(٣)].

﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

أي: القَرآنُ مَكتوبٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومحفوظٍ وسالِمٍ مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الزِّيادةِ والنَّقصِ، والتَّحريفِ والتَّبديلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محفوظٌ عندَ الله تعالى مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هو قرآنٌ كريمٌ، مُثبَتٌ في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقال الواحدي: (﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ عندَ الله، وهو أُمُّ الكتابِ، منه نُسِخ القرآنُ والكُتُبُ، وهو الَّذي يُعرَفُ باللَّوحِ المحفوظِ مِن الشَّياطينِ، ومِن الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّوحُ كائنٌ قُدسيٌّ مِن كائناتِ العالَمِ العُلويِّ المغَيَّباتِ... واقتَضَت هذه الآيةُ أنَّ القُرآنَ كُلَّه مُسَجَّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

وقال ابن عثيمين: (القرآنُ الكريمُ: هل هو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ بهذه الآياتِ والحروفِ، أو أنَّ المكتوبَ في اللَّوحِ ذِكْرُه، وأنَّه سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه سيَكونُ نورًا وهُدًى للنَّاسِ، وما أشْبَهَ ذلك؟

ففيه احتِمالٌ: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهِرِ النُّصوصِ، قُلْنا: إنَّ ظاهرَها أنَّ القرآنَ كلَّه مكتوبٌ جُملةً وتفصيلًا، وإنْ نَظَرْنا إلى أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يتكلَّمُ بالقرآنِ حينَ نُزولِه، قُلْنا: إنَّ الَّذي كُتِب في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكرُ القرآنِ، ولا يَلزَمُ مِن كَونِ ذِكْرِه في اللَّوحِ المحفوظِ أن يكونَ قد كُتِب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كُتُبَ الأوَّلينَ، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ لم يوجَدْ نصُّه في الكُتُبِ السَّابقةِ، وإنَّما وُجِد ذِكرُه، ويمكنُ أن نقولَ مِثلَها في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، أي: ذِكرُه في هذا اللَّوحِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

واختار في موضعٍ آخَرَ أنَّ المعنى أنَّه ذُكِر في اللَّوحِ المحفوظِ بالمَجْدِ وبالعَظَمةِ. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٣).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يعني بذلك اللَّوحَ المحفوظَ عندَ الله عزَّ وجلَّ، الَّذي هو أُمُّ الكتابِ، كما قال اللهُ تبارَك وتعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وهذا اللَّوحُ كتَبَ اللهُ به مَقاديرَ كلِّ شَيءٍ، ومِن جملةِ ما كتب به أنَّ هذا القرآنَ سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ * فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ كان مِن نبأِ فِرعَونَ وثمودَ فائِدتانِ:

الأُولى: تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَقْويتُه، وأنَّ الَّذي نَصَر رُسُلَه مِن قَبْلُ سوف يؤَيِّدُه ويَنصُرُه ويُعَزِّزُه، وهذا لا شَكَّ أنَّه يُقَوِّي العزيمةَ، ويَشحَذُ الهِمَمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رِسالاتِه.

والفائدةُ الثَّانيةُ: تهديدٌ ووَعيدٌ شديدٌ لقُرَيشٍ الَّذين كَذَّبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَقَفوا له بالمِرْصادِ، وأنَّهم ليسوا أشَدَّ قُوَّةً مِن فِرعَونَ وثَمودَ، ومع ذلك أصابَهم الدَّمارُ والهلاكُ، ووقع عليهم كَلِمةُ العَذابِ[١].

٢- خَتَمَ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ فِعْله وعُقوبته بمَن أَشْرَكَ به وكَذَّبَ رُسُلَه؛ تحذيرًا لعبادِه مِن سُلوكِ سَبيلِهم، وأنَّ مَن فَعَلَ فِعْلَهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم[٢].

٣- أَخْبَرَ الله تعالى عن أعدائه بأنَّهم مكذِّبون بتَوحيدِه ورِسالاتِه مع كَونِهم في قبضتِه، وهو محيطٌ بهم! ولا أَسوَأَ حالًا ممَّن عادَى مَن هو في قبضتِه، ومَن هو قادرٌ عليه مِن كلِّ وجْهٍ وبكلِّ اعتبارٍ! فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فهل هناك أعجَبُ ممن كفَرَ بمَن هو محيطٌ به، وآخِذٌ بناصيته، قادرٌ عليه[٣]؟!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ وَصْفُ القُرآنِ بأنَّه مَجيدٌ لا يَعني أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).
(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المجْدَ وَصْفٌ للقُرآنِ نفْسِه فقط، بل هو وَصفٌ للقُرآنِ، ولِمَن تحَمَّل هذا القُرآنَ فحمَلَه، وقام بواجِبِه مِن تِلاوَتِه حَقَّ تِلاوَته؛ فإنَّه سيَكونُ لهم المجدُ والعِزَّةُ والرِّفعةُ(١). فمَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ العظيمِ فلَه المجدُ والعِزَّةُ والكَرامةُ والرِّفْعةُ؛ فيَنبغي على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ -أفرادِ شُعوبِها، ووُلاةِ أُمورِها- أنْ يتمَسَّكوا بالقُرآنِ العظيمِ، وألَّا يَغُرَّهم البَهْرَجُ المزَخرَفُ الَّذي يَرِدُ مِن الأممِ الكافرةِ، فيَنبِذوا كِتابَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وراءَ ظُهورِهم! فإنَّ هذا واللهِ سَبَبُ التَّأخُّرِ، فلمْ تتأخَّرْ أُمَّتُنا الإسلاميَّةُ هذا التَّأخُّرَ إلَّا بسببِ تركِ ما به عِزَّتُها وكرامتُها، وهو التَّمَسُّكُ بهذا القُرآنِ العظيمِ(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ سؤالٌ عن الجَمْعِ بيْن لَفظةِ: «الجُنودِ» مع لَفظةِ «فِرْعونَ»؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس جُندًا، وإنَّما هو رجُلٌ بعَينِه!

الجوابُ: أنَّ المرادَ بـ«فِرعونَ» هو وقَومُه، فاكتفى بذِكْرِه؛ لأنَّهم تَبَعٌ له، وتحتَ طاعتِه(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ مُشاكَلةٌ ومُشابهةٌ في اختيارِ فِرعَونَ هنا بعْدَ أصحابِ الأُخدودِ؛ إذ فِرعَونُ طغَى وادَّعَى الرُّبوبيَّةَ كمَلِكِ أصحابِ الأُخدودِ الَّذي قال لجليسِه: «ألَك رَبٌّ غيري؟!»(٤)، ولتعذيبِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٦).

ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٧١).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧).

بني إسرائيلَ بتقتيلِ الأولادِ واستحياءِ النِّساءِ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، ولتقديمِ الآياتِ والبراهينِ على صِدْقِ الدَّاعيةِ؛ إذ موسى عليه السَّلامُ قَدَّم لفِرعونَ مِن آياتِ رَبِّه الكُبرى؛ فكَذَّب وعَصى، والغلامُ قَدَّم لهذا المَلِكِ الآياتِ الكُبرى: إبراءَ الأكْمَهِ والأبرَصِ بإذْنِ اللهِ، وعَجْز فِرعَونَ عن موسى وإدراكِه، وعَجْزِ الملِكِ عن قَتْلِ الغُلامِ؛ إذ نجَّاه اللهُ مِن الإغراقِ والسُّقوطِ مِن قِمَّةِ الجَبَلِ؛ فكان لهذا أن يَرعويَ عن ذلك ويتفَطَّنَ للحقيقةِ، ولكِنَّ سُلطانَه أعماه كما أعمى فِرعَونَ، وكذلك آمَنَ السَّحَرةُ لَمَّا رأوا آيةَ موسى، وخَرُّوا لله سُجَّدًا، وهكذا هنا آمَنَ النَّاسُ برَبِّ الغُلامِ؛ فوقع الملِكُ فيما وقع فيه فِرعَونُ؛ إذ جمَعَ فِرعَونُ السَّحَرةَ لِيَشهَدَ النَّاسُ عَجْزَ موسى وقُدْرتَه، فانقلب الموقِفُ عليه، وكان أوَّلَ النَّاسِ إيمانًا هم أعوانُ فِرعَونَ على موسى، وهكذا هنا كان أسرَعَ النَّاسِ إيمانًا الَّذين جمَعَهم الملِكُ لِيَشهَدوا قَتْلَه للغُلامِ! فظهر تَناسُبُ ذِكرِ فِرعَونَ دونَ غَيرِه مِنَ الأُمَمِ الطَّاغيةِ السَّابقةِ، وإن كان في الكُلِّ عِظةٌ وعِبرةٌ، ولكِنْ هذا منتهى الإعجازِ في قَصَصِ القُرآنِ وأُسلوبِه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾ بيانُ أنَّ حالَ المُؤمنينَ مع الكُفَّارِ في جميعِ الأزمنةِ مُستَمِرَّةٌ على هذا النَّهجِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ الوَعيدُ الشَّديدُ للكافِرينَ مِن عُقوبةِ مَن هم في قَبضتِه، وتحتَ تَدبيرِه(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ يعني: مِنَ التَّغييرِ والزِّيادةِ والنَّقصِ، ومحفوظٍ مِن الشَّياطينِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي قد أثبتَ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

اللهُ فيه كُلَّ شَيءٍ، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ القُرآنِ وجَزالتِه، ورِفعةِ قَدْرِه عِندَ اللهِ تعالى[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّياطينَ لا يُمكِنُهم التَّنَزُّلُ به؛ لأنَّ مَحَلَّه محفوظٌ أنْ يَصِلوا إليه، وهو في نفْسِه محفوظٌ أنْ يَقْدِرَ الشَّيطانُ على الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ؛ فوَصَفَه سُبحانَه بأنَّه مَحفوظٌ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ووَصَفَ مَحَلَّه بالحِفْظِ في هذه السُّورةِ؛ فاللهُ سُبحانَه حَفِظَ مَحَلَّه، وحَفِظَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ، وحَفِظَ معانيَه مِن التَّحريفِ كما حَفِظَ ألفاظَه مِن التَّبديلِ، وأقام له مَن يَحْفَظُ حُروفَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومَعانيَه مِن التَّحريفِ والتَّغييرِ[(٢)].

٧- وَصَفَ اللهُ تعالى كلامَه بأنه مجيدٌ -وهو أحقُّ بالمَجدِ مِن كلِّ كلامٍ- كما أنَّ المتكلِّمَ به له المجدُ كلُّه، فهو المجيدُ، وكلامُه مجيدٌ، وعَرشُه مجيدٌ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لشِدَّةِ بَطْشِه تعالَى بالظَّلَمةِ العُصاةِ، والكَفَرةِ والعُتاةِ، وكَونُه فَعَّالًا لِما يُريدُ مُتضمِّنٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإشْعارِ بأنَّه سيُصيبُ قَومَه ما أَصابَ الجُنودَ، أي: هل أتاك يا مُحمَّدُ خَبرُ الجُموعِ الكافرةِ المُكذِّبةِ لأنبيائِهم[(٤)]؟ فالخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥، ٤٣٦).

وسلَّم؛ للاستدلالِ على كَونِ بَطْشِه تعالَى شَديدًا ببَطْشَينِ بَطَشَهما بفِرعَونَ وثَمودَ، بعْدَ أنْ علَّلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]؛ فذلك تَعليلٌ، وهذا تَمثيلٌ ودَليلٌ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ تَقريرٌ لحالِ الكَفَرةِ، أي: قد أتاك حَديثُهم، وما جَرَى لهم مع أنبيائِهم، وما حَلَّ بهم مِن العُقوباتِ بسَببِ تَكذيبِهم، فكذلك يَحُلُّ بقُريشٍ مِن العَذابِ مِثلُ ما حَلَّ بهم[2]. فـ ﴿هَلْ﴾ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ قيل: إنَّها بمَعنى (قدْ)، وضُمِّنَ معْنى التَّعجُّبِ؛ بدَلالةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾؛ ليُفيدَ التَّرقِّيَ مِن التَّعجيبِ إلى التَّعجيبِ في الإضْرابِ الأوَّلِ، والتَّرقِّيَ مِن التَّكذيبِ إلى التَّكذيبِ في الإضرابِ الثَّاني؛ فأمْرُهم أعجَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ وثَمودَ؛ لأنَّهم سَمِعوا بقَصَصِهم وبما جَرَى عليْهم، ورَأَوا آثارَ هَلاكِهم؛ ولم يَعتَبِروا، وكَذَّبوا أشَدَّ مِن تكذيبِهم[3]. والاستِفهامُ هنا مُستعَمَلٌ في إرادةِ تَهويلِ حَديثِ الجُنودِ بأنَّه يُسأَلُ عن عِلمِه، وفيه تَعريضٌ للمُشرِكين بأنَّهم قد يَحُلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك. والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ ممَّن يُرادُ موعِظتُه مِن المُشرِكين -على قولٍ-، كِنايةً عن التَّذكيرِ بخَبَرِهم؛ لأنَّ حالَ المُتَلبِّسينَ بمِثلِ صَنيعِهم، الرَّاكِبين رُؤوسَهم في العِنادِ، كَحالِ مَن لا يَعلَمُ خَبَرَهم، فيُسأَلُ: هل بَلَغَه خَبَرُهم أو لا؟ أو خِطابًا لغَيرِ مُعيَّنٍ، تَعجيبًا مِن حالِ المُشرِكين في إعْراضِهم عن الاتِّعاظِ بذلك؛ فيَكون الاستِفهامُ مُستعَمَلًا في التَّعجيبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

- وفي قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ * فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ أُبدِلَ ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ من ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا؛ لأنَّ المُرادَ بـ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ هو وقومُه، ولأنَّه أُريدَ العِبرةُ بهؤلاء، والكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس بجُندٍ، ولكنَّه مُضافٌ إليه الجُندُ الَّذين كَذَّبوا مُوسى عليه السَّلامُ وآذَوه؛ فحُذِفَ المُضافُ لنُكْتةِ المُزاوَجةِ بيْنَ اسْمَينِ عَلَمَينِ مُفرَدَينِ في الإبْدالِ مِن الجُنودِ[1].

- واختصَرَ ما جَرى لفِرعونَ وثَمودَ؛ إذْ هُم مَذكورونَ في غيرِ ما سُورةٍ من القُرآنِ الكريمِ، وذكَرَ ثَمودَ؛ لشُهرةِ قِصَّتِهم في بلادِ العرَبِ، وهي مُتقدِّمةٌ، وذكَرَ فِرعونَ؛ لشُهرةِ قِصَّته عندَ أهلِ الكِتابِ، وعندَ العرَبِ الجاهليَّةِ أيضًا[2].

وأيضًا تَخصيصُ ثَمودَ بالذِّكرِ مِن بَقيَّةِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَت الرُّسُلَ مِن العَرَبِ مِثلَ: عادٍ وقَومِ تُبَّعٍ، ومِن غَيرِهم مِثلَ: قَومِ نُوحٍ وقَومِ شُعَيبٍ؛ قيل: لِمَا اقتَضَتْه الفاصِلةُ الجاريةُ على حرْفِ الدَّالِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا استَقامَتْ به الفاصِلةُ ولم يكُنْ في ذِكرِه تَكلُّفٌ، كان من مَحاسِنِ نَظْمِ الكَلامِ إيثارُه[3]. وقيل غيرُ ذلك[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ إضْرابٌ عن مُماثَلةِ كُفَّارِ قُريشٍ لقَومِ فِرعونَ وثَمودَ، وبَيانٌ لكَونِهم أَشَدَّ منهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، كأنَّه قيلَ: لَيسُوا مِثلَهم في ذلك، بلْ هم أشَدُّ منهم في استِحقاقِ العَذابِ، واستِيجابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٢).

العِقابِ؛ فإنَّهم مُستقِرُّونَ في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ الكَريمِ، أو قيلَ: ليستْ جِنايتُهم مُجرَّدَ عَدَمِ التَّذكُّرِ والاتِّعاظِ بما سَمِعوا مِن حَديثِهم، بلْ هُم مع ذلك في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ النَّاطقِ بذلك، لكنْ لا أنَّهم يُكذِّبون بوُقوعِ الحادِثةِ، بلْ بكَونِ ما نَطَقَ به قُرآنًا مِن عندِ اللهِ تعالى، مع وُضوحِ أمْرِه، وظُهورِ حالِه بالبيِّناتِ الباهِرةِ[(١)]! فهو إضْرابٌ انتِقاليٌّ إلى إعْراضِهم عن الاعتِبارِ بحالِ الأُمَمِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ وهو أنَّهم مُستَمِرُّون على التَّكذيبِ، مُنغَمِسون فيه انغِماسَ المَظروفِ في الظَّرفِ، فجُعِلَ تَمكُّنُ التَّكذيبِ مِن نُفوسِهم كتَمَكُّنِ الظَّرفِ بالمَظروفِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إحاطةَ التَّكذيبِ بهم إحاطةُ الظَّرفِ بالمَظروفِ، لا يَترُكُ لتَذَكُّرِ ما حَلَّ بأمْثالِهم مِن الأُمَمِ مَسلَكًا لعُقولِهم؛ ولهذا لم يَقُلْ هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، كما قال في سورةِ (الانشقاق)[(٢)].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ التَّكذيبِ هنا؛ لظُهورِه مِن المقامِ؛ إذِ التَّقديرُ: أنَّهم في تَكذيبٍ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبالوحْيِ المنزَّلِ إليه، وبالبَعثِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ عَطْفٌ على جُملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾، أي: هم مُتَمَكِّنون مِن التَّكذيبِ، واللهُ يُسلِّطُ عليْهم عِقابًا لا يُفْلِتون منه[(٤)]. وقوبِلَ جَزاءُ إحاطةِ التَّكذيبِ بالكافِرين بإحاطةِ العَذابِ بهم جَزاءً وِفاقًا؛ فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ خَبَرٌ مُستعمَلٌ في الوَعيدِ والتَّهديدِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ إضْرابُ إبْطالٍ؛ ردٌّ لكُفرِهم، وإبْطالٌ لتَكذيبِهم، وتَحقيقٌ للحَقِّ؛ لأنَّ القُرآنَ جاءَهم بدَلائلَ بَيِّنةٍ، فاستِمْرارُهم على التَّكذيبِ ناشئٌ عن سُوءِ اعتِقادِهم في القُرآنِ؛ إذ وَصَفوه بصِفاتِ النَّقْصِ مِن قَولِهم: أَساطيرُ الأوَّلين، إفْكٌ مُفْترًى، قَولُ كاهِنٍ، قَولُ شاعِرٍ...؛ فكان التَّنويهُ به جامِعًا لإبْطالِ جَميعِ تُرَّهاتِهم على طَريقةِ الإيجازِ(١).

- والإخْبارُ عن الوَحيِ المُنزَّلِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسْمِ «قُرآنٍ»، إشارةٌ عُرفيَّةٌ إلى أنَّه مُوحًى به، تَعريضٌ بإبْطالِ ما اختَلَقَه المُكذِّبون أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو قَولُ كاهِنٍ، أو نَحوَ ذلك(٢).

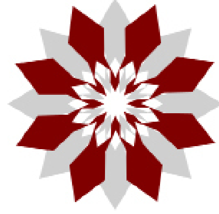
- وعلى قِراءةِ الجُمهورِ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالجَرِّ، على أنَّه صِفةُ ﴿لَوْحٍ﴾، وحِفظُ اللَّوحِ الَّذي فيه القُرآنُ كِنايةٌ عن حِفظِ القُرآنِ، وقرَأَ نافِعٌ وحْدَه برَفعِ ﴿مَحْفُوظٌ﴾، على أنَّه صِفةٌ ثانيةٌ لـ (قُرآنٌ)، ويَتعلَّقُ قولُه: ﴿فِي لَوْحٍ﴾ بـ﴿مَحْفُوظٌ﴾، وحِفظُ القُرآنِ يَستَلزِمُ أنَّ اللَّوحَ المُودَعَ هو فيه مَحفوظٌ أيضًا؛ فلا جَرَمَ حَصَلَ مِن القِراءتَينِ ثُبوتُ الحِفظِ للقُرآنِ ولِلَّوحِ؛ فأمَّا حِفظُ القُرآنِ فهو حِفظُه مِن التَّغييرِ ومِن تَلَقُّفِ الشَّياطينِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وأمَّا حِفظُ اللَّوحِ فهو حِفظُه عن تَناوُلِ غَيرِ المَلائكةِ إيَّاه، أو حِفظُه كِنايةً عن تَقديسِه، كقولِه تعالَى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾(٣) [الواقعة: ٧٨، ٧٩].

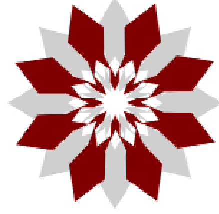
(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

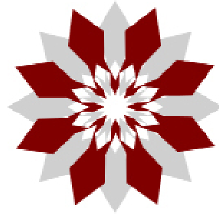
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٥٤، ٢٥٥).

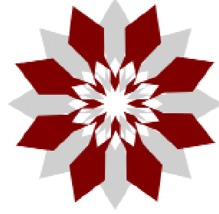
ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ١١٢).

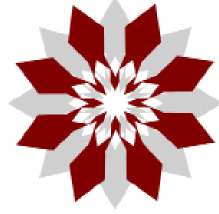


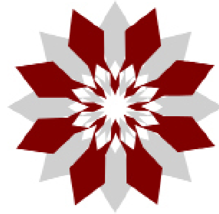




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الطَّارِقِ







سورةُ الطَّارِقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّارِقِ)[(١)].

وسُمِّيَت أيضًا بـ(السَّماءِ والطَّارِقِ)؛ فعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعَصرِ بـ«السَّماءِ والطَّارِقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُروجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[(٢)].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابِرِ بنِ سَمُرةَ -رَضِيَ اللهُ عنه- المتقَدِّمِ.

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[(٣)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على قدرةِ الله تعالى، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سُبحانَه،

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الطَّارِقِ في أوَّلِها؛ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩)، وصحَّحه لغيره شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٠١٨) وتخريج ((سنن أبي داود)) (٨٠٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٨).

وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حَفَظةٌ مِنَ الملائِكةِ.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على البَعثِ.

٣- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ الكريمِ، وصِدقِ ما ذُكِرَ فيه من البَعثِ، وإثباتُ أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

٤- تهديدُ المُشرِكينَ، وتَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بأنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ.



(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥١).

الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾
فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ
لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: أي: الكوكَبِ أو النَّجمِ الَّذي يَظهَرُ باللَّيلِ ويَختفي بالنَّهارِ، يُقالُ: طَرَقَ يَطرُقُ طُروقًا، أي: جاء لَيلًا، وأصلُ (طرق): يدُلُّ على الإتيانِ مَساءً[1].

﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: أي: المُضيءُ المتوَهِّجُ، يُقالُ: ثَقَبَ النَّجمُ: إذا أضاء، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[2].

﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾: أي: ذي دَفْقٍ، أو مَدفوقٍ، والدَّفْقُ: صَبٌّ فيه دَفعٌ وسَيَلانٌ بسُرعةٍ، وهو المَنِيُّ، وأصلُ (دفق): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ قُدُمًا[3].

﴿ٱلصُّلۡبِ﴾: أي: الظَّهرِ، وقيل: كلُّ شَيءٍ مِن الظَّهرِ فيه فَقارٌ فهو صُلبٌ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

قال ابن فارس: (﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ قالُوا: هو نَجْمٌ يَنْفُذُ السَّمواتِ كُلَّها نورُه). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٨).

(صلب) هنا: يدُلُّ على الشِّدَّةِ والقوَّة، وسُمِّيَ الظَّهرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّته وصَلابَتِه وشِدَّتِه[١].

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: أي: ضُلوعِ الصَّدرِ، ومَوضِعِ القِلادةِ مِنه، واحِدتُها: تَرِيبةٌ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على تساوي الشَّيئَينِ[٢].

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُختَبَرُ وتَظهَرُ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الاختبارِ[٣].

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي: سرائِرُ القُلوبِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأعمالِ، جمعُ سريرةٍ، وأصلُ (سرر): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلصُّلْبِ﴾: العُمودِ العَظميِّ الكائنِ في وسَطِ الظَّهرِ، وهو ذو الفقراتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧).

قال ابن عاشور: («التَّرائِب»: جمعُ تَرِيبَةٍ، ويُقالُ: تَرِيبٌ. ومُحَرَّرُ أقوالِ اللُّغَويِّينَ فيها أنَّها عِظامُ الصَّدْرِ الَّتي بيْنَ التَّرْقُوَتَينِ والثَّدْيَينِ، ووَسَموه بأنَّه مَوضِعُ القِلادةِ مِن المرأةِ. والتَّرائِبُ تُضافُ إلى الرَّجُلِ وإلى المرأةِ، ولكِنَّ أكثرَ وُقوعِها في كلامِهم في أوصافِ النِّساءِ؛ لعدمِ احْتِياجِهم إلى وَصْفِها في الرِّجالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

﴿إِن﴾: نافيةٌ، ﴿كُلُّ﴾ مُبتدأٌ، ﴿لَّمَّا﴾: أداةُ حَصرٍ بمعنَى «إلَّا»، ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ في محَلِّ رَفعٍ خبَرُ «كُلّ». والجُملةُ كُلُّها جوابُ القَسَمِ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

وقُرِئَ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ بتَخفيفِ «ما» في ﴿لَّمَّا﴾[1]، فـ﴿إِن﴾ هي المخَفَّفةُ مِنَ الثَّقيلةِ، و﴿لَمَا﴾: اللَّامُ فارِقةٌ، و«ما» مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: إنَّ الشَّأنَ كُلُّ نَفْسٍ لَعَلَيها حافِظٌ. فـ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ «لَعَلَيْهَا حافِظٌ» في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. والجُملةُ كُلُّها في محَلِّ رَفعٍ خبَرُ «إنْ» المخَفَّفةِ مِن الثَّقيلةِ، والجُملةُ ﴿إِن كُلُّ ...﴾ جوابُ القَسَمِ أيضًا لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالسَّماءِ والطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا، ثمَّ قال تعالى: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ؟! هو النَّجْمُ المتوَقِّدُ النَّافِذُ؛ أُقسِمُ ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى الإنسانَ بالتَّفكُّرِ في نشأتِه الأُولى، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِن أيِّ شَيءٍ خُلِقَ؟

(١) قرَأ عاصِمٌ وحمزةُ وابنُ عامرٍ وأبو جَعفرٍ: ﴿لَّمَّا﴾ بتَشديدِ الميمِ، والباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٢)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ١١٨، ١١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٩٩).

ثمَّ يُجيبُ عن هذا السُّؤالِ، فيقولُ: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يَخرُجُ ذلك المنيُّ مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ. ومن ثَمَّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى قُدرتَه على بعثِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه يومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، وما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ عليه، فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ يَنصُرُه ويُنقِذُه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ، وأُقسِمُ بالطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا[١].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ الَّذي عظَّمْتُه بالقَسَمِ به[٢]؟

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾.

أي: هو النَّجْمُ المتوقِّدُ النَّافِذُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

ممَّن اختار أنَّ معنى: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: المُضيءُ المُنيرُ، الَّذي يتوقَّدُ ضياؤُه ويَتوهَّجُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٧)، =

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أتْبَعَه بذِكرِ المُقسَمِ عليه[١].

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ[٢].

= ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال الزمخشري: (كأنَّه يَثقُبُ الظَّلامَ بضَوئِه فيَنفُذُ فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤).

قال الفرَّاءُ: (ويُقالُ: إنَّ الثَّاقِبَ هو النَّجمُ الَّذي يُقالُ له: زُحَلُ. والثَّاقِبُ: الَّذي قد ارتفَع على النُّجومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القرطبيُّ: (عن ابنِ عبَّاسٍ وعَطاءٍ: ﴿الثَّاقِبُ﴾: الَّذي تُرْمَى به الشَّياطينُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١).

وقال الواحدي: (﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ اسمُ الجنسِ، وأُريدَ به العُمومُ في قولِ أهلِ المعاني، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ، وهو قولُ الكلبيِّ، ومُقاتِلٍ، وقَتادةَ، والحسَنِ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ.

وقال ابنُ زَيدٍ: أراد به الثُّرَيَّا، والعربُ تُسَمِّيه النَّجمَ...

وروى أبو الجَوزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه زُحَلُ. والقولُ هو الأوَّلُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٠٤، ٤٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦).

وقال السعدي: (الصَّحيحُ أنَّه اسمُ جِنسٍ يَشملُ سائرَ النُّجومِ الثَّواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٧).

قيل: المرادُ: يَحفَظونَ أعمالَه ويُحصُونَها. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حافِظٌ؛ أَتْبَعَ ذلك بوَصيَّةِ الإنسانِ بالنَّظَرِ في أوَّلِ أمرِه ونَشأتِه الأُولى؛ حتَّى يَعلَمَ أنَّ مَن أنشأه قادِرٌ على إعادتِه وجزائِه، فيَعمَلَ لذلك، ولا يُمليَ على حافِظِه إلَّا ما يَسُرُّه في عاقِبتِه[1].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مُتفكِّرًا مِن أيِّ شَيءٍ خلَقه ربُّه سُبحانَه[2].

= ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن عطية، ونسَبَه ابنُ جُزَي للجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١).

وقيل: المرادُ: كُلُّ نفْسٍ عليها مِنَ اللهِ حافِظٌ مِن الملائكةِ يَحرُسُها من الآفاتِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥).

وقال البِقاعي جامِعًا بيْن هذه المعاني: (المرادُ به الجِنسُ مِنَ الملائِكةِ؛ فبَعضُهم لحِفْظِها مِن الآفاتِ، وبَعضُهم لحِفْظِها مِنَ الوَساوسِ، وبَعضُهم لحِفظِ أعمالِها وإحصائِها بالكِتابةِ، وبَعضُهم لحِفظِ ما كُتِبَ لها مِن رِزقٍ وأجَلٍ، وشَقاوةٍ أو سعادةٍ، ومَشيٍ ونكاحٍ، وسَفَرٍ وإقامةٍ، فلا يتعَدَّى شيئًا مِن ذلك...، فإنْ قُلتَ: إنَّ الحافِظَ الملائكةُ، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: إنَّه اللهُ، صدَقْتَ؛ لأنَّه الآمِرُ لهم والمقَدِّرُ على الحِفظِ، والحافِظُ لهم مِنَ الوهمِ والزَّيغِ، فهو الحافِظُ الحقيقيُّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((التبيان في أقسام =

كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨].

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

أي: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يخرُجُ دَفْقًا[1].

= القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم: (فلْيَنظُرْ نظَرَ الفِكرِ والاسْتِدلالِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠١).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: المكذِّبُ بالبَعثِ، المُنكِرُ له. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدَمَ، وكلُّ إنسانٍ. وممَّن قال به: القرطبيُّ، وابنُ عادل، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قيل: المرادُ به: ماءُ الرَّجُلِ، وماءُ المرأةِ. وممَّن قال به: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨).

ويقرِّرُ بعضُ المعاصرينَ أنَّ الماءَ الدَّافِقَ الَّذي يُخلَقُ منه الإنسانُ يُقصَدُ به ماءُ كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، وسُمِّيَ دافِقًا؛ لأنَّه يَخرُجُ مِن مصدرِه متدَفِّقًا، فماءُ الرَّجُلِ يخرُجُ مِن خُصْيَتَيْه ويحمِلُ الحيواناتِ المَنَويَّةَ، وماءُ المرأةِ هو الماءُ المحيطُ بالبُوَيْضةِ في داخلِ حُوَيْصِلةٍ معروفةٍ باسم (حويصلة جراف) بالمِبْيَضِ، فإذا انفجرَتْ هذه الحُوَيْصِلةُ تدَفَّقَ هذا الماءُ لِيَدفَعَ بالبُوَيْضةِ إلى بُوقِ قناةِ الرَّحِمِ حتَّى تَلتقي بالحيَوانِ المَنَويِّ، ويخرُجُ هذا الماءُ مِن المرأةِ مرَّةً واحدةً في الشَّهرِ. يُنظر: ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٤)، ((خلق الإنسان =

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

أي: يَخرُجُ هذا الماءُ -الَّذي خَلَقَ اللهُ منه الإنسانَ- مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ(١).

= بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿دَافِقٍ﴾ خارجٌ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، والأشهَرُ أنَّه يقالُ على نُطفةِ الرَّجُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّه لا خِلافَ في أنَّ المرادَ بالصُّلْبِ: صُلبُ الرَّجُلِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٢، ١١٣).

واختُلِفَ في التَّرائِبِ؛ فقيل: المرادُ: تَرائِبُ المرأةِ، وهي عِظامُ الصَّدرِ في مَوضِعِ القِلادةِ وفَوقَ الثَّديَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٨).

ومِمَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ: صُلْبُ الرَّجُلِ وتَرائِبُ المرأةِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥).

وقيل: المرادُ: ترائِبُ الرَّجُلِ، وهي عِظامُ صَدْرِه أيضًا. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ القيِّم، ومالَ إليه السعديُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

ومِمَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ: صُلبُ الرَّجُلِ وترائِبُه: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). =

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَر الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ المتفَرِّقةِ حتَّى خَلَق منها إنسانًا سَوِيًّا، وَجَب أن يُقالَ: إنَّه بَعْدَ مَوتِه وتفَرُّقِ أجزائِه لا بُدَّ أن يَقدِرَ الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ، وجَعْلِها خَلْقًا سَوِيًّا كما كان أوَّلًا؛ ولهذا السِّرِّ لَمَّا بَيَّن تعالى دَلالتَه على

= قال ابنُ عُثيمين: (إنْ قُلْنا بالقَولِ الرَّاجِحِ: إنَّ الصُّلبَ والتَّرائِبَ وَصْفانِ للرَّجُلِ؛ لأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو ماءُ الرَّجُلِ، أمَّا المرأةُ فلا يكونُ ماؤها دافِقًا، وعلى هذا فيكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن ماءِ الرَّجُلِ، لكِنْ ماءُ الرَّجْلِ وَحْدَه لا يكفي، لا بُدَّ أن يتَّصِلَ بالبُوَيْضةِ الَّتي يُفرِزُها رَحِمُ المرأةِ، فيَزدَوِجُ هذا بهذا، ويكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن الأمْرَينِ جميعًا، أي: مِن أبيه وأمِّه). ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٢٥).

وقيل: المرادُ: صُلْبُ الرَّجُلِ وترائبُه، وصُلبُ المرأةِ وترائبُها. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عجيبة، والمراغي، وحسنين مخلوف. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦) و(٣٠/ ١١٢)، ((صفوة البيان لمعاني القرآن)) لحسنين مخلوف (ص: ٧٩٧). ويُنظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥٥).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، قال قَتادةُ والحسَنُ وغيرُهما: معناه: مِن بيْنِ صُلبِ كلِّ واحدٍ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ وترائبِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧).

قال المراغي: (وهو الموافقُ لِما أثبَتَه العِلمُ حديثًا). ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١١).

وقال أيضًا: (مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائبِ فى كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، كما دلَّ على ذلك عِلمُ الأجِنَّةِ). ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦).

وقد قرَّر بعضُ المعاصرينَ أنَّ كُلًّا مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ -وقد سبق بيانُهما (ص: ٨٥)- يخرُجُ مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائبِ؛ فالغُدَدُ التَّناسُليَّةُ في الرَّجُلِ والمرأةِ تَنشأُ مِن هذا المكانِ، وتستمِرُّ تغذيتُهما منه، فالخُصْيةُ والمِبْيَضُ يَقَعانِ في بَدءِ تكوينِهما ما بيْن منتصَفِ العمودِ الفِقريِّ تقريبًا ومقابلَ أسفَلِ الضُّلوعِ. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١٢)، ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٦)، ((خلق الإنسان بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٤).

المبدَأِ؛ فَرَّع عليه أيضًا دَلالتَه على صِحَّةِ المَعادِ؛ فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

أي: إنَّ اللهَ الخالِقَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بَعْدَ موتِه[٢].

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام سُبحانَه الدَّليلَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعْثِ والقيامةِ؛ وَصَف حالَ الإنسانِ في ذلك اليومِ، فقال تعالى[٣]:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٧، ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣-١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي هذه الهاءِ قولانِ:

أحَدُهما: أنَّها تعودُ على الإنسانِ، ثمَّ في المعنى قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه على إعادةِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه قادِرٌ. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. قال الزَّجَّاجُ: ويدُلُّ على هذا القَولِ قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

والثَّاني: أنَّه على رَجْعِه مِن حالِ الكِبَرِ إلى الشَّبابِ، ومِنَ الشَّبابِ إلى الصِّبا، ومِنَ الصِّبا إلى النُّطْفةِ: قادِرٌ. قاله الضَّحَّاكُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها تعودُ على الماءِ، ثَمَّ في معنى الكلامِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: رَدُّ الماءِ في الإحليلِ. قاله مجاهِدٌ. والثَّاني: على رَدِّه في الصُّلْبِ. قاله عِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ. والثَّالثُ: على حَبْسِ الماءِ فلا يَخرُجُ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٢).

وقد ضَعَّف ابنُ القيِّمِ قَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الإحليلِ، وقَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الصُّلْبِ. ونَصَر القَولَ بأنَّ المرادَ رَجْعُ الإنسانِ حَيًّا يومَ القيامةِ، مِن عَشَرةِ وُجوهٍ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢١).

أي: يَومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، فيَتَبَيَّنُ ما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ على ما يَستَحِقُّونَه مِن ثَوابٍ وعِقابٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الامتِناعُ في الدُّنيا إمَّا بقُوَّةٍ في الإنسانِ، وإمَّا بناصِرٍ خارجٍ عن نَفْسِه؛ نفى عنه تعالى ما يمتَنِعُ به(٢).

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

أي: فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ له يَنصُرُه ويُنقِذُه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٠).

قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن حالِ الإنسانِ في يومِ القيامةِ أنَّه غَيرُ مُمتنِعٍ مِن عَذابِ اللهِ؛ لا بقُوَّةٍ منه، ولا بقُوَّةٍ مِن خارجٍ، وهو النَّاصِرُ؛ فإنَّ العَبدَ إذا وقعَ في شِدَّةٍ فإمَّا أن يَدفعَها بقُوَّتِه أو قُوَّةِ مَن يَنصُرُه، وكِلاهما معدومٌ في حَقِّه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ النَّظرُ في الشَّيءِ الَّذي خُلِق منه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، وظاهِرُ القُرآنِ: أنَّ النَّظَرَ في ذلك واجِبٌ، ولا دليلَ يَصرِفُ عن ذلك[١]، فيَجِبُ على كلِّ إنسانٍ أن يَنظُرَ في مَراحِلِه وتاريخِ مَراحِلِه؛ حتَّى يَفهَمَ الآخِرةَ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه بذلك[٢].

٢- أمْرُ الإنسانِ بأن يَنظُرَ مِمَّ خُلِقَ في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيهٌ له على حَقارةِ ما خُلِقَ منه؛ لِيَعرِفَ قَدْرَه، ويَترُكَ التَّكبُّرَ والعُتُوَّ، ويدُلُّ لذلك قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] الآيةَ[٣]. فالآيةُ فيها عِظَةٌ للإنسانِ، وتنبيهٌ له على معرفةِ خَلْقِه، وضَعْفِ تركيبِه، وعلى ما يُزيلُ به دواعيَ الكِبْرِ والنَّخوةِ عن نفْسِه، فلا يُنازِعُ فيها خالقَه الَّذي لا يُشارِكُه في الكبرياءِ والعَظَمةِ، ولا يَستطيلُ به على المخلوقينَ؛ إذْ مَن يكونُ هذا بَدْءَ خَلْقِه، ثُمَّ يصيرُ آخِرُه إلى البِلَى والرُّفاتِ إلى أنْ يُجدِّدَ اللهُ خَلْقَه بالنُّشورِ يومَ يُحيي العِظامَ النَّخِرةَ والأجسامَ الباليةَ: جديرٌ بألَّا يُفارِقَه الذُّلُّ والاستِكانةُ في جميعِ الأحوالِ[٤].

٣- أنَّ المهِمَّ العنايةُ بصَلاحِ القَلبِ؛ لأنَّه هو الَّذي عليه مَدارُ الحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

القيامةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تُختَبَرُ السَّرائِرُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ لطيفةٌ في التَّعبيرِ عن الأعمالِ بالسِّرِّ، وهي أنَّ الأعمالَ نتائجُ السَّرائرِ الباطنةِ، فمَن كانت سَريرتُه صالحةً كان عمَلُه صالحًا؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومَن كانت سَريرتُه فاسدةً كان عمَلُه تابعًا لسَريرتِه، ولا اعتبارَ بصورتِه؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه سَوادًا وظُلمةً وشَيْنًا، وإنْ كان الَّذي يبدو عليه في الدُّنيا إنَّما هو عَمَلُه لا سَريرتُه، فيومَ القيامةِ تبدو عليه سريرتُه، ويكونُ الحُكْمُ والظُّهورُ لها[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا قُوَّةَ للعَبدِ ذلك اليومَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإنسانِ إمَّا أن تكونَ له لِذاتِه، أو مُستفادةً مِن غيرِه؛ فالأوَّلُ مَنفيٌّ بقَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾، والثَّاني مَنفِيٌّ بقَولِه: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، ولا شَكَّ أنَّه زَجرٌ وتَحذيرٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَلَّ أن تَجيءَ سُورةٌ في القُرآنِ الكريمِ إلَّا وفيها ذِكرُ السَّماءِ؛ إمَّا إخبارًا عن عِظَمِها وسَعَتِها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها، وإمَّا إرشادًا للعِبادِ أن يَستَدِلُّوا بها على عَظَمةِ بانيها ورافِعِها، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقِها على ما أخبَرَ به مِنَ المَعادِ والقيامةِ، وإمَّا استِدلالًا منه برُبوبيَّتِه لها على وَحدانيَّتِه، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وإمَّا استِدلالًا منه بحُسْنِها واستِوائِها والْتِئامِ أجزائِها وعدَمِ الفُطورِ فيها على تَمامِ حِكمتِه وقُدرتِه، وكذلك ما فيها مِن الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والعَجائبِ الَّتي تَتقاصَرُ عُقولُ البَشَرِ عن قليلِها، فكم مِن قَسَمٍ في القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٢).

بها؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: ١١] ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]! فلم يُقسِم اللهُ تعالى في كتابِه بشَيءٍ مِن مخلوقاتِه أكثَرَ مِن السَّماءِ والنُّجومِ والشَّمسِ والقَمَرِ، وهو سُبحانَه يُقسِمُ بما يُقسِمُ به مِن مخلوقاتِه؛ لتضَمُّنِه الآياتِ والعَجائِبَ الدَّالَّةَ عليه، وكلَّما كان أعظَمَ آيةً وأبلَغَ في الدَّلالةِ، كان إقسامُه به أكثَرَ مِن غَيرِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ سؤالٌ: كيف يُقْسِمُ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالمخلوقاتِ، مع أنَّ القَسَمَ بالمخلوقاتِ شِرْكٌ؛ لِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بغيرِ الله فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ))[٢]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن كان حالِفًا فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ))[٣]؟ فلا يجوزُ الحَلِفُ بغيرِ اللهِ؛ لا بالأنبياءِ، ولا بالملائكةِ، ولا بالكَعْبةِ، ولا بالوطَنِ، ولا بأيِّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ!

الجوابُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له أنْ يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه، وإقسامُه بما يُقْسِمُ به مِن خَلْقِه يدُلُّ على عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ[٤].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٥١)، والترمذيُّ (١٥٣٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٦٠٧٢) مِن حديثِ عبدِ الله ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ تيميَّةَ كما في ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٨)، وابنُ القيِّم في ((الوابل الصيب)) (١٨٩)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٤٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٢٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٦٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤٦) من حديثِ عبدِالله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ سؤالٌ عن وجهِ الجَمعِ مع قولِه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] في أنَّ أصلَ بني آدمَ مِن الطِّينِ، والطِّينُ مِن الأرضِ.

الجوابُ: أنَّ الخَلْقَ هو مِن الطِّينِ باعتبارِ الأصلِ، وأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو باعتبارِ الفَرعِ المتولِّدِ مِن الأصلِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أنَّ الجنينَ يُخْلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن يَزْعُمُ مِن الطَّبائعيِّينَ أنَّه إنَّما يُخلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وَحْدَه(٢)! ففيه مِن عِلمِ التَّشريحِ أنَّ الوَلَدَ مخلوقٌ مِن ماءِ أبَوَيه معًا(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ تَحقيقٌ لِما يُقسَمُ عليه، وتَشويقٌ إليه، ووَقَعَ القَسَمُ بمَخلوقَينِ عَظيمَينِ فيهما دَلالةٌ على عَظيمِ قُدرةِ خالِقِهما؛ هما: السَّماءُ، والنُّجومُ، أو نَجمٌ منها عَظيمٌ مَعروفٌ، أو ما يَبدو انقِضاضُه مِن الشُّهُبِ(٤).

- والطَّارِقُ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِن الطُّروقِ، وهو المَجيءُ لَيلًا، وأُبهِمَ المَوصوفُ بالطَّارقِ ابتِداءً، ثمَّ زِيدَ إبْهامًا مَشوبًا بتَعظيمِ أمْرِه بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ لِيَحصُلَ مِن ذلك مَزيدُ تَقرُّرٍ للمُرادِ بالمُقسَمِ به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

وهو أنَّه مِن جِنسِ النُّجوم، شَبَّهَ طُلوعَ النَّجمِ لَيلًا بطُروقِ المُسافِرِ الطَّارقِ بَيتًا، بجامعِ كَونِه ظُهورًا في اللَّيلِ[1].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استِفهامٌ مُستَعمَلٌ في تَعظيمِ أمْرِ الطَّارقِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ الطَّارقِ إثْرَ تَفخيمِه بالإقْسامِ به، وتَنبيهٌ على أنَّ رِفعةَ قَدْرِه بحَيثُ لا يَنالُها إدراكُ الخَلْقِ، فلا بُدَّ مِن تَلَقِّيها مِن الخَلَّاقِ العَليمِ[3].

- وقولُه: ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ خَبَرٌ عن ضَميرٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو، أي: الطَّارقُ النَّجمُ الثَّاقِبُ. والثَّقْبُ: خَرْقُ شَيءٍ مُلتَئِم، وهو هُنا مُعبَّرٌ به عن ظُهورِ النُّورِ في خِلالِ ظُلْمةِ اللَّيلِ؛ شَبَّهَ النَّجمَ بمِسمارٍ أو نَحوِه، وظُهورَ ضَوئه بظُهورِ ما يَبدو مِن المِسمارِ مِن خِلالِ الجِسمِ الَّذي يَثقُبُه مِثلَ لَوحٍ أو ثَوبٍ، ولعلَّ التَّعبيرَ بالثَّقْبِ عن بُروزِ شُعاعِ النَّجمِ في ظُلْمةِ اللَّيلِ مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ، ولم يَرِدْ في كَلامِ العرَبِ قبْلَ القرآنِ[4].

- والتَّعريفُ في (النَّجمِ) يَجوزُ أنْ يَكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيَستَغرِقَ جَميعَ النُّجومِ استِغراقًا حَقيقيًّا، وكُلُّها ثاقِبٌ، فكأنَّه قيلَ: والنُّجوم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ للعَهدِ، إشارةً إلى نَجمٍ مَعروفٍ يُطلَقُ عليْه اسمُ «النَّجمِ» غالبًا، أي: والنَّجمِ الَّذي هو طارقٌ، وقيلَ: أُريدَ بالطَّارقِ نَوعُ الشُّهُبِ؛ فالتَّعريفُ في لَفظِ النَّجمِ للاستِغراقِ، وخُصَّ عُمومُه بوُقوعِه خَبَرًا عن ضَميرِ الطَّارقِ، أي: أنَّ الشِّهابَ عندَ انقِضاضِه يُرى سائرًا بسُرعةٍ، ثمَّ يَغيبُ عن النَّظرِ، فيَلوحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩).

كأنَّه استَقرَّ، فأَشبَهَ إسْراعَ السَّائِرِ لَيلًا لِيَبلُغَ إلى الأحْياءِ المَعمورةِ، فإذا بَلَغَها وَقَفَ سَيْرُه[١].

- وقدْ أرادَ اللهُ عزَّ مِن قائلٍ أنْ يُقسِمَ بالنَّجمِ الثَّاقِبِ تَعظيمًا له، لِما عُرِفَ فيه مِن عَجيبِ القُدْرةِ ولَطيفِ الحِكمةِ، وأنْ يُنبِّهَ على ذلك، فجاءَ بما هو صِفةٌ مُشترَكةٌ بيْنَه وبيْنَ غَيرِه، وهو (الطَّارِقُ)، ثمَّ قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ فَسَّرَه بقَولِه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ إزالةً لذلك الإبْهامِ الحاصِلِ بالاستِفهامِ، وكُلُّ هذا إظْهارٌ لفَخامةِ شَأنِه، وإجْلالِ مَحلِّه[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جَوابٌ للقَسَمِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ جِيءَ به لِما ذُكِرَ مِن تأكيدِ فَخامةِ المُقسَمِ به، المُستَتبِعِ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها[٣].

- وقدْ جُعِلَ جَوابُ القَسَمِ هذا كِنايةً[٤] عن المَقْصودِ، وهو: إثْباتُ البَعثِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) أطلق عليها ابنُ عاشورٍ كنايةً تلويحيةً رمزيةً، وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزوم بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديث أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، =

فهو كالدَّليلِ على إثْباتِه؛ فإنَّ إقامةَ الحافِظِ تَستَلْزِمُ شَيئًا يَحفَظُه، وهو الأعمالُ خَيرُها وشَرُّها -وذلك على قولٍ-، وذلك يَستَلْزِمُ إرادةَ المُحاسَبةِ عليها، والجَزاءِ بما تَقتَضيه جَزاءً مُؤَخَّرًا بعدَ الحياةِ الدُّنيا؛ لئلَّا تَذهَبَ أعمالُ العامِلينَ سُدًى، وذلك يَستَلْزِمُ أنَّ الجَزاءَ مُؤَخَّرٌ إلى ما بعْدَ هذه الحياةِ؛ إذ المُشاهَدُ تَخلُّفُ الجَزاءِ في هذه الحياةِ بكَثْرةٍ، فلو أُهمِلَ الجَزاءُ لَكان إهْمالُه مُنافيًا لحِكْمةِ الإلَهِ الحَكيمِ مُبدِعِ هذا الكَونِ، وهذا الجَزاءُ المُؤخَّرُ يَستَلْزِمُ إعادةَ حياةٍ للذَّواتِ الصَّادِرةِ منها الأعمالُ. وقد حصَلَ مع هذا الاستِدلالِ إفادةُ أنَّ على الأنفُسِ حَفَظَةً؛ فهو إدْماجٌ[1].

- وأيضًا قدْ تَضمَّنَ هذا الجَوابُ -زِيادةً على إفادتِه تَحقيقَ الجَزاءِ- إنْذارًا للمُشرِكين بأنَّ اللهَ يَعلَمُ اعتِقادَهم وأفعالَهم، وأنَّه سيُجازيهم على ذلك[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالنَّظَرِ في الخِلْقةِ الأُولى على ما أُريدَ مِن قولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] مِن لَوازِمِ مَعناهُ، وهو إثْباتُ البَعثِ الَّذي أنكَروه على طَريقةِ الكِنايةِ التَّلْويحيَّةِ الرَّمْزيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ رَأَيْتُم البَعثَ مُحالًا فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الخَلْقَ الثَّانيَ ليس بأبْعَدَ مِن الخَلْقِ الأوَّلِ، فهذه الفاءُ مُفيدةٌ مُفادَ الفاءِ الفَصيحةِ. والنَّظرُ: نَظَرُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٠).
وتقدَّم تعريفُ الإدماج (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦١).

العَقلِ، وهو التَّفكُّرُ المُؤدِّي إلى عِلمِ شَيءٍ بالاستِدلالِ؛ فالمَأمورُ به نَظَرُ المُنكِرِ للبَعثِ في أدِلَّةِ إثْباتِه، كما يَقتَضيه التَّفريعُ على ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾[1] [الطارق: ٤].

- والاستِفهامُ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ، والتَّنبيهِ إلى ما يَجِبُ عِلمُه[2].

- وقولُه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن استِفهامٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيلَ: مِمَّ خُلِقَ؟ فقيلَ: خُلِقَ من ماءٍ ذي دَفْقٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أُطنِبَ في وَصفِ هذا الماءِ الدَّافِقِ لإدْماجِ التَّعليمِ، والعِبرةِ بدَقائقِ التَّكوينِ؛ ليَستَيقِظَ الجاهِلُ الكافِرُ، ويَزدادَ المُؤمِنُ عِلمًا ويَقينًا[4].

- ووُصِفَ أنَّه ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَتفطَّنون لذلك، والخُروجُ مُستعمَلٌ في ابتِداءِ التَّنقُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ ولو بدُونِ بُروزٍ؛ فإنَّ بُروزَ هذا الماءِ لا يَكونُ مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائِبِ، وهذا مُخاطَبةٌ للنَّاسِ بما يَعرِفون يَومَئذٍ بكَلامٍ مُجمَلٍ[5].

- قيل: أفرَدَ الأوَّلَ ﴿ٱلصُّلۡبِ﴾، وجَمَعَ الآخَرَ (التَّرائِبِ) وأرادَ سُبحانَه: يَخرُجُ مِن بيْنِ الأصلابِ والتَّرائِبِ، فاكتَفى بالواحِدِ عن الجَماعةِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولم يَقُلْ: والأَرَضينَ، وعلى القولِ بأنَّ التَّرائبَ للمرأةِ فإنَّ صدرَ المرأةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

هو تَريبتُها، فيُقالُ: للمرأةِ تَرائبُ، يعني بها التَّريبةَ وما حَوالَيْها وأحاط بها، وكذلك العربُ تقولُ: رأيتُ خَلاخيلَ المرأةِ وثُديَّها، وإنَّما لها ثَدْيانِ وخَلْخالانِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ * يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]؛ لأنَّ السَّامِعَ يَتساءَلُ عن المَقصدِ مِن هذا الأمرِ بالنَّظرِ في أصْلِ الخِلْقةِ، وإذْ قد كان ذلك النَّظرُ نَظَرَ استِدلالٍ، فهذا الاستِئنافُ البَيانيُّ له يَتنزَّلُ مَنزِلةَ نَتيجةِ الدَّليلِ؛ فصارَ المَعنى: إنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ من ماءٍ دافِقٍ قادرٌ على إعادةِ خَلْقِه بأسبابٍ أُخْرى، وبذلك يَتقَرَّرُ إمْكانُ إعادةِ الخَلْقِ، ويَزولُ ما زَعَمَه المُشرِكون مِن استِحالةِ تلك الإعادةِ[2].

- والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للخالِقِ؛ لدَلالةِ ﴿خُلِقَ﴾ عليه، ومَعناه: إنَّ ذلك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ ابتِداءً مِن نُطْفةٍ ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ على إعادتِه خُصوصًا ﴿لَقَادِرٞ﴾ لَبَيِّنُ القُدرةِ، لا يَعسُرُ ويَصعُبُ عليه، ولا يَعجِزُ عنه؛ ففي مَجيءِ الفِعلِ مَجهولًا أوَّلًا، والإضمارِ قبْلَ الذِّكرِ ثانيًا؛ دَلالةٌ على أنَّ الكلامَ مِن بابِ إرخاءِ العِنانِ، أي: ما أقولُ: إنَّني أنا المُبدِئُ والمُعيدُ، بلْ أقولُ: إنَّ ذلك الَّذي تُعُورِفَ عِندَكم واشتَهَرَ وتُقِرُّون أنَّه الخالِقُ؛ هو القادرُ على الإعادةِ؛ فجِيءَ بـ (إنَّ) واللَّامِ وتَنكيرِ الخبَرِ؛ ليَدُلَّ على ردٍّ بَليغٍ، وعلى إنكارٍ مُبالَغٍ منهم بأنَّه لا حشْرَ ولا نشْرَ، بلْ إمَّا تَعطيلٌ أو أمْرٌ آخَرُ كما اختَلَفَ فيه المُبطِلون[3].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى، وإنْ لم يَسبِقْ ذِكرٌ لمَعادٍ، ولكنَّ بِناءَ

(١) يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨٤).

الفِعلِ للمَجهولِ في قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق: ٦] يُؤذِنُ بأنَّ الخالِقَ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى ذِكرِ اسْمِه، وأُسنِدَ الرَّجْعُ إلى ضَميرِه دُون سُلوكِ طَريقةِ البِناءِ للمَجهولِ، كَما في قولِه: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ إيضاحٍ وتَصريحٍ بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ ذلك[1].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ السَّرائرُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخفيه مِن نِيَّاتِه وعقائِدِه، وبَلْوُ السَّرائرِ: اختِبارُها وتَمييزُ الصَّالِحِ منها عن الفاسِدِ، وهو كِنايةٌ عن الحِسابِ عليها والجَزاءِ، وبَلْوُ الأعمالِ الظَّاهِرةِ والأقوالِ مُستَفادٌ بدَلالةِ الفَحْوى[2] مِن بَلْوِ السَّرائرِ[3].

- ولَمَّا كان بَلْوُ السَّرائرِ مُؤْذِنًا بأنَّ اللهَ تعالى عَليمٌ بما يَستُرُه النَّاسُ مِن الجَرائمِ، وكان قولُه: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ مُشعِرًا بالمُؤاخَذةِ على العَقائدِ الباطِلةِ والأعمالِ الشَّنيعةِ؛ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ، والمَقصودُ المُشرِكون مِن النَّاسِ؛ لأنَّهم المَسوقُ مِن أَجْلِهم هذا التَّهديدُ، أي: فما للإنسانِ المُشرِكِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عن نفْسِه، وما لَه مِن ناصِرٍ يُدافِعُ عنه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّأفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٧)

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الرَّجْعِ﴾: أي: المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ كُلَّ عامٍ ويتكَرَّرُ، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(١)].

﴿الصَّدْعِ﴾: أي: النَّباتِ؛ لأنَّ الأرضَ تتصَدَّعُ -أي: تَنْشَقُّ- عنه، والصَّدعُ في اللُّغةِ: الشَّقُّ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفِراجِ شَيءٍ[(٢)].

﴿رُوَيْدًا﴾: أي: قَليلًا، والرَّودُ: التَّرَدُّدُ في طَلَبِ الشَّيءِ برِفقٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾

جُملةُ: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّةٌ مُؤكِّدةٌ للجُملةِ السَّابقةِ، وقيل: بَدَلٌ منها. ﴿رُوَيْدًا﴾: في نَصْبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨).

فهو مُرادِفٌ لعامِلِه ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾. و﴿رُوَيْدًا﴾ تصغيرُ «إرْواد»[(١)] -أي: إمْهال، وزنًا ومعنًى- على التَّرخيمِ بحذفِ الزَّوائدِ، وأصلُه مِنَ الرَّوْدِ: وهو المَهْلُ وعدَمُ العجَلةِ. الثَّاني: أن يكونَ ﴿رُوَيْدًا﴾ نائبًا عن المصدَرِ؛ نعتًا لمصدَرٍ محذوفٍ، أي: أمهِلْهم إمهالًا رُوَيدًا، أي: قليلًا أو قريبًا. الثَّالثُ: أن يكونَ نائبًا عن ظَرفِ الزَّمانِ؛ نَعتًا لزَمانٍ محذوفٍ، أي: زَمانًا قليلًا. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الحاليَّةِ، أي: أمهِلْهم مُستَأنيًا بهم غَيرَ مُستعجِلٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا أيضًا على صحَّةِ القرآنِ: أُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي تَرجِعُ بالمطَرِ، وبالأرضِ الَّتي تتصَدَّعُ وتَنْشَقُّ؛ إنَّ القُرآنَ لَقَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وليس هو باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببَيانِ ما يُدَبِّرُ الكافِرون للمؤمنينَ؛ مُسلِّيًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بحُسنِ العاقِبةِ، فيقول: إنَّ الكافِرينَ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم!

---

(١) وقيل: هو تصغيرُ رودٍ، أي: مهلٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ تبيَّنَ الدَّليلُ على إمْكانِ البَعثِ؛ أُعقِبَ بتَحقيقِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ ما فيه قولٌ فَصْلٌ؛ إبْطالًا لِما مُوِّهَ عليهم مِن أنَّ أخبارَه غَيرُ صادِقةٍ؛ إذ قد أخبَرَهم بإحْياءِ الرِّمَمِ البالِيةِ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الجُمَلُ السَّابقةُ -على وَجازتِها- على الذِّرْوةِ العُلْيا مِن البَلاغةِ في إثباتِ البَعثِ والجَزاءِ والوَحدانيَّةِ له سُبحانَه وتعالى، إلى غيرِ ذلك مِن بُحورِ العُلومِ، فثبَتَ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فثَبَت أنَّ كُلَّ ما فيه حَقٌّ، مع مُنازَعَتِهم في ذلك كُلِّه- اقتضى الحالُ الإقسامَ على حَقِّيَّتِه؛ فقال(٢):

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ في كلِّ عامٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ السَّحابِ؛ لأنَّه يَرجِعُ بالمطَرِ. الثَّالثُ: ذاتُ الرُّجوعِ إلى ما كانت. قاله عِكْرِمةُ. الرَّابعُ: ذاتُ النُّجومِ الرَّاجعةِ. قاله ابنُ زَيدٍ. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الملائِكةِ؛ لرُجوعِهم إليها بأعمالِ العِبادِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٨).

والقَولُ بأنَّ المرادَ بالرَّجْعِ: المطَرُ، حكى الواحِديُّ فيه اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ، وممَّن ذهب إليه: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير =

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الأمْرَ العُلويَّ بادِئًا به لشَرَفِه؛ أتْبَعَه السُّفليَّ[1].

= القرطبي)) (٢٠ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو مالكٍ، وابنُ أَبْزَى، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧٦).

قال السعدي: (تَرجِعُ السَّماءُ بالمطَرِ كُلَّ عامٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ للنَّباتِ، فيَعيشُ بذلك الآدَميُّونَ والبهائِمُ، وتَرجِعُ السَّماءُ أيضًا بالأقدارِ والشُّؤونِ الإلهيَّةِ كُلَّ وَقتٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ عن الأمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وعَدَّه ابنُ القيِّمِ مِن بابِ التَّفسيرِ بالمثالِ، وأنَّ المرادَ أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ هذا على وَجهِ التَّمثيلِ. ورَجْعُ السَّماءِ: هو إعطاءُ الخيرِ الَّذي يكونُ مِن جِهَتِها حالًا بَعْدَ حالٍ على مرورِ الأزمانِ تَرجِعُه رَجْعًا، أي: تُعْطيه مَرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، والخَيرُ كُلُّه مِن قِبَلِ السَّماءِ يَجيءُ، ولَمَّا كان أظهَرَ الخَيرِ المشهودِ بالعِيانِ المطَرُ، فُسِّرَ الرَّجْعُ به، وحَسَّنَ تَفسيرَه به مُقابَلَتُه بصَدْعِ الأرضِ عن النَّباتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: المرادُ: غِيابُ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ، وطُلوعُها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤).

وذهَبَ البِقاعي إلى هذا المعنى وإلى ما هو أعَمُّ منه، فقال: (﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الَّتي تَرجِعُ بالدَّورانِ إلى الموضِعِ الَّذي ابتدَأَت الدَّورانَ منه، فتَرجِعُ الأحوالَ الَّتي كانت وتصَرَّمَت؛ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ، والفُصولِ؛ مِنَ الشِّتاءِ وما فيه مِن بَرَدٍ ومطرٍ، والصَّيفِ وما فيه مِن حرٍّ وصفاءٍ وسكونٍ وغيرِ ذلك؛ والنَّباتَ بعدَ تهشُّمِه وصَيرورتِه تُرابًا مختَلِطًا بتُرابِ الأرضِ، وترجِعُ الماءَ على قَولِ مَن يَقولُ: إنَّ السَّحابَ يأخُذُه مِن البَحرِ ويعلو به فيَعصِرُه في الهواءِ ثمَّ يرُدُّه إلى الأرضِ، وغيرَ ذلك مِن الأمورِ الدَّالِّ كُلٌّ منها قطعًا على أنَّ فاعِلَ ذلك قادرٌ على إعادةِ كُلِّ ما فَنِيَ كما كان، مِن غيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٢).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ ذاتِ النَّباتِ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ فيها أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ النَّباتِ؛ لانصِداعِ الأرضِ عنه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ الأوديةِ؛ لأنَّ الأرضَ قد انصدَعَت بها. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّالثُ: ذاتُ الطُّرُقِ الَّتي تَصدَعُها المُشاةُ. قاله مجاهِدٌ. الرَّابعُ: ذاتُ الحَرْثِ؛ لأنَّه يَصدَعُها. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الأمواتِ؛ لانصِداعِها عنهم للنُّشورِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: تتشَقَّقُ بالنَّباتِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو انصِداعُها عن النَّباتِ. وكذا قال سعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرونَ واللُّغَويُّونَ: تتصدَّعُ عن النَّباتِ والأشجارِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٤).

وقال ابن عثيمين: (كُلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، والقُرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ مَوتِها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وقال ابنُ القيِّم: (وفُسِّرَ الصَّدعُ بالنَّباتِ؛ لأنَّه يَصدَعُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، فأقسَمَ سُبحانَه بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ، والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وكُلٌّ مِن ذلك آيةٌ من آياتِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على رُبوبيَّتِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: تتصَدَّعُ عن النَّباتِ والشَّجَرِ والثِّمارِ والأنهارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٦).

وتقدَّم قولُ السعديِّ أنَّ الأرضَ تنصدعُ للنَّباتِ، وتنصدعُ عن الأمواتِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

قال البِقاعي: (فجَمَع بالقَسَمِ العالَمَ العُلويَّ الَّذي هو كالرَّجُلِ، والسُّفْليَّ الَّذي هو كالمرأةِ، =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ قَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ(١).

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عَطَفَ ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ بعد الثَّناءِ على القُرآنِ بأنَّه «قَولٌ فَصلٌ» ردًّا على المشركينَ؛

= فكما أنَّ الرَّجُلَ يَسقيها من مائِه فتتصَدَّعُ عن الولَدِ، فكذلك السَّماءُ تَسْقي الأرضَ فتتصَدَّعُ عن النَّباتِ، وكما أنَّها تتصَدَّعُ عن النَّباتِ بعْدَ فَنائِه وصَيرورتِه رُفاتًا، فيَعودُ كما كان؛ فكذلك تتصَدَّعُ عن النَّاسِ بعْدَ فَنائِهم، فيَعودونَ كما كانوا بإذْنِ رَبِّها من غيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٣).

وقال الشوكاني: (الحاصلُ أنَّ الصَّدْعَ إنْ كان اسْمًا لِلنَّباتِ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وإنْ كان المرادُ به الشَّقَّ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ الشَّقِّ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ ونحوُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦، ٢٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ يعني به القُرآنَ، وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: القرآنُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ المتَّقينَ والظَّالِمينَ، بل إنَّه فَصْلٌ، أي: قاطِعٌ لكُلِّ مَن ناوأه وعاداه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى البَعْثِ بعدَ الموتِ، والمعنى: إنَّ ما أخبَرْتُكم به مِن قُدْرتي على إحيائِكم في اليَومِ الَّذي تُبْلَى فيه سرائِرُكم: قَولٌ فَصلٌ وحَقٌّ. ومِمَّن ذهب إليه: القَفَّالُ، ورجَّحه الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٣).

إذ كانوا يَزعُمونَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاء يَهزِلُ؛ إذ يخبِرُ بأنَّ الموتى سيَحْيَونَ، يُريدونَ تضليلَ عامَّتِهم حينَ يَسمَعونَ قوارِعَ القُرآنِ وإرشادَه وجَزالةَ مَعانيه، يختَلِقونَ لهم تلك المعاذيرَ؛ لِيَصرِفوهم عن أن يتدَبَّروا القُرآنَ(١).

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وليس القُرآنُ باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ(٢).

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، ويُؤَيِّدوا الباطِلَ(٣).

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا -جزاءَ كَيدِهم-، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، وأُظهِرَ الحَقَّ عليه ولو بعْدَ حِينٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).

قال البقاعي: (﴿بِالْهَزْلِ﴾ أي: بالضَّعيفِ المَرذولِ الَّذي لا طائِلَ تحتَه، فمِن حَقِّه ما هو عليه الآنَ مِن كَونِه مَهيبًا في القُلوبِ، مُعَظَّمًا في الصُّدورِ، يرتَفِعُ به قارِئُه وسامِعُه عن أن يُلِمَّ بهَزلٍ، ويَعْلو به في أعيُنِ العامَّةِ والخاصَّةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾.

أي: فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستعجِلْ عِقابَهم؛ فإنَّه واقِعٌ بهم -لا محالةَ- في الوَقتِ الَّذي جعَلَه اللهُ مَوعِدًا لهَلاكِهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أنَّ القرآنَ يَفْصِلُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وهو قاطعٌ لكلِّ مَن ناوأه وعاداه؛ ولهذا نَجِدُ المسلمينَ لَمَّا كانوا يُجاهِدونَ الكُفَّارَ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ زعَمَ بَعضُهم أنَّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ، وإذا قُلْنا: إنَّه وَعيدٌ، فلا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٤). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٦)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (٢/ ٨٩٦).

وقال ابنُ عثيمين: (في هذه الآيةِ تهديدٌ لقُرَيشٍ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، ووَعدٌ له بالنَّصرِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

بالقرآنِ نَجِدُهم غَلَبوا الكُفَّارَ، وقَطَعوا دابِرَهم، وقُضِيَ بيْنَهم، فلمَّا أَعرَضوا عن القرآنِ هُزِموا وأُذِلُّوا بقَدْرِ بُعْدِهم عن القرآنِ، وكلَّما ابتعَدَ الإنسانُ عن كتابِ اللهِ ابتعَدَتْ عنه العِزَّةُ، وابتعدَ عنه النَّصرُ؛ حتَّى يَرجِعَ إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ زجرٌ وتحذيرٌ للقَومِ، وكما أنَّه تحذيرٌ لهم فهو ترغيبٌ في خِلافِ طَريقِهم في الطَّاعاتِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ في هذَينِ الحالَينِ إيماءٌ إلى دَليلٍ آخَرَ مِن دَلائلِ إحياءِ النَّاسِ للبَعثِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ هذا هو القَسَمُ الثَّاني للسَّماءِ، والقَسَمُ الأوَّلُ ما كان في أوَّلِ السُّورةِ؛ فهناك قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ وبيْنَهما مُناسَبةٌ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الأوَّلَ فيه إشارةٌ إلى الطَّارقِ الَّذي هو النَّجمُ، والنَّجمُ تُرمى به الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمْعَ، وفي رَمْيِ الشَّياطينِ بذلك حِفْظٌ لكتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، أمَّا هنا فأَقْسَمَ بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ إنَّ هذا القُرآنَ قَولٌ فَصلٌ، فأقْسَمَ على أنَّ القرآنَ قولٌ فَصلٌ؛ فصار القَسَمُ الأوَّلُ مُناسَبتُه أنَّ فيه الإشارةَ إلى ما يُحْفَظُ به هذا القُرآنُ حالَ إنزالِه، وفي القَسَمِ الثَّاني الإشارةُ إلى أنَّ القرآنَ حياةٌ، يعني يُقالُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الرَّجْعُ هو المطرُ، يُسَمَّى رَجْعًا؛ لأنَّه يَرْجِعُ ويَتكَرَّرُ، ومعلومٌ أنَّ المطرَ به حياةُ الأرضِ، ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الصَّدعُ هو الانشِقاقُ، يعني: التَّشَقُّقَ بخروجِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

النَّباتِ منه؛ فأقْسَمَ بالمطرِ الَّذي هو سببُ خروجِ النَّباتِ، وبالتَّشَقُّقِ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ، وكلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ موتِها، والقرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ موتِها، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسمَّى اللهُ القرآنَ رُوحًا؛ لأنَّه تحيا به القُلوبُ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تأمَّلْ قولَه: ﴿يَكِيدُونَ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الجَمعِ، ﴿وَأَكِيدُ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ كيدَ اللهِ تعالى أعظمُ مِن كيدِ جَميعِ كُيودِهم مهما بلَغَتْ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ردٌّ على الجَهْميَّةِ في نَفْيِ الصِّفاتِ بالكُلِّيَّةِ، وقد أَخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن نفْسِه بأنَّه يَكِيدُ، بلَفظِ «الكَيدِ» الَّذي أَخبَرَ به عنِ الكائدين، وهم يُنكِرونه، يَرُدُّون نصَّ القُرآنِ(٣)! فالكَيدُ والمكرُ والمُخادَعةُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، ولكِنَّ ذلك نَوعانِ: قَبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستَحِقُّه، وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستَحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعَلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عَدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يَفعَلُ الظَّلَمةُ بعِبادِه(٤).

فاللهُ سُبحانَه يَنسُبُ إلى نَفْسِه أحسَنَ هذه المعاني، وما هو منها حِكمةٌ وحَقٌّ وصَوابٌ وجزاءٌ للمُسيءِ، وذلك غايةُ العَدْلِ والحَقِّ؛ كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١).

كَيۡدٗا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقَولِه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقَولِه: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فهذا منه سُبحانَه في أعلى مَراتِبِ الحُسْنِ، وإن كان مِنَ العَبدِ قَبيحًا سَيِّئًا؛ لأنَّه ظالِمٌ فيه، ومُوقِعُه بمَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى عادِلٌ فيه، مُوقِعُه بأهلِه ومَن يَستَحِقُّه[1].

٥- ينقَسِمُ الكيدُ إلى نَوعَينِ: محمودٍ، ومَذمومٍ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾، وقال: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: ٧٦]، وإذا عُرِفَ ذلك فلا إشكالَ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يُظْهِرَ قولًا أو فِعْلًا مَقصودُه به مَقصودٌ صالحٌ، وإنْ كان ظاهِرُه خِلافَ ما قَصَدَ به، إذا كانت فيه مَصلحةٌ دينيَّةٌ، مِثلُ دَفْعِ الظُّلمِ عن نفْسِه أو غَيرِه، أو إبطالِ حِيلةٍ مُحرَّمةٍ، وإنَّما المُحَرَّمُ: أنْ يَقصِدَ بالعُقودِ الشَّرعيَّةِ غيرَ ما شَرَعَها اللهُ تعالى ورَسولُه له، فيَصيرُ مُخادِعًا للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كائدًا لدِينِه، ماكِرًا بشَرْعِه؛ فإنَّ مَقصودَه حُصولُ الشَّيءِ الَّذي حَرَّمَه اللهُ تعالى ورسولُه بتلك الحيلةِ، وإسقاطُ الَّذي أوجبَه بتلك الحيلةِ، وهذا ضِدُّ الَّذي قَبْلَه؛ فإنَّ ذلك مَقصودُه التَّوصُّلُ إلى إظهارِ دِينِ اللهِ تعالى، ودَفْعُ مَعصيتِه، وإبطالُ الظُّلمِ، وإزالةُ المنكَرِ، فهذا لونٌ، وذاك لونٌ آخَرُ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أنَّه لَمَّا كان في المكَذِّبينَ -في

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٨).

عِلْمِ اللهِ- مَن يُؤمِنُ، فليس مُستَحِقًّا لإيقاعِ مِثلِ هذا التَّهديدِ؛ عَبَّرَ بالوَصفِ المقتَضي للرُّسوخِ، فقال: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فلا تَدْعُ عليهم، ولا تَستَعجِلْ لهم بالإهلاكِ؛ فإنَّا لا نَعجَلُ؛ لأنَّه لا يَعجَلُ بالعُقوبةِ إلَّا مَن يَخافُ الفَوتَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ * إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾

الجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[2].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالقَسَمِ تَحقيقًا لصِدقِ القُرآنِ في الإخْبارِ بالبَعثِ وفي غَيرِ ذلك ممَّا اشتَمَلَ عليه مِن الهُدى؛ ولذلك أُعيدَ القَسَمُ بالسَّماءِ كما أُقسِمَ بها في أوَّلِ السُّورةِ، وذُكِرَ مِن أحوالِ السَّماءِ ما لَه مُناسَبةٌ بالمُقسَمِ عليه، وهو الغَيثُ الَّذي به صَلاحُ النَّاسِ؛ فإنَّ إصلاحَ القُرآنِ للنَّاسِ كإصْلاحِ المَطَرِ، وفي الحديثِ: ((مَثَلُ ما بعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلْمِ كمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا))[3] الحديثَ[4].

- والرَّجْعُ، أي: المَطَرُ، والصَّدْعُ: هو ما تَتصَدَّعُ عنه الأرضُ مِن النَّباتِ، أو مَصدَرٌ مِن المَبنيِّ للمَفعولِ، وهو تَشقُّقُها بالنَّباتِ لا بالعُيونِ كما قيلَ؛ فإنَّ وصْفَ السَّماءِ والأرضِ عندَ الإقْسامِ بهما على حقِّيَّةِ القُرآنِ النَّاطقِ بالبَعثِ بما ذُكِرَ مِن الوَصفَينِ للإيماءِ إلى أنَّهما في أنفُسِهما مِن شَواهِدِه، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ بالصَّدعِ عنه وعن المَطَرِ بالرَّجْعِ، وذلك في تَشقُّقِ الأرضِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

بالنَّباتِ المُحاكي للنُّشورِ حَسبَما ذُكِرَ في مَواقِعَ مِن التَّنزيلِ، لا في تَشقُّقِها بالعُيونِ[١].

- وأيضًا في اسمِ (الرَّجْعِ) مُناسَبةٌ لمَعْنى البَعثِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، وفي مُسمَّى (الرَّجْعِ) -وهو المَطَرُ المُعاقِبُ لمَطَرٍ آخَرَ- مُناسَبةٌ لمَعنى الرَّجْعِ البَعثِ؛ فإنَّ البَعثَ حياةٌ مُعاقَبةٌ بحياةٍ سابِقةٍ[٢].

- وعُطِفَتْ الأرضُ في القَسَمِ؛ لأنَّ بذِكرِ الأرضِ إتْمامَ المُناسَبةِ بيْنَ المُقسَمِ والمُقسَمِ عليه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ﴾ فيه الإخْبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، أي: إنَّه لقَولٌ فاصِلٌ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، مبالِغٌ في ذلك كأنَّه نفْسُ الفَصلِ[٤].

- بعدَ أنْ أثنَى اللهُ سبحانَه وتعالى على القرآنِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ﴾، عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَزعُمون أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءَ يَهزِلُ؛ إذ يُخبِرُ بأنَّ المَوتى سيَحيَون، فردَّ الله سبحانَه عليهم؛ فالهَزْلُ على هذا الوَجْهِ هو ضِدُّ الجِدِّ، أي: المَزْحُ واللَّعِبُ، ومِثلُ هذه الصِّفةِ إذا ورَدَتْ في الكَلامِ البَليغِ لا مَحمَلَ لها إلَّا إرادةُ التَّعريضِ، وإلَّا كانتْ تَقصيرًا في المَدْحِ، لا سِيَّما إذا سَبَقَتْها مَحمَدةٌ من المَحامِدِ العَظيمةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا * وَأَكِيدُ كَيۡدٗا * فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُنبِئُ عن سُؤالِ سائِلٍ يَعجَبُ مِن إعْراضِهم عن القُرآنِ معَ أنَّه قولٌ فَصلٌ، ويَعجَبُ مِن مَعاذيرِهم الباطِلةِ، مِثلَ قولِهم: هو هَزْلٌ أو هَذَيانٌ أو سِحرٌ، فبيَّنَ للسَّامعِ أنَّ عَمَلَهم ذلك كَيدٌ مَقصودٌ؛ فهُم يَتَظاهَرون بأنَّهم ما يَصرِفُهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ إلَّا ما تَحقَّقوه مِن عدَمِ صِدْقِه، وهُم إنَّما يَصرِفُهم عن الإيمانِ به الحِفاظُ على سِيادتِهم، فيُضلِّلون عامَّتهم بتلك التَّعِلَّاتِ المُلفَّقة. والتَّأكيدُ بـ(إنَّ) لتَحقيقِ هذا الخَبَرِ؛ لغَرابتِه، وعليه فقَولُه: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَتْميمٌ[(١)] وإدْماجٌ[(٢)]، وإنْذارٌ لهم حِينَ يَسمَعونه[(٣)]. أو هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن فَحوى الكلامِ؛ كأنَّه قيلَ: وماذا تَتَسمَّى مُكابَرتُهم وعِنادُهم؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[(٤)].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ مُوَجَّهًا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميم قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

عليه وسلَّم؛ تَسليةً له على أقوالِهم في القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى تَكذيبِ مَن جاءَ بالقُرآنِ، أي: إنَّما يَدَّعون أنَّه هَزْلٌ لقَصدِ الكَيدِ، وليس لأنَّهم يَحسَبونك كاذِبًا. وجُملةُ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعدٌ بالنَّصرِ[(١)].

- قولُه: ﴿كَيْدًا﴾ في المَوضِعَينِ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه، وقُصِدَ منه مع التَّوكيدِ تَنوينُ تَنكيرِه الدَّالِّ على التَّعظيمِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالإمْهالِ على مَجموعِ الكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣] بما فيه مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ وتَبيينٍ ووَعْدٍ بالنَّصرِ، أي: فلا تَستعجِلْ لهم بطَلَبِ إنْزالِ العِقابِ؛ فإنَّه واقِعٌ بهم لا مَحالةَ[(٣)].

- والتَّمهيلُ: مَصدرُ مَهَّلَ، بمَعنى: أمْهَلَ، وهو الإنْظارُ إلى وَقتٍ مُعيَّنٍ أو غَيرِ مُعيَّنٍ؛ فالجمعُ بيْنَ (مَهِّلْ) و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾؛ للتَّأكيدِ؛ لقَصدِ زيادةِ التَّسكينِ والتَّصبيرِ، وخولِفَ بيْنَ الفِعلَينِ في التَّعديةِ مَرَّةً بالتَّضعيفِ وأُخْرى بالهَمزِ؛ لتَحسينِ التَّكريرِ، وطَلَبًا للخِفَّةِ[(٤)]. فلَمَّا كرَّرَ الأمرَ توكيدًا خالَفَ بيْنَ اللَّفظَينِ -﴿فَمَهِّلِ﴾ و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾- على أنَّ الأوَّلَ مُطلَقٌ، وهذا الثَّاني مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿رُوَيْدًا﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، = = ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٣).

- والمُرادُ بالكافِرينَ في قولِه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾: ما عادَ عليْه ضَميرُ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]؛ فهو إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ للنِّداءِ عليْهم بمَذمَّةِ الكُفرِ، فليس المُرادُ جَميعَ الكافِرين، بل أُريدَ الكافِرون المَعْهودون(١).

- وقولُه: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِفعلِ ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، فقد أكَّدَ قولَه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَرَّتَين، والمَعنى: انتَظِرْ ما سيَحُلُّ بهم، ولا تَستَعجِلْ لهم؛ انتِظارَ تَربُّصٍ واتِّيادٍ، فيَكونُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ ما يَحُلُّ بهم مِن العِقابِ؛ لأنَّ المُطمَئنَّ لحُصولِ شَيءٍ لا يَستعجِلُ به. وتَصغيرُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقليلِ، أي: مُهلةً غَيرَ طَويلةٍ(٢).

ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ هُنا اسمَ فِعلٍ للأمرِ، كما في قَولِهم: رُوَيدَك؛ لأنَّ اقترانَه بكافِ الخِطابِ إذا أُريدَ به اسمُ الفِعلِ ليس شَرطًا، ويَكونَ الوَقفُ على قولِه: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، و﴿رُوَيْدًۢا﴾ كلامًا مُستقِلًّا؛ فليس وُجودُ فِعلٍ مِن مَعْناه قبْلَه بدَليلٍ على أنَّه مُرادٌ به المَصدَرُ، أي: تَصبَّرْ ولا تَستَعجِلْ نُزولَ العَذابِ بهم، فيَكونَ كِنايةً عن الوَعدِ بأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ(٣).

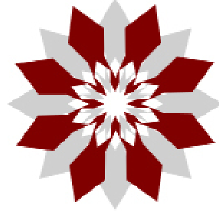


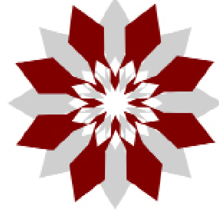
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

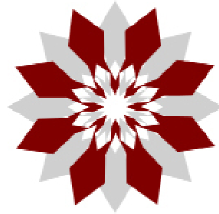
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٩).

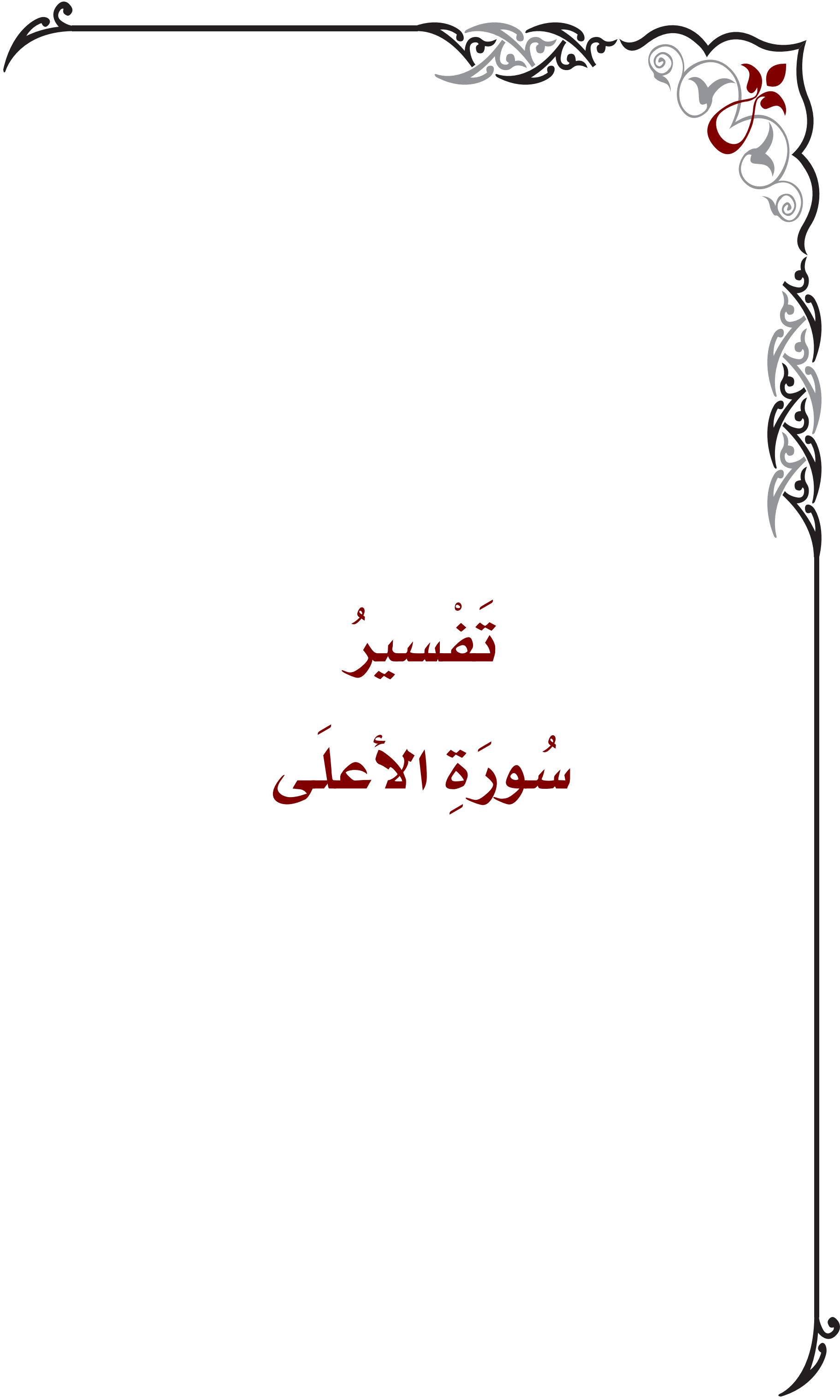
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٨).

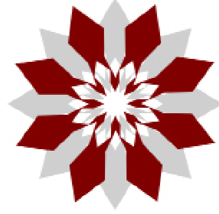


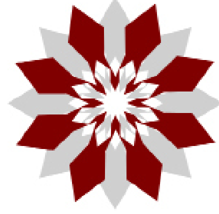


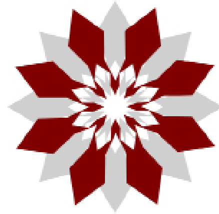




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأَعلَى







سورةُ الأعلَى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ:

١- سورةَ الأَعْلى[1].

٢- سورةَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾:

فعن جابرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)) وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ رضيَ الله عنه: ((اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾))[2].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشَيءٍ فَرَحَهم به، حتَّى رأيتُ الولائِدَ[3] والصِّبيانَ يقولونَ: هذا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد جاء، فما جاء رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ مِثلِها))[4].

---

(١) قال ابنُ عاشور: (وسمَّاها أكثرُ المُفَسِّرينَ وكُتَّابُ المصاحِفِ «سورةَ الأعلَى»؛ لوُقوعِ صفةِ الأعلَى فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) الولائِد: جمعُ وليدةٍ، وهي الجاريةُ الصَّغيرةُ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٨٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤١).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[1].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[2].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).

ومِن حِكَمِ قِراءةِ سورةِ الأعلى وسورةِ الغاشيةِ في صلاةِ الجُمُعةِ والعيدينِ أنَّ فيهما مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ ما يُناسِبُ قِراءَتَهما في تلكَ الصَّلواتِ الجامعةِ. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٣/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠)

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

ووَثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٠٦)، والبوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٣٣٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٧٨).

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِتْرِ.

فعن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾))(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الأعلى مَكِّيَّةٌ(٢)، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إبرازُ جانبٍ عظيمٍ مِن نِعَمِ الله تعالى الَّتي لا تُحصَى(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- استِفتاحُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠).
احتجَّ به ابنُ حزم في ((المحلى)) (٣/ ٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨).

(٢) وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ. قال ابنُ عطيَّة: (وذلك ضَعيفٌ، وإنَّما دعا إليه قَولُ مَن قال: إنَّ ذِكرَ صَلاةِ العيدِ فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير جرير)) (٢٤/ ٣٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٧٣٧).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦٠).

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

٣- امتِنانُ اللهِ تعالى على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأييدُه وتَثبيتُه.

٤- ذِكرُ المُنتَفِعينَ بالذِّكرى ومَن يُعرِضُ عنها ومَصيرُه.

٥- ذِكرُ بَعضِ ما في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ.



الآيات (١-٨)

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُثَاءً﴾: أي: يابِسًا هَشيمًا جافًّا، والغُثاءُ: ما تحطَّمَ مِن يَبْسِ البَقلِ يأتي به السَّيلُ فيَقذِفُه على جانِبِ الوادي، وأصلُ (غثي): يدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنِيٍّ[١].

﴿أَحْوَى﴾: أي: أَسْوَدَ بَعْدَ الخُضرةِ؛ وذلك أنَّ الرَّطْبَ إذا جَفَّ يَبِسَ واسْوَدَّ، وأصلُ (حوي): يدُلُّ على جَمعٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نَزِّهْ ربَّك الأَعْلى -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى.

ثمَّ يقولُ تعالى واصفًا ذاتَه: هو الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ صورةٍ، والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ أخضَرَ، فجَعَلَه يابِسًا أسْوَدَ بعْدَ أن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

كان مُخضَرًّا.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ، فتحفَظُه في صَدْرِك، ولا تَنْساه، إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيَةَ، ونشرعُ لك -يا محَمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مُستقيمًا عَدلًا، ونسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسْرى في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾.

أي: نَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، وهو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ لكُلِّ شَيءٍ، المتَّصِفُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ؛ واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٦/ ١٩٩)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيِّم (٢/ ١٩٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٨-٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٧، ١٥٨).
قيل: معنى الآيةِ: نَزِّهْ -يا محمَّدُ- اسمَ رَبِّك الأعلى أن تُسَمِّيَ به شَيئًا سِواه، فنَهاه بذلك أن يفعَلَ ما فعله المُشرِكونَ مِن تسميَتِهم آلهتَهم باللَّاتِ أو العُزَّى؛ فاللَّاتُ قيل: مشتقَّةٌ مِن اسمِ اللهِ، أو الإلهِ، والعُزَّى: مِنَ العزيزِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٠).
قال البِقاعي: (أمَرَ أكمَلَ خَلقِه رسولَه المُنزَّلَ عليه هذا القرآنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتنزيهِ اسمِه؛ لأنَّه وحْدَه العالِمُ بذلك حقَّ عِلمِه، وإذا نزَّه اسمَه عن أن يَدعوَ به وثَنًا أو غيرَه أو يَضَعَه في غيرِ ما يَليقُ به؛ كان لِذَاتِه سُبحانَه أشَدَّ تنزيهًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٨).
وهذا المعنى الَّذي ذهب إليه ابنُ جرير، جَعَله ابنُ تيميَّةَ معنًى تابعًا للمرادِ مِنَ الآيةِ، وليس هو المعنى المقصودَ بها أصالةً -أي: أنَّ مِن لازِمِ تَنزيهِ المُسمَّى تنزيهَ اسمِه-، وذهب إلى أنَّ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه كان إذا قَرأ...: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: سُبْحانَ ربِّيَ الأعلَى)[1].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

= قولَه: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ يعني: مُسَمَّى رَبِّك؛ لأنَّ التَّسبيحَ ليس للاسمِ، بل لله نَفْسِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٩) و (١٦/ ٣٢٣).

وقيل: المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكرًا اسمَه، يعني: لا تُسَبِّحْه بالقَلْبِ فقط، بل سَبِّحْه بالقَلْبِ واللِّسانِ، وذلك بذِكْرِ اسمِه تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ القَيِّم وحكاه عن شيخِه ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٨).

قال الرَّسْعَني: (قال الزَّجَّاجُ وجمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: نَزِّهْ ربَّك عن السُّوءِ، وقُلْ: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (الذِّكْرُ الحقيقيُّ محلُّه القلبُ؛ لأنَّه ضدُّ النِّسيانِ، والتَّسبيحُ نَوعٌ مِن الذِّكْرِ، فلو أُطلِقَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ لَمَا فُهِم منه إلَّا ذلك دونَ اللَّفظِ باللِّسانِ، واللهُ تعالى أراد مِن عِبادِه الأمْرَينِ جميعًا، ولم يَقْبَلِ الإيمانَ وعَقْدَ الإسلامِ إلَّا باقتِرانِهما واجتماعِهما، فصار معنى الآيتَينِ [أي: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾]: سَبِّحْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، واذكُرْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، فأقحَمَ الاسمَ تنبيهًا على هذا المعنى؛ حتَّى لا يَخلوَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ مِنَ اللَّفظِ باللِّسانِ؛ لأنَّ ذِكرَ القَلْبِ مُتعَلَّقُه المُسمَّى المَدلولُ عليه بالاسمِ دون ما سِواه، والذِّكرَ باللِّسانِ متعَلَّقُه اللَّفظُ مع مَدلولِه؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يُرادُ لنَفْسِه، فلا يَتوهَّم أحدٌ أنَّ اللَّفظَ هو المُسَبَّحُ دونَ ما يدُلُّ عليه مِن المعنى، وعَبَّرَ لي شيخُنا أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- عن هذا المعنى بعبارةٍ لطيفةٍ وَجيزةٍ، فقال: المعنى: سَبِّحْ ناطِقًا باسمِ رَبِّك، مُتكَلِّمًا به، وكذا: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسْمَه). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٩).

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).
صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ سُبحانَه بالتَّسبيحِ، فكأنَّ سائِلًا قال: الاشْتِغالُ بالتَّسبيحِ إنَّما يَكونُ بَعْدَ المَعرِفةِ؛ فما الدَّليلُ على وُجودِ الرَّبِّ؟ فقال[١]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

أي: الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ هَيئةٍ مُناسِبةٍ له[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

أي: والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ في ذَواتِها وصِفاتِها وأحوالِها، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، وألهَمَه استِعمالَ قوَّتِه وأعضائِه وفِكْرِه في ذلك[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٩، ١٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال الفرَّاءُ: (﴿قَدَّرَ﴾ خلْقَه ﴿فَهَدَىٰ﴾ الذَّكرَ لِمَأْتى الأنثى مِن البهائمِ. ويُقالُ: قدَّرَ فهدى وأضَلَّ، فاكتفى مِن ذِكرِ الضَّلالِ بذِكرِ الهدى؛ لكثرةِ ما يكونُ معه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت دلائِلُ التَّوحيدِ تارةً بالنَّفْسِ وتارةً بالآفاقِ، ونَبَّه بآياتِ النَّفْسِ، فلم يَبْقَ إلَّا آياتُ الآفاقِ، وكان النَّباتُ مِن آياتِها أدَلَّ المخلوقاتِ على البَعثِ؛ قال[1]:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾.

أي: والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ الأخضَرَ[2].

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إيباسُه وتَسويدُه بَعْدَ اخضِرارِه ونُمُوِّه: في غايةِ الدَّلالةِ على تمامِ القُدرةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

وقد جَعَل بَعضُ المُفَسِّرينَ المرعى خاصًّا بالأنعامِ. ومنهم: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

ومنهم مَن جعله عامًّا للنَّاسِ والحيوانات، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ، وابنِ كثير، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وكَمالِ الاختيارِ، بمُعاقَبةِ الأضْدادِ على الذَّاتِ الواحِدةِ؛ قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: بَعْدَ أطوارٍ مِن زَمَنِ إخراجِه ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[١].

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

أي: فجَعَلَ اللهُ ذلك المَرعى يابِسًا، وجعَلَ لَونَه قَريبًا مِنَ السَّوادِ بَعْدَ أن كان مُخضَرًّا ورَطْبًا[٢].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالتَّسبيحِ، وكان التَّسبيحُ لا يَتِمُّ إلَّا بقراءةِ ما أُنزِلَ عليه مِنَ القُرآنِ، وكان يتذكَّرُ في نَفْسِه مَخافةَ أن يَنْسى؛ فأزال عنه ذلك، وبَشَّرَه بأنَّه تعالى يُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى، واستثنى ما شاء أن يُنسِيَه لمصلحةٍ كالنَّسخِ وغيرِه[٣].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

أي: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ رَغْمَ كَونِك أُمِّيًّا لا تَقرَأُ ولا تَكتُبُ، وتحفَظُه في صَدْرِك، فلا تَنْساه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا نَزَل عليه القُرآنُ أكثَرَ تحريكَ لِسانِه؛ مَخافةَ أن يَنساه، وكان لا يَفرُغُ جِبريلُ مِن آخِرِ الوَحيِ حتَّى يتكَلَّمَ هو بأوَّلِه؛ مَخافةَ النِّسيانِ، فقال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وهذا كقَولِه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه: ١١٤] =

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ -يا محمَّدُ- وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكْمتُه البالِغةُ(١).

= الآيةَ، وكقَولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] الآيةَ. ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٠).

وقال القرطبي: (هذه بُشْرى مِن الله تعالى؛ بشَّرَه بأنْ أعطاه آيةً بَيِّنةً، وهي أن يَقرأَ عليه جِبريلُ ما يقرأُ عليه مِن الوَحيِ، وهو أُمِّيٌّ لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ، فيَحفَظُه ولا يَنساه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنسَخَه فتَنْساه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.

والثَّاني: إلَّا ما شاء اللهُ أن تَنساه ثمَّ تَذكُرَه بعدُ. حكاه الزَّجَّاجُ.

والثَّالثُ: أنَّه استِثناءٌ لا يقَعُ قال الفرَّاءُ: لم يَشَأْ أن يَنسى شيئًا، فإنَّما هو كقولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨]، ولا يَشاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو السعود، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ الأوَّلِ والثَّاني -أي: أنَّ النِّسيانَ بالنَّسخِ، أو ما يَعرِضُ مِن نِسيانٍ مؤقَّتٍ ثمَّ يتذَكَّرُها: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن =

= عثيمين – جزء عم)) (ص: ١٦٢).
قال ابنُ عطية: (نِسيانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَنِعٌ فيما أُمِرَ بتبليغِه؛ إذ هو معصومٌ، فإذا بَلَّغَه ووُعِيَ عنه، فالنِّسيانُ جائزٌ على أن يتذكَّرَ بعدَ ذلك، وعلى أن يَسُنَّ، أو على النَّسْخِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٦).
قال أبو حيَّان: (مفهومُ الآيةِ في غايةِ الظُّهورِ، وقد تعسَّفوا في فَهمِها. والمعنى أنَّه تعالى أخبَر أنَّه سيُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى إلَّا ما شاء اللهُ، فإنَّه يَنْساه؛ إمَّا النَّسخُ، وإما أن يَسُنَّ، وإمَّا على أن يتذكَّرَ. وهو صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن النِّسيانِ فيما أُمِر بتبليغِه، فإن وقَع نِسيانٌ فيكونُ على وجْهٍ مِن الوُجوهِ الثَّلاثةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).
مما يدلُّ على النَّسخِ قولُه تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].
ومما يدلُّ على الثاني ما ورد عن المُسَوَّرِ بنِ يَزيدَ المالِكيِّ رضيَ الله عنه، قال:((شَهِدْتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الصَّلاةِ، فترَكَ شيئًا لم يَقرَأْه، فقال له رجُلٌ: يا رسولَ الله، ترَكْتَ آيةَ كذا وكذا، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هَلَّا أَذْكَرْتَنِيها)). أخرجه أبو داودَ (٩٠٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٢٤١)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٩٠٧)، وحسَّنه لغيرِه شعيبُ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٩٠٧).
ومما يدلُّ على الثالثِ وهو التَّذكُّرُ بعدَ النسيانِ ما ورَد عن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((سَمِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ في سورةٍ باللَّيلِ، فقال: يَرْحَمُه اللهُ، لقدْ أَذْكَرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنْسِيتُها مِن سورةِ كذا وكذا)). أخرجه البخاريُّ (٥٠٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٨٨).
وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ: الفرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).
وعن مجاهدٍ والكَلْبيِّ: أنَّ اللهَ أنزَل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، فلمْ يَنْسَ النَّبيُّ بعْدَ ذلك شيئًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢).
قال أبو حيَّانَ: (وقال الفرَّاءُ وجماعةٌ: هذا استثناءٌ صِلةٌ في الكلامِ على سُنَّةِ الله تعالى في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيحَ استثناؤُه. وأخَذ الزمخشريُّ هذا القولَ فقال: وقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والغرضُ نفْيُ النِّسيانِ رأسًا، كما يقولُ الرَّجُلُ لصاحبِه: أنت سَهيمِي فيما أَملِكُ إلَّا ما شاء اللهُ، ولا يَقصِدُ استثناءَ شيءٍ، وهو مِن استعمالِ القِلَّةِ في معنى النَّفي. انتهى. وقولُ الفرَّاءِ والزمخشريِّ يجعلُ الاستثناءَ كلا استثناءٍ، وهذا لا يَنبغي أن يكونَ في كلامِ الله تعالى، بل ولا =

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ العَلانيَةَ والسِّرَّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾.

أي: ونشرعُ لك -يا محمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مستقيمًا عَدلًا، ونُسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في كلِّ أمرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ تنبيهٌ على استِحقاقِ اللهِ تعالى

= في كلامٍ فصيحٍ.

وكذلك القولُ بأنَّ «لا» في ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ للنَّهيِ، والألِفَ ثابتةٌ لأجْلِ الفاصِلةِ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

قال الشوكاني: (قال مقاتلٌ: أي: نُهَوِّنُ عليك عمَلَ الجنَّةِ. وقيل: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ الَّتي هي أيسَرُ وأسهَلُ. وقيل: للشَّريعةِ اليُسرى، وهي الحَنيفيَّةُ السَّهلةُ. وقيل: نُهَوِّنُ عليك الوحيَ حتَّى تَحفظَه وتَعمَلَ له. والأَولى حملُ الآيةِ على العُمومِ، أي: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في الدِّينِ والدُّنيا في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِهما الَّتي تتوجَّهُ إليك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٥).

وقال البِقاعي: (﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ أي: نجعَلُك أنت مُهيَّأً مُسهَّلًا مُلَيَّنًا مُوفَّقًا ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي: في حِفظِ الوَحيِ وتدَبُّرِه، وغيرِ ذلك مِنَ الطَّرائِقِ والحالاتِ كُلِّها الَّتي هي ليِّنةٌ سَهلةٌ خَفيفةٌ، كما أشار إليه قَولُه: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»؛ ولهذا لم يَقُلْ: ونُيَسِّرُ لك؛ لأنَّه هو مطبوعٌ على حُبِّها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٧).

التَّنزيهَ مِن كلِّ نَقصٍ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى[(٢)]؛ فالأعلى مفهومٌ في اللُّغةِ أنَّه أعلى كُلِّ شَيءٍ، وفَوقَ كُلِّ شَيءٍ، واللهُ قد وَصَف نَفْسَه في غيرِ مَوضِعٍ مِن تَنزيلِه ووَحْيِه، وأعلَمَنا أنَّه ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] [الشورى: ٤]، أفليس العَلِيُّ -يا ذَوِي الحِجَا- ما يكونُ عاليًا، لا كما تَزعُمُ المعَطِّلةُ الجَهميَّةُ أنَّه أعلى وأسفَلُ ووسَطٌ، ومع كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ مَوضِعٍ مِن أرضٍ وسماءٍ، وفي أجوافِ جميعِ الحيوانِ! ولو تدَبَّروا الآيةَ مِن كتابِ اللهِ ووفَّقَهم اللهُ لفَهْمِها، لعَقَلوا أنَّهم جُهَّالٌ لا يَفهَمونَ ما يقولونَ، وبان لهم جَهلُ أنفُسِهم، وخَطَأُ مَقالتِهم[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ولَمْ تَدْخُلْ في قَولِه هنا: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنَى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعَدَّى بحَرفِ جَرٍّ؛ فلا تقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أرَدْتَ المَقْرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ؛ كأنَّك قلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلَمُ- دخلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٥٧).

هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولَمْ يَقُلْ في موضِعٍ: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ» كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[١].

٤- قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أفادَتْ تَعديةُ فِعلِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ هنا إلى اسمٍ أنَّ المأمورَ به قولٌ دالٌّ على تَنزيهِ اللهِ بطَريقةِ إجراءِ الأخبارِ الطَّيِّبةِ، أو التَّوصيفِ بالأوصافِ المقدَّسةِ لإثباتِها إلى ما يدُلُّ على ذاتِه تعالَى مِن الأسماءِ والمَعاني. ولَمَّا كان أقوالًا كانت مُتعلِّقةً باسمِ اللهِ باعتبارِ دَلالتِه على الذَّاتِ، فالمأمورُ به إجراءُ الأخبارِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ الرَّفيعةِ على الأسماءِ الدَّالَّةِ على اللهِ تعالَى مِن أعلامٍ وصِفاتٍ ونحْوِها، وذلك آيِلٌ إلى تَنزيهِ المسمَّى بتلك الأسماءِ، فتَسبيحُ اسمِ اللهِ النُّطقُ بتَنزيهِه بذِكْرٍ يَليقُ بجَلالِه مِن العقائدِ والأعمالِ؛ كالسُّجودِ والحمْدِ، ويَشملُ ذلك استِحضارَ النَّاطقِ بألفاظِ التَّسبيحِ مَعانيَ تلك الألفاظِ؛ إذ المقصودُ مِن الكلامِ معْناهُ، وبتَظاهُرِ النُّطقِ مع استحضارِ المعْنى يَتكرَّرُ المعْنى على ذِهنِ المتكلِّمِ، ويَتجدَّدُ ما في نفْسِه مِن تَعظيمٍ للهِ تعالَى، وأمَّا تَفكُّرُ العبدِ في عَظَمةِ اللهِ تعالَى وتَرديدُ تَنزيهِه في ذِهنِه، فهو تَسبيحٌ لِذَاتِ اللهِ ومُسمَّى اسمِه، ولا يُسمَّى تَسبيحَ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك لا يَجْري على لَفظٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، فهذا تَسبيحُ ذاتِ اللهِ، وليس تَسبيحًا لاسمِه، فهذا مِلاكُ التَّفرقةِ بيْنَ تَعلُّقِ لَفظِ التَّسبيحِ بلَفظِ اسمِ اللهِ نحْو: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وبيْن تَعلُّقِه بدُونِ اسمٍ نحْو: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، أو قُلْنا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] إلى آخِرِ السُّورة، كان ذلك تَسبيحًا لاسمِه تعالَى، وإذا نَفَيْنا الإلهيَّةَ عن الأصنامِ لأنَّها لا تَخلُقُ، كان ذلك تَسبيحًا لِذاتِ اللهِ لا لاسْمِه؛ لأنَّ اسمَه لم يَجْرِ عليه في هذا الكلامِ إخبارٌ ولا تَوصيفٌ، فهذا مَناطُ الفرْقِ بيْن استعمالِ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ واستعمالِ ﴿وَسَبِّحْهُ﴾، ومآلُ الإطلاقَينِ في المعْنى واحدٌ؛ لأنَّ كِلا الإطلاقَينِ مُرادٌ به الإرشادُ إلى مَعرفةِ أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عن النَّقائصِ[١].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ ضلالُ مَن سَلَبُوا أسماءَ اللهِ تعالى معانيَها مِن أهلِ التَّعطيلِ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى سميعٌ بلا سَمْعٍ، وبصيرٌ بلا بَصَرٍ، وعزيزٌ بلا عِزَّةٍ، وهكذا! وعَلَّلُوا ذلك بأنَّ ثبوتَ الصِّفاتِ يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ ففي هذه الآياتِ الكريمةِ أوصافٌ كثيرةٌ لموصوفٍ واحدٍ؛ ولَمْ يَلْزَمْ مِن ثبوتِها تَعَدُّدُ القُدَماءِ[٢]!

٦- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ أنَّ مَعرِفتَه سُبحانَه وعِلْمَه أكبرُ العُلومِ وأعلاها؛ ووجْهُه: أنَّ العِلْمَ مُطابِقٌ للمَعلومِ[٣]، والعِلمُ الأعلى هو العِلمُ بالأعلى؛ فهو رَبُّ كلِّ ما سِواه، فهو الأصلُ، فكذلك العِلمُ به سَيِّدُ جميعِ العُلومِ، وهو أصلٌ لها[٤].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الاسْتِدلالَ بالخَلْقِ والهِدايةِ هي الطَّريقةُ المعتَمَدةُ عندَ أكابرِ الأنبياءِ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٨).

السَّلامُ، والدَّليلُ عليه ما حكى اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عن فِرعَونَ أنَّه لَمَّا قال لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وأمَّا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّه تعالى أوَّلُ ما أنزَلَ عليه هو قَولُه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، هذا إشارةٌ إلى الخَلْقِ، ثمَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، وهذا إشارةٌ إلى الهدايةِ، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد ذِكْرَ تلك الحُجَّةِ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، وإنَّما وَقَع الاستِدلالُ بهذه الطريقةِ كثيرًا؛ لأنَّ العَجائِبَ والغرائِبَ في هذه الطريقةِ أكثَرُ، ومُشاهَدةَ الإنسانِ لها واطِّلاعَه عليها أتَمُّ؛ فلا جَرَمَ كانت أقوى في الدَّلالة[١].

٨- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ فذكَرَ سُبحانَه أربعةَ أُمورٍ عامَّةً: الخَلقُ والتَّسويةُ والتَّقديرُ والهدايةُ، وجعَلَ التَّسويةَ مِن تمامِ الخَلقِ، والهدايةَ مِن تمامِ التَّقديرِ.

والتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه، وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعدمِ التَّسويةِ فهو راجعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ يتعلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عُدِمَ منها فلِعَدَمِ إرادةِ الخالقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ؛ فتأمَّلْ ذلك فإنَّه يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فالتَّفاوُتُ حاصلٌ بسَبَبِ عدمِ مشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَمَ والعَمَى والخَرَسَ والبَكَمَ يَكْفي فيها عدمُ مشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها، والمقصودُ أنَّ كلَّ مخلوقٍ فقد سوَّاه خالقُه سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

في مَرتَبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لَمْ يُخْلَقْ له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أُوثِرَ وَصْفا التَّسويةِ والهِدايةِ مِن بَينِ صِفاتِ الأفعالِ الَّتي هي نِعَمٌ على النَّاسِ، ودالَّةٌ على استحقاقِ اللهِ تعالى للتَّنزيهِ؛ لأنَّ في هذينِ الوَصفَينِ مُناسَبةً بما اشتمَلَت عليه مِن السُّورةِ؛ فإنَّ الَّذي يُسَوِّي خَلْقَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَه مِن أجْلِه مِن تحَمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ: لا يَفوتُه أن يُهَيِّئَه لِحفظِ ما يُوحيه إليه، وتيسيرِه عليه، وإعطائِه شَريعةً مُناسِبةً لذلك التَّيسيرِ؛ قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ لِحكمةٍ وغايةٍ تَصِلُ إليها؛ فقد ذَكَرَ سُبحانَه خَلْقَه، وذَكَرَ هدايتَه وتعليمَه بعدَ الخَلْقِ؛ لأنَّ جميعَ المخلوقاتِ خُلِقَتْ لغايةٍ مقصودةٍ بها؛ فلا بُدَّ أنْ تُهدَى إلى تلك الغايةِ الَّتي خُلِقَتْ لها، فلا تَتِمُّ مصلحتُها وما أُريدتْ له إلَّا بهدايتِها لغاياتِها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ العَطفَ قد يكونُ لتغايرِ الصِّفاتِ مع اتِّحادِ الذَّاتِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ كلَّ أعمالِ النَّاسِ تابعةٌ لِهَدْيِ اللهِ إيَّاهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٥٩).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٠٠).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خلَقَ الحيوانَ مُهتَديًا إلى طَلَبِ ما ينفَعُه، ودَفْعِ ما يَضُرُّه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ اللهَ سيُعَلِّمُه عِلمًا لا يَنساه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّه يجوزُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنسى ما لا يَتعَلَّقُ بالإبلاغ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مُعجِزةٌ، وذلك مِن وَجهَين:

الأوَّلُ: أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا أمِّيًّا؛ فحِفْظُه لهذا الكِتابِ المطوَّلِ مِن غيرِ دِراسةٍ ولا تَكرارٍ ولا كتابةٍ: خارِقٌ للعادةِ؛ فيكونُ مُعجِزًا.

الثَّاني: أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ ما نَزَل بمكَّةَ؛ فهذا إخبارٌ عن أمرٍ عَجيبٍ غَريبٍ مخالفٍ للعادةِ سيقَعُ في المُستقبَلِ، وقد وَقَع، فكان هذا إخبارًا عن الغَيبِ؛ فيكونُ مُعجِزًا[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في الآياتِ دَلالةً على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنْسى مِن القُرآنِ ما شاء اللهُ أن يَنْساه، وقد جاءت آياتٌ كَثيرةٌ تدُلُّ على حِفظِ القُرآنِ مِنَ الضَّياعِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]، وقَولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]!

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٠).

الجوابُ: أنَّ القُرآنَ وإن كان محفوظًا مِنَ الضَّياعِ فإنَّ بَعْضَه يَنسَخُ بَعضًا، وإنساءُ اللهِ نَبيَّه بَعْضَ القُرآنِ في حُكمِ النَّسخِ، فإذا أنساه آيةً فكأنَّه نسَخَها، ولا بُدَّ أن يأتيَ بخَيرٍ منها أو مِثْلِها، كما صَرَّحَ به تعالى في قَولِه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وأشار هنا لِعِلْمِه بحِكمةِ النَّسخِ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[1].

١٨- قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ مُناسَبةُ الجهْرِ وما يَخْفى أنَّ ما يَقرَؤُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الجهْرِ، فاللهُ يَعلَمُه، وما يَنساهُ فيُسقِطُه مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الخَفيِّ، فيَعلَمُ اللهُ أنَّه اخْتَفى في حافظَتِه حِينَ القِراءةِ، فلم يَبرُزْ إلى النُّطقِ به[2].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ ما يُصلِحُ عِبادَه، أي: فلذلك يَشرَعُ ما أراد، ويَحكُمُ بما يُريدُ[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ؛ أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليُسْرى في جميعِ أمورِه، ويَجعَلُ شَرْعَه ودِينَه يُسْرًا[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ الافتِتاحُ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اسمَ ربِّه بالقَولِ، يُؤذِنُ بأنَّه سيُلْقي إليه عَقِبَه بِشارةً وخيرًا له، وذلك قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ...﴾ [الأعلى: ٦] الآياتِ؛ ففيه بَراعةُ استهلالٍ(١).

- وتَعريفُ ﴿ٱسۡمَ﴾ بطَريقِ الإضافةِ إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دُونَ تَعريفِه بالإضافةِ إلى عَلَمِ الجَلالةِ نحْوَ: سبِّحِ اسمَ اللهِ؛ لِما يُشعِرُ به وصْفُ (ربّ) مِن أنَّه الخالقُ المدَبِّرُ(٢).

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه بهذه الإضافةِ، وأنْ يكونَ له حظٌّ زائدٌ على التَّكليفِ بالتَّسبيحِ(٣).

- أُجرِيَ على لَفظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صِفةُ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ وما بعْدَها مِن الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على تَصرُّفاتِ قُدرتِه؛ فهو مُستحِقٌّ للتَّنزيهِ لصِفاتِ ذاتِه ولصِفاتِ إنعامِه على النَّاسِ بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقويمٍ، وهِدايتِهم، ورَزقِهم، ورَزقِ أنعامِهم؛ للإيماءِ إلى مُوجِبِ الأمرِ بتَسبيحِ اسْمِه بأنَّه حَقيقٌ بالتَّنزيهِ استِحقاقًا لِذاتِه، ولِوَصْفِه بصِفةِ أنَّه خالقُ المخلوقاتِ خلْقًا يدُلُّ على العِلمِ والحِكمةِ وإتْقانِ الصُّنعِ، وبأنَّه أنعَمَ بالهُدى والرِّزقِ اللَّذَينِ بهما استِقامةُ حالِ البشَرِ في النَّفْسِ والجسَدِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٢).

براعة الاستهلال: هي كونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لمَا سِيق الكلامُ لأجلِه من غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطف إشارةٍ يُدركُها الذَّوقُ السَّليمُ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (ص: ٥)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأُوثِرَت الصِّفاتُ الثَّلاثُ الأُوَلُ؛ لِما لَها مِن المُناسَبةِ لغَرَضِ السُّورةِ(١).

- و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ اسمُ تفضيلٍ، حُذِفَ المُفَضَّلُ عليه؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، يعني: الأعلى على كُلِّ شَيءٍ(٢).

- وإيثارُ وصْفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في هذه السُّورةِ؛ لأنَّها تضمَّنَت التَّنويهَ بالقُرآنِ، والتَّثبيتَ على تلَقِّيه وما تَضمَّنه مِن التَّذكيرِ؛ وذلك لعُلوِّ شَأنِه؛ فهو من مُتعلَّقاتِ وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كَلامُه(٣).

- ومَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ مَحذوفٌ؛ فيَجوزُ أنْ يُقدَّرَ عامًّا، أي: خلَقَ كلَّ شَيءٍ، ويجوزُ أنْ يُقدَّرَ خاصًّا، أي: خلَقَ الإنسانَ، أو خلَقَ آدَمَ، بقَرينةِ قَرْنِ فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ بفِعلِ (سوَّى)؛ قال تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] الآيةَ(٤).

- وعطْفُ جُملةِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَها هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له؛ فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ للتَّفريعِ في الذِّكرِ باعتبارِ أنَّ الخلْقَ مُقدَّمٌ في اعتبارِ المُعتبِرِ على التَّسويةِ، وإنْ كان حُصولُ التَّسويةِ مُقارِنًا لحُصولِ الخلْقِ؛ ولكَونِ التَّسويةِ مُقارِنةً للخلْقِ عُطِفَ على فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ فِعلُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ المُفيدةِ التَّسبُّبَ، أي: تَرتُّبَ التَّسويةِ على الخلْقِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦).

- وإعادةُ اسمِ المَوصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ وقولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، مع إغناءِ حرْفِ العطْفِ عن تَكريرِه؛ للاهتِمامِ بكلِّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ وإثباتِها لمَدلولِ الموصولِ، وهذا مِن مُقتضَياتِ الإطنابِ(١).

- وأيضًا عطْفُ قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ بالفاءِ مِثلُ عطْفِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾، فعُطِفَ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَه هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له، وعَطْفُ ﴿فَهَدَىٰ﴾ على ﴿قَدَّرَ﴾ عَطْفُ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: فهَدَى كلَّ مُقدَّرٍ إلى ما قُدِّرَ له(٢).

- ومَفعولُ (هَدَى) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بما فيه قابليَّةُ الهدْيِ، فهو مَخصوصٌ بذَواتِ الإدراكِ والإرادةِ، وهي أنواعُ الحيوانِ؛ فإنَّ الأنواعَ الَّتي خلقَها اللهُ وقدَّرَ نِظامَها ولم يُقدِّرْ لها الإدراكَ مِثل تقديرِ الإثمارِ للشَّجرِ، فذلك غيرُ مرادٍ مِن قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّها مخلوقةٌ ومُقدَّرةٌ، ولكنَّها غيرُ مَهديَّةٍ لعدمِ صلاحِها للاهتداءِ. وإنْ جُعِلَ مَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا -وهو الإنسانُ- كان مَفعولُ ﴿قَدَّرَ﴾ على وِزانِه، أي: تَقديرُ كَمالِ قُوى الإنسانِ، وكانتِ الهدايةُ هِدايةً خاصَّةً، وهي دَلالةُ الإدراكِ والعقلِ(٣).

- وقيل: في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ اكتِفاءٌ(٤)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٤) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ =

والتَّقديرُ: فهَدَى وأضَلَّ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ تَذكيرٌ بخَلْقِ جِنسِ النَّباتِ مِن شَجَرٍ وغيرِه، واقتُصِرَ على بَعضِ أنواعِه -وهو الكلأُ-؛ لأنَّه مَعاشُ السَّوائمِ الَّتي يَنتفِعُ النَّاسُ بها[٢]. وذلك على قولٍ.

- وإيثارُ كَلمةِ ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ دُونَ لَفظِ النَّباتِ؛ لِما يُشعِرُ به مادَّةُ الرَّعْيِ مِن نفْعِ الأنعامِ به، ونفْعِها للنَّاسِ الَّذين يَتَّخِذونها، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاءُ: اليابسُ مِن النَّبْتِ، و﴿أَحْوَىٰ﴾ أي: المَوصوفَ بالحُوَّةِ، وهي مِن الألوانِ: سُمرةٌ تَقرُبُ مِن السَّوادِ، وهو صِفةٌ لـ﴿غُثَآءً﴾؛ لأنَّ الغُثاءَ يابسٌ، فتَصيرُ خُضرتُه حُوَّةً. وهذا الوصْفُ ﴿أَحْوَىٰ﴾ لاسْتِحْضارِ تَغيُّرِ لَونِه بعْدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، وذلك دَليلٌ على تَصرُّفِه تعالَى بالإنشاءِ وبالإنهاءِ[٤].

وقيل: ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾، أي: أخْرَجَ المَرعَى أحْوى، أي: للسَّوادِ مِن شِدَّةِ خُضرتِه ونَضارتِه لكَثرةِ رِيِّه، وحَسُنَ تَأخيرُ ﴿أَحْوَىٰ﴾؛ مِن أجْلِ الفواصِلِ[٥].

- وفي وَصْفِ إخراجِ اللهِ تعالَى المرْعَى وجَعْلِه غُثاءً أحْوى، مع ما سَبَقَه

= ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

مِنَ الأوصافِ في سِياقِ المناسَبةِ بيْنَها وبيْن الغرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ: إيماءٌ إلى تَمثيلِ حالِ القُرآنِ وهِدايتِه، وما اشتمَلَ عليه مِن الشَّريعةِ الَّتي تَنفَعُ الناسَ، بحالِ الغَيثِ الَّذي يَنبُتُ به المرْعى، فتَنتَفِعُ به الدَّوابُّ والأنعامُ، وإلى أنَّ هذه الشَّريعةَ تَكمُلُ ويَبلُغُ ما أرادَ اللهُ فيها كما يَكمُلُ المرْعى ويَبلُغُ نُضْجَه حينَ يَصيرُ غُثاءً أحْوى، وقد جاء بَيانُ هذا الإيماءِ وتَفصيلُه بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ الغَيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقيَّةٌ[١] قَبِلَت الماءَ فأنْبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ[٢] أمسَكَت الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعوا...))[٣] الحديثَ[٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن جُملةِ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ إدماجَ العِبرةِ بتَصاريفِ ما أَودَعَ اللهُ في المخلوقاتِ مِن مُختلِفِ الأطوارِ مِن الشَّيءِ إلى ضِدِّه؛ للتَّذكيرِ بالفَناءِ بعْدَ الحياةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مُدَّةَ نَضارةِ الحَياةِ للأشياءِ تُشبِهُ المدَّةَ القصيرةَ، فجِيءَ بالحرْفِ الموضوعِ لعَطْفِ ما يَحصُلُ فيه حُكْمُ المعطوفِ بعْدَ زمَنٍ قَريبٍ مِن زمَنِ حُصولِ المعطوفِ عليه، وهو الفاءُ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

(١) نَقيَّةٌ: أي: طَيِّبةٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ١٧٩).

(٢) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الأمْرُ بالتَّسبيح في قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] بِشارةٌ إجماليَّةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَيرٍ يَحصُلُ له؛ فهذا مَوقعُ البَيانِ الصَّريحِ بوَعْدِه بأنَّه سيَعصِمُه مِن نِسيانِ ما يُقرِئُه، فيُبلِّغُه كما أُوحِيَ إليه، ويَحفَظُه مِن التَّفلُّتِ عليه، ولهذا تكونُ هذه الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ البِشارةَ تُنشِئُ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَرقُّبًا لوعْدٍ بخَيرٍ يأْتيه، فبَشَّرَه بأنَّه سيَزيدُه مِن الوحْيِ، مع ما فُرِّعَ على قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. وإنَّما ابتُدِئَ بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ تَمهيدًا للمَقصودِ الذي هو ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وإدماجًا للإعلامِ بأنَّ القرآنَ في تَزايُدٍ مُستمِرٍّ، فإذا كان قد خاف مِن نِسيانِ بعضِ ما أُوحِيَ إليه على حِينِ قِلَّتِه، فإنَّه سيَتتابَعُ ويَتكاثَرُ، فلا يَخشَى نِسيانَه؛ فقد تَكفَّلَ له عدَمَ نِسيانِه مع تَزايُدِه[1].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ إمَّا للتَّأكيدِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أَوحَى اللهُ إليه حِينَئذٍ وما سيُوحِي إليه بعْدَ ذلك؛ فهو وَعْدٌ باستِمرارِ الوحْيِ في ضِمنِ الوعْدِ بالإقراءِ؛ فالسِّينُ عَلامةٌ على استِقبالِ مَدخولِها، وهي تُفيدُ تأكيدَ حُصولِ الفِعلِ، وخاصَّةً إذا اقترَنَت بفِعلٍ حاصلٍ في وقْتِ التَّكلُّمِ؛ فإنَّها تَقْتضي أنَّه يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ، وذلك تأكيدٌ لحُصولِه، وإذ قد كان قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ إقراءً، فالسِّينُ دالَّةٌ على أنَّ الإقراءَ يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ[2].

- والالْتفاتُ بضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أنسَبُ بالإقبالِ على المبشَّرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه الالْتفاتُ إلى الاسمِ الجَليلِ؛ لتَربيةِ المهابةِ، والإيذانِ بدَورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيَّةِ المسْتتبِعةِ لِسائرِ الصِّفاتِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ، وهي تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ تلك الجُملةِ ضَمانُ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حِفظَ القرآنِ مِن النَّقصِ العارضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ عطْفٌ على ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وهذا العطْفُ مِن عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ في المآلِ، وإنْ كان مَفهومُ الجُملةِ السَّابقةِ مُغايرًا لمَفهومِ التَّيسيرِ؛ لأنَّ مَفهومَها الحِفظُ والصِّيانةُ، ومَفهومَ المعطوفةِ تَيسيرُ الخَيرِ له[٣].

- وتَعليقُ التَّيسيرِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّ الشَّائعَ تَعليقُه بالأُمورِ المُسَخَّرةِ للفاعلِ -كما في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٦]-؛ للإيذانِ بقوَّةِ تَمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن اليُسْرى والتَّصرُّفِ فيها، بحيثُ صارَ ذلكَ مَلَكةً راسخةً له، كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبِلَ عليها، كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اعمَلُوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له))[٤]، ومعْنى اللاَّمِ في قولِه: ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ العِلَّةُ، أي: لأجْلِ اليُسرى، أي: لقَبولِها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٥-٤٩٤٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

- ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ جاريًا على خِلافِ مُقتضى الظَّاهِرِ بسُلوكِ أُسلوبِ القلْبِ[١]، وأنَّ الأصلَ: ونُيسِّرُ لك اليُسرى، أي: نَجعَلُها سَهلةً لك فلا تَشُقُّ عليك -وذلك على أنَّ الموصوفَ مَحذوفٌ، وتقديرُه: للشَّريعةِ. وفي وَصْفِ الشَّريعةِ -على هذا التَّقديرِ- بـ(اليُسْرى) إيماءٌ إلى استِتبابِ تَيسُّرِه لها بما أنَّها جُعِلَت يُسْرى، فلم يَبْقَ إلَّا حِفظُه مِن الموانعِ الَّتي يشُقُّ معها تَلقِّي اليُسرى، فاشتَمَلَ الكلامُ على تَيسيرَينِ: تَيسيرِ ما كُلِّفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: جَعْلِه يَسيرًا مع وَفائِه بالمقصودِ منه، وتَيسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للقيامِ بما كُلِّفَ به، ويُوجَّهُ العُدولُ عن مُقْتضى ظاهرِ النَّظمِ إلى ما جاء النَّظمُ عليه بأنَّ فيه تَنزيلَ الشَّيءِ الميسَّرِ مَنزِلةَ الشَّيءِ الميسَّرِ له، والعكْس؛ للمُبالَغةِ في ثُبوتِ الفعلِ للمفعولِ على طَريقةِ القلْبِ المقبولِ، كقولِ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ[٢].

- واليُسرى: مُؤنَّثُ الأيسَرِ، وصِيغةُ (فُعلى) تدُلُّ على قوَّةِ الوصْفِ؛ لأنَّها مُؤنَّثُ (أفْعَلَ)[٣].

---

(١) القلبُ: هو جعلُ أحدِ أجزاءِ الكلامِ مكانَ الآخَرِ لِغَيرِ داعٍ مَعْنويٍّ، دُونَ تَعقيدٍ ولا خطأٍ ولا لَبْسٍ، وهو من تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ، ويَقصِدُه البُلَغاءُ تزيينًا للكلامِ. ومنه ما ليس بمُطَّرِدٍ؛ نحو: (عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوْضِ)، و: (أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي)، ومنه مُطَّرِدٌ في الكلامِ، كثير عِندَهم، حتَّى صار أكثَرَ مِنَ الأصلِ؛ نحو قولِهم: (ما كادَ يَفعلُ كذا)، يُريدونَ: كاد ما يَفعلُ. وعليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]. يُنظر: ((شرح الأبيات المشكلة الإعراب)) لأبي علي الفارسي (ص: ١٠٥)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢١١)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٢).

الآيات (٩-١٥)

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ
ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَصْلَى﴾: أي: يَرِدُ ويدخلُ، يقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلًى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّار(١).

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ، ونجا مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاء(٢).

﴿تَزَكَّى﴾: أي: تَطَهَّرَ مِن الكُفرِ ومَعاصي اللهِ، وعَمِل بما أمَره اللهُ به، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجِسْتاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهَرَوي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ، سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ تعالى، ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكرى، ولا ينتَفِعُ بها؛ الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، ويُقاسي شِدَّةَ حَرِّها، ثمَّ لا يَموتُ في النَّارِ ولا يَحْيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، وأسبابَ ذلك، فيقولُ: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ فأقبَلَ على الصَّلاةِ للهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكَفَّل سُبحانَه بتيسيرِ جَميعِ مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، أمَرَ بدَعوةِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ[1].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه يُقرِئُه ويُيسِّرُه، أمَرَه بالتَّذكيرِ؛ إذ ثَمرةُ الإقراءِ هي انتفاعُه في ذاتِه، وانتفاعُ مَن أُرسِلَ إليهم[2].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

أي: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧-٢٥٩). =

= ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أمرٌ بتذكيرِ كُلِّ أحدٍ، فإن انتفَعَ كان تذَكُّرُه تامًّا نافِعًا، وإلَّا حَصَل أصلُ التَّذكيرِ الَّذي قامت به الحُجَّةُ، ودَلَّ ذلك على ذَمِّه واستِحقاقِه التَّوبيخَ، مع أنَّه سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، ولم يقُلْ: ذكِّرْ مَن تَنفَعُه الذِّكْرى فقط... ولم يقُلْ: سيَنتَفِعُ مَن يَخشى؛ فإنَّ النَّفعَ الحاصِلَ بالتَّذكيرِ أعَمُّ مِن تذَكُّرِ مَن يَخشى؛ فإنَّه إذا ذَكَّر قامت الحُجَّةُ على الجميعِ، والأشقى الَّذي تجَنَّبَها حصَلَ بتذكيرِه قيامُ الحُجَّةِ عليه، واستِحقاقُه لعذابِ الدُّنيا والآخِرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٩).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يظهَرُ لمقَيِّد هذه الحروفِ -عفا الله عنه- هو بقاءُ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ أن يكَرِّرَ الذِّكرى تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه: مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظَنِّ الفائدةِ... وبيانُ ذلك أنَّه تارةً يَعلمُه بإعلامِ اللهِ به، كما وقَعَ في أبي لهبٍ... وتارةً يَعلَمُ ذلك بقرينةِ الحالِ، بحيث يُبلِّغُ على أكمَلِ وَجهٍ، ويأتي بالمعجزاتِ الواضِحةِ، فيَعلَمُ أنَّ بَعضَ الأشخاصِ عالمٌ بصِحَّةِ نبُوَّتِه، وأنَّه مُصِرٌّ على الكُفرِ؛ عِنادًا ولَجاجًا، فمِثلُ هذا لا يجِبُ تكريرُ الذِّكرى له دائمًا، بعدَ أن تكَرَّرَ عليه تكريرًا تلزَمُه به الحُجَّةُ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٥٧-٢٥٩).

ثمَّ قال الشنقيطي: (إنَّما اختَرْنا بقاءَ الآيةِ على ظاهِرِها مع أنَّ أكثرَ المفسِّرينَ على صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادرِ منها، وأنَّ معناها: فذكِّرْ مُطلقًا إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ؛ لأنَّنا نرى أنَّه لا يجوزُ صَرفُ كتابِ الله عن ظَواهِرِه المُتبادرةِ منه إلَّا لدليلٍ يجبُ الرُّجوعُ له). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: الكلامُ على الاكتفاءِ، والمعنى: إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، ومكِّي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

ونسَبَ أبو حيَّانَ وأبو السُّعودِ هذا القولَ إلى: الفرَّاءِ، والنَّحَّاسِ، والجُرْجانيِّ، والزهراويِّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٢٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه بالتَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ قَسَّم النَّاسَ له إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يَقبَلُ العلاجَ، وقِسمٌ لا يَقبَلُه؛ إعلامًا بأنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بكُلٍّ مِنَ القِسمَينِ جملةً وأفرادًا على التَّعيينِ، ولم يَزَلْ عالِمًا بذلك، ولكِنَّه لم يُعَيِّنْ؛ ابتِلاءً منه لعبادِه؛ لتقومَ له الحُجَّةُ عليهم بما يتعارَفونَه بيْنَهم، وله الحُجَّةُ البالغةُ[١].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

أي: سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ، ويَخْشى عَذابَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ عطيَّةَ: (أخبرَ تعالى أنَّه سيَذَّكَّرُ مَن يَخشى اللهَ والدَّارَ الآخرةَ، وهم العُلَماءُ والمؤمِنونَ؛ كلٌّ بقَدْرِ ما وُفِّقَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: في جِبِلَّتِه نَوعَ خَشيةٍ، وهو السَّعيدُ لِما قُدِّرَ له في نَفْسِه مِن السَّعادةِ العُظمى لقَبولِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، فيَذَّكَّرُ ما يَعلَمُ منها في نَفْسِه فيَتَّعِظُ؛ فإنَّ الخَشيةَ حامِلةٌ على كُلِّ خيرٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٩).

وقال اللهُ -عزَّ وجَلَّ- عن فِرعَونَ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مَن ينتَفِعُ بالذِّكرى؛ بَيَّن مَن لا ينتَفِعُ بها[1].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾.

أي: ويبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكْرى، ولا يَنتَفِعُ بها[2].

﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ وَصْفَه الَّذي أوجَبَ له العَمَلَ السَّيِّئَ؛ ذكَرَ جَزاءَه[3].

﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢﴾.

أي: الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، فيُقاسي شِدَّةَ حَرِّها وآلامِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قيل: المرادُ بالأشقى: الكافرُ المُصِرُّ على إنكارِ المَعادِ ونحوِه، الجازمُ بنَفيِ ذلك، وهو أشقى أنواعِ الكفَرةِ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ المُتوَغِّلُ في عداوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كالوليدِ ابنِ المُغيرةِ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ مُطلقًا؛ فإنَّه أشقى مِن الفاسِقِ. وقيل: المُفَضَّلُ عليه كفَرةُ سائرِ الأُمَمِ؛ فإنَّه حيث كان المؤمنُ مِن هذه الأُمَّةِ أسْعَدَ مِن مُؤْمِنيهم، كان الكافرُ منها أشقى مِن كافِريهم. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ! قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسعةٍ وستِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثْلُ حَرِّها))(١).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ١٣﴾.

أي: ثمَّ لا يَموتُ الكافِرُ في النَّارِ الكُبْرى؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، ولا يَحْيا حياةً نافِعةً وخالِصةً مِنَ الآلامِ(٢)!

= القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

مِمَّن قال بأنَّ الكُبْرى هي نارُ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبَرُ مِن نارِ الدُّنيا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

وقيل: المرادُ بالنَّارِ الكُبرى: الطَّبَقةُ السُّفْلى مِن أطباقِ النَّارِ. ومِمَّن ذهب إليه: الفَرَّاءُ، وأبو السعودِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٦٥)، ومسلمٌ (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦).

ومِمَّن ذهب في الجُملةِ إلى هذا المعنى المذكور: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحْيَونَ))[١].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ مَن أعرَضَ عن النَّظَرِ في دلائِلِ اللهِ تعالى؛ أتبَعَه بالوَعدِ لِضِدِّه[٢].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

أي: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي وسَيِّئِ الأخلاقِ، فآمَنَ وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي منها ذِكرُ اللهِ، والصَّلاةُ، والصَّدَقةُ[٣].

= وقيل: المعنى: أنَّ نَفْسَ أحَدِهم تصيرُ في حَلْقِه، فلا تخرُجُ؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسْمِ؛ فيَحْيا. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٢) و(١٦/ ١٨٤، ١٩٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَولاها))[(١)].

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾.

أي: وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى بقلبِه ولسانِه؛ فأورَثَ له ذلك إقبالًا على الصَّلاةِ للهِ تعالى[(٢)].

= ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

قال محمد رشيد رضا: (الفَلاحُ في ذلك الوَعدِ يَشملُ الفَوزَ بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير المنار)) (٤/ ٤١).

وقال ابن جزي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الطَّهارةِ مِن الشِّركِ والمعاصي، أو بمعنى الطَّهارةِ للصلاةِ أو بمعنى أداءِ الزَّكاةِ وعلى هذا قال جماعةٌ: إنَّها في يومِ الفطرِ والمعنى أدَّى زكاةَ الفِطرِ وذكَر اسْمَ رَبِّهِ في طريقِ المصلَّى إلى أنْ يَخرُجَ الإمامُ، وصلَّى صلاةَ العيدِ، ... وقيل: المرادُ أدَّى زكاةَ مالِه وصلَّى الصلواتِ الخمسَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٥).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أنَّ خشيةَ اللهِ تعالى تَستلزِمُ طاعتَه؛ فالخائفُ مِن اللهِ ممتثِلٌ لأوامرِه، مُجتنِبٌ لنَواهيه؛ فقد أَخبَرَ سُبحانَه أنَّ مَن يخشاه يَتذكَّرُ، والتَّذكُّرُ هنا مُستلزِمٌ لعبادتِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] أنَّ العَبدَ كُلَّما اتَّقى زاد هُداه، وكُلَّما اهتَدى زادتْ تَقواه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أنَّ مَنْ آمَنَ بالآخرةِ وأَشْفَقَ منها فهو الَّذي يَنْتَفِعُ بالآياتِ والمواعِظِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أنَّ تَذَكُّرَ الوَعدِ والوعيدِ يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ والحَذَرَ منه، ولا تنفعُ الموعظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به، وخافه ورَجاه[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تَطَهَّرَ، ويَشملُ ذلك ظاهِرَه وباطِنَه، يَتزَكَّى **أوَّلًا**: مِن الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعامَلةِ اللهِ، فيَعبُدُ اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، لا يُرائي، ولا يُسَمِّعُ، ولا يَطلُبُ جاهًا، ولا رِئاسةً فيما يَتَعَبَّدُ به للهِ عزَّ وجَلَّ، وإنَّما يريدُ بهذا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخرةَ.

ثانيًا: تَزَكَّى في اتِّباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ لا يَبْتَدِعُ في شريعتِه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٦).

لا بقليلٍ ولا كثيرٍ، لا في الاعتقادِ ولا في الأقوالِ ولا في الأفعالِ، وهذا التَّزكِّي بالنِّسبةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو اتِّباعُه من غيرِ ابتِداعٍ- لا ينطبقُ تمامًا إلَّا على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ؛ طريقةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ الَّذين يؤمِنونَ بكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به نفْسَه في كتابِه، أو على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ، الَّذين لا يَبتَدِعونَ في العباداتِ القَوليَّةِ ولا في العباداتِ الفِعْليَّةِ شيئًا في دِينِ اللهِ، تَجِدُهم يَتَّبِعونَ ما جاء به الشَّرعُ، خِلافًا لِمَا يَصْنَعُه بعضُ المبتَدِعةِ في الأذكارِ المبتدَعةِ؛ إمَّا في نَوعِها، وإمَّا في كَيفيَّتِها وصِفَتِها، وإمَّا في أدائِها، كما يفعَلُه بعضُ أصحابِ الطُّرُقِ مِن الصُّوفيَّةِ وغيرِهم.

ثالثًا: تَزَكَّى بالنِّسبةِ لمُعامَلةِ الخَلْقِ، بحيثُ يُطَهِّرُ قلْبَه مِن الغِلِّ والحِقدِ على إخوانِه المسلِمينَ، فتجِدُه دائمًا طاهِرَ القَلبِ، يُحِبُّ لإخوانِه ما يُحِبُّ لنَفْسِه، لا يَرضى لأحَدٍ أنْ يَمَسَّه سُوءٌ، بل يَوَدُّ أنَّ جميعَ النَّاسِ سالِمونَ مِن كلِّ شَرٍّ، مُوَفَّقونَ لكُلِّ خَيرٍ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ استُدِلَّ بظاهِرِ الآيةِ على أنَّه يُشتَرَطُ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ مَظِنَّةُ النَّفعِ به، فإنْ جَزَم بعدَمِ الفائدةِ فيه لم يجِبْ عليه[2].

٢- قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ مفهومُ الآيةِ أنَّه إنْ لم تنفَعِ الذِّكْرى؛ بأنْ كان التَّذكيرُ يَزيدُ في الشَّرِّ، أو يَنقُصُ مِنَ الخَيرِ: لم تكُنِ الذِّكْرى مأمورًا بها، بل مَنهِيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقَسِمُ النَّاسُ فيها قِسمَينِ: مُنتَفِعونَ وغيرُ مُنتفِعينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٥).

فأمَّا المُنتفعونَ فقد ذكَرَهم بقَولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ اللهَ تعالى؛ فإنَّ خَشيةَ اللهِ تعالى وعِلْمَه بأنْ سيُجازيه على أعمالِه توجِبُ للعَبدِ الانكفافَ عن المعاصِي، والسَّعْيَ في الخَيراتِ. وأمَّا غيرُ المنتَفِعينَ فذَكَرَهم بقَولِه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي النَّارُ الموقَدةُ، الَّتي تطَّلِعُ على الأفئِدةِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مَبعوثًا إلى الكُلِّ، فيَجِبُ عليه أن يُذَكِّرَهم سواءٌ نفَعَتْهم الذِّكْرى أو لم تنفَعْهم[2]؛ فما المرادُ مِن تعليقِه على الشَّرطِ في قَولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعَلَّقَ على الشَّيءِ لا يَلزَمُ أن يكونَ عَدَمًا عندَ عَدَمِ ذلك الشَّيءِ، كقَولِه: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣]، ومنها قَولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وإذا عرَفْتَ هذا فإنَّهم ذكَروا لذِكرِ هذا الشَّرطِ فوائِدَ:

إحداها: أنَّ مَن باشَرَ فِعلًا لغَرَضٍ فلا شَكَّ أنَّ الصُّورةَ الَّتي عُلِمَ فيها إفضاءُ تلك الوَسيلةِ إلى ذلك الغَرَضِ كان إلى ذلك الفِعلِ أوجَبَ مِن الصُّورةِ الَّتي عُلِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على الأمرِ بالتَّذكيرِ مُطلقًا؛ كقوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧]. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (تنبيهٌ: هذا الإشكالُ الَّذي في هذه الآيةِ إنَّما هو على قولِ مَن يقولُ باعتبارِ دليلِ الخِطابِ الَّذي هو مفهومُ المُخالَفةِ، وأمَّا على قولِ مَن لا يَعتبرُ مفهومَ المُخالَفةِ شرطًا كان أو غيرَه -كأبي حنيفةَ- فلا إشكالَ في الآيةِ، وكذلك لا إشكالَ فيها على قولِ مَن لا يَعتبرُ مفهومَ الشَّرطِ -كالباقِلَّانيِّ-، فتكونُ الآيةُ نصَّتْ على الأمرِ بالتَّذكيرِ عندَ مَظِنَّةِ النَّفعِ، وسكَتَتْ عن حُكمِه عندَ عدمِ مَظنَّةِ النَّفعِ، فيُطلَبُ مِن دليلٍ آخَرَ، فلا تُعارِضُ الآيةُ الآياتِ الدَّالَّةَ على التَّذكيرِ مُطلقًا). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠).

فيها عدمُ ذلك الإفضاءِ؛ فلذلك قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

ثانيها: أنَّه تعالى ذكَرَ أشرَفَ الحالتَينِ، ونَبَّه على الأُخرى، كقَولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والتَّقديرُ: «فذَكِّرْ إنْ نفَعَتِ الذِّكْرى أو لم تنفَعْ»(١).

ثالثُها: أنَّ المرادَ منه: البَعثُ على الانتِفاعِ بالذِّكرى، كما يقولُ المرءُ لِغَيرِه إذا بَيَّنَ له الحَقَّ: قد أوضَحْتُ لك إنْ كُنتَ تَعقِلُ، فيكونُ مُرادُه البَعْثَ على القَبولِ والانتِفاعِ به.

رابعُها: أنَّ هذا يَجري مَجْرى تنبيهِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لا تنفَعُهم الذِّكْرى، كما يُقالُ للرَّجُلِ: ادْعُ فُلانًا إنْ أجابَك، والمعنى: وما أراه يُجيبُك(٢).

خامِسُها: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعاهم إلى اللهِ كثيرًا، وكُلَّما كانت دعوتُه أكثَرَ كان عُتُوُّهم أكثَرَ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يحتَرِقُ حَسرةً على ذلك، فقيل له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ إذِ التَّذكيرُ العامُّ واجِبٌ في أوَّلِ الأمرِ، فأمَّا التَّكريرُ فلعَلَّه إنَّما يجِبُ عندَ رجاءِ حُصولِ المقصودِ؛ فلهذا المعنى قَيَّدَه بهذا الشَّرطِ(٣).

---

(١) قال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا بالقَولِ الآخَرِ: أنَّ المعنى: سَواءٌ نَفَعَتْ أمْ لَمْ تَنْفَعْ، مِثلَما يُقالُ للإنسانِ: عَلِّمْ هذا إنْ كان يَنفَعُه العِلمُ، فالمعنى: كَرِّرْ عليه التَّعليمَ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ؛ أنَّه يُقْصَدُ بالشَّرطِ الاستمرارُ). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقْم: ١٥٦).

(٢) وقال ابن جُزَي: (﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المرادُ بهذا الشَّرطِ توبيخُ الكفَّارِ الَّذين لا تَنفَعُهم الذِّكْرى، واستِبْعادُ تأثيرِ الذِّكْرى في قُلوبِهم، كقَولِك: قد أوصَيْتُك لو سَمِعتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

وقيل: معنى قَوْله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ إذْ نَفَعَتِ الذِّكْرى، مثل قَولِه تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ومَعْناه: إذْ كُنْتُم مُؤمنين.

وقيل: المعنى: ذكِّرْ بِكُلِّ حالٍ؛ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرى، فهو تعليقٌ بمُتحقِّقٍ، والمعنى: إن نَفَعَتْ، =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ العِلمَ إنَّما يُسَمَّى «تذَكُّرًا» إذا كان قد حَصَل العِلمُ أوَّلًا ثمَّ نَسِيَه، وهذه الحالةُ غيرُ حاصلةٍ للكُفَّارِ، فكيف سَمَّى اللهُ تعالى ذلك بالتَّذَكُّرِ؟!

= وقد نَفَعتْ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩).

ونحو القولِ السَّابِقِ قولُ مَن قال: إنَّ (إنْ) بمعنى «مَا»، أيْ: فذَكِّرْ ما نَفَعَتِ الذِّكرى؛ لأنَّ الذِّكْرى نافِعةٌ بكُلِّ حالٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في معنى الآيةِ: (على كلِّ حالٍ نقولُ: لا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، حتَّى وإن ظَنَنْتَ أنَّها لا تَنفَعُ؛ فإنَّها سوف تَنفَعُك أنت، وسوف يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ هذا الشَّيءَ الَّذي ذكَّرْتَ عنه إمَّا واجبٌ وإمَّا حرامٌ، وإذا سكَتَّ والنَّاسُ يَفعَلونَ المُحَرَّمَ، قال النَّاسُ: لو كان هذا مُحَرَّمًا لذَكَّر به العلماءُ، أو لو كان هذا واجبًا لذكَّر به العلماءُ، فلا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، ولا بدَّ مِن نشرِ الشَّريعةِ، سواءٌ نفعت أم لم تنفَعْ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٤).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن اختار بقاءَ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ أن يُكرِّرَ الذِّكْري تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ الله على خَلقِه مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظنِّ الفائدةِ، أمَّا إذا عَلِم عدمَ الفائدةِ فلا يُؤْمَرُ بشيءٍ هو عالمٌ أنَّه لا فائدةَ فيه؛ قال: (حاصلُ إيضاحِ هذا الجوابِ أنَّ الذِّكْرى تَشتَمِلُ على ثلاثِ حِكَمٍ:

الأولى: خروجُ فاعِلِها مِن عُهدةِ الأمرِ بها.

الثَّانيةُ: رجاء النَّفعِ لِمَن يُوعَظُ بها.

وبيَّن اللهُ تعالى هاتَينِ الحِكمتَينِ بقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وبيَّن الأُولى منهما بقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ [الذاريات: ٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ونحوِها مِن الآياتِ. وبيَّن الثَّانيةَ بقولِه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

الثَّالثةُ: إقامةُ الحُجَّة على الخَلقِ، وبيَّنها تعالى بقولِه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وبقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ الآيةَ [طه: ١٣٤].

فالنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كرَّر الذِّكْرى حصلَتِ الحِكمةُ الأُولى والثَّالثةُ، فإنْ كان في الثَّانيةِ طمَعٌ استمَرَّ على التَّذكيرِ، وإلَّا لم يُكلَّفْ بالدَّوامِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٦٠).

وجوابُه: أنَّ لقُوَّةِ الدَّلائِلِ وظُهورِها كأنَّ ذلك العِلمَ كان حاصِلًا، ثمَّ إنَّه زال بسَبَبِ التَّقليدِ والعِنادِ؛ فلهذا أسماه اللهُ تعالى بـ«التَّذَكُّرِ»(١). أو لِما تقرَّر في الفِطَرِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ الحيوانَ لا يخلو عن الاتِّصافِ بأحَدِهما؟!

الجوابُ: أنَّ مَعناه: لا يموتُ مَوتًا يَستريحُ به، ولا يَحْيا حياةً ينتَفِعُ بها، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقيل: معناه: تَصعَدُ نَفْسُه إلى الحُلقومِ، ثمَّ لا تُفارِقُه؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسمِ؛ فيَحيا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الأشقَى في الدُّنيا ليس بحَيٍّ الحياةَ النَّافِعةَ، ولا مَيِّتًا عديمَ الإحساسِ؛ كان في الآخِرةِ كذلك(٤).

٧- في سُورةِ (النُّورِ) جاء قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، أي: أنَّ اللهَ يُطهِّرُه مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي بتَوفيقِه وهِدايتِه إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وهذا الَّذي دلَّت عليه هذه الآيةُ المذكورةُ لا يُعارِضُ قولَه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قولَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، على القولِ بأنَّ معْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تَطهَّرَ مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي، ووَجْهُ ذلك في قولِه: ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ أنَّه لا يُزكِّيها إلَّا بتَوفيقِ اللهِ وهِدايتِه إيَّاهُ للعمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٦).

الصَّالحِ، وقَبولِه منه، وكذلك الأمرُ في قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[١].

٨- قد جُمِعَت أنواعُ الخَيرِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ فإنَّ الفلاحَ نَجاحُ المرْءِ فيما يَطمَحُ إليه، فهو يَجمَعُ مَعنيَيِ الفوزِ والنَّفْعِ، وذلك هو الظَّفَرُ بالمُبْتغى مِن الخَيرِ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ استُدِلَّ به على مَشروعيَّةِ صلاةِ العيدِ، وزكاةِ الفِطرِ وتقديمِها على الصَّلاةِ، والتَّكبيرِ في العِيدِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ ثَبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتكفَّلَ له ما أزال فَرَقَه مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وما اطمَأَنَّت به نفْسُه مِن دفْعِ ما خافَه مِن ضَعفٍ عن أدائه الرِّسالةَ على وَجْهِها، وتَكفَّلَ له دفْعَ نِسيانِ ما يُوحَى إليه، إلَّا ما كان إنساؤُه مُرادًا للهِ تعالَى، ووعَدَه بأنَّه وفَّقه وهَيَّأَه لذلك، ويسَّرَه عليه؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بالتَّذكيرِ، أي: التَّبليغِ، أي: بالاستِمرارِ عليه؛ إرهافًا لعَزْمِه، وشَحْذًا لنَشاطِه؛ ليكونَ إقبالُه على التَّذكيرِ معَ حرصٍ ومحبَّةٍ؛ فإنَّ امتثالَ الأمرِ إذا عاضَدَه إقبالُ النَّفْسِ على فِعلِ المأمورِ به، كان فيه مَسرَّةٌ للْمأمورِ، فجمَعَ بيْن أداءِ الواجبِ وإرضاءِ الخاطِرِ؛ فالفاءُ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ تَفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ[٤].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عَلِمْتَ أنَّك مِن أربابِ الفُيوضاتِ الكَماليَّةِ بهِدايتِنا وتَوفيقِنا؛ فذكِّرْ[١].

- ومَفعولُ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ مَحذوفٌ؛ لقَصْدِ التَّعميمِ، أي: فذكِّرِ النَّاسَ، ودلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ الآيتَينِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ المُعلَّلةِ وعِلَّتِها، وهذا الاعتراضُ مَنظورٌ فيه إلى العُمومِ الَّذي اقتضاهُ حذْفُ مَفعولِ ﴿فَذَكِّرۡ﴾، أي: فدُمْ على تَذكيرِ النَّاسِ كلِّهم إنْ نَفَعَت الذِّكرى جَميعَهم، أي: وهي لا تَنفَعُ إلَّا البعضَ، وهو الَّذي يُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ الآيةَ[٣].

أوِ الشَّرطُ في قولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، وليس مُتعلِّقًا بالجُملةِ، ولا تَقييدًا لمَضمونِها؛ إذْ ليس المعْنى: فذَكِّرْ إذا كان للذِّكرى نفْعٌ، حتَّى يُفهَمَ منه بطَريقِ مَفهومِ المخالَفةِ ألَّا تُذكِّرَ إذا لم تَنفَعِ الذِّكرى؛ إذْ لا وَجْهَ لتَقييدِ التَّذكيرِ بما إذا كانت الذِّكرى نافعةً؛ إذْ لا سَبيلَ إلى تَعرُّفِ مَواقعِ نفْعِ الذِّكرى؛ ولذلك كان قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] مُؤوَّلًا بأنَّ المعْنى: فذَكِّرْ بالقُرآنِ، فيَتذكَّرُ مَن يَخافُ وَعيدي، بلِ المرادُ: فذَكِّرِ الناسَ كافَّةً إنْ كانت الذِّكرى تَنفَعُ جَميعَهم، فالشَّرطُ مُستعمَلٌ في التَّشكيكِ؛ لأنَّ أصْلَ الشَّرطِ بـ(إنْ) أنْ يكونَ غيرَ مَقطوعٍ بوُقوعِه، فالدَّعوةُ عامَّةٌ، وما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ النَّاسِ في قَبولِ الهُدى وعدَمِه أمرٌ اسْتأثَرَ اللهُ بعِلمِه، فأبو جَهلٍ مَدعوٌّ للإيمانِ، واللهُ يَعلَمُ أنَّه لا يُؤمِنُ، لكنَّ اللهَ لم يَخُصَّ بالدَّعوةِ مَن يُرْجى منهم الإيمانُ دُونَ غيرِهم،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والواقعُ يَكشِفُ المقدورَ، وهذا تَعريضٌ بأنَّ في القَومِ مَن لا تَنفَعُه الذِّكرى، وذلك يُفهَمُ مِن اجتِلابِ حرْفِ (إنْ) المُقتضِي عدَمَ احتِمالِ وُقوعِ الشَّرطِ أو نُدرةَ وُقوعِه؛ ولذلك جاء بعْدَه بقولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ وما لَحِقَه مِن الاعتراضِ بقولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المُشعرِ بأنَّ التَّذكيرَ لا يَنتفِعُ به جَميعُ المُذَكَّرينَ[1].

- قولُه: ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ جِنسٌ لا فرْدٌ مُعيَّنٌ، أي: سيَتذكَّرُ الَّذين يَخشَون، والضَّميرُ المُستترُ في ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مُراعًى فيه لَفظُ (مَن)؛ فإنَّه لَفظٌ مُفرَدٌ، وقد نُزِّلَ فِعلُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مَنزلةَ اللَّازمِ فلمْ يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أي: يَتذكَّرُ مَن الخشيةُ فِكرَتُه وجِبلَّتُه، أي: مَن يَتوقَّعُ حُصولَ الضُّرِّ والنَّفعِ فيَنظُرُ في مَظانِّ كلٍّ ويَتدبَّرُ في الدَّلائلِ؛ لأنَّه يَخْشى أنْ يَحِقَّ عليه ما أُنذِرَ به[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ التَّجنُّبُ: التَّباعُدُ، وأصْلُه (تَفعَّلَ) لتَكلُّفِ الكَينونةِ بجانبٍ مِن شَيءٍ، والجانِبُ: المكانُ الَّذي هو طرَفٌ لغَيرِه، وتَكلُّفُ الكَينونةِ به كِنايةٌ عن طلَبِ البُعدِ، أي: بمَكانٍ بَعيدٍ منه، أي: يَتباعَدُ عن الذِّكرى الأشْقى[3].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَشمَلُ جَميعَ المشركينَ، أي: الأشقَونَ، أو اللَّامُ للعهْدِ، والمرادُ شَخصٌ بعَينِه، أو الأشْقَى مِن الكَفَرةِ؛ لتَوغُّلِه في الكُفْرِ وعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي =

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لأنَّ إطلاقَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ في هذه الآيةِ في صَدْرِ مُدَّةِ البَعثةِ المُحمديَّةِ، فكان فيه مِن الإبهامِ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ، فأُتبِعَ بوَصْفٍ يُبيِّنُه في الجُملةِ ما نزَلَ مِن القُرآنِ مِن قبْلِ هذه الآيةِ[١].

- ومُقابَلةُ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ بـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ تُؤذِنُ بأنَّ الأشْقى مِن شَأنِه ألَّا يَخْشى، فهو سادِرٌ في غُرورِه، مُنغَمِسٌ في لَهْوِه، فلا يَتطلَّبُ لنفْسِه تَخلُّصًا مِن شَقائِه[٢].

- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ احتِباكٌ[٣]؛ ذَكَر الثَّمَرةَ في الأوَّلِ -وهي الخَشيةُ- دليلًا على حَذْفِ ضِدِّها مِنَ الثَّاني -وهي القَسوةُ النَّاشِئةُ على الحُكمِ بالشَّقاوةِ-، وذَكَر الأصلَ والسَّبَبَ في الثَّاني -وهو الشَّقاوةُ- دليلًا على حَذفِ ضِدِّه في الأوَّلِ -وهو السَّعادةُ-؛ فالإسعادُ سَبَبٌ، والخَشيةُ ثَمَرةٌ، والإشقاءُ سَبَبٌ، والقَساوةُ ثَمَرةٌ ومُسَبَّبٌ، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر مَبدأَ السَّعادةِ أوَّلًا؛ حَثًّا عليه، ومآلَ الشَّقاوةِ ثانيًا تحذيرًا منه[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالكُبرى؛ للتَّهويلِ والإنذارِ[٥].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ تدُلُّ على أنَّ مَعطوفَها مُتراخي الرُّتبةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو شِدَّةُ العذابِ؛ فإنَّ تَردُّدَ حالِه بيْن الحياةِ والموتِ وهو في عَذابِ الاحتراقِ، عَذابٌ أشدُّ ممَّا أفادَهُ

= حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

أنَّه في عَذابِ الاحتراقِ؛ ضَرورةَ أنَّ الاحتراقَ واقعٌ وقد زِيدَ فيه دَرجةٌ: أنَّه لا راحةَ منه بمَوتٍ ولا مَخلَصَ منه بحياةٍ، فمعْنى ﴿لَا يَمُوتُ﴾: لا يَزولُ عنه الإحساسُ؛ فإنَّ الموتَ فِقدانُ الإحساسِ، مع ما في هذه الحالةِ مِن الأُعجوبةِ، وهي ممَّا يُؤكِّدُ اعتبارَ تَراخي الرُّتبةِ في هذا التَّنكيلِ[1].

- وتَعقيبُ قولِه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ بقولِه: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ احتراسٌ[2]؛ لدفعِ تَوهُّمِ أنْ يُرادَ بنفْيِ المَوتِ عنهم أنَّهم اسْتَراحوا مِن العذابِ، لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ الاحتراقَ يُهلِكُ المُحرَقَ، فإذا قيل: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ توهَّمَ المُنذَرون أنَّ ذلك الاحتراقَ لا يَبلُغُ مَبلَغَ الإهلاكِ، فيَبقى المُحرَقُ حيًّا، فيُظَنُّ أنَّه إحراقٌ هيِّنٌ، فيَكونُ مَسلاةً للمُهدَّدينَ، فلِدَفعِ ذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: حياةً خالصةً مِن الآلامِ، والقَرينةُ على الوَصْفِ المذكورِ مُقابَلةُ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بقولِه: ﴿يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، وليس هذا مِن قَبيلِ نفْيِ وصْفَينِ لإثباتِ حالةٍ وسَطٍ بيْن حالَتَيْهما مِثل: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ لأنَّ ذلك لا طائلَ تَحتَه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٢) الاحتراس: هو التحرُّز مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦، ٢٨٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] وذِكرَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]، يُثيرُ استِشْرافَ السَّامعِ لمَعرفةِ أثَرِ ذلك، فابتُدِئَ بوَصْفِ أثَرِ الشَّقاوةِ، فوُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بأنَّه ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]، وأُخِّرَ ذِكرُ ثَوابِ الأتْقى؛ تَقديمًا للأهمِّ في الغرَضِ -وهو بَيانُ جَزاءِ الأشقى الَّذي يَتجنَّبُ الذِّكرى- وبقِيَ السَّامعُ يَنتظِرُ أنْ يَعلَمَ جَزاءَ مَن يَخْشى ويَتذكَّرُ، فلمَّا وُفِّيَ حقُّ المَوعظةِ والتَّرهيبةِ استُؤنِفَ الكلامُ لبَيانِ المَثوبةِ والتَّرغيبِ؛ فالمرادُ بـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ هنا عَيْنُ المرادِ بمَن يَخْشى ويَذَّكَّرُ؛ فقد عُرِّفَ هنا بأنَّه الَّذي ذَكَرَ اسمَ ربِّه، فلا جَرَمَ أنَّ ذِكرَ اسمِ ربِّه هو التَّذكُّرُ بالذِّكرى، فالتَّذكُّرُ هو غايةُ الذِّكرى المأمورِ بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ﴾[1] [الأعلى: ٩].

- وأُتِيَ بكَلِمةِ (قَدْ)؛ لِما أنَّ عندَ الإخبارِ بسُوءِ حالِ المُتجنِّبِ عن الذِّكرَى في الآخرةِ، يَتوقَّعُ السَّامعُ الإخبارَ بحُسنِ حالِ المُتذكِّرِ فيها ويَنتظِرُه[2].

- والإتيانُ بفِعلِ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أَفْلَحَ﴾؛ للتَّنبيهِ على المُحقَّقِ وُقوعُه مِن الآخرةِ، واقترانُه بحرْفِ (قدْ) لتَحقيقِه وتَثبيتِه، كما في قولِه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى الأشقَيْنَ الَّذين تَجنَّبوا الذِّكرى؛ إثارةً لهِمَّتِهم في الالْتِحاقِ بالَّذين خَشُوا فأفْلَحوا[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

- ومعْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾ عالَجَ أنْ يكونَ زكيًّا، أي: بذَلَ استطاعتَه في تَطهيرِ نفْسِه وتَزكيتِها، فمادَّةُ التَّفعُّلِ للتَّكلُّفِ وبَذْلِ الجُهدِ[1].

- وفي قولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قُدِّم التَّزكِّي على ذِكرِ اللهِ والصَّلاةِ؛ لأنَّه أصلُ العمَلِ بذلك كلِّه؛ فإنَّه إذا تَطهَّرتِ النَّفْسُ أشرَقَتْ فيها أنوارُ الهِدايةِ فعَلِمَت مَنافِعَها، وأكثَرَت مِن الإقبالِ عليها، فالتَّزكيةُ: الارتياضُ على قَبولِ الخَيرِ، والمرادُ: تَزكَّى بالإيمانِ[2].

- في قَولِه: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ احتباكٌ[3]؛ ذكَر أوَّلًا الصَّلَى دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا، وثانيًا: التَّزكيةَ دليلًا على حذفِ ضدِّها أوَّلًا[4].

- وتَفريعُ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على (ذَكَرَ اسْمَ رَبِّه)؛ لأنَّ الذِّكرَ بمَعنيَيْه -اللِّسانيِّ والتَّذكُّرِ- يَبعَثُ الذَّاكرَ على تَعظيمِ اللهِ تعالَى، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ الَّتي هي خُضوعٌ وثَناءٌ[5].

- وفيه تَرتيبٌ حسَنٌ، حيثُ رُتِّبَتْ هذه الخِصالُ الثَّلاثُ في الآيةِ على تَرتيبِ تَوَلُّدِها؛ فأصْلُها: إزالةُ الخَباثةِ النَّفسيَّةِ مِن عَقائدَ باطلةٍ وحَديثِ النَّفْسِ بالمُضمَراتِ الفاسِدةِ، وهو المُشارُ إليه بقَولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ثمَّ استِحضارُ مَعرفةِ اللهِ بصِفاتِ كَمالِه وحِكمتِه ليَخافَه ويَرجوَه، وهو المشارُ بقولِه: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، ثمَّ الإقبالُ على طاعتِه وعِبادتِه، وهو المشارُ إليه بقولِه: ﴿فَصَلَّىٰ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

والصَّلاةُ تُشيرُ إلى العِبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتِثالٌ يَأتي بعْدَه ما يُشرَعُ مِن الأعمالِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] [العنكبوت: ٤٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

الآيات (١٦-١٩)

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُؤْثِرُونَ﴾: أي: تُقَدِّمونَ وتَختارونَ، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الفانيةِ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ مَذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ؛ صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)﴾.

أي: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، فتَنشغِلونَ بأُمورِ دُنياكم عن أمورِ دِينِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾.

أي: وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها القليلةِ الفانيةِ؛ فنَعيمُ الجنَّةِ كامِلٌ لا نَقْصَ فيه، وأبَدِيٌّ لا يَنتهي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إصْبَعَه هذه -وأشار بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))(٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨﴾.

= قال ابنُ عطيَّةَ: (أخبَرَ تعالى النَّاسَ أنَّهم يُؤْثِرونَ الحياةَ الدُّنيا؛ فالكافِرُ يُؤثِرُها إيثارَ كُفرٍ، يرى أنْ لا آخِرةَ، والمؤمنُ يُؤثِرُها إيثارَ مَعصيةٍ وغَلَبَةَ نَفْسٍ إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

أي: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ مذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ[1].

﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١، ٢٩٢).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ اختيارَ ابنِ جريرٍ: (وهذا اختيارٌ حسَنٌ قويٌّ، وقد رُويَ عن قَتادةَ وابنِ زَيدٍ نحوُه، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أي: الَّذي ذُكِر في هذه السُّورةِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١١).

قال الرَّسْعَني: (وقيل: إنَّه إشارةٌ إلى ما في السُّورةِ كلِّها، وهو قولُ جماعةٍ؛ منهم: أبو العاليةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الوَعظَ العَظيمَ بالتَّسبيحِ الَّذي ذُكِرَ في هذه السُّورةِ وما تأثَّرَ عنه مِن التَّزكيةِ بالذِّكرِ الموجبِ للصَّلاةِ، والإعراضِ عن الدُّنيا والإقبالِ على الآخِرةِ؛ لأنَّه جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ، وهو ثابتٌ في كُلِّ شريعةٍ؛ لأنَّه المقصودُ بالحُكمِ، فهو لا يَقبَلُ النَّسْخَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٠٧).

وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾. وقيل: إشارةٌ إلى القرآنِ، فالآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ذلك عامًّا خَصَّ مِن بَينِه -تعظيمًا لقَدْرِ هذه الموعِظةِ- أعظَمَ الأنبياءِ الأقدَمِينَ[١].

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

أي: وتلك الصُّحُفُ هي المنَزَّلةُ على إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ اعلَمْ أنَّ للمؤمنينَ حظًّا مِن هذه المَوعظةِ على طُولِ الدَّهرِ، وذلك حظٌّ مُناسِبٌ لِمقدارِ ما يُفرِّطُ فيه أحدُهم ممَّا يُنجيه في الآخرةِ إيثارًا لِما يَجْتنيهِ مِن مَنافعِ الدُّنيا الَّتي تَجُرُّ إليه تَبِعةً في الآخرةِ على حسَبِ ما جاءتْ به الشَّريعةُ، فأمَّا الاستكثارُ مِن مَنافعِ الدُّنيا مع عدَمِ إهمالِ أسبابِ النَّجاةِ في الآخرةِ، فذلك مَيدانٌ للهِمَمِ، وليس ذلك بمَحلِّ ذمٍّ؛ قال تعالَى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٣] [القصص: ٧٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ الإشارةُ إلى مَدْحِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وذَمِّ الرَّغبةِ فيها[٤].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٠).

قال السعدي: (﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللَّذَينِ هما أشرَفُ المرسَلِينَ سِوى النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٧٧).

٣- أنَّ عَمَلَ الآخرةِ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ وَسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا؛ فإنَّ عَمَلَ الآخرةِ أشرفُ وأعلى مِن أنْ يكونَ وسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا الَّذي هو أدنى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إشارةٌ إلى التَّرغيبِ في الآخِرةِ وفي ثَوابِ اللهِ تعالى[٢]، فالآخِرةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا في كُلِّ وَصفٍ مَطلوبٍ، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ لكَونِها دارَ خُلدٍ وبَقاءٍ وصَفاءٍ، والدُّنيا دارُ فَناءٍ، فالمؤمِنُ العاقِلُ لا يختارُ الأردَأَ على الأجوَدِ، ولا يبيعُ لذَّةَ ساعةٍ بتَرحةِ الأبدِ؛ فحُبُّ الدُّنيا وإيثارُها على الآخِرةِ رأسُ كُلِّ خَطيئةٍ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إيثارُ الدُّنيا على الآخِرةِ إمَّا مِن فسادٍ في الإيمانِ، وإمَّا مِن فَسادٍ في العَقلِ، وما أكثَرَ ما يكونُ منهما؛ ولهذا نبَذَها رَسولُ اللهِ وراءَ ظَهْرِه هو وأصحابُه، وصَرَفوا عنها قُلوبَهم، واطَّرَحوها ولم يألَفوها، وهَجَروها ولم يَميلوا إليها، وعَدُّوها سجنًا لا جنَّةً، فزَهِدوا فيها حقيقةَ الزُّهدِ، ولو أرادوها لَنالوا منها كُلَّ محبوبٍ، ولَوَصَلوا منها إلى كلِّ مَرغوبٍ؛ فقد عُرِضَت عليه صلَّى الله عليه وسلَّم مفاتيحُ كُنوزِها فردَّها، وفاضت على أصحابِه فآثَروا بها، ولم يَبيعوا حَظَّهم مِن الآخِرةِ بها، وعَلِموا أنَّها مَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا دارُ مُقامٍ ومُستَقَرٍّ، وأنَّها دارُ عُبورٍ لا دارُ سُرورٍ، وأنَّها سحابةُ صَيفٍ تَنقشِعُ عن قليلٍ، وخيالُ طَيفٍ ما استتَمَّ الزِّيارةَ حتَّى آذَنَ بالرَّحيلِ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا والدُّنيا؟ إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كراكِبٍ ظَلَّ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

تحتَ شَجرةٍ، ثمَّ راح وتَركها))[١].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً ودَناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ نَصٌّ على أنَّ في القرآنِ مِمَّا في الصُّحُفِ الأُولى، وقد جاء ما يدُلُّ أنَّ معانيَ أُخرى كذلك في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى، كما في سورةِ «النَّجم» في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ * وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾[٣] [النجم: ٣٦ - ٤٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ (بَلْ) هنا عاطفةٌ جُملةً عطفًا صُوريًّا؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ لمُجرَّدِ الانتقالِ مِن ذِكرِ المُنتفِعينَ بالذِّكرى والمُتجنِّبينَ لها، إلى ذِكرِ سَببِ إعراضِ المُتجنِّبينَ -وهم الأشْقَونَ- بأنَّ السَّببَ إيثارُهم الحياةَ الدُّنيا،

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥).
والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٣٧٧)، وابنُ ماجه (٤١٠٩)، وأحمدُ (٣٧٠٩) واللَّفظُ له مِن حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (١/ ٢٩٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٢٤٢)، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٤٨٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

وذلك على قِراءةِ ﴿يُؤثِرونَ﴾ ظاهِرٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿تُؤْثِرُونَ ﴾[1] فهو إضرابٌ عن حِكايةِ أحوالِ الفَريقينِ بالانتقالِ إلى تَوبيخِ أحَدِ الفريقينِ، وهو الفريقُ الأشْقى، فالخِطابُ مُوجَّهٌ إليهم على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ؛ لكيْ لا تَنقضيَ السُّورةُ كلُّها في الإخبارِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الإضرابُ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] مِنَ التَّعريضِ للَّذين شَقُوا بتَحريضِهم على طلَبِ الفلاحِ لأنفُسِهم؛ ليَلتحِقوا بالَّذين يَخشَون ويتزَكَّون؛ ليَبطُلَ أنْ يَكونوا مَظِنَّةَ تَحصيلِ الفلاحِ، والمعْنى: أنَّهم بُعداءُ عن أنْ يُظَنَّ بهم التَّنافسُ في طلَبِ الفَلاحِ؛ لأنَّهم يُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا؛ فالمعْنى: بلْ أنتم تُؤثِرون مَنافِعَ الدُّنيا على حُظوظِ الآخِرةِ، وهذا كما يقولُ النَّاصحُ شَخصًا يظُنُّ أنَّه لا يَنتَصِحُ: لقد نَصَحْتُك، وما أظُنُّك تفعَلُ[2].

وقيل: قولُه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه الْتفاتٌ في قولِه: ﴿تُؤۡثِرُونَ ﴾ -إذا كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الكفَّارِ- لتَشديدِ التَّوبيخِ، وإذا كان مُوجَّهًا لهم وللمُسلمينَ؛ ففي حقِّ الكفَرةِ لتَشديدِ التَّوبيخِ، وفي حَقِّ المسلمينَ لتَشديدِ العِتابِ[3].

- والإيثارُ: اختيارُ شَيءٍ مِن بيْنِ مُتعدِّدٍ، والمعْنى: تُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا بعِنايَتِكم واهتِمامِكُم. ولم يُذكَرِ المُؤثَرُ عليه؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا تدُلُّ عليه، أي: لا تَتأمَّلون فيما عَدا حَياتَكم هذه، ولا تَتأمَّلون في حياةٍ ثانيةٍ؛ فالمشرِكون

(١) قرأ أبو عَمرٍو ﴿يُؤْثِرُونَ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿تُؤۡثِرُونَ ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩).

لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، وإذا ذُكِّروا بالحياةِ الآخِرةِ وأُخبِروا بها، لم يُعِيروا سَمْعَهم ذلك، وجَعَلوا ذلك مِن الكلامِ الباطلِ، وهذا مَورِدُ التَّوبيخِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ مؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ والعِتابِ، أي: تُؤثِرونَها على الآخِرةِ، والحالُ أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ في نَفْسِها؛ لِما أنَّ نَعيمَها مع كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ اللَّذَّةِ خالِصٌ عن شائبةِ الغائلةِ، أبَديٌّ لا انْصِرامَ له، وعدَمُ التَّعرُّضِ لبَيانِ تَكدُّرِ نَعيمِ الدُّنيا بالمُنغِّصاتِ وانقِطاعِه عمَّا قَليلٍ؛ لِغايةِ ظُهورِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذِكرُ الإيثارِ والدُّنُوِّ أوَّلًا يدُلُّ على التَّركِ والعلوِّ ثانيًا، وذِكرُ الخَيرِ والبقاءِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّهما أوَّلًا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وتَنويهٌ به بأنَّه مِن الكلامِ النَّافعِ الثَّابتِ في كُتُبِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ، قُصِدَ به الإبلاغُ للمشرِكينَ الَّذين كانوا يَعرِفون رِسالةَ إبراهيمَ ورِسالةَ مُوسى؛ ولذلك أُكِّدَ هذا الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى المُنكِرين[٥].

- ووَجْهُ جمْعِ الصُّحفِ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانتْ له صُحفٌ، وأنَّ مُوسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

عليه السَّلامُ كانت له صُحفٌ كَثيرةٌ، وهي مَجموعُ صُحفِ أسفارِ التَّوراةِ[١].

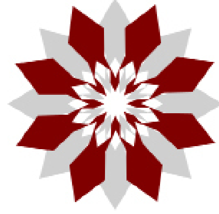
- جاء نظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ على أُسلوبِ الإجمالِ والتَّفصيلِ؛ ليَكونَ لهذا الخبَرِ مَزيدُ تَقريرٍ في أذهانِ النَّاسِ؛ فقولُه: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]. وفي إبهامِها ووصْفِها بالقِدَمِ، ثمَّ بَيانِها وتَفسيرِها مِن تَفخيمِ شَأنِها؛ ما لا يَخْفى[٣].

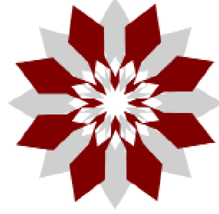


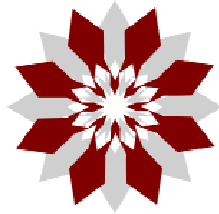
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧).

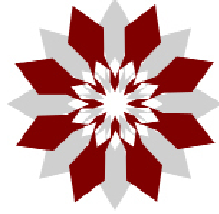


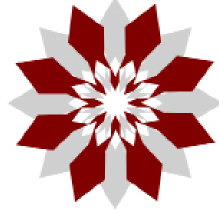


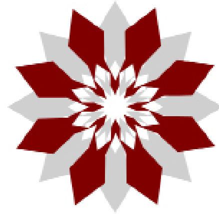


تَفْسيرُ

سُورَةِ الغاشِيةِ







سورةُ الغاشِيةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الغاشيةِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾؛ فعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٢].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العِيدَينِ، وفي الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الغاشيةِ لوُقوعِ لفظِ الغاشيةِ في أوَّلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠).
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).
صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[١].

وتقدَّمَ حديثَا سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الغاشيةِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ أحوالِ الكافِرينَ والمؤمنينَ يومَ القيامةِ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ جزاءِ الكافِرينَ والمُؤمنينَ يومَ القيامةِ.

٢- ذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِه.

٣- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ، وتهديدُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ بالعَذابِ.

٤- تقريرُ وُقوعِ البَعْثِ والحِسابِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨). وتُنظر الحكمةُ مِن قراءتِهما فيما تقدَّم (ص: ١٢٠).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٧١).

الآيات (١-٧)

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْغَاشِيَةِ﴾: هي القيامةُ تَغْشى النَّاسَ بالأهوالِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿نَاصِبَةٌ﴾: تَعمَلُ ما تتعَبُ به، ومعنى النَّصَبِ: الدُّؤوبُ في العَمَلِ بالتَّعَبِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ[٢].

﴿تَصْلَى﴾: أي: تدخُلُ النَّارَ وتذُوقُ حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٣].

﴿آنِيَةٍ﴾: أي: بالِغةِ الحرارةِ قد انتهى غَلَيانُها، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٤].

﴿ضَرِيعٍ﴾: أي: نبتٍ ذي شَوكٍ هو أخبَثُ الطَّعامِ وأبشَعُه[٥].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال له: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟

ثمَّ فصَّل الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في ذلك اليومِ، فقال: في ذلك اليوم تكونُ وُجوهٌ ذَليلةً، يعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابسٌ ذو شَوكٍ، لا يُسمِنُ هذا الضَّريعُ آكِليه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها[1]؟

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

وذكَرَ ابنُ فارس أنَّ (ضرع) أصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ، ثمَّ قال: (وممَّا شَذَّ عن هذا الباب: الضَّريعُ، وهو نَبْتٌ. ومُمْكِنٌ أنْ يُحْمَلَ على البابِ فيُقالُ ذلك لِضَعْفِه، إذا كان لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِنْ جُوعٍ). ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وقال الزمخشري: (الضَّريعُ يَبِيسُ الشِّبْرِقِ، وهو جنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاه الإبلُ ما دام رَطْبًا، فإذا يَبِسَ تحامَتْه الإبلُ، وهو سمٌّ قاتلٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن يكونَ الخِطابُ مُوَجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وَحْدَه، وأمَّتُه تَبعٌ له، ويجوزُ أن يكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ﴿٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّل أمْرَها بانبهامِها وعُمومِها، زاد في التَّهويلِ بما ذَكَر مِن أحوالِها في تفصيلِ النَّاسِ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وبدأ بالشَّقِيِّ؛ لأنَّ المقامَ لإنذارِ المؤثِرينَ للحياةِ الدُّنيا[١].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ﴿٢﴾.

أي: تكونُ وُجوهٌ يومَ القيامةِ ذَليلةً[٢].

﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ ﴿٣﴾.

أي: يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُجهِدةً مُرهِقةً[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال البِقاعي: (أي: ذَليلةٌ مُخبتةٌ مِنَ الخَجَلِ والفضيحةِ والخَوفِ والحَسْرةِ الَّتي لا تنفَعُ في مِثْلِ هذا الوَقتِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ ذلك واقِعٌ يومَ القيامةِ، فيُكَلَّفونَ بجَرِّ السَّلاسِلِ والأغلالِ، أو غيرِ ذلك مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٢).

ومِمَّن قال مِن السَّلفِ في الجملةِ إنَّ هذا العملَ والنَّصَبَ في النَّارِ والعذابِ يومَ القيامةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

وقيل: يكونُ ذلك في الدُّنيا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّيٌّ، والقرطبي، وابن عادل. =

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وَصَفَهم تعالى بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ؛ شَرَح بعدَ ذلك كيفيَّةَ مَكانِهم ومَشرَبِهم ومَطعَمِهم[1].

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

= يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وزَيدُ ابنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

قال القرطبي: (ثمَّ قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وُجوهٌ عامِلةٌ ناصِبةٌ في الدُّنيا، خاشِعةٌ في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦).

وقال البِقاعي: (ويجوزُ أن يُرادَ بها الَّذين تَعِبوا ونَصَبوا في الدُّنيا أجسامَهم وهم على غيرِ دِينِ الإسلامِ، كالرُّهبانِ مِنَ النَّصارى بعدَ النَّسخِ، وزنادقةِ المتصَوِّفةِ مِنَ الفلاسِفةِ وأتْباعِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣، ٤).

وقال القاسمي: (... وجُوِّزَ أن يكونَ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ إشارةً إلى عَمَلِهم في الدُّنيا، أي: عَمِلَت ونَصِبَت في أعمالٍ لا تُجْدي عليها في الآخِرةِ، فيكونُ بمنزلةِ: حابطةٌ أعمالُها، أو جُعِلَت أعمالُها هباءً مَنثورًا، كما يدُلُّ عليه آياتٌ أُخَرُ، ويؤيِّدُه مقابلةُ هذه الآيةِ لِقَولِه في أهلِ الجنَّةِ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٩]، وذلك السَّعيُ هو الَّذي كان في الدُّنيا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٠-٤٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: عَمِلَت في الدُّنيا لغيرِ اللهِ، فنَصِبَت وتَعِبَت في الآخرةِ بعَذابِ اللهِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٩).

أي: يَدخُلونَ نارًا مُتوقِّدةً شَديدةَ الحرارةِ[١].

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مكانَهم؛ ذَكَر شَرابَهم[٢].

وأيضًا لَمَّا كان مَن في الحَرِّ أحوجَ شَيءٍ إلى ما يُبَرِّدُ باطِنَه، قال[٣]:

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

أي: يُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر شَرابَهم؛ ذَكَر طَعامَهم[٥].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٣).

أي: ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ[(١)].

﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَصَر أكْلَهم في هذا، وكان الضَّريعُ المعروفُ عِندَ العَرَبِ قد يَتصَوَّرُ متصَوِّرٌ أنَّه لو أُكرِهَ شَيءٌ على أكْلِه أسمنَهَ أو سَدَّ جوعتَه؛ نفى عنه فائدةَ الطَّعامِ[(٢)].

﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾.

أي: لا يَعودُ هذا الضَّريعُ على آكِليه بسِمَنٍ يُصلِحُ أجسادَهم، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ؛ فليس مِن وَرائِه سِوى الضَّرَرِ المحْضِ[(٣)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ دَليلٌ على اختصارِ الكلامِ، والإشارةِ إلى المعنى؛ لأنَّ الغاشيةَ -واللهُ أعلمُ- هي القيامةُ، فلَمْ يَذْكُرْ يومَها واقتصرَ على فِعْلِها، ثُمَّ قال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾، فذَكَر الوُجوهَ وحْدَها، وهي لا تكونُ مُنفَرِدةً عن الأجسامِ بهذه الأوصافِ إلَّا بمُشارَكَتِها، ثُمَّ قال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾، وهي لا تَصْلاه وَحْدَها، ثُمَّ قال: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ وإنَّما تُسْقَى البُطونُ، فأَخْبَرَ بكلِّ ذلك عن الوُجوهِ؛ لأنَّها غُرَّةُ الأبدانِ، وأرفَعُ شيءٍ في الأجسادِ. واللهُ أعلمُ. وكذلك الوُجوهُ الأُخَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

الَّتي وَصَفَها بالنَّاعمةِ، وهي تُنَعَّمُ مع أبدانِها ولا تَنْفَرِدُ بنَعيمِها، وتكونُ مع الأبدانِ في الجَنَّةِ العاليةِ، و﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ إلى آذانِها، فنَسَبَ كلَّ ذلك إليها اختصارًا، وفَصاحةً، وإشارةً إلى المعاني المفهومةِ عندَ العربِ الَّذين نَزَلَ القرآنُ بلُغَتِهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أنَّ إسنادَ صِفاتِ الذَّاتِ لبَعضِ أجزائِها هو مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وكإسنادِ الكَذِبِ والخَطيئةِ إلى النَّاصيةِ في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[٢] [العلق: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ سُؤالٌ: كيف تكونُ هذه العَينُ في نارِ جهنَّمَ، والعادةُ أنَّ الماءَ يُطفِئُ النَّارَ؟!

الجوابُ:

أوَّلًا: أنَّ أمورَ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدُّنيا، لو أنَّها قِيسَتْ بأُمورِ الدُّنيا ما استطَعْنا أنْ نَتَصَوَّرَ كيف يكونُ، ألَيستِ الشَّمسُ تدنو يومَ القيامةِ مِن رُؤوسِ النَّاسِ على قَدْرِ مِيلٍ؟ -والميلُ إمَّا مِيلُ الْمُكْحُلةِ، وهو نصفُ الإصبَعِ، أو مِيلُ المسافةِ: كيلو وثُلُثٌ أو نحوُ ذلك-، وحتَّى لو كان كذلك فإنَّه لو كانتِ الآخرةُ كالدُّنيا لَشَوَتِ النَّاسَ شيًّا، لكنَّ الآخرةَ لا تُقاسُ بالدُّنيا، أيضًا يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ في مكانٍ واحدٍ؛ منهم مَن هو في ظُلمةٍ شديدةٍ، ومنهم مَن هو في نُورٍ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، يُحشَرونَ في مكانٍ واحدٍ ويَعرَقونَ؛ فمِنهم مَن يَصِلُ العَرَقُ إلى كَعْبِه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى رُكبَتَيه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى حِقْوَيه، ومع ذلك هم في مكانٍ واحدٍ. إذَن أحوالُ الآخرةِ لا يجوزُ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٢).

أنْ تُقاسَ بأحوالِ الدُّنيا.

ثانيًا: أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ها نحن الآن نَجِدُ أنَّ الشَّجَرَ الأخضرَ تُوقَدُ منه النَّارُ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، الشَّجرُ الأخضَرُ رَطْبٌ، ومع ذلك إذا ضُرِبَ بعضُه ببعضٍ أو ضُرِبَ بالزَّندِ انقدَحَ وخَرَجَ منه نارٌ حارَّةٌ يابسةٌ، وهو رَطْبٌ باردٌ؛ فاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهم يُسقَونَ مِن عَينٍ آنيةٍ في النَّارِ، ولا يتنافى ذلك مع قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: كيف يُوجَدُ النَّبتُ في النَّارِ؟

الجوابُ: لِمَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبتَ يُوجَدُ في النَّارِ؟! فإنَّه لَمَّا لم يُستبعَدْ بَقاءُ بَدَنِ الإنسانِ -مع كَونِه لحمًا ودَمًا- في النَّارِ أبَدَ الآبادِ، فكذا هاهنا، وكذا القَولُ في سلاسِلِ النَّارِ وأغلالِها، وعَقاربِها وحَيَّاتِها(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يُعارِضُ قولَه تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّ الاختِلافَ بحَسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَنِ اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعَامُه مِن غِسْلينٍ، ومَنِ اتَّصَفَ بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ(٣)، فالعذابُ ألوانٌ، والمعَذَّبونَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا طعامَ له إلَّا مِن غِسْلينٍ، ومنهم مَن لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

طعامَ له إلَّا مِن ضَريعٍ، ومنهم مَن لا طعامَ له إلَّا الزَّقُّومُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[١] [الحجر: ٤٤].

الثَّاني: أن يكونَ أحَدُهما في حالٍ، والآخَرُ في حالٍ[٢].

الثَّالثُ: أنَّ المعنى أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضَّريعَ لا يَصدُقُ عليه اسمُ الطَّعامِ، ولا تأكُلُه البَهائِمُ، فأحرى الآدَميُّونَ! وكذلك الغِسلِينُ ليس مِنَ الطَّعامِ، فمَن طَعامُه الضَّريعُ لا طَعامَ له، ومَن طَعامُه الغِسلينُ كذلك. ومنه قَولُهم: فلانٌ لا ظِلَّ له إلَّا الشَّمسُ، ولا دابَّةَ إلَّا دابَّةُ ثَوبِه، يَعْنونَ القَمْلَ، ومُرادُهم: لا ظِلَّ له أصلًا، ولا دابَّةَ له أصلًا، وعليه فلا إشكالَ. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[٣]. وهذا الجوابُ خِلافُ ظاهِرِ القرآنِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ مُناسَبةٌ: في أنَّ عُلومَ أهلِ الباطِلِ وأعمالَهم الَّتي كانت لغيرِ اللهِ تعالى صَيَّرَها اللهُ تعالى حميمًا سَقاهم إيَّاه، كما أنَّ طعامَهم مِن ضَريعٍ لا يُسمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، وهو تلك العُلومُ والأعمالُ الباطِلةُ الَّتي كانت في الدُّنيا كذلك لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِن جُوعٍ، وهؤلاء هم الَّذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[٤] [البقرة: ١٦٧].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٦).

٧- وصْفُ ﴿ضَرِيعٍ﴾ بأنَّه ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ لتَشويهه، وأنَّه تَمحَّضَ للضُّرِّ، فلا يَعودُ على آكليه بسِمَنٍ يُصلِحُ بعضَ ما الْتفَحَ مِن أجسادِهِم، ولا يُغْني عنْهم دفْعَ ألَمِ الجوعِ، ولعلَّ الجُوعَ مِن ضُروبِ تَعذيبِهم؛ فيَسألون الطَّعامَ فيُطعَمون الضَّريعَ، فلا يَدفَعُ عنْهم ألَمَ الجوعِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾

- هذا الاستِفهامُ تَوقيفٌ، وفائدتُه تَحريكُ نفْسِ السَّامعِ إلى تَلقِّي الخبَرِ. وقيل: المعْنى: هلْ كان هذا مِن عِلمِك لَولا ما علَّمْناك؟ وفي هذا تَعديدُ النِّعمةِ. وقيل: هلْ بمعنى (قدْ)(٢)؛ فهو استفهامٌ أُريدَ به التَّعجيبُ ممَّا في حيِّزه، والتَّشويقُ إلى استِماعِه، والإشعارُ بأنَّه مِن الأحاديثِ البَديعةِ الَّتي حقُّها أنْ يَتناقَلَها الرُّواةُ، ويَتنافَسَ في تَلقِّيها الوُعاةُ مِن كلِّ حاضِرٍ وَبادٍ(٣).

- وأيضًا الافتتاحُ بالاستِفهام عن بُلوغِ خبَرِ الغاشيةِ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى مَعرفةِ هذا الخبَرِ؛ لِما يَترتَّبُ عليه مِن الموعظةِ، وكونُ الاستفهامِ بـ(هَل) المفيدةِ معْنى (قدْ) فيه مَزيدُ تَشويقٍ؛ فهو استفهامٌ صُوريٌّ يُكنَّى به عن أهمِّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأْنُه أنْ يكونَ بلَغَ السَّامعَ(٤)؛ فالاستفهامُ للتَّشويقِ، كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠]. ويجوزُ أن يكونَ للتَّعظيمِ؛ لِعِظَمِ هذا الحديثِ عن الغاشيةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

- وأيضًا في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصِيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أن يُخبِرَ مُخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ يَنبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له، صدَّر له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمْعَه وذِهْنَه للمُخبَرِ به؛ فتارةً يُصَدِّرُه بـ «ألَا»، وتارةً يُصدِّرُه بـ «هلْ»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مُخَوِّفًا، وإمَّا منَبِّهًا على عَظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقَرِّرًا له، فقولُه تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضَمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدَبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه. وفيه أمرٌ آخَرُ، وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك علَمٌ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك، فهلْ أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أوْ لم يأتِكَ إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقِعِه مِن جميعِ مَوارِدِه؛ يَشهَدْ أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا[1].

- وتَعريفُ ما أُضِيفَ إليه ﴿حَدِيثُ﴾ بوَصْفِه ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الَّذي يَقْتضي مَوصوفًا لم يُذكَرْ؛ هو إبهامٌ لِزيادةِ التَّشويقِ إلى بَيانِه الآتي؛ ليَتمكَّنَ الخبَرُ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

- قولُه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الاستِفهامِ التَّشويقيِّ؛ كأنَّه قيلَ مِن جِهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ما

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

أتانِي حَديثُها؛ فما هو؟ فقيلَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ...﴾[(١)].

- و﴿وُجُوهٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ خبرٌ، والجُملةُ بيانٌ لحَديثِ الغاشيةِ، كما يُفيدُه الظَّرفُ مِن قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ فإنَّ (ماصَدَقَه)[(٢)] هو يومُ الغاشيةِ، ويكونُ تَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ -وهو مُبتدأٌ- قُصِدَ منه النَّوعُ[(٣)].

- ويَتعلَّقُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بكَلمةِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ قُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتِمامِ بذلك اليَومِ[(٤)].

- و﴿خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أخبارٌ ثلاثةٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾، والمعْنى: أناسٌ خاشِعون... إلخ، فالوُجوهُ كِنايةٌ عن أصحابِها؛ إذ يُكنَّى بالوَجهِ عن الذَّاتِ، وقَرينةُ ذلك هنا قولُه بعْدَه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ جَماعةَ العُقلاءِ؛ فالمرادُ بالوُجوهِ في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وقولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ جميعُ الأبدانِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ لا يَختصُّ بالوُجوهِ. وأُوثِرَت الوُجوهُ بالكِنايةِ عن أصحابِها هنا وفي مِثلِ هذا المَقامِ؛ لأنَّ حالةَ الوُجوهِ تُنبِئُ عن حالةِ أصحابِها؛ إذ الوجْهُ عُنوانٌ عمَّا يَجِدُه صاحِبُه مِن نَعيمٍ أو شِقوةٍ، كما يُقالُ: خرَجَ بوَجْهٍ غيرِ الوجْهِ الَّذي دَخَلَ به[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

- ولَمَّا كانتْ (إذ) مِن الأسماءِ الَّتي تَلزَمُ الإضافةَ إلى جُملةٍ، فالجُملةُ المُضافُ إليها (إذ) في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ مَحذوفةٌ، عُوِّض عنها التَّنوينُ، ويدُلُّ عليها ما في اسمِ الغاشيةِ مِن لَمْحِ أصْلِ الوصفيَّةِ؛ لأنَّها بمعْنى: الَّتي تَغْشى النَّاسَ، فتَقديرُ الجُملةِ المحذوفةِ: يومَ إذ تَغْشى الغاشيةُ، أو يدُلُّ على الجُملةِ سِياقُ الكلامِ، فتُقدَّرُ الجُملةُ: يومَ إذ تَحدُثُ أو تقعُ[(١)].

- وأُوثِرَ وصْفُ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَاصِبَةٌ﴾ تَعريضًا بأهلِ الشَّقاءِ؛ بتَذكيرِهم بأنَّهم تَركوا الخُشوعَ للهِ، والعمَلَ بما أمَرَ به، والنَّصَبَ في القِيامِ بطاعتِه، فجَزاؤهم خُشوعُ مَذلَّةٍ، وعمَلُ مَشقَّةٍ، ونصَبُ إرهاقٍ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾

- جُملةُ ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا، يُقالُ: صَلِيَ يَصْلى؛ إذا أصابَه حرُّ النَّارِ؛ وعليه فذِكرُ ﴿نَارًا﴾ بعْدَ ﴿تَصْلَى﴾ لِزيادةِ التَّهويلِ والإرهابِ، وليُجْرى على ﴿نَارًا﴾ وصْفُ ﴿حَامِيَةً﴾[(٣)].

- ووَصْفُ النَّارِ بوَصْفِ ﴿حَامِيَةً﴾ لإفادةِ تَجاوُزِ حرِّها المِقدارَ المعروفَ؛ لأنَّ الحَمْيَ مِن لَوازمِ ماهيَّةِ النَّارِ، فلمَّا وُصِفَت بـ ﴿حَامِيَةً﴾ كان دالًّا على شِدَّةِ الحَمْيِ[(٤)].

- وأخبَرَ عن ﴿وُجُوهٌ﴾ خبَرًا خامسًا بجُملةِ ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، أو هو حالٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ضَميرِ ﴿تَصۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ الاحتراقِ بالنَّارِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطَلُّبَ إطفاءِ حَرارتِها بالشَّرابِ، فجُعِلَ شَرابُهم مِن عَينٍ آنيةٍ[١].

- قولُه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سَبَق، كأنَّه قِيل: وما هو طَعامُهم بعْدَما ذُكِرَ شَرابُهم[٢]؟ فذِكرُ السَّقيِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطلُّبَ مَعرفةِ ما يَطعَمونَه؛ فجِيءَ به خبَرًا سادِسًا، أو حالًا مِن ضَميرِ ﴿تُسۡقَىٰ﴾، أي: يُطعَمون طَعامَ إيلامٍ وتَعذيبٍ، لا نفْعَ فيه لهمْ، ولا يَدفَعُ عنهم ألَمًا[٣].

- وضَميرُ ﴿لَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ﴿وُجُوهٞ﴾ باعتِبارِ تَأويلِه بأصحابِ الوُجوهِ؛ ولذلك جِيءَ به ضَميرَ جَماعةِ المُذكَّرِ، والتَّذكيرُ تَغليبٌ للذُّكورِ على الإناثِ[٤].

- قولُه: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ تَنكيرُ الجوعِ للتَّحقيرِ، أيْ: لا يُغْني مِن جُوعٍ ما. وتَأخيرُ نَفْيِ الإغناءِ منه؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، والتَّوسُّلِ به إلى التَّصريحِ بنفْيِ كِلا الأمْرَينِ؛ إذْ لو قُدِّمَ لَمَا احتِيجَ إلى ذِكرِ نفْيِ الإسمانِ؛ ضَرورةَ استِلْزامِ نفْيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيَّاه، بخِلافِ العكسِ؛ ولذلك كُرِّرَ (لا) لتَأكيدِ النَّفيِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ[٦]؛ فجُملةُ ﴿وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ جُملةٌ لا يُمكِنُ طَرحُها مِن الكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ ساغَ لمُتوهِّمٍ أنْ يَتوهَّمَ أنَّ هذا الطَّعامَ الَّذي ليس مِن جِنسِ طَعامِ البشَرِ انتَفَت عنه صِفةُ الإسمانِ، ولكنْ بَقِيَت له صِفةُ الإغناءِ، فجاءت جُملةُ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تَتْميمًا للمعْنى المرادِ؛ وهو أنَّ هذا الطَّعامَ انتَفَت عنه صِفةُ إفادةِ السِّمَنِ والقوَّةِ كما انتَفَت عنه صِفةُ إماطةِ الجوعِ وإزالتِه. وقيل: هو من بابِ نفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه، على حدِّ قَولِ امرئِ القَيسِ:

على لاحِـــبٍ لا يُـهْـتـدَى بـمَـنـارِهِ[(١)]

أي: إنَّه لا مَنارَ له أصلًا، وكما تقولُ: ليس لفُلانٍ ظِلٌّ إلَّا الشَّمسَ، تُريدُ نفْيَ الظِّلِّ على التَّوكيدِ، وليس ببَعيدٍ، والأوَّلُ أرصَنُ وأبعَدُ عن التَّكلُّفِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ فيه احتِباكٌ[(٣)]: نَفْيُ السِّمَنِ أوَّلًا يدُلُّ على إثباتِ الهُزالِ ثانيًا، ونَفيُ الإغناءِ مِنَ الجُوعِ ثانيًا يدُلُّ على نَفيِ الشِّبَعِ أوَّلًا[(٤)].



(١) يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أنَّ فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨).

الآيات (٨-١٦)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِسَعْيِهَا﴾: أي: لِعَمَلِها الَّذي عَمِلَتْ في الدُّنْيا مِن طاعةِ رَبِّها، والسَّعْيُ: المَشيُ السَّريعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودةِ[1].

﴿لَاغِيَةً﴾: أي: لَغوًا أو باطِلًا مِنَ القَولِ، واللَّغْوُ مِنَ الكَلامِ: ما لا يُعتَدُّ به، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[2].

﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو إناءٌ مستديرُ الرَّأسِ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

﴿وَنَمَارِقُ﴾: أي: وَسائِدُ ومَرافِقُ، واحدتُها: نُمْرُقةٌ ونِمْرِقةٌ[١].

﴿وَزَرَابِيُّ﴾: أي: بُسُطٌ فاخِرةٌ، واحدتُها: زَرْبِيَّةٌ[٢].

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي: مَبسوطةٌ مُتفَرِّقةٌ في المجالِسِ، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّةِ مِن المؤمنينَ وما هم فيه مِن النَّعيمِ: وتكونُ وُجوهُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ عليها أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، راضِينَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ، وهم في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، لا يَسمَعونَ فيها ما لا فائِدةَ فيه مِن الكَلامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ صِفاتِ الجنَّةِ، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ مِن غَيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أَسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، وفُرُشٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وَعيدَ الكُفَّارِ؛ أَتْبَعَه بشَرحِ أحوالِ المُؤمِنينَ[(١)].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

أي: يَظهَرُ على وُجوهِ المُؤمِنينَ يومَ القيامةِ أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، والرَّاحةِ والرَّفاهِيَةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

أي: أصحابُ تلك الوُجوهِ راضُونَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ[(٣)].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّعْيَ؛ أَتْبَعَه ثَوابَه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر وَصفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا؛ وَصَف دارَ الثَّوابِ ثانيًا[١].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠﴾.

أي: في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، وفي مَوضِعٍ عالٍ[٢].

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما كان مِن هذا لا يَصفُو وفيه ما يُكرَهُ مِنَ الكَلامِ، قال مُنزِّهًا لها عن كُلِّ سُوءٍ[٣]:

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

أي: لا يَسمَعونَ فيها أيَّ كَلِمةٍ لا فائِدةَ مِن وَرائِها[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

أي: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ بماءٍ أو بغَيرِه مِنَ الأشربةِ، مِن غَيرِ أُخدودٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَبْقَ بَعدَ الأكلِ والشُّربِ إلَّا الاتِّكاءُ؛ قال مُفْهِمًا أنَّهم مُلوكٌ[(٢)]:

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فيها أَسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، يَجلِسونَ عليها أو يَضطَجِعونَ[(٣)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُستريحُ يَحتاجُ إلى تَكرارِ الشُّربِ وما يَشرَبُ فيه، قال[(٤)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فيها أكْوابٌ[(١)]، مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم، كلَّما أرادوها وجَدوها حاضرةً عندَهم، قد أُعِدَّتْ لهم بأشرِبَتِها[(٢)].

(١) قال البِقاعي: (فهو [أي: الكُوبُ] صالِحٌ للمُناوَلةِ والشُّربِ مِن كُلِّ جِهةٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

قال الرازي: (وفي قَولِه: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّها مُعَدَّةٌ لِأهْلِها، كالرَّجُلِ يَلتَمِسُ مِنَ الرَّجُلِ شَيئًا فيَقولُ: هو هاهنا مَوضوعٌ، بمعنَى: مُعَدٌّ.

وثانيها: مَوضوعةٌ على حافَاتِ العُيونِ الجارية، كُلَّما أرادوا الشُّربَ وَجَدوها مَمْلوءةً مِن الشَّرابِ.

وثالِثُها: مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم؛ لِاسْتِحْسانِهم إيَّاها؛ بسببِ كَونِها مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مِن جَوهَرٍ، وتَلَذُّذِهم بالشَّرابِ منها.

ورابِعُها: أنْ يَكونَ المرادُ: مَوضوعة عن حَدِّ الكِبَرِ، أيْ: هيَ أَوْساطٌ بيْنَ الصِّغَرِ والكِبَرِ، كقَولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: مُعَدَّةٌ بأشْرِبَتِها، حاضِرةٌ عندَهم لِمَن أرادها: ابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: مَوضوعةٌ عندَهم بيْنَ أيديهم: البغويُّ، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦١).

وقال السعدي جامِعًا بيْن القَولَينِ السَّابقَينِ: (وُضِعَت بيْنَ أيديهم، وأُعِدَّت لهم، وصارت تحتَ طَلَبِهم واختيارِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

وقال ابنُ جرير: (مَوضوعةٌ على حافَةِ العَينِ الجاريةِ، كُلَّما أراد الشُّربَ وجَدَها مَلْأَى مِن الشَّرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦).

كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾.

أي: وفيها وَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، يَستَنِدونَ إليها[١].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن هو بهذه المنزلةِ يَحتاجُ إلى المسانِدِ والفُرُشِ الزَّائِدةِ، قال تعالى[٢]:

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

أي: وفيها فُرُشٌ فاخِرةٌ جَميلةٌ كَثيرةٌ مُنتَشِرةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

قال الواحدي: («نَمارِقُ» يعني: الوَسائِدَ في قَولِ الجَميعِ، واحِدُها نُمْرُقةٌ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الجنَّةَ دارُ جِدٍّ وحَقيقةٍ، فلا كَلامَ فيها إلَّا لفائِدةٍ؛ لأنَّ النُّفوسَ فيها تخلَّصَت مِن النَّقائصِ كُلِّها، فلا يَلَذُّ لها إلَّا الحقائِقُ والسُّمُوُّ العَقليُّ والخُلُقيُّ، ولا يَنطِقونَ إلَّا ما يَزيدُ النُّفوسَ تَزكيةً[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ * لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ * فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ * فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ * وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ * وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ * وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ هذا وَعدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ لهم في الجنَّةِ ما يَعرِفونَ مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا، وقد عَلِموا أنَّ تَرَفَ الجنَّةِ لا يَبلُغُه الوَصفُ بالكلامِ، وجُمِعَ ذلك بوَجهِ الإجمالِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ولكِنَّ الأرواحَ تَرتاحُ بمألوفاتِها فتُعْطاها، فيكونُ نَعيمُ أرواحِ النَّاسِ في كُلِّ عَصرٍ ومِن كُلِّ مِصرٍ في الدَّرَجةِ القُصْوى ممَّا ألِفوه، ولا سِيَّما ما هو مألوفٌ لجَميعِ أهلِ الحَضارةِ والتَّرَفِ، وكانوا يتمَنَّونَه في الدُّنيا، ثمَّ يُزادونَ مِنَ النَّعيمِ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ * وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ انظُرْ للتَّقابُلِ: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ عاليةٌ يَجلِسونَ عليها يَتفَكَّهونَ ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ يعني: ليست مرفوعةً عنهم، بل هي موضوعةٌ لهم، متى شاؤوا شَرِبوا فيها مِن أنهارِ الجَنَّةِ الأربعةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ شُروعٌ في روايةِ حَديثِ أهلِ الجنَّةِ. وتَقديمُ حِكايةِ حالِ أهلِ النَّارِ في الآياتِ السَّابقةِ؛ لأنَّه أدخَلُ في تَهويلِ الغاشيةِ وتَفخيمِ حَديثِها، ولأنَّ حِكايةَ حُسنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعدَ حِكايةِ سُوءِ حالِ أهلِ النارِ ممَّا يَزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبَهجةً. وإنَّما لم تُعطَفْ عليها؛ إيذانًا بكَمالِ تَبايُنِ مَضمونَيهِما[1].

- وكذلِك يَتبادَرُ في بادئِ الرَّأيِ أنَّ حقَّ هذه الجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أنْ تُعطَفَ على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] بالواوِ؛ لأنَّها مُشارِكةٌ لها في حُكْمِ البَيانِ لحَديثِ الغاشيةِ، كما عُطِفَت في سُورةِ (عَبَسَ) جُملةُ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠] على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]، فيَتَّجِهُ أنْ يُسأَلَ عن وَجْهِ فَصْلِها عن الَّتي قبْلَها، ووَجْهُ الفصلِ التَّنبيهُ على أنَّ المقصودَ مِن الاستِفهامِ في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] الإعلامُ بحالِ المُعرَّضِ بتَهديدِهم، وهمْ أصحابُ الوُجوهِ الخاشعةِ، فلمَّا حَصَلَ ذلك الإعلامُ بجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] إلى آخِرِها، تمَّ المقصودُ، فجاءتِ الجُملةُ بعْدَها مَفصولةً؛ لأنَّها جُعِلَت استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ تُثيرُه الجُملةُ السَّابقةُ، فيَتساءَلُ السَّامعُ: هلْ مِن حَديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايِرٌ لهذا الهوْلِ؟ أي: ما هو أُنسٌ ونَعيمٌ لقَومٍ آخَرينَ، ولهذا النَّظمِ صارتْ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ الاستِطرادِ والتَّتميمِ؛ لإظهارِ الفرْقِ بيْن حالَيِ الفَريقَينِ، ولتَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ المُستأنَفةِ مَوقعُ الاعتراضِ، ولا تَنافيَ بيْنَ الاستِئنافِ والاعتراضِ، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩، ١٥٠).

مُوجِبٌ لفصْلِها عمَّا قبْلَها، وفيه جَرْيُ القرآنِ على سَنَنِه مِن تَعقيبِ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فأمَّا الجُملتانِ اللَّتانِ في سُورةِ (عَبَسَ)، فلمْ يَتقدَّمْهما إبهامٌ؛ لأنَّهما مُتَّصلتانِ معًا بالظَّرفِ، وهو ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[1] [عبس: ٣٣].

- قولُه: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ المرادُ بالسَّعيِ: العمَلُ الَّذي يَسعاهُ المَرءُ لِيَستفيدَ منه، وعُبِّرَ به هنا مُقابِلَ قولِه في ضِدِّه: ﴿عَامِلَةٌ﴾[2] [الغاشية: ٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ خبَرٌ ثالثٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾، والجنَّةُ أُريدَ بها مَجموعُ دارِ الثَّوابِ الصَّادقُ بجنَّاتٍ كَثيرةٍ، أو أُريدَ بها الجِنسُ. ووَصْفُ ﴿جَنَّةٍ﴾ بـ﴿عَالِيَةٍ﴾؛ لزِيادةِ الحُسنِ؛ لأنَّ أحسَنَ الجنَّاتِ ما كان في المُرتفَعاتِ؛ قال تعالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فذلك يَزيدُ حُسنَ باطِنِها بحُسنِ ما يُشاهِدُه الكائنُ فيها مِن مَناظِرَ، وهذا وصْفٌ شاملٌ لحُسنِ مَوقعِ الجنَّةِ[3].

- قولُه: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ اللَّاغيةُ: مَصدرٌ بمعْنى اللَّغوِ، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخائنةِ والعافيةِ، أي: لا يُسمَعُ فيها لَغوٌ، أو هو وصْفٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرِ التَّأنيثِ، أو هي على معْنى النَّسبِ، أي: كَلمةً ذاتَ لَغوٍ، أو نفْسًا تَلْغو[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

- ونَفْيُ سَماعِ لاغيةٍ مُكنًّى به عن انتفاءِ اللَّغوِ في الجنَّةِ، مِن بابِ:

ولا تَــــرى الـــضَّـــبَّ بـــهـــا يَــنْــجَــحِــرْ

أي: لا ضبَّ بها؛ إذ الضَّبُّ لا يَخْلو مِن الانجحارِ[١].

- وقد ابتُدِئَ في تَعدادِ صِفاتِ الجنَّةِ بصِفتِها الذَّاتيَّةِ، وهو كَونُها عاليةً، وثُنِّيَ بصِفةِ تَنزيهِها عمَّا يُعَدُّ مِن نَقائصِ مَجامعِ النَّاسِ ومَساكِنِ الجَماعاتِ، وهو الغَوغاءُ واللَّغوُ، وقد جُرِّدَت جُملةُ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ مِن أنْ تُعطَفَ على ﴿عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]؛ مُراعاةً لعدَمِ التَّناسُبِ بيْن المُفرداتِ والجُمَلِ، وذلك حَقيقٌ بعدَمِ العطْفِ؛ لأنَّه أشدُّ مِن كَمالِ الانقطاعِ في عطْفِ الجُمَلِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ بحُسنِ سُكَّانِها[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

- قولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]. والمرادُ جِنسُ العُيونِ، يُريدُ أنَّ فيها عُيونًا في غايةِ الكَثرةِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ باستِكمالِها مَحاسنَ الجنَّاتِ، أو المرادُ عَينٌ مَخصوصةٌ، ذُكِرَت تَشريفًا لها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).
والبيتُ المذكورُ نَسَبه ابنُ الأَنْباري في ((شرح المُفضَّليات)) (ص: ٥٩) لعَمْرِو بنِ أَحْمَرَ الباهِليِّ، وهو شاعرٌ إسلاميٌّ.
والانْجِحارُ -بتَقديمِ الجيمِ على الحاءِ المُهمَلةِ-: الدُّخولُ في الجُحرِ وهو ما حفَرَه الهَوَامُّ والسِّباعُ لأنفُسِها. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٢، ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((أمالي المرتضى)) (١/ ٢٢٨-٢٣٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).

- وقولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، أي: يَجْري ماؤها ولا يَنقطِعُ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ[(١)].

- وإنَّما لم تُعطَفْ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ لاختِلافِهما؛ بالفِعليَّةِ في الأُولى، والاسميَّةِ في الثَّانيةِ، وذلك الاختلافُ مِن مُحسِّناتِ الفصْلِ؛ ولأنَّ جُملةَ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ مقصودٌ منها التَّنزُّهُ عن النَّقائصِ، وجُملةَ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ مَقصودٌ منها إثباتُ بَعضِ مَحاسنِها[(٢)].

- قولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ صِفةٌ رابعةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾، وأُعِيدَ قولُه: ﴿فِيهَا﴾ دونَ أنْ يُعطَفَ ﴿سُرُرٌ﴾ على ﴿عَيْنٌ﴾ عطْفَ المُفرَداتِ؛ لأنَّ عطْفَ السُّررِ على ﴿عَيْنٌ﴾ يَبْدو نابيًا عن الذَّوقِ؛ لعدَمِ الجامعِ بيْن عَينِ الماءِ والسُّررِ في الذِّهنِ لولا أنْ جَمَعَها الكونُ في الجنَّةِ؛ فلذلك كُرِّرَ ظَرفُ ﴿فِيهَا﴾ تَصريحًا بأنَّ تلك الظَّرفيَّةَ هي الجامعُ، ولأنَّ بيْن ظَرفيَّةِ العَينِ الجاريةِ في الجنَّةِ وبيْن ظَرفيَّةِ السُّررِ وما عُطِفَ عليه مِن مَتاعِ القُصورِ والأثاثِ: تَفاوُتًا؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنَّها مِن مَتاعِ المساكنِ الفائقةِ، وهذا وصْفٌ لمَحاسنِ الجنَّةِ بمَحاسِنِ أثاثِ قُصورِها، فضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ للجنَّةِ باعتبارِ أنَّ ما في قُصورِها هو مَظروفٌ فيها بواسطةٍ[(٣)].

- وقولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ سُررٌ: جمْعُ سَريرٍ، وهو ما يُجلَسُ عليه ويُضطجَعُ عليه، فيَسَعُ الإنسانَ المُضْطَجِعَ، يُتَّخَذُ مِن خشَبٍ أو حَديدٍ له قَوائمُ ليَكونَ مُرتفِعًا عن الأرضِ. ولَمَّا كان الارتفاعُ عن الأرضِ مَأخوذًا مِن مَفهومِ السُّررِ، كان وصْفُها بـ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ لتَصويرِ حُسنِها[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠١، ٣٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

- قولُه: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ كُنِّيَ بـ ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾ عن عدَمِ انقِطاعِ لَذَّةِ الشَّرابِ طعْمًا ونَشوةً، أي: مَوضوعةٌ بما فيها مِن أَشربةٍ(١).

- قولُه: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ المَبثوثةُ: المُنتشِرةُ على الأرضِ بكَثرةٍ، وذلك يُفيدُ كِنايةً عن الكَثرةِ(٢).

- وقد قُوبِلَت صِفاتُ وُجوهِ أهلِ النَّارِ بصِفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّةِ؛ فقُوبِلَت صِفاتُ ﴿خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ [الغاشية: ٢، ٣]، بصِفاتِ ﴿نَّاعِمَةٞ * لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]، وقُوبِلَ قولُه: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ [الغاشية: ٤] بقولِه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ [الغاشية: ١٠]، وقُوبِلَ: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ [الغاشية: ٥] بقولِه: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ [الغاشية: ١٢]، وقُوبِلَ شَقاءُ عَيشِ أهلِ النَّارِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ * لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، بمَقاعِدِ أهلِ الجنَّةِ المُشعِرةِ بتَرَفِ العَيشِ مِن شَرابٍ ومَتاعٍ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نُصِبَتْ﴾: أي: جُعِلَت مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استِواءٍ[١].

﴿سُطِحَتْ﴾: أي بُسِطَت ومُدَّت، وأصلُ (سطح): يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفَكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ؛ لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أمرَ القيامةِ، وانقسامَ أهلِها إلى أشقياءَ وسعداءَ، وعُلِم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ الخالقِ الحكيمِ؛ أتبَعَ ذلك بذكرِه هذه الدلائلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

وذِكرِ ما العربُ مشاهدوه وملابسوه دائمًا(١).

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالَى الجنَّةَ بما وصَفَ، عَجِبَ الكفَّارُ مِن ذلك، فذكَّرَهم غرائبَ صُنعِه(٢).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾.

أي: أفلا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ(٣)؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ(٤)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ويُنظر أيضًا ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣-١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (١/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ(١)؟

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجَعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ توجيهُ الأنظارِ إلى تلك المذكوراتِ الأربَعةِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ الدَّلائِلِ على القُدرةِ وعلى البَعْثِ، ثمَّ الإقرارُ لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اعلَمْ أنَّ الأرضَ قد اتَّفَقوا على أنَّها كُرَويَّةُ الشَّكلِ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٥٠).

نَتيجةً لإثباتِ رُبوبيَّتِه تعالى لجَميعِ خَلْقِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ إلى النَّظَرِ فيها بعَينِ البَصَرِ وعَينِ البَصيرةِ؛ بعَينِ البَصَرِ الَّذي هو الإدراكُ الحِسِّيُّ، وبعَينِ البصيرةِ الَّتي هي الإدراكُ العَقليُّ؛ حتَّى نَستَدِلَّ بها على ما تدُلُّ عليه مِن آياتِ اللهِ مِن قُدرةٍ وعِلْمٍ، ورحمةٍ وحِكمةٍ وغيرِ ذلك[٢]. فالنَّظَرُ الدَّقيقُ والفِكرُ الدَّارِسُ مِمَّا قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى الاستدلالِ على وُجودِ اللهِ تعالى وعلى قُدرتِه، كما نطق قُسُّ بنُ ساعِدةَ في الجاهليَّةِ في خُطبتِه المشهورةِ: «ليلٌ داجٍ[٣]، ونهارٌ ساجٍ[٤]، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تُزهِر، وبحارٌ تَزخَرُ، وجِبالٌ مُرْساةٌ، وأرضٌ مُدْحاةٌ، وأنهارٌ مُجْراةٌ»[٥]؛ فقد ذكَرَ السَّماءَ والجِبالَ والأرضَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٨).

(٣) أي: مُظلِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٣٤).

(٤) أي: ساكِنٌ دائِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٣/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦، ٥١٨).

قال ابن كثير: (وهكذا أقسَمَ ضِمامٌ في سؤالِه على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

وقد روى مسلمٌ في ((صحيحه)) (١٢) عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه، قال:((نُهينا أنْ نَسْأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شَيءٍ، فكان يُعْجِبُنا أنْ يَجيءَ الرَّجُلُ مِن أهلِ الباديَةِ العاقِلُ، فيَسْأَلَه، ونحنُ نَسْمَعُ، فجاء رجُلٌ مِن أهلِ الباديَةِ، فقال: يا محمَّدُ، أتانا رَسولُكَ فزعَم لنا أنَّك تَزعُمُ أنَّ اللهَ أرْسَلَك، قال: صَدَق، قال: فمَنْ خَلَق السَّماءَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ خَلَق الأرضَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ نَصَب هذه الجبالَ، وجَعَل فيها ما جَعَل؟ قال: الله، قال: فبالَّذي خَلَق السَّماءَ، وخَلَق الأرْضَ، ونَصَب هذه الجبالَ، آللهُ أَرْسَلَك؟ قال: نعَمْ)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سؤالٌ عن المناسَبةِ بيْنَ هذه الأشياءِ.

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ نَزَل على العَرَبِ، وكانوا يُسافِرونَ كثيرًا، وكانوا يَسيرون على الإبِلِ في المَهامِهِ والقِفارِ مُستَوحِشينَ مُنفَرِدينَ عن النَّاسِ، والإنسانُ إذا انفرد أقبَلَ على التَّفَكُّرِ في الأشياءِ؛ لأنَّه ليس معه مَن يُحادِثُه، وليس هناك مَن يَشغَلُ به سَمْعَه وبَصَرَه، فلا بُدَّ مِن أن يجعَلَ دَأْبَه الفِكرَ، فإذا فكَّرَ في تلك الحالِ فأوَّلُ ما يَقَعُ بَصَرُه على الجَمَلِ الَّذي هو راكِبُه؛ فيرى منظرًا عَجيبًا، وإن نظَرَ إلى فَوقٍ لم يَرَ غَيرَ السَّماءِ، وإذا نظَرَ يمينًا وشِمالًا لم يَرَ غَيرَ الجبالِ، وإذا نظَرَ إلى تحتٍ لم يَرَ غيرَ الأرضِ؛ فكأنَّه تعالى أمَرَه بالنَّظَرِ وَقتَ الخَلوةِ والانفرادِ؛ حتَّى لا تحمِلَه داعيةُ الكِبْرِ والحَسَدِ على تَرْكِ النَّظَرِ.

الثَّاني: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ دالَّةٌ على الصَّانِعِ سُبحانَه إلَّا أنَّها قِسمانِ: منها ما للشَّهوةِ فيه حَظٌّ، كالوَجهِ الحَسَنِ، والذَّهَبِ والفِضَّةِ، فهذه مع دَلالتِها على الصَّانعِ قد يمنَعُ استِحْسانُها عن إكمالِ النَّظَرِ فيها، ومنها ما لا حَظَّ فيه للشَّهوةِ، كهذه الأشياءِ؛ فأَمَر بالنَّظَرِ فيها؛ إذ لا مانِعَ مِن إكمالِ النَّظَرِ[1].

الثَّالِثُ: أنَّ الإبِلَ كانت أنفَسَ أموالِهم وأكثَرَها، وإنَّما جَمَع بيْنَها وبيْن ما بَعْدَها؛ لأنَّهما جاءَا على وَفْقِ عادةِ العَرَبِ في انتفاعِهم بالإبِلِ أكثَرَ، ولا يَحصُلُ إلَّا بأن ترعى وتَشرَبَ، وذلك بنُزولِ المطَرِ مِنَ السَّماءِ؛ فعَطَفَها في الذِّكرِ على الإبِلِ، ثمَّ لا بُدَّ لهم مِن حِصنٍ يَتحَصَّنونَ به، ولا شَيءَ في ذلك لهم كالجِبالِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٠٢).

فعَطَفَها على ما قَبْلَها، فإذا فَتَّش البَدَويُّ في نَفْسِه وجَدَ هذه الأشياءَ حاضِرةً عِندَه على التَّرتيبِ المذكورِ، بخلافِ الحَضَريِّ[١].

الرَّابعُ: لَعلَّ الحِكمةَ في ذِكرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على أنَّ هذا الوجهَ مِن الاستدلالِ غيرُ مُختَصٍّ بنَوعٍ دونَ نَوعٍ، بلْ هو عامٌّ في الكلِّ على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو ذَكَرَ غيرَها لم يكُنِ الأمرُ كذلك، لا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالَى هذه الأمورِ، تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ الأجسامِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ، صَغيرِها وكَبيرِها، حَسَنِها وقَبيحِها؛ مُتساويةٌ في الدَّلالةِ على الخالقِ الحَكيمِ[٢].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ اعلَمْ أنَّ تَسطيحَها لا يُنافي أنَّها كُرةٌ مُستديرةٌ قد أحاطت الأفلاكُ بها مِن جميعِ جوانِبِها، كما دَلَّ على ذلك النَّقلُ والعَقلُ والحِسُّ والمشاهَدةُ، كما هو مَذكورٌ مَعروفٌ عندَ أكثَرِ النَّاسِ، خُصوصًا في هذه الأزمنةِ الَّتي وقف النَّاسُ على أكثَرِ أرجائِها بما أعطاهم اللهُ مِن الأسبابِ المقَرِّبةِ للبَعيدِ؛ فإنَّ التَّسطيحَ إنَّما يُنافي كُرَويَّةَ الجِسمِ الصَّغيرِ جِدًّا، الَّذي لو سُطِحَ لم يَبْقَ له استِدارةٌ تُذكَرُ، وأمَّا جِسمُ الأرضِ الَّذي هو في غايةِ الكِبَرِ والسَّعةِ فيكونُ كُرَويًّا مُسَطَّحًا، ولا يَتنافى الأمْرانِ، كما يَعرِفُ ذلك أربابُ الخِبرةِ[٣]، ولكِنْ مع هذا ذَكَروا أنَّها ليست كُرَويَّةً مُتساويةَ الأطرافِ، بل إنَّها مُنبَعِجةٌ نحوَ الشَّمالِ والجَنوبِ، فهم يقولون: إنَّها بَيضاويَّةٌ، أي: على شَكلِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٩، ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قال تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ولا يُنافي ذلك كَونَها كُرويَّةً؛ فهي كُرةٌ في الحقيقةِ، لها سَطحٌ يَستَقِرُّ عليه الحيوانُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

البَيضةِ في انبعاجِها شَمالًا وجَنوبًا(١).

٣- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ عقَّبَ به أمْرَ المعادِ، ورتَّبَ عليه الأمرَ بالتَّذكيرِ فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الآياتِ؛ لأنَّ المعنى: أفلا يَنظُرونَ إلى أنواعِ المخلوقاتِ مِن البسائطِ والمَرْكَباتِ ليَتحقَّقوا كَمالَ قُدرةِ الخالقِ سُبحانَه وتعالَى، فلا يُنكِروا اقتِدارَه على البَعثِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ، ووُصِفَ حالُ أهلِ الشَّقاءِ بما وُصِفوا به، وكان قد تَقرَّرَ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ أنَّ أهلَ الشَّقاءِ هم أهلُ الإشراكِ باللهِ؛ فُرِّعَ على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهُم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ تَفريعُ التَّعليلِ على المُعلَّلِ؛ لأنَّ فَظاعةَ ذلك الوَعيدِ تَجعَلُ المقامَ مَقامَ استدلالٍ على أنَّهم مَحقوقون بوُجوبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تَصديقِ ما أخْبَرَهم به القرآنُ مِن البَعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأُولى عن عدَمٍ بما فيها مِن عَظيمِ الموجوداتِ كالجِبالِ والسَّماءِ؛ لا يُستبعَدُ في جانبِ قُدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعْدَ فَنائِه عن عدَمٍ، وهو دُونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ؛ فكان إعراضُهم عن النَّظَرِ مَجْلبةً لِما يُجَشِّمُهم مِن الشَّقاوةِ، وما وقَعَ بيْن هذا التَّفريعِ وبيْن المُفرَّعِ عنه مِن جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]؛ في مَوقعِ الاعتراضِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ نظمُ الآياتِ مُتوافقٌ مع فاتحةِ السُّورةِ الكريمةِ، فالخِطابُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للعرَبِ، نبَّهَهم أوَّلًا بقولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، وفخَّم المُستفهَمَ منه وعظَّمَه؛ إذِ المعنى: تَنبَّهوا لهذا الأمرِ الخطيرِ، والخطْبِ الجَسيمِ، وهُبُّوا مِن رَقدةِ الغَفلةِ، فخوَّفَهم بالصَّلَى في النَّارِ، وبإطعامِ الضَّريعِ، ولَمَّا كان الضَّريعُ حَديثًا مُناسِبًا للإبلِ -وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاهُ الإبلُ ما دامَ رَطْبًا- وأراد أنْ يُقرِّرَ ذلك، أتَى تَنبيهٌ آخَرُ على سَبيلِ النَّظرِ؛ ليَضُمَّ شاهدَ العقلِ مع شاهدِ النَّصِّ، وأَسَّسَ الدَّلائلَ والشَّواهدَ على حسَبِ ما أَلِفوه في بَواديهم وأوديتِهم، وعدَلَ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ تَوبيخًا لهم، وتَنبيهًا على مَظانِّ الافتكارِ، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخِرِه[1].

- والهَمزةُ في ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ للاستفهامِ التَّوبيخيِّ الإنكاريِّ، إنكارًا عليهم إهمالَ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه[2].

- والنَّظَرُ هنا هو نظَرُ العَينِ المُفيدُ الاعتبارَ بدَقائقِ المَنظورِ، وتَعديتُه بحرْفِ (إلى) تَنبيهٌ على إمعانِ النَّظَرِ؛ ليَشعُرَ النَّاظرُ ما في المَنظورِ مِن الدَّقائقِ؛ فإنَّ قَولَهم: نظَرَ إلى كذا، أشدُّ في تَوجيهِ النَّظرِ مِن: نَظَرَ كذا؛ لِما في (إلى) مِن معْنى الانتهاءِ، حتى كأنَّ النظَرَ انْتهى عندَ المجرورِ بـ(إلى) انتهاءَ تَمكُّنٍ واستقرارٍ[3].

= عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

- ولزيادةِ التَّنبيهِ على إنكارِ إهمالِ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه؛ قُيِّدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بالكَيفيَّاتِ المعدودةِ في قولِه: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: لَمْ يَنظُروا إلى دَقائقِ هَيئاتِ خَلْقِها[١].

- ووَجهُ ذِكْرِ الإبِلِ خاصَّةً: أنَّ الإبِلَ أجمَعُ للمَنافِعِ مِن سائِرِ الحَيوانِ؛ لأنَّ ضُروبَه أربَعةٌ: حَلُوبةٌ، ورَكوبةٌ، وأَكولةٌ، وحَمولةٌ، والإبِلُ تجمَعُ هذه الخِلالَ الأربَعَ؛ فكانت النِّعمةُ بها أعَمَّ، وظُهورُ القُدرةِ بها أتَمَّ[٢]. فخُصَّتِ الإبِلُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه اجتَمَعَ فيها ما تَفرَّقَ مِن المنافعِ في غَيرِها؛ مِن أكْلِ لَحمِها، وشُربِ لَبَنِها، والحمْلِ عليها، والتَّنقُّلِ عليها إلى البلادِ الشَّاسِعةِ، وعَيشِها بأيِّ نَباتٍ أكَلَتْه، وصَبْرِها على العطَشِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَرِدُ الماءَ لِعَشْرٍ، وطَواعيتِها لِمَن يَقودُها، ونَهضتِها وهي باركةٌ بالأحمالِ الثِّقالِ، وكَثرةِ حَنينِها، وتأثُّرِها بالصَّوتِ الحسَنِ على غِلَظِ أكْبادِها؛ فهي أشرَفُ المَركَباتِ وأكثَرُها صُنعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العرَبِ من هذا النَّوعِ[٣].

- وإنَّما لم يَذكُرِ الفِيلَ وغيرَه ممَّا هو أعظَمُ مِن الجمَلِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَرَوا شَيئًا مِن ذلك ولا عَرَفوه[٤].

- وبُنِيَت الأفعالُ الأربعةُ ﴿خُلِقَتْ﴾ ﴿رُفِعَتْ﴾ ﴿نُصِبَتْ﴾ ﴿سُطِحَتْ﴾ لِمَا لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ للعِلمِ بفاعِلِ ذلك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨، ٦٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ قاهِرٍ، والمُصَيطِرُ: المُجبِرُ المُكْرِهُ. وقيل: أي: قائمٍ وحافظٍ، والمُسَيطِرُ هو المُتعَهِّدُ للشَّيءِ المُتَسلِّطُ عليه، يُقالُ: صَيْطَر وسَيْطَر بالصَّادِ والسِّينِ[(١)].

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وترَكِ القُربِ[(٢)].

﴿إِيَابَهُمْ﴾: أي: رُجوعَهم بعدَ الموتِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بدَوامِ التَّذكيرِ، فيقولُ: فذَكِّرِ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٠).
قال القرطبي: (أصْلُه مِنَ السَّطْرِ؛ لأنَّ مِن معنَى السَّطْرِ ألَّا يُتَجاوَزَ، فالكِتابُ مُسَطَّرٌ، والَّذي يَفْعَلُه مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

-يا محمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم، ولَسْتَ مُتسَلِّطًا على النَّاسِ ولا قاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، لكِنْ مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى، فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ الأكبَرَ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن الدَّلائِلَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ والمَعادِ، قال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، وتذكيرُ الرَّسولِ إنَّما يكونُ بذِكرِ هذه الأدِلَّةِ وأمثالِها، والبَعْثِ على النَّظَرِ فيها، والتَّحذيرِ مِن تَرْكِ تلك، وذلك بَعْثٌ منه تعالى للرَّسولِ على التَّذكيرِ والصَّبرِ على كُلِّ عارِضٍ معه؛ وبيانُ أنَّه إنَّما بُعِثَ لذلك دونَ غَيرِه؛ فلهذا قال(١):

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محَمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[1].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ...﴾[2] [التوبة: ٥].

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾.

أي: لم تُبعَثْ -يا محَمَّدُ- مُتسَلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه[3].

= قال البِقاعي: (﴿فَذَكِّرۡ﴾ كُلَّ مَن يُرجَى تذَكُّرُه وانتِفاعُه بالتَّذكيرِ -يا أشرَفَ خَلْقِنا- بما في غرائِزِهم وفِطَرِهم مِن العِلمِ الأوَّليِّ بما في هذه الأشياءِ وأمثالِها ممَّا يدُلُّ على صِحَّةِ ما نزَّلْنا عليك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٨).

(١) وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثيرٍ، ورجَّحه محمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

وقال ابن الجوزي: (وقد قال بعضُ المفسِّرينَ في معناها: لَسْتَ عليهم بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهم على الإيمانِ. فعلى هذا لا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وهبةُ الله بنُ سلامة، وابنُ حزم، والقرطبيُّ، وقد عزا الواحديُّ القولَ بالنَّسخِ إلى جميعِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٧٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((جامع العلوم =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنهم تسلُّطَ الدُّنيا، وكان التَّقديرُ: فمَنْ أقْبَلَ وآمَنَ فإنَّ اللهَ يُنَعِّمُه النَّعيمَ الأكبَرَ؛ قال مُستَدرِكًا قَسيمَهم في صورةِ الاستثناءِ[١]:

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣)﴾.

أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى[٢].

= والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القَيِّم: (قال المفسِّرون: المعنى: أنَّك لم تُرسَلْ مُسَلَّطًا عليهم قاهِرًا لهم جبَّارًا كالملوكِ، بل أنت عبدي ورسولي المبَلِّغُ رِسالاتي؛ فمَن أطاعك فله الجنَّةُ، ومَن عصاك فله النَّارُ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: فذكِّرْ قومَك -يا محمَّدُ- إلَّا مَن تولَّى منهم عنك، =

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤﴾.

أي: فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥﴾.

أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم[2].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

= وأعرَض عن آياتِ اللهِ؛ فكفَر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢).

وقيل: المعنى: لَسْتَ بمُسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر؛ فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجِهادِ، واللهُ يُعَذِّبُه بعدَ ذلك العذابَ الأكبَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

قال القرطبي: (فلا نَسْخَ في الآيةِ على هذا التَّقديرِ). ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستثناءُ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى: «لكِنْ». وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢). ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥).

قال القرطبي: (﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ مَن تولَّى عن الوَعظِ والتَّذكيرِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها[1].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ مِنَ الجَهَلةِ مَن يضَعُ قَولَه تعالى هذا في غيرِ مَوضِعِه، ويَحيدُ به عن مَهْيَعِه، فيُريدُ أن يتَّخِذَه حُجَّةً على حُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ بيْن جماعاتِ المسلمينَ! وشتَّانَ بيْن أحوالِ أهلِ الشِّركِ وأحوالِ جامِعةِ المسلِمينَ؛ فمَن يُلحِدُ في الإسلامِ بعْدَ الدُّخولِ فيه يُستتابُ ثلاثًا، فإنْ لم يَتُبْ قُتِلَ، وإنْ لم يُقْدَرْ عليه فعلى المسلِمينَ أن يَنبذُوه من جامِعَتِهم، ويُعامِلوه مُعاملةَ المحارِبِ، وكذلك مَن جاء بقَولٍ أو عمَلٍ يَقتضي نَبْذَ الإسلامِ، أو إنكارَ ما هو مِن أُصولِ الدِّينِ بالضَّرورةِ، بعدَ أن يُوقَفَ على مآلِ قَولِه أو عَمَلِه، فيَلتَزِمُه ولا يتأوَّلُه بتأويلٍ مقبولٍ، ويأبى الانكِفافَ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ لا يَنبغي أنْ يَحزَنَ إذا لم تُقْبَلْ دعوتُه، فإذا أدَّى ما يجبُ عليه فقد بَرِئَتِ الذِّمَّةُ، والحِسابُ على اللهِ تعالى؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ يعني: لكِنْ مَن تولَّى وكَفَرَ -على قولٍ- ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ * إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩).

قال ابن عاشور: (أي: لستَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذَكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البقاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

فلا تحزَنْ أيُّها الدَّاعي إلى اللهِ إذا رُدَّ قولُك، أو إذا لم يُقبَلْ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لأنَّك أدَّيتَ ما يجِبُ عليك[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ أنَّ الرُّجوعَ هو إلى اللهِ تعالى، فمهما فَرَّ الإنسانُ، وطالتْ به حياةٌ فإنَّه راجعٌ إلى اللهِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فاستَعِدَّ يا أخي لهذه المُلاقاةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بيْنَه وبيْنه تَرْجُمانٌ، فيَنظُرُ أيْمَنَ منه فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ مِن عمَلِه، ويَنظُرُ أشْأَمَ منه -يعني: على اليَسارِ- فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ، وينظُرُ بيْنَ يديه فلا يرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجْهِه؛ فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ))[2]، واللهُ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ يُقَرِّرُ العبدَ بذُنوبِه، يقولُ: فعَلْتَ كذا في يوم كذا، حتَّى يُقِرَّ ويَعترِفَ، فإذا أقَرَّ واعترفَ قال اللهُ تعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ))[3]، وكم مِن ذُنوبٍ سَتَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ! كم مِن ذُنوبٍ اقتَرَفْناها لم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولكنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ بها! فمَوقِفُنا مِن هذه الذُّنوبِ أنْ نستغفِرَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأنْ نُكْثِرَ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المكفِّرةِ للسَّيِّئاتِ؛ حتَّى نلقى اللهَ عزَّ وجَلَّ ونحن على ما يُرْضيه سُبحانَه وتعالى[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٠١٦) مختصرًا من حديث عَديِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبدالله بن عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

لم يَخْصُصِ اللهُ أحدًا بالتَّذكيرِ، أي: لم يَقُلْ: ذَكِّرْ فُلانًا وفُلانًا، فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ فذَكَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَكَّرَ خُلفاؤُه مِن بَعْدِه؛ الَّذين خَلَفُوه في أُمَّتِه في العِلمِ والعَمَلِ والدَّعوةِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس إلَّا مُذَكِّرًا مُبَلِّغًا، وأمَّا الهدايةُ فبيَدِ اللهِ تعالى؛ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2] [البقرة: ٢٧٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَكِّرْ﴾ تفريعٌ على مُحصَّلِ ما سبَقَ مِن أوَّلِ السُّورةِ الَّذي هو التَّذكيرُ بالغاشيةِ وما اتَّصَلَ به مِن ذِكرِ إعراضِهم وإنذارِهم، رُتِّبَ على ذلك أمْرُ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالدَّوامِ على تَذكيرِهم، وأنَّه لا يُؤيسُه إصرارُهم على الإعراضِ وعدَمُ ادِّكارِهم بما أُلْقِي إليهم مِن المواعظِ، وتَثبيتُه بأنَّه لا تَبِعةَ عليه مِن عدَمِ إصغائِهم؛ إذْ لم يُبعَثْ مُلجِئًا لهم على الإيمانِ، فالأمرُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الاستمرارِ والدَّوامِ[3].

- ومَفعولُ (ذكِّرْ) مَحذوفٌ، هو ضَميرٌ يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ تَعليليَّةٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ مع عدَمِ إصغائِهم[١].

- والقصْرُ المُستفادُ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: أنت مُذكِّرٌ لستَ وَكيلًا على تَحصيلِ تَذكُّرِهم، فلا تَتحرَّجْ مِن عدَمِ تَذكُّرِهم؛ فأنت غيرُ مُقصِّرٍ في تَذكيرِهم، وهذا تَطمينٌ لنفْسِه الزَّكيَّةِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّده، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- قولُه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ لمَعْنى الإنذارِ، أي: لستَ بمُتسَلِّطٍ عليهم تُجبِرُهم على ما تُريدُ[1]؛ فهذه الجُملةُ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ القصْرِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ باعتبارِ جانبِ النَّفْيِ الَّذي يُفيدُه القصرُ، فنفْيُ كَونِه مُصَيطِرًا عليهم خبَرٌ مُستعمَلٌ في غيرِ الإخبارِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّه لم يُكلَّفْ بإكراهِهم على الإيمانِ، فالخبَرُ بهذا النَّفيِ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّطمينِ برَفْعِ التَّبِعةِ عنه مِن جرَّاءِ استمرارِ أكثَرِهم على الكُفرِ[3].

- وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتعلَّقِه -وهو (مُصَيْطِرٍ)-؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وجُملةِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، والمقصودُ مِن هذا الاعتراضِ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِهم أنَّهم أصْبَحوا آمِنينَ مِن المُؤاخَذةِ على عدَمِ التَّذكُّرِ؛ فحرْفُ (إلَّا) للاستثناءِ المنقطعِ -على قولٍ-، وهو بمعْنى الاستِدراكِ، والمعْنى: لكنْ مَن تَولَّى عن التَّذكُّرِ ودامَ على كُفْرِه، يُعذِّبُه اللهُ العذابَ الشَّديدَ[5].

- وعلى القولِ بأنَّ الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصلٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧، ٣٠٨).

فإنَّ جِهادَ الكفَّارِ وقتْلَهم تَسلُّطٌ، كأنَّه قِيل: لستَ عليهم بمُسيطِرٍ -أي: بمُتسلِطٍ- بالقتْلِ والجِهادِ إلَّا مَن تَولَّى وكَفَرَ، كأنَّه أوعَدَهم بالجهادِ في الدُّنيا، وعَذابِ النَّارِ في الآخرةِ. وقيل: هو استثناءٌ مِن قولِه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فذَكِّرْ إلَّا مَن انقَطَعَ طَمَعُك مِن إيمانِه وتَولَّى، فاستحَقَّ العَذابَ الأكبَرَ، وما بيْنَهما ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ اعتراضٌ[1].

- في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ لم يَذْكُرِ المفضَّلَ عليه، يعني: لم يَقُلْ: الأكبرَ مِن كذا؛ فهو قد بَلَغ الغايَةَ في الكِبَرِ والمشَقَّةِ والإهانةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تَعليلٌ للعذابِ الأكبَرِ؛ أي: إنَّ إلينا رجوعَهُم بالموتِ والبَعثِ لا إلى أحدٍ سِوانا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا[3]. وقيل: هو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، أي: لسْتَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حِينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البَقاءِ[4].

- والسِّرُّ في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾؛ التَّشديدُ والمُبالَغةُ في الوعيدِ، وأنَّ إيابَهم ليس إلَّا إلى الجَبَّارِ المُقتدِرِ على الانتقامِ، وأنَّ حِسابَهم ليس إلَّا عليه تعالى، وهو الَّذي يُحاسِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

على النَّقيرِ والقِطْميرِ، وبَيانُ ذلك أنَّه تعالَى علَّل قولَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾، والْتَفَتَ فيه مِن الغَيبةِ إلى الحِكايةِ، ومِن الاسمِ الجامعِ إلى صِيغةِ الكِبرياءِ والجَبَروتِ، وقدَّمَ الظَّرفينِ على عامِلَيْهما[1].

وقيل: يَظهَرُ أنَّ تَقديمَ خبَرِ (إنَّ) على اسْمِها لمُجرَّدِ الاهتمامِ تَحقيقًا لهذا الرُّجوعِ؛ لأنَّهم يُنكِرونه، وتَنبيهًا على إمكانِه بأنَّه رُجوعٌ إلى الَّذي أنشَأَهم أوَّلَ مرَّةٍ[2].

- وجاء الخبَرُ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ)، كأنَّهم وقد تَردَّدوا بحاجةٍ إلى تأكيدِ هذا الأمرِ الَّذي أشاحُوا عنه ولم يَتدبَّروه[3].

- ونُقِلَ الكلامُ مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ [الغاشية: ٢٤] إلى أُسلوبِ التَّكلُّمِ بقولِه: ﴿إِلَيْنَآ﴾ على طَريقةِ الالْتفاتِ[4].

- والعطفُ بحرْفِ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ للدَّلالةِ على التَّراخي في الرُّتبةِ لا في الزَّمانِ؛ فإنَّ حِسابَهم هو الغرَضُ مِن إيابِهم، وهو أوقَعُ في تَهديدِهم على التَّولِّي، فالحسابُ قدْ يكونُ مُباشَرةً بعدَ الإيابِ، ولكنَّ التَّفاوُتَ بيْن الموقفَينِ أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يَدْري أحدٌ مَداهُ، ولا يَتصوَّرُه العقلُ على الإطلاقِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

- ومعْنى (على) مِن قولِه: ﴿عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ أنَّ حِسابَهم -لتَأكُّدِه في حِكمةِ اللهِ- يُشبِهُ الحقَّ الَّذي فَرَضَه اللهُ على نفْسِه[1].

- وأيضًا هذه الجُملةُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ هي المقصودُ مِن التَّعليلِ، والَّتي قبْلَها بمعْنَى التَّمهيدِ لها والإدماجِ[2] لإثباتِ البَعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تَأخيرَ عِقابِهم إمهالٌ، فلا يَحسَبوه انفلاتًا مِن العِقابِ[3].

- وفي تَصديرِ الجُملتَين بـ (إنَّ) وتَقديمِ خبَرِها، وعطْفِ الثَّانيةِ على الأُولى بكلمةِ (ثُمَّ) المفيدةِ لبُعدِ مَنزلةِ الحِسابِ في الشِّدَّةِ؛ مِن الإنباءِ عن غايةِ السَّخطِ الموجِبِ لتَشديدِ العَذابِ ما لا يَخفَى[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

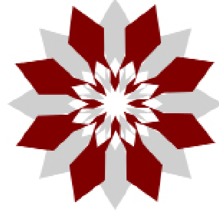
(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

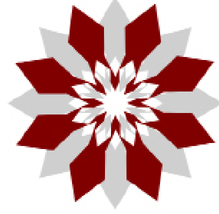
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

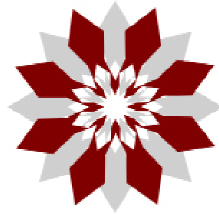
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الفَجْرِ







سورةُ الفَجْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفَجْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفَجرِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- تَثْبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٢- إثباتُ اليومِ الآخِرِ، والحسابِ بالثَّوابِ والعِقابِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ بخمسةِ أشياءَ شريفةٍ.

٢- تَذكيرُ المُشرِكينَ بما حَلَّ بالمكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم، كقَومِ عادٍ وثَمودَ وفِرعَونَ.

٣- بيانُ أحوالِ الإنسانِ في حالِ غِناه وفي حالِ فَقْرِه، وأنَّ كَثرةَ النِّعَمِ ليست دليلًا على إكرامِ اللهِ للعَبْدِ، ولا التَّضييقُ دليلٌ على إهانتِه.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتتاحُها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٠).

٤- وَصفُ يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، وتأسُّفُ الإنسانِ يومَئذٍ على تفريطِه.

٥- تبشيرُ أصحابِ النُّفوسِ المؤمِنةِ المطمَئِنَّةِ.



الآيات (١-١٤)

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: الشَّفعُ: هو الزَّوجُ. والوَتْرُ والوِتْرُ: هو الفَردُ، تَقولُ: كان فَرْدًا فشَفَعْتُه، فالشَّفعُ في اللُّغةِ: اثنانِ، والوِتْرُ: واحدٌ، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ[(١)].

﴿حِجْرٍ﴾: أي: عَقْلٍ، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على المنعِ، وسُمِّيَ العَقلُ حِجرًا؛ لأنَّه يَمنَعُ الإنسانَ مِن تعاطي ما لا يليقُ به مِن الأفعالِ والأقوالِ، كما يُسَمَّى عَقلًا؛ لأنَّه يَعقِلُه عن القبائِحِ[(٢)].

﴿الْعِمَادِ﴾: أي: أعمدةِ بيوتِهم مِن الشَّعرِ، أو بنيانِهم، أو القُدودِ الطِّوالِ، على تشبيهِ قاماتِهم بالأعمِدةِ، وأصلُ (عمد): يدُلُّ على استقامةٍ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾: أي: قَطَعوا صَخرَ الجِبالِ، واتَّخذوا فيها بُيُوتًا نَحتوها مِنَ

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١) و(٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٨٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

الصَّخرِ، والجَوْبُ: القَطعُ، تقولُ: جُبتُ البِلادَ أَجوبُها: إذا قطَعْتَها، ومنه الجَوابُ؛ لأنَّه يَقطَعُ السُّؤالَ، وأصلُ (جوب): يدُلُّ على خَرقِ الشَّيءِ[(١)].

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبِ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابِتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلْكَه، كما يُقَوِّي الوَتِدُ الشَّيءَ، والوَتِدُ: عُودٌ غليظٌ شيئًا، أسْفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ لِتُشَدَّ به أطْنابُ الخَيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[(٢)].

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: أي: نَصيبَ عذابٍ أو: شِدَّتَه؛ لأنَّ السَّوطَ كان عندَهم نهايةَ ما يُعَذَّبُ به، والسَّوطُ كَلِمةٌ تقولُها العَرَبُ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العذابِ، وأصلُ ذلك أنَّ السَّوطَ هو عذابُهم الَّذي يُعَذِّبونَ به، فجرى لكُلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندَهم غايةُ العذابِ، وأصلُ (سوط): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ الشَّيءَ[(٣)].

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: أي: على طريقِ العِبادِ لا يَفوتُه أحدٌ منهم، يرصُدُ عمَلَ كُلِّ إنسانٍ؛ حتَّى يُجازيَه به، والمَرْصَدُ والمِرْصادُ: الطَّريقُ، أو: المِرْصادُ: الموضِعُ الَّذي يُرصَدُ النَّاسُ فيه، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على التَّهَيُّؤِ لِرِقْبةِ شَيءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾

﴿إِرَمَ﴾: بَدَلٌ مِن «عادٍ» مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الفتحةُ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. «ذَاتِ» : نَعتٌ لـ﴿إِرَمَ﴾ مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الكَسرةُ.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ نَعتٌ للجَمعِ المتقَدِّمِ مِن عادٍ وثمودَ وفِرعَونَ، ويجوزُ أن يكونَ نعتًا لفِرعَونَ؛ لأنَّ المرادَ هو وقومُه، واكتفى بذِكْرِه عن ذِكْرِهم، ويجوزُ قَطْعُه عن الوَصفِ للذَّمِّ، فيكونُ مَنصوبَ المحَلِّ على إضمارِ «أَذُمُّ»، أو مَرفوعَه على إضمارِ «هم»[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالفَجْرِ المعروفِ، وبلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ، وبالشَّفعِ والوَتْرِ، وباللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه، فهل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟

ثُمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه وتعالى عمَّا أنزله بالمكذِّبينَ مِن العذابِ، فيقولُ: ألَمْ تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ؛ إرَمَ ذاتِ الأعمدةِ، الَّتي لم

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠).

(١) يُنظَر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ؟

هؤلاء الذَّين سَلَف ذِكْرُهم مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ، فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ؛ فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، وسيُهلِكُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلْفَجْرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالفَجْرِ، وهو وقتُ ابتداءِ ظُهورِ النُّورِ في الأُفُقِ الشَّرقيِّ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عثيمين: (الفجر... بيْنَه وبيْنَ طُلوعِ الشَّمسِ ما بيْنَ ساعةٍ واثنتَينِ وثلاثينَ دقيقةً، إلى ساعةٍ وسَبْعَ عَشْرةَ دقيقةً، ويختَلِفُ باختلافِ الفُصولِ؛ فأحيانًا تَطولُ الحِصَّةُ ما بيْن الفَجرِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وأحيانًا تَقصُرُ حَسَبَ الفُصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

وقال ابن جُزَي: (أقسَمَ اللهُ تعالى بالفَجْرِ، وهو الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، كما أقسَمَ بالصُّبحِ. وقيل: أراد صلاةَ الفَجرِ. وقيل: أراد النَّهارَ كُلَّه. وقيل: فَجْرَ يومِ الجُمُعةِ، وقيل: فَجْرَ يومِ النَّحرِ، وقيل: فَجْرَ ذي الحِجَّةِ، ولا دليلَ على هذه التَّخصيصاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في الفَجْرِ، وأنَّه الفَجْرُ المعروفُ الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، وهو الصُّبحُ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّين المحَلِّيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ =

= ٧٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

قال الواحديُّ: (﴿وَالْفَجْرِ﴾ قال ابنُ عَبَّاسٍ: فَجْرُ النَّهارِ. وهو روايةُ أبي نَصرٍ وأبي صالحٍ، وقَولُ عِكْرِمةَ، وزَيدِ بنِ أسلَمَ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ، والأَسْوَدِ بنِ يَزيدَ، قالوا: هو انفِجارُ الصُّبحِ مِن كُلِّ يوم). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا الفَجْرُ فمَعروفٌ، وهو: الصُّبحُ. قاله عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الرَّازي: (أقسَمَ اللهُ تعالى به لِما يَحصُلُ به مِن انقِضاءِ اللَّيلِ وظُهورِ الضَّوءِ، وانتِشارِ النَّاسِ وسائِرِ الحيواناتِ مِن الطَّيرِ والوُحوشِ في طَلَبِ الأرزاقِ، وذلك مُشاكِلٌ لنُشورِ الموتى مِن قُبورِهم، وفيه عِبرةٌ لِمَن تأمَّل، وهذا كقَولِه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، وقال في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وتمدَّحَ في آيةٍ أُخْرى بكَونِه خالِقًا له، فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وقيل: إنَّه (فَجرُ يَومٍ مُعَيَّنٍ، وعلى هذا القَولِ ذَكَروا وُجوهًا:

الأوَّلُ: أنَّه فَجْرُ يَومِ النَّحْرِ؛ وذلك لأنَّ أمْرَ المَناسِكِ من خَصائِصِ مِلَّةِ إبراهيمَ، وكانت العَرَبُ لا تَدَعُ الحَجَّ، وهو يومٌ عظيمٌ يأتي الإنسانُ فيه بالقُربانِ، كأنَّ الحاجَّ يريدُ أن يتقرَّبَ بذَبْحِ نَفْسِه، فلمَّا عَجَز عن ذلك فَدى نَفْسَه بذلك القُربانِ، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

الثَّاني: أراد فَجْرَ ذي الحِجَّةِ؛ لأنَّه قَرَن به قَولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، ولأنَّه أوَّلُ شَهرِ هذه العِبادةِ المُعَظَّمةِ.

الثَّالِثُ: المرادُ: فَجْرُ المحَرَّمِ؛ أقسَمَ به لأنَّه أوَّلُ يَومٍ مِن كُلِّ سَنةٍ، وعِندَ ذلك يحدُثُ أُمورٌ كثيرةٌ ممَّا يتكرَّرُ بالسِّنينَ؛ كالحَجِّ والصَّومِ والزَّكاةِ، واستِئنافِ الحِسابِ بشُهورِ الأهِلَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وممَّن خَصَّص الفَجْرَ هنا بفَجرِ يومِ النَّحرِ، وهو العاشرُ من شَهرِ ذي الحِجَّةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١).

قال ابنُ كثيرٍ: (عن مَسروقٍ، ومجاهِدٍ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ: المرادُ به فَجْرُ يومِ النَّحْرِ خاصَّةً، =

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ(١).

= وهو خاتِمةُ اللَّيالي العَشْرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ: (قال [أي: ابنُ عَبَّاسٍ] في روايةِ العَوْفيِّ: صلاةُ الفَجْرِ. وقال في روايةِ عُثمانَ بنِ مُحَيْصِنٍ: هو فَجْرُ المحرَّمِ، وهو قَولُ قَتادةَ، قال: أقسَمَ بأوَّلِ يومٍ مِنَ المحرَّمِ تنفَجِرُ منه السَّنَةُ. وقال في روايةِ عَطاءٍ: يريدُ صَبيحةَ يَومِ النَّحْرِ. قال الضَّحَّاكُ: هو فَجْرُ ذي الحِجَّةِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابن رجب: (وعلى جميعِ هذه الأقوالِ فالعَشْرُ يَشتَمِلُ على الفَجْرِ الَّذي أقسَمَ اللهُ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ الحُجَّةِ من أهلِ التَّأويلِ على أنَّها عَشْرُ ذي الحِجَّةِ، ونقله الواحديُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه: ابنُ كثير، وابنُ رجبٍ ونَقَله عن جمهورِ المُفَسِّرينَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال الواحِديُّ: (﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهو عَشْرُ ذي الحِجَّةِ في قَولِ جُمهورِ المفَسِّرينَ: عِكْرِمةَ، ومُقاتِلٍ، والكَلبيِّ، ومَسروقٍ، والضَّحَّاكِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ، واختيارُ الفَرَّاءِ، والزَّجَّاجِ، قالوا: هي عَشْرُ الأَضحى). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٥، ٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١).

وقال ابنُ رَجَبٍ: (هذا الصَّحيحُ الَّذي عليه جمهورُ المفَسِّرينَ مِن السَّلَفِ وغَيرِهم، وهو الصَّحيحُ عن ابنِ عَبَّاسٍ، رُوِيَ عنه مِن غَيرِ وَجهٍ. والرِّوايةُ عنه: «أنَّه عَشْرُ رَمَضانَ» إسنادُها ضَعيفٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقيل: هي العَشْرُ الأواخِرُ مِن رَمَضانَ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ العَرَبيِّ المالِكيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالشَّفعِ، وأُقسِمُ بالوَتْرِ[١].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

قال الزمخشري: (﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾: إمَّا الأشياءُ كُلُّها شَفْعُها ووَتْرُها، وإمَّا شَفعُ هذه اللَّيالي ووَتْرُها، ويجوزُ أن يكونَ شَفعُها يومَ النَّحرِ، ووَتْرُها يومَ عَرَفةَ؛ لأنَّه تاسِعُ أيَّامِها، وذاك عاشِرُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ الشَّفعَ والوَتْرَ يَعُمُّ كلَّ الأشياءِ شَفْعَها ووَتْرَها-: ابنُ جريرٍ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ، وأنَّ المرادَ القَسَمُ بالخَلقِ، فكُلُّ شَيءٍ خَلَق اللهُ شَفْعٌ ووَتْرٌ: مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وابنُ زَيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٣).

قال ابنُ جَرير: (والصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ، ولم يَخْصُصْ نَوعًا مِن الشَّفْعِ ولا مِنَ الوَتْرِ دُونَ نَوعٍ بخَبَرٍ ولا عَقلٍ، فكُلُّ شَفعٍ ووَتْرٍ فهو ممَّا أقسَمَ به، ممَّا قال أهلُ التَّأويلِ إنَّه داخِلٌ في قَسَمِه هذا؛ لعُمومِ قَسَمِه بذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالشَّفْعِ يَومُ النَّحرِ، وبالوَتْرِ يَومُ عَرَفةَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والهَرَويُّ، والواحِديُّ ونَسَبَه لجُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عَبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٩).

وقيل: الشَّفْعُ هو الخَلْقُ، والوَتْرُ هو اللهُ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٥).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ أي: لِمَن تعَجَّل في يومَينِ ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أي: لِمن أتَمَّ. قاله ابنُ الزُّبَير). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه(١).

= ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الشَّفعِ والوتْرِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٨).

قال ابنُ رجبٍ: (وقد قيلَ في الشَّفْعِ والوتْرِ أقوالٌ كثيرةٌ، وأكثَرُها لا يَخرُجُ عن أن يكونَ العَشْرُ أو بَعْضُه مُشتَمِلًا على الشَّفْعِ والوَتْرِ أو أحَدِهما). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (ذَكَر سُبحانَه مِن جُملةِ هذه الأقسامِ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾؛ إذ هذه الشَّعائِرُ المعَظَّمةُ منها شَفعٌ ومنها وَتْرٌ في الأمكِنةِ والأزمِنةِ والأعمالِ) وذَكَر الشَّفعَ منها والوتْرَ، ثمَّ قال: (وروى مجاهِدٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ: الوترُ: آدَمُ، وشُفِعَ بزَوْجَتِه حَوَّاءَ. وقال في روايةٍ أخرى: الشَّفعُ: آدَمُ وحَوَّاءُ، والوترُ: اللهُ وَحْدَه. وعنه روايةٌ ثالثةٌ: الشَّفعُ: يَومُ النَّحرِ، والوترُ: اليومُ الثَّالِثُ. وقال عِمْرانُ بنُ حُصَينٍ وقَتادةُ: الشَّفعُ والوترُ: هي الصَّلاةُ... وقال عَطيَّةُ العَوْفيُّ: الشَّفعُ: الخَلْقُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨]، والوَتْرُ: هو اللهُ. وهذا قَولُ الحَكَمِ، قال: كُلُّ شَيءٍ شَفْعٌ، واللهُ وَتْرٌ. وقال أبو صالحٍ: خلَقَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ زَوْجَينِ اثنَينِ، واللهُ وَتْرٌ واحِدٌ. وهذا قَولُ مجاهِدٍ ومَسروقٍ. وقال الحسَنُ: الشَّفعُ والوترُ: العَدَدُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال ابنُ زَيدٍ: الشَّفعُ والوترُ: الخَلْقُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال مقاتِلٌ: الشَّفْعُ: الأيَّامُ واللَّيالي، والوَترُ: اليَومُ الَّذي لا لَيلةَ بَعْدَه، وهو يومُ القيامةِ).

ثمَّ قال ابنُ القَيِّم: (وذُكِرَت أقوالٌ أُخَرُ هذه أصولُها، ومدارُها كلِّها على قولَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الشَّفْعَ والوترَ نوعانِ للمخلوقاتِ والمأموراتِ.

والثَّاني: أنَّ الوَتْرَ الخالِقُ، والشَّفْعَ المخلوقُ، وعلى هذا القَولِ فيكونُ قد جَمَع في القَسَمِ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٠) فما بَعْدَها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ باللَّيلِ: العُمومُ، أي: كُلُّ ليلةٍ، دُونَ تَخصيصٍ بلَيلةٍ مُعَيَّنةٍ: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والواحِديُّ ونَسَبه للأكثَرينَ، وابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والقُرْطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، =

= ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

قال الرَّازيُّ: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّه ليس المرادُ منه ليلةً مخصوصةً، بل العُمومُ، بدليلِ قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ باللَّيلِ هنا لَيلةُ الأضْحى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧).

وقال ابنُ عَطِيَّةَ: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ والكَلبيُّ: أراد بهذا لَيلةَ جَمعٍ [أي: ليلةَ مُزدَلِفةَ]؛ لأنَّه يُسْرى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥).

وقيل: المرادُ: ليلةُ النَّفرِ إذا خرَج الحاجُّ إلى بلَدِه. وممَّن ذهب إلى هذا: البقاعيُّ، قال: (﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: مِن لَيلةِ النَّفْرِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يَنقضي كما ينقضي لَيلُ الدُّنيا وظلامُ ظُلَمِها، فيَخلُفُه الفَجْرُ ويسري فيه الَّذين آبُوا إلى اللهِ راجِعينَ إلى ديارِهم بعدَ حَطِّ أوزارِهم، وقد رجع آخِرُ القَسَمِ على أوَّلِه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ الفِعلَ له، فيه قولانِ: أحَدُهما: إذا يَسري ذاهبًا، قاله الجُمهورُ، وهو اختيارُ الزَّجَّاجِ.

والثَّاني: إذا يَسْري مُقبِلًا، قاله قتادةُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفِعلَ لغَيرِه، والمعنى: إذا يُسْرى فيه، كما يقالُ: لَيلٌ نائمٌ، أي: يُنامُ فيه، قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٥).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قال العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ: أي: إذا ذهب. وقال عَبدُ اللهِ ابنُ الزُّبَيرِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ حتَّى يُذهِبَ بَعْضُه بَعضًا. وقال مجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وقتادةُ، ومالكٌ عن زَيدِ بنِ أسلَمَ وابنِ زَيدٍ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ إذا سار. وهذا يمكِنُ حَمْلُه على ما قاله ابنُ عَبَّاسٍ، أي: ذهب. ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: إذا سار، أي: أقبَلَ. وقد يُقالُ: إنَّ هذا أنسَبُ؛ لأنَّه في مقابلةِ قَولِه: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾؛ فإنَّ الفَجْرَ هو إقبالُ النَّهارِ وإدبارُ اللَّيلِ، فإذا حُمِلَ قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ على إقبالِه، كان قَسَمًا بإقبالِ اللَّيلِ وإدبارِ النَّهارِ، وبالعَكْسِ، كقَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَا =

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾.

أي: هل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟ فإنَّ مَنْ كان كذلك عَلِمَ أنَّ ما أقسَمَ اللهُ به أمورٌ عَظيمةٌ فيها عجائِبُ ودلائِلُ على الحَقِّ، فيتفَكَّرُ فيها، ويعتَبِرُ بها[1].

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾.

أي: ألم تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ[2]؟!

= تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]، وكذا قال الضَّحَّاكُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يجري). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تضمَّن هذا القَسَمُ ما جاء به إبراهيمُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم، كان في ذلك ما دَلَّ على المقسَمِ عليه؛ ولهذا عقَّب القَسَمَ بقولِه تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾؛ فإنَّ عَظَمةَ هذا المقسَمِ به يُعرَفُ بالنُّبُوَّةِ، وذلك يحتاجُ إلى حِجْرٍ يَحجُرُ صاحِبَه عن الغَفلةِ واتِّباعِ الهوى، ويحمِلُه على اتِّباعِ الرُّسُلِ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب مَن كَذَّبَ الرُّسُلَ؛ كعادٍ وفِرعَونَ وثمودَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٢).

قيل: جوابُ القَسَمِ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وضعَّفه ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨).

قال الزمخشري: (المقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ. يدُلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ المُقسَمَ به هو المقسَمُ عليه، وذلك جائِزٌ مُستعمَلٌ إذا كان أمرًا ظاهِرًا مُهِمًّا، وهو كذلك في هذا الموضِعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

قال ابن عطية: (عادٌ قبيلةٌ، لا خِلافَ في ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)﴾.

أي: إرمَ ذاتِ الأعمدةِ(١).

= ممَّن اختار القولَ المذكورَ في المخاطَبِ، وأنَّ الخِطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنسفي، والخلوتي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٤٢٢).

وقال القرطبي، والخازن، والشربيني: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنَّ المرادَ به العمومُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤) ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يُوَجَّهُ إليه هذا الكِتابُ العزيزُ، وهم البَشَرُ كُلُّهم، بل والجِنُّ أيضًا. ألم تَرَ أيُّها المخاطَبُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

وقال الشوكاني: (الخطابُ للنبيِّ، أو لكلِّ مَن يصلحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ، وأنَّ الرُّؤيةَ هنا بمعنى العِلْمِ: السَّمرقندي، والنَّسفي، والخازنُ، والكوراني، وأبو السُّعودِ، والقِنَّوْجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦).

وقال الخازن: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: ألم تعلَمْ، وإنَّما أُطلِق لفظُ الرُّؤيةِ على العِلمِ؛ لأنَّ أخبارَ عادٍ وثمودَ وفرعونَ كانت معلومةً عندَهم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤).

وجوَّز ابنُ عاشور أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَرِيَّةً، والمعنَى: ألم تَرَ آثارَ ما فَعَل رَبُّكَ بعادٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤-٣٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ القبيلةِ كُلِّها. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والعُليمي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير =

= العليمي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

وذكر ابنُ عَطِيَّةَ أنَّ ممَّا يؤيِّدُ أنَّ إرَمَ القَبيلةُ بعَينِها: قولَ اليهودِ للعَرَبِ: (سيَخرُجُ فينا نَبيٌّ نتَّبِعُه نَقْتُلُكم معه قَتْلَ عادِ إرَمَ)، فهذا يقتضي أنَّها قبيلةٌ، وذكَرَ أنَّه يتَّجِه على مَن قرأ ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ أن يكون إرَمَ أبًا لعادٍ أو جَدًّا غلب اسمُه على القبيلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨).

وممَّن قال: إنَّ إرَمَ هو جَدُّ عادٍ: ابنُ إسحاقَ، والزَّمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

قال الزَّمخشريُّ: (قيل لعَقِبِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ: عادٌ، كما يقالُ لبنى هاشِمٍ: هاشِمٌ. ثمَّ قيل للأوَّلينَ منهم عادٌ الأُولى وإرَمُ؛ تَسميةً لهم باسْمِ جَدِّهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السَّمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ هو أبو عادٍ؛ لأنَّهم قالوا: هو عادُ ابنُ إرمَ بنِ عوصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (عادُ بنُ إرَمَ، وقيل: ابنُ عَوصِ بنِ إرَمَ. فهو مِن أولادِ إرَمَ. وإرَمُ: اسمُ رَجُلٍ تُسَمَّى به القبيلةُ، وعادٌ مِن ذرِّيَّتِه؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، ثمَّ أبدَلَ منها فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ قبيلةٍ مِن عادٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال جُمهورُ المفَسِّرينَ: إرَمُ مدينةٌ لهم عظيمةٌ كانت على وَجهِ الدَّهْرِ باليَمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩).

و﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: قيل: معناها: ذاتُ الأعمِدةِ السَّيَّارةِ الَّتي يَنصِبونَ بها خيامَهم أثناءَ تنقُّلِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). =

= وقيل: المرادُ: ذاتُ الطُّولِ؛ لأنَّ قَومَ عادٍ كانوا طِوالَ القامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيدةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٢).
وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).
وقيل: المرادُ: ذاتُ القُوَّةِ والشِّدَّةِ. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).
ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).
والأقوالُ الثَّلاثةُ السَّابقةُ في ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ بناءً على أنَّ إرَمَ قبيلةٌ.
وقال البِقاعيُّ: (﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ أي: البناءِ العالي الثَّابتِ بالأعمِدةِ الَّتي لم يكُنْ في هذه الدَّارِ مِثْلُها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).
وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).
وهذا القَولُ بناءً على أنَّ إرَمَ مدينةٌ.
قال ابنُ جُزَي: (مَن قال: إرَمُ: قَبيلةٌ، قال: العِمادُ أعمِدَةُ بُنيانِهم، أو أعمِدةُ بُيوتِهم مِنَ الشَّعَرِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ عَمودٍ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: ذلك كنايةٌ عن طُولِ أبدانِهم. ومَن قال: إرَمُ: مَدينةٌ، فالعِمادُ الحِجارةُ الَّتي بُنِيَت بها، وقيل: القُصورُ والأبراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٣).
وقال الرَّسْعَنيُّ: (إنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ تَسميةٌ لعادٍ باسمِ جَدِّهم... وأنَّه عَطْفُ بيانٍ، كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ وَصْفًا لهم بالطُّولِ المُفرِطِ...، وإنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ اسْمُ بَلْدَتِهم -وهو قَولُ كثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ- كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ صِفةً لبَلْدَتِهم، على معنى: ذاتِ الأساطين، أو ذاتِ البناءِ الرَّفيعِ، وقد اختلَفوا فيها؛ فقال سَعيدُ بنُ المسَيِّبِ وعِكْرِمةُ وغَيرُهما: هي دِمَشْقُ. وقال محمَّدُ بنُ كَعبٍ: الإسكَنْدريَّةُ. وقيل: هي المدينةُ الَّتي بناها شدَّادُ بنُ عادٍ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١). =

كما قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ٨﴾.

أي: الَّتي لم يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ(١).

= قال ابنُ كثيرٍ: (ومَن زعم أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مدينةٌ إمَّا دِمَشْقُ...، أو إسكَنْدريَّة... أو غيرُهما، ففيه نظَرٌ؛ فإنَّه كيف يلتَئِمُ الكلامُ على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلًا أو عَطْفَ بيانٍ؟! فإنَّه لا يتَّسِقُ الكلامُ حينَئذٍ. ثمَّ المرادُ إنَّما هو الإخبارُ عن إهلاكِ القَبيلةِ المُسَمَّاةِ بعادٍ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم مِن بأسِه الَّذي لا يُرَدُّ، لا أنَّ المرادَ الإخبارُ عن مدينةٍ أو إقليمٍ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قال الماوَرْديُّ: (﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ فيه وجهانِ:

أحَدُهما: لم يُخلَقْ مِثلُ مَدينتِهم ذاتِ العِمادِ في البِلادِ...

الثَّاني: لم يُخلَقْ مِثلُ قومِ عادٍ في البِلادِ؛ لطُولِهم وشِدَّتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أعاد ابنُ زَيدٍ الضَّميرَ على العِمادِ؛ لارتفاعِها، وقال: بَنَوا عُمُدًا بالأحقافِ لم يُخلَقْ مِثْلُها في البِلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧، ٣٦٨).

واختار ابنُ جُزَي أنَّها صِفةٌ للمدينةِ، قال: (وهذا أظهَرُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، ولأنَّها كانت أحسَنَ مَدائِنِ الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩).

وممَّن ذهب إلى الوَجهِ الثَّاني -أي: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعودُ إلى القبيلةِ-: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال القُرطبيُّ: (الضَّميرُ في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجِعُ إلى القبيلةِ... وعليه الأكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦). =

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدَأَ بأولئك -لأنَّ أمْرَهم كان أعجَبَ، وقِصَّتَهم أنزَهُ وأغرَبُ-، ثَنَّى بأقرَبِ الأُمَمِ إليهم زمانًا، وأشبَهِهم بهم شأنًا، فقال[1]:

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثَمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا[2]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

= قال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا قتادةُ وابنُ جَريرٍ فأعادا الضَّميرَ على القَبيلةِ، أي: لم يُخلَقْ مِثلُ تلك القبيلةِ في البلادِ، يعني: في زَمانِهم، وهذا القَولُ هو الصَّوابُ. وقَولُ ابنِ زَيدٍ ومَن ذَهَب مَذْهَبَه ضَعيفٌ؛ لأنَّه لو كان أراد ذلك لَقال: الَّتي لم يُعمَلْ مِثْلُها في البلادِ، وإنَّما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وممَّن ذهب إلى كِلا الوجهَينِ: البِقاعيُّ، فقال: (﴿مِثْلُهَا﴾ يصِحُّ أن يعودَ الضَّميرُ على «عادٍ» باعتبارِ القبيلةِ، وعلى «إرَمَ» باعتبارِ البَلدةِ، وأوضَحَ هذا بقَولِه مُعَمِّمًا للأرضِ كُلِّها: ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: في بِنائِها ومَرافِقِها وثِمارِها، وتَقسيمِ مِياهِها وأنهارِها، وطِيبِ أرْضِها وحُسْنِ أطيارِها، وما اجتَمَع بها ممَّا يفوتُ الحَصرَ ويُعجِزُ القُوَى؛ ولا مِثْلُ أهلِها الَّذين بَنَوها؛ في قُوَّةِ أبدانِهم، وعَظيمِ شأنِهم، وغَيرِ ذلك مِن أُمورِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧، ٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٠).

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر القَبيلتَينِ مِنَ العَرَبِ، ذكَرَ بَعضَ مَن جاوَرَهم مِن طُغاةِ العَجَمِ؛ لِما في قِصَّتِهم مِن العُتُوِّ والجَبَروتِ، مع ما حَوَتْه مِن الغرائِبِ وخوارِقِ العَجائِبِ؛ فقال[1]:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ[2]؟

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٠-٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

قيل: المرادُ بالأوتادِ: الجنودُ. وممَّن ذهب إليه: النسفيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧).

قال الخازنُ: (سُمِّيَ بذلك؛ لكَثرةِ جُنودِه، وكَثرةِ مَضارِبِهم وخِيامِهم الَّتي كانوا يَضرِبونَها إذا نَزَلوا). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥).

وقيل: الأوتادُ هي الأهراماتُ المعروفةُ في مِصرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: المراغي، وابن عاشور، والشعراوي، وعطية سالم. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير الشعراوي)) (٧/ ٤٣٢٨)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الأوتادُ المعروفةُ سواءٌ مِن خَشَبٍ أو حديدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾.

أي: هؤلاء الَّذين سَلَف ذِكْرُهم -عادٌ وثَمودُ وفِرعونُ- قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ[1].

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ، والظُّلمِ والعُدْوانِ[2].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ذلك مُوجِبًا للعَذابِ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى[3]:

= وممَّن قال في الجُملةِ بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ، وأبو رافِعٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

قال ابنُ جرير: (أَولى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك: الأوتادُ الَّتي تُوتَدُ مِن خَشَبٍ كانت أو حديدٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن معاني الأوتادِ، ووُصِفَ بذلك؛ لأنَّه إمَّا أن يكونَ كان يُعَذِّبُ النَّاسَ بها، كما قال أبو رافعٍ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وإمَّا أن يكونَ كان يُلعَبُ له بها [كما قال قَتادةُ]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

وقال البِقاعي: (﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي: الَّذي ثبَّتَ مُلْكَه تَثبيتَ مَن يَظُنُّ أنَّه لا يَزولُ بالعساكِرِ والجنودِ وغَيرِهم مِن كُلِّ ما يَظُنُّ أنَّه يَشُدُّ أمْرَه؛ مِنَ الجنَّاتِ والعُيونِ والزُّروعِ والمقاماتِ الكريمةِ؛ فصارت له اليَدُ المبسوطةُ في المُلْكِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾.

أي: فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جميعًا[1].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ * سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ * فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ * وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ * فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٥ - ١٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، ومُطَّلِعٌ على أفعالِهم، وسامِعٌ لأقوالِهم؛ حتَّى يأخُذَهم ويُهلِكَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فَهِمَ منه بعضُ أهلِ العلمِ التَّحذيرَ مِنَ التَّطاوُلِ في البُنيانِ، والتَّفاخُرِ والتَّعاظُمِ بتَشييدِ الحِجارة[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ تنبيهٌ وتقريعٌ لِمَن بعدَهم ألَّا يَعْمَلوا بمِثْلِ عَمَلِهم، فيَنزِلَ بهم ما أُنزِلَ بأولئك مع بأسِهم وشِدَّتِهم وعَدَدِهم، وأموالِهم الَّتي أنفَقوها في ذاتِ العِمَادِ -على قولٍ-، وما فعلَتْه ثمودُ بجَوبِ الصَّخرِ بالوادِ، وفِرعَونُ ذو الأوتادِ؛ فاعِلُ أفاعيلِه الهائلةِ المنكَرة: كيف أفناهم وأبادَهم، ومحا آثارَهم، وجعلَهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، وعِظَةً للمُتَّعِظينَ[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ ولا مَهرَبَ مِنَ اللهِ إلَّا إليه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ ذَمَّ مَنِ اغتَرَّ بقُوَّتِه وسُلطانِه ومالِه، وهم هؤلاء الأُمَمُ الثَّلاثةُ: قَومُ عادٍ اغتَرُّوا بقوَّتِهم، وثمودُ اغتَرُّوا بجنَّاتِهم وعُيونِهم وزُروعِهم وبَساتينِهم، وقومُ فِرعونَ اغتَرُّوا بالمالِ والرِّياسة؛ فصارتْ عاقِبتُهم إلى ما قَصَّ اللهُ علينا، وهذا شأنُه دائمًا مع كلِّ مَنِ اغتَرَّ بشَيءٍ مِن ذلك؛ لا بُدَّ أنْ يُفسِدَه عليه، ويَسلُبَه إيَّاه[٤].

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٩٣)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اللَّياليَ سابِقةٌ الأيَّامَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ هذا الوَصفُ البَليغُ صريحٌ بألفاظِه ومعانيه في أنَّه وَصفٌ لحَضارةٍ عُمرانيَّةٍ لا نظيرَ لها؛ فالعِمادُ لا تكونُ إلَّا في القُصورِ والأبنيةِ الباذِخةِ، والمدُنِ المخَطَّطةِ على نظامٍ مُحكَمٍ[٢]. وذلك على قول في تفسيرِ ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ -مع أنَّ الَّذي صَنَعَها الآدَميُّ- دليلٌ على أنَّ الآدَميَّ قد يُوصَفُ بالخَلْقِ، فيقالُ: خَلَقَ كذا، ومنه قولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في المصَوِّرينَ: ((يُقالُ لهم: أحْيُوا ما خَلَقْتُم))[٣]، لكِنَّ الخَلْقَ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ ليس هو الخَلْقَ المنسوبَ إلى اللهِ تعالى؛ الخَلقُ المنسوبُ إلى اللهِ إيجادٌ بَعْدَ عَدَمٍ، وتحويلٌ وتغييرٌ، أمَّا الخَلقُ المنسوبُ لغَيرِ اللهِ فهو مجرَّدُ تحويلٍ وتغييرٍ[٤]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

٥- قولُه: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ الطُّغيانُ: شِدَّةُ العِصيانِ والظُّلمِ، ومعْنى طُغيانِهم في البِلادِ أنَّ كلَّ أُمَّةٍ من هؤلاء طَغَوا في بَلَدِهم[٥]، ولَمَّا كان بَلَدُهم من جُملةِ البلادِ -أي: أراضي الأقوامِ- كان طُغيانُهم في بَلَدِهم قد أوقَعَ الطُّغيانَ في البلادِ؛ لأنَّ فَسادَ البعضِ آيِلٌ إلى فَسادِ الجَميعِ بسَنِّ سَننِ السُّوءِ، ولذلك تَسبَّبَ عليه مِن قولِه: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ قولُه: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

(٥) وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ الَّتي كانوا فيها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

الطُّغيانَ يُجرِّئُ صاحبَه على دَحْضِ حُقوقِ النَّاسِ، فهو مِن جهةٍ يكونُ قُدوةَ سُوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكلٌّ واحدٍ منهم يَطْغى على مَن هو دونَه، وذلك فَسادٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به اختلالَ الشَّرائعِ الإلهيَّةِ والقَوانينِ الوَضعيَّةِ الصَّالحةِ، وهو مِن جِهةٍ أُخرى يُثيرُ الحَفائظَ والضَّغائنَ في المَطغيِّ عليه مِن الرَّعيَّةِ، فيُضمِرون السُّوءَ للطَّاغينَ، وتَنْطوي نُفوسُهم على كَراهيةِ وُلاةِ الأُمورِ وتَربُّصِ الدَّوائرِ بهم، فيَكونون لهم أعداءً غيرَ مُخلِصي الضَّمائرِ، ويكونُ رِجالُ الدَّولةِ مُتوجِّسينَ منهم خِيفةً، فيَظنُّون بهم السُّوءَ في كلِّ حالٍ ويَحذَرونهم، فتَتوزَّعُ قُوَّةُ الأُمَّةِ على أفرادِها عِوَضَ أنْ تتَّحِدَ على أعدائِها، فتُصبِحُ للأُمَّةِ أعداءٌ في الخارجِ وأعداءٌ في الدَّاخلِ، وذلك يُفْضي إلى فَسادٍ عَظيمٍ؛ فلا جَرَمَ كان الطُّغيانُ سَبَبًا لكَثرةِ الفسادِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وذِكرُ السَّوطِ إشارةٌ إلى أنَّ ما أحلَّه بهم في الدُّنيا مِن العَذابِ العظيمِ بالقِياسِ إلى ما أعَدَّ لهم في الآخرةِ كالسَّوطِ إذا قِيسَ إلى سائرِ ما يُعذَّبُ به؛ لأنَّه يَقْتضي مِن التَّكرارِ والتَّردادِ ما لا يَقْتضيه السَّيفُ ولا غيرُه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

- القَسَمُ بهذهِ الأزمانِ مِن حيثُ إنَّ بَعضَها دَلائلُ بَديعِ صُنْعِ اللهِ وسَعةِ قُدرتِه فيما أوجَدَ مِن نِظامٍ يُظاهِرُ بَعضُه بَعضًا؛ مِن ذلك وقْتُ الفجرِ الجامعِ بيْن انتهاءِ ظُلمةِ اللَّيلِ وابتداءِ نُورِ النَّهارِ، ووَقتُ اللَّيلِ الَّذي تَمحَّضَت فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧١).

الظُّلمةُ، وهي مع ذلك أوقاتٌ لأفعالٍ مِن البرِّ وعِبادةِ اللهِ وحْدَه، مِثل اللَّيالي العَشْرِ، واللَّيالي الشَّفعِ، واللَّيالي الوتْرِ، والمَقصودُ مِن هذا القسَم تَحقيقُ المُقسَم عليه؛ لأنَّ القسَمَ في الكلامِ مِن طُرقِ تأكيدِ الخبَرِ؛ إذِ القسَمُ إشهادُ المُقسِمِ ربَّه على ما تَضمَّنه كَلامُه، وقسَمُ اللهِ تعالَى مُتمحِّضٌ لقصْدِ التَّأكيدِ، والكلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ ولذلك فالقَسَمُ تَعريضٌ بتَحقيقِ حُصولِ المُقسَمِ عليه بالنِّسبةِ للمُنكِرين. وأيضًا المَقصدُ مِن تَطويلِ القسَمِ بأشْياءَ: التَّشويقُ إلى المُقسَمِ عليه(١).

- والتَّعريفُ في (الْفَجْرِ) تَعريفُ الجِنسِ، وهو الأظهرُ؛ لمُناسَبةِ عطْفِ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. ويَجوزُ أنْ يُرادَ فجْرٌ مُعيَّنٌ؛ فقِيل: أُريدَ وقْتُ صَلاةِ الصُّبحِ مِن كلِّ يومٍ، وقيل: فجْرُ يومِ النَّحرِ، وهو الفجرُ الَّذي يكونُ فيه الحَجيجُ بالمُزدلفةِ، فيَكونُ تَعريفُ (الْفَجْرِ) تَعريفَ العهْدِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ جاءتْ (ليالٍ) مُنكَّرةً مِن بيْن ما أُقسِمَ به؛ لأنَّها لَيالٍ مَخصوصةٌ مِن بيْن جِنسِ اللَّيالي، العَشرُ بَعضٌ منها، فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ. أو مَخصوصةٌ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِها، فالتَّنكيرُ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ. ولم تُعرَّفْ بلامِ العهْدِ، مع أنَّها ليالٍ مَعلومةٌ مَعهودةٌ؛ لأنَّ اللَّياليَ لو عُرِّفَت احتاجَتْ -لِما يُرادُ مِن اختصاصِها بالفضيلةِ- إلى مَزيدِ انضمامِ قَرينةٍ خارجيَّةٍ، بخِلافِ التَّنكيرِ؛ فإنَّ دَلالتَه على الفَضيلةِ بنفْسِه؛ لأنَّه مَوضوعٌ له مُستقلٌّ به، ولأنَّها لو عُرِّفَت لم تَتميَّزْ عن المَذكوراتِ فيما قُصِدَ منها، وانخَرطَت في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

سِلْكِها، ولو خُصِّصت منها بشَيءٍ مِن غيرِ تَغييرٍ لدَخَلَ في حدِّ اللُّغزِ[(١)].

- وقيل: عرَّف الفَجرَ باللَّامِ؛ إذْ كلُّ أحدٍ يَعرِفُه، ونكَّر اللَّياليَ العَشرَ؛ لأنَّها إنَّما تُعرَفُ بالعِلمِ، وفي تَعريفِ الفَجرِ ما يدُلُّ على شُهرتِه، وأنَّه الفَجرُ الَّذي يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولا يَجهَلُه[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ هي لَيالٍ مَعلومةٌ للسَّامعينَ، مَوصوفةٌ بأنَّها عَشْرٌ، واستُغنِيَ عن تَعريفِها بتَوصيفِها بعشْرٍ، وإذ قد وُصِفَت بهذا العدَدِ تعيَّن أنَّها عشْرٌ مُتتابِعةٌ[(٣)].

- ومُناسَبةُ عطْفِ (لَيَالٍ عَشْرٍ) على (الْفَجْرِ): أنَّ الفجْرَ وقْتُ انتهاءِ اللَّيلِ، فبيْنَه وبيْنَ اللَّيلِ جامعُ المُضادَّةِ، واللَّيلُ مَظهَرٌ من مَظاهرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، فلمَّا أُرِيدَ عطْفُه على الفجْرِ بقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، خُصَّت قبْلَ ذِكرِه بالذِّكرِ ليالٍ مُبارَكةٌ؛ إذ هي مِن أفرادِ اللَّيلِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ الشَّفعُ: ما يكونُ ثانيًا لغَيرِه، والوتْرُ: الشَّيءُ المُفرَدُ، قيل: الوِترُ يومُ عَرَفةَ والشَّفعُ يومُ النَّحرِ، وهما صِفتانِ لمَحذوفٍ -أي: اليوم؛ ذلك لأنَّ يومَ النَّحرِ عاشِرُ ذي الحَجَّةِ. ومُناسَبةُ الابتداءِ بالشَّفعِ أنَّه اليومُ العاشِرُ، فناسَبَ قولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، وعلى هذا التَّفسيرِ فذِكرُ الشَّفعِ والوتْرِ تَخصيصٌ لهذينِ اليومَينِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ، بعْدَ شُمولِ اللَّيالي العشْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٧، ٤١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

لهما[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ عطفٌ على ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ عطفَ الأعمِّ على الأخصِّ، أو عطْفٌ على (الفَجْرِ) بجامعِ التَّضادِّ. وأُقسِمَ به؛ لِما أنَّه مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ حِكمتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[٣]، أي: إذا يَمْضي، كقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتَّقييدُ بذلك؛ لِما في التَّعاقُبِ مِن وُضوحِ الدَّلالةِ وقوَّتِها على كَمالِ القُدرةِ ووُفورِ النِّعمةِ؛ فالتَّقييدُ تَتميمٌ لمَعنى القُدرةِ أو النِّعمةِ[٤]؛ فمعْنى (يَسْري): يَمْضي سائرًا في الظَّلامِ، أي: إذا انْقَضى منه جُزءٌ كَثيرٌ، شُبِّهَ تقَضِّي اللَّيلِ في ظَلامِه بسَيرِ السَّائرِ في الظَّلامِ، وهو السُّرَى، كما شُبِّهَ في قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢]، أي: تَمكَّنَ ظَلامُه واشتَدَّ. وتَقييدُ اللَّيلِ بظَرْفِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ لأنَّه وقْتُ تَمكُّنِ ظُلمةِ اللَّيلِ، فحِينَئذٍ يكونُ النَّاسُ أخَذوا حَظَّهم مِن النَّومِ فاسْتَطاعوا التَّهجُّدَ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن القسَمِ وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٥).

(٣) قَولُه ﴿يَسۡرِ﴾ قُرِئَت بإثباتِ الياءِ وحَذْفِها؛ لأنَّها فاصِلةٌ، والفواصِلُ يجوزُ حَذْفُ الياءاتِ منها، وتدُلُّ عليها الكَسَراتُ. والعَرَبُ قد تحذِفُ الياءَ، وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥).

بعْدَه مِن جَوابِه، أو دَليلُ جَوابِه[١].

- والاستِفهامُ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ تَحقيقٌ وتَقريرٌ لفَخامةِ شَأنِ المُقسَم بها، وكَونِها أُمورًا جَليلةً حَقيقةً بالإعظامِ والإجلالِ عندَ أربابِ العُقولِ، وتَنبيهٌ على أنَّ الإقسامَ بها أمْرٌ مُعتَدٌّ به، خَليقٌ بأنْ يؤكَّدَ بِه الإخبارُ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿قَسَمٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: قسَمٌ كافٍ ومُقنِعٌ للمُقسَمِ له إذا كان عاقلًا أنْ يَتدبَّرَ بعَقْلِه؛ فالمعْنى: هلْ في ذلك تَحقيقٌ لِما أُقسِمَ عليه للسَّامعِ المَوصوفِ بأنَّه صاحبُ حِجرٍ[٣]؟

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: قسَمٌ لأجْلِ ذي عقْلٍ يَمنَعُه مِن المُكابَرةِ، فيَعلَم أنَّ المقسِمَ بهذا القسَمِ صادقٌ فيما أقسَمَ عليه[٤].

- وما في اسْمِ الإشارةِ (ذلكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليه، وبُعْدِ مَنزلتِه في الشَّرفِ والفضْلِ، أيْ: هلْ فيما ذُكِرَ من الأشياءِ قسَمٌ -أيْ: مُقسَمٌ بِه- لِذي حِجرٍ يَراهُ حقيقًا بأنْ يُقسَمَ بِه إجلالًا وتَعظيمًا؟ والمرادُ تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلكَ، وإنَّما أُوثِرتْ هذه الطَّريقةُ هَضْمًا للخلْقِ، وإيذانًا بظُهورِ الأمرِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤).

ٱلْبِلَٰدِ﴾ وقَفَ المُخاطَبَ على مَصارِعِ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ مَقصودًا بذلك تَوعُّدُ قُريشٍ، ونصْبُ المَثَلِ لها[(١)].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إمَّا دَليلُ الجَوابِ؛ إذ يدُلُّ على أنَّ المقسَمَ عليه مِن جِنسِ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ، وهو الاستئصالُ الدَّالُّ عليه قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، فتَقديرُ الجَوابِ: لَيَصُبَّنَّ ربُّك على مُكذِّبيك سَوطَ عَذابٍ كما صبَّ على عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ. وإمَّا تَمهيدٌ للجوابِ ومُقدِّمةٌ له، إنْ جُعِلَ الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. وما بيْنه وبيْن الآياتِ السَّابقةِ اعتراضٌ جُعِلَ كمُقدِّمةٍ لجَوابِ القسَمِ، والمعْنى: إنَّ ربَّك لَبالمِرصادِ للمُكذِّبين، لا يَخْفى عليه أمْرُهم، فيَكون تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالاستِفهامُ ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، والمُخاطَبُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَثبيتًا له، ووَعْدًا بالنَّصرِ، وتَعريضًا للمُعانِدين بالإنذارِ بمِثلِه؛ فإنَّ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ مَوعظةٌ وإنذارٌ للقَوم الذين فَعَلوا مِثلَ فِعلِهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، قُصِدَ منه تَقريبُ وُقوعِ ذلك وتَوقُّعِ حُلولِه؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالنَّظائرِ واستحضارَ الأمثالِ يُقرِّبُ إلى الأذهانِ الأمرَ الغريبَ الوُقوعِ، فهذه العِبَرُ جُزئيَّاتٌ مِن مَضمونِ جَوابِ القسَمِ، فإنْ كان مَحذوفًا فذِكرُها دَليلُه، وإنْ كان الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كان تَقديمُها على الجوابِ زِيادةً في التَّشويقِ إلى تَلَقِّيه، وإيذانًا بجِنسِ الجوابِ مِن قَبْلِ ذِكرِه؛ ليَحصُلَ بعْدَ ذِكرِه مَزيدُ تَقرُّرِه في الأذهانِ[(٢)].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ رُؤيةً عِلْميَّةً تَشبيهًا للعِلمِ اليَقينيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٧، ٣١٨).

بالرُّؤيةِ في الوُضوحِ والانكشافِ؛ لأنَّ أخبارَ هذه الأُمَمِ شائعةٌ مَضروبةٌ بها المَثَلُ، فكأنَّها مُشاهَدةٌ، فتَكونَ (كيف) استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ الرُّؤيةِ عن العمَلِ في مَفعولَين. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمعْنى: ألَمْ تَرَ آثارَ ما فَعَلَ ربُّك بعادٍ؟ وتكونَ (كيف) اسمًا مُجرَّدًا عن الاستفهامِ في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعوليَّةِ لفِعلِ الرُّؤيةِ البَصَريَّةِ[(١)].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى التَّعريفِ بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المخاطَبِ في قولِه: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ لِما في وصْفِ (ربّ) مِن الإشعارِ بالوِلايةِ والتَّأييدِ، ولِما تُؤذِنُ به إضافتُه إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن إعزازِه وتَشريفِه[(٢)].

- وقد ابتُدِئَت المَوعظةُ بذِكرِ عادٍ وثَمودَ؛ لشُهرتِهما بيْن المُخاطَبينَ، وذُكِرَ بعْدَهما قَومُ فِرعونَ؛ لشُهرةِ رسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ بيْن أهلِ الكتابِ ببِلادِ العرَبِ وهم يُحدِّثون العرَبَ عنها[(٣)].

- وقولُه: ﴿إِرَمَ﴾ عطْفُ بَيانٍ لـ (عَادٍ) على تَقديرِ مُضافٍ، أي: سِبْطِ إرَمَ، أو أهْلِ إرَمَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُرادَ بـ (عادٍ) القَبيلةُ الَّتي جَدُّها الأدْنى هو عادُ ابنُ عَوصِ بنِ إرَمَ -وذلك على قولٍ-، وهم عادٌ الموصوفةُ بالأُولى في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُتحدَّثَ عنهم قَبيلةٌ أُخرى تُسمَّى عادًا أيضًا، كانت تَنزِلُ مكَّةَ مع العَماليقِ، يُقال: إنَّهم بَقيَّةٌ مِن عادٍ الأُولى، فعادٌ وإرَمُ اسمانِ لقَبيلةِ عادٍ الأُولى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي =

- والعِمادُ: عُودٌ غَليظٌ طَويلٌ يُقامُ عليه البيتُ يُركَزُ في الأرضِ تُقامُ عليه أثوابُ الخَيمةِ أو القُبَّةِ، ويُسمَّى دِعامةً، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن القوَّةِ؛ تَشبيهًا للقَبيلةِ القوَّيةِ بالبيتِ ذي العِمادِ، فوُصِفَت عادٌ بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾؛ لقُوَّتِها وشِدَّتِها، أي: قدْ أهلَكَ اللهُ قومًا هم أشدُّ مِن القومِ الَّذين كذَّبوك[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ قيل: إنَّها للاستغراقِ العُرفيِّ، أي: في بلدانِ العرَبِ وقَبائلِهم[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾

- مُنِعَ (ثَمود) مِن الصَّرفِ؛ لأنَّ المُرادَ به الأُمَّةُ المَعروفةُ، ووُصِفَ باسمِ الموصولِ لجمْعِ المذكَّرِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: الَّتي جابَتِ الصَّخرَ، بتَأويلِ القومِ، فلمَّا وَصَفَ عَدَلَ عن تأنيثِه؛ تَفنُّنًا في الأسلوبِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾

- قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ التَّعبيرُ عن إنزالِ العَذابِ بالصَّبِّ؛ للإيذانِ بكَثرتِه واستِمرارِه وتَتابُعِه؛ فإنَّه عبارةٌ عن إراقةِ شَيءٍ مائعٍ أو جارٍ مَجراهُ في السَّيلانِ، كالرَّملِ والحُبوبِ، وإفراغِه بشِدَّةٍ وكَثرةٍ واستمرارٍ[4].

= السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).

- وإضافةُ ﴿سَوْطَ﴾ إلى ﴿عَذَابٍ﴾ قيل: هي مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: صَبَّ عليهم عَذابًا سَوطًا، أي: كالسَّوطِ في سُرعةِ الإصابةِ، فهو تَشبيهٌ بَليغٌ(١).

- وقدْ ذَكَرَ تعالى -هاهنا- قِصَّةَ ثلاثِ فِرَقٍ مِن الكُفَّارِ المتقدِّمين -وهي: عادٌ، وثمودُ، وقومُ فِرعونَ- على سَبيلِ الإجمالِ، حيثُ قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ولم يُبيِّنْ كَيفيَّةَ ذلك العذابِ، وذَكَرَ في سُورةِ (الحاقَّةِ) بَيانَ ما أُبهِمَ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ١ - ٩] الآيةَ(٢). وكلٌّ مُناسِبٌ في مَوضِعه.

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لإصابتِهم بسَوطِ عَذابٍ إذا قُدِّرَ جَوابُ القسَمِ مَحذوفًا، ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ القسَمِ، فعلى كونِ الجُملةِ تَذييلًا تكونُ تَعليلًا لجُملةِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه، وتَصريحًا للمُعاندينَ بما عرَّضَ لهم به مِن تَوقُّعِ مُعامَلتِه إيَّاهم بمِثلِ ما عامَلَ به المُكذِّبين الأوَّلينَ، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: إنَّ اللهَ بالمِرصادِ لكلِّ طاغٍ مُفسِدٍ، وعلى كَونِها جَوابَ القسَمِ تكونُ كِنايةً عن تَسليطِ العَذابِ على المشْرِكين؛ إذ لا يُرادُ مِن الرَّصدِ إلَّا دفْعُ المُعتدي مِن عدُوٍّ ونحْوِه، وهو المقسَمُ عليه، وما قبْلَه اعتراضًا تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ؛ إذ قُدِّمَ على المقصودِ بالقسَمِ ما هو استدلالٌ عليه وتَنظيرٌ بما سبَقَ مِن عِقابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٢).

أمثالِهِم مِن الأُمَمِ مِن قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إلخ، وهو أُسلوبٌ مِن أساليبِ الخَطابةِ؛ إذ يُجعَلُ البَيانُ والتَّنظيرُ بمَنزلةِ المُقدِّمةِ، ويُجعَلُ الغَرَضُ المَقصودُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ والعِلَّةِ إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارَينِ، مع قَصْدِ الاهتمامِ بالمُقدَّمِ والمُبادَرةِ به[1].

- والعُدولُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ أو اسمِ الجَلالةِ إلى (ربك) في قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ فاعلَ ذلك ربُّه الَّذي شأْنُه أنْ يَنتصِرَ له؛ فهو مُؤمِّلٌ بأنْ يُعذِّبَ الَّذين كذَّبوه انتصارًا له انتصارَ المَولى لوَليِّه[2].

- وتَعريفُ (المِرْصاد) تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ عُمومَ المُتعلَّقِ، أي: بالمِرصادِ لكلِّ فاعلٍ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ كلِّ عاملٍ بما عَمِلَه وما يَعمَلُه؛ إذ لا يُقصَدُ الرَّصْدُ إلَّا للجَزاءِ على العُدوانِ، وفيما يُفيدُه مِن التَّعليلِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ لم يَظلِمْهم فيما أصابَهُم به[4].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-٢٠)

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَدَرَ﴾: أي: ضيَّق، فلم يُكْثِرْ مالَه، ولم يُوَسِّعْ عليه، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقْتُه، كأنَّما جعَلْته بقَدرٍ، وقُدِر عليه الرِّزقُ، أي: أُعْطِيَ ذلك بقَدْرٍ يَسِيرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[١].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: أي: لا يَحُضُّ بعضُكم بعضًا، وأصْلُه: تَتَحاضُّونَ، فحَذَف إحدَى التَّاءيْنِ، وأصلُ (حضض) هنا: البَعْثُ على الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أي: الميراثَ، وهو: أن يكونَ الشَّيءُ لقَومٍ ثمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بنَسَبٍ أو سَبَبٍ[٣].

﴿لَّمًّا﴾: أي: مجتَمِعًا شَديدًا، وهو أن يأكُلَ نَصيبَه ونَصيبَ غَيرِه، واللَّمُّ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

الجَمعُ الشَّديدُ، مِن قولِك: لَممتُ الطَّعامُ لَمًّا: إذا أكَلْتَه جَميعًا. والآكِلُ اللَّمُّ: الَّذي يأكُلُ كُلَّ شَيءٍ يَجِدُه، لا يَسألُ عنه: أحلالٌ هو أمْ حرامٌ، ويأكُلُ الَّذي له ولغَيرِه، وأصلُ (لمم): يدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبةٍ ومُضامَّةٍ[١].

﴿جَمًّا﴾: أي: كثيرًا، وأصلُ (جمم): يدُلُّ على كَثرةِ الشَّيءِ واجتِماعِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ اليُسرِ والعُسرِ، والغِنى والفَقرِ: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك! وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك!

ثمَّ يقولُ سُبحانَه ردًّا على قولِ الإنسانِ في هذينِ الحالَينِ، ومبيِّنًا ما هو أشنَعُ منه: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ من اللهِ، بل لا تُكرِمونَ -أيُّها النَّاسُ- اليتيمَ؛ فتُحسِنوا إليه، ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ، وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ، وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سُبحانَه أنَّ عادةَ هؤلاء الفِرَقِ كانت الطُّغيانَ، وذكَرَ أنَّ عادةَ الرَّبِّ سُبحانَه فيمَن تولَّى وكَفَر أنَّه يُعَذِّبُه -كما هدَّد به آخِرَ السُّورةِ السَّابِقةِ-، ودَلَّ على ذلك بما شُوهِدَ في الأُمَمِ، وعَلَّل ذلك بأنَّه لا يَغفُلُ؛ ذَكَر عادةَ الإنسانِ مِن حيثُ هو مِن غيرِ تَقييدٍ بهؤلاء الفِرَقِ عِندَ الابتلاءِ في حالَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقال مُشيرًا إلى جوابِ ما كانت الكُفَّارُ تَقولُه مِن أنَّهم آثَرُ عِندَ اللهِ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلا يُساعِدُ عليهم في الدُّنيا، وكذا تَقَلُّلُ الصَّحابةِ رَضيَ اللهُ عنهم مِنَ الدُّنْيا[١]:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك؛ ظَنًّا منه أنَّ إكرامَ اللهِ في الدُّنيا وإنعامَه عليه دليلٌ على كرامتِه عِندَه[٢]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ عطيَّة: (ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كانت قُرَيشٌ تقولُه تَستَدِلُّ به على إكرامِ اللهِ تعالى وإهانتِه لعَبدِه؛ وذلك أنَّهم كانوا يَرونَ أنَّ مَن عندَه الغِنى والثَّروةُ والأولادُ فهو المُكرَمُ، وبضِدِّه المُهانُ، ومِن حيثُ كان هذا المقطَعُ غالبًا على كثيرينَ مِنَ الكُفَّارِ جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ لاسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمِنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن طبيعةِ الإنسانِ من حيثُ هو، وأنَّه جاهِلٌ ظالمٌ، لا عِلْمَ له بالعواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالإنسانُ من حيثُ هو عارٍ عن كُلِّ خَيرٍ مِنَ العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكمِلُه بذلك ويُعْطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نَفْسِه إلَّا الجَهْلُ المُضادُّ للعِلْمِ، والظُّلْمُ المُضادُّ للعَدْلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدْلٍ وخَيرٍ فيه فمِن رَبِّه لا مِن نَفْسِه). =

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾.

أي: وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك[١]!

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى تعالى مِن أقوالِهم تلك الشُّبهةَ، فكأنَّه قال: بل لهم فِعلٌ هو شَرٌّ مِن هذا القَولِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى يُكرِمُهم بكثرةِ المالِ، فلا يُؤَدُّونَ ما يَلزَمُهم فيه مِن إكرامِ اليتيمِ[٢]!

﴿كَلَّاۖ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ؛ فاللهُ يُغْني من يَشاءُ ولو كان كافِرًا، ويُفقِرُ مَن يشاءُ ولو كان مُؤمِنًا؛ ابتِلاءً منه لعبادِه بالغِنى والفَقْرِ بمُقتَضى حِكمتِه فيهم، وهو إنَّما يُكرِمُ بطاعتِه، ويُهينُ بمَعصيتِه[٣].

= ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣) و(٢٢/ ٤٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

قال ابن تيميَّةَ: (بل قد يُوسِّعُ عليه رِزْقَه إملاءً واستِدراجًا، وقد يَقْدِرُ عليه رِزْقَه حمايةً وصِيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِما له مِن ذُنوبٍ وخطايا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣).

=

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها النَّاسُ- مَن تَستهينونَ بأمرِ اللهِ فتَعصُونَه، فلا تُكرِمونَ اليتيمَ الَّذي فقَدَ أباه دونَ سِنِّ البُلوغِ؛ فتَسُدُّوا حاجتَه، وتُحسِنوا إليه ولا تَظلِموه شيئًا[(١)].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ١٨﴾.

أي: ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ[(٢)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

= وقال ابن القيِّم: (أي: ليس الأمرُ كما يقولُ الإنسانُ، بل قد أَبتلي بنعمتي، وأُنعِمُ ببَلائي!). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣].

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ على حُبِّ الدُّنيا بأمرٍ خارجيٍّ؛ دَلَّ عليه بأمرٍ في الإنسانِ؛ فقال تعالى[(١)]:

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩﴾.

أي: وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا لا تَترُكونَ منه شَيئًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ[(٢)]!

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠﴾.

أي: وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا، فتَحرِصونَ على جَمْعِه واقتنائِه، فلا تُنفِقونَه في الخَيرِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أنَّ المتنعِّمَ لا ينبغي أن يَغفُلَ عن العاقبةِ؛ فالأمورُ بخواتيمِها، والفقيرُ والمحتاجُ لا ينبغي أن يَغفُلَ عمَّا لله عليه مِن النِّعَمِ الَّتي لا حَدَّ لها؛ مِن سلامةِ البَدَنِ والعَقلِ والدِّينِ، ودَفعِ الآفاتِ والآلامِ الَّتي لا حَدَّ لها ولا حَصْرَ؛ فلا ينبغي أن يقضيَ على نَفْسِه بالإهانةِ مُطلقًا[1]!

٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ذمٌّ لِمَن يَقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ لأنَّه يقولُ ذلك مُفتخِرًا به على غيرِه، ومُستدِلًّا به على عُلوِّ مَنزلتِه في الآخرةِ، ومُعتقِدًا استحقاقَ ذلك على ربِّه، وأمَّا إذا قاله على وَجهِ الشُّكرِ، والتَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ تعالى، فليس بمَذمومٍ، بلْ مَمدوحٌ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَتبَصَّرَ، فيَقولَ مثلًا: لماذا أعطاني اللهُ المالَ؟ ماذا يريدُ منِّي؟ يريدُ منِّي أنْ أشكرَ، لماذا ابتلاني اللهُ بالفقرِ، بالمرضِ وما أَشْبَهَ ذلك؟ يريدُ منِّي أنْ أصبرَ. فلْيَكُنْ مُحاسِبًا لنَفْسِه؛ حتَّى لا يكونَ مِثْلَ حالِ الإنسانِ المبنيَّةِ على الجَهلِ والظُّلمِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يُعْطِك ما أعطاك إكرامًا لك لأنَّك مُستحِقٌّ، ولكنَّه تَفضُّلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

منه، ولم يُهِنْك حينَ قَدَرَ عليك رِزْقَه، بل هذا مُقتَضى حِكمتِه وعَدْلِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ أنَّ لشأنِ اللهِ في مُعامَلتِه النَّاسَ في هذا العالَمِ أسرارًا وعِلَلًا لا يُحاطُ بها، وأنَّ أهلَ الجَهالةِ بمَعزلٍ عن إدراكِ سِرِّها بأقيسةٍ وَهميَّةٍ، والاستنادِ لمألوفاتٍ عاديَّةٍ، وأنَّ الأَولى لهم أن يتطَلَّبوا الحقائِقَ مِن دلائِلِها العَقليَّةِ، وأن يَعرِفوا مرادَ اللهِ مِن وَحيِه إلى رُسُلِه، وأن يَحذَروا مِن أن يَحيدوا بالأدِلَّةِ عن مَدلولِها، وأن يَستَنتِجوا الفُروعَ مِن غيرِ أُصولِها، وأمَّا أهلُ العِلمِ فهم يَضعونَ الأشياءَ مَواضِعَها، ويتوسَّمونَ التَّوسُّمَ المستَنِدَ إلى الهَدْيِ، ولا يَخلِطونَ ولا يَخبِطونَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ تعليمٌ ألَّا نَنظُرَ إلى ظواهِرِ الأُمورِ دونَ بَواطِنِها، وإلى الجُسْمانيَّاتِ الحِسِّيَّةِ دونَ ما وراءَها مِن مَعانٍ عَقليَّةٍ، بل نَعبُرُ مِنَ الظَّواهِرِ إلى البواطِنِ، وننظُرُ مِنَ المحسوسِ إلى المعقولِ، ونجعَلُ حواسَّنا خادِمةً لعُقولِنا، ونجعَلُ عُقولَنا هي المتصَرِّفةَ الحاكِمةَ بالنَّظَرِ والتَّفكيرِ، وكما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فلا يَنظُرُ إلى بَهرجةِ الكَثرةِ، ولكِنْ إلى حقيقةِ وحالةِ الشَّيءِ الكثيرِ، فيَعتَبِرُ بحَسَبِهما، وأنَّه لا يجوزُ أن نغتَرَّ بالمالِ والقُوَّةِ والجاهِ وأنواعِ النَّعيمِ إذا سِيقَت إلينا، فنَحسَبَ أنَّها هي نَفْسُ الكرامةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي دُعِينا إلى العَمَلِ لنَيْلِها، بل إنَّما نَعُدُّها كذلك إذا كان معها التَّوفيقُ إلى شُكرِها بالقيامِ بحُقوقِها، وصَرْفِها في وُجوهِها، ولا نغتَرَّ بحالةِ الضِّيقِ والعُسْرِ والضَّعفِ، فنَحسَبَ أنَّها إهانةٌ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

اللهِ لصاحِبِها، بل علينا أن ننظُرَ إلى ما معها من صَبرٍ ورجاءٍ وبِرٍّ، أو ضَجَرٍ ويأسٍ وفُجورٍ، فنَعلَمَ حينَئذٍ أنَّها مع الأُولى للتَّمحيصِ والتَّثبُّتِ، ومع الأخيرةِ للزَّجرِ والعِقابِ بعَدْلٍ وحِكمةٍ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لم يقُلْ: «فأهانَه» مَوضِعَ «قَدَرَ عليه»؛ تعليمًا للأدبِ معه سُبحانَه وتعالى، وصَونًا لأهلِ اللهِ عن هذه العِبارةِ؛ لأنَّ أكثَرَهم مُضَيَّقٌ عليه في دُنياه، ولأنَّ تَرْكَ الإكرامِ لا يَنحَصِرُ في كونِه إهانةً[(٢)]!

٧- وُقوفُ هِمَّةِ العَبدِ عندَ مُرادِ نَفْسِه فقط: مِن ضَعفِ الهِمَّةِ؛ ولهذا لامَهم اللهُ على عدمِ اهتِمامِهم بأحوالِ الخَلْقِ المحتاجِينَ، فقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[(٣)].

٨- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لنا أنْ نُكْرِمَ الأيتامَ، وأنْ يَحُضَّ بعضُنا بعضًا على إطعامِ المساكينِ؛ لأنَّهم في حاجةٍ، واللهُ تعالى في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه[(٤)].

٩- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنَّ الفَقرَ والغِنى ابتلاءٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه؛ فليس كلُّ مَن أعطاه ووسَّعَ عليه فقد أكرَمَه، ولا كُلُّ مَن ضَيَّق عليه وقَتَّرَ عليه الرِّزقَ فقد أهانه، والإكرامُ أن يُكرَمَ العَبدُ بطاعةِ اللهِ ومحبَّتِه ومَعرفتِه، والإهانةُ أن يَسلُبَه ذلك، ولا يَقَعُ التَّفاضُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٨).

بالغِنى والفَقْرِ، بل بالتَّقوى(١).

١٠- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ فبيَّن حقيقةَ فِتنةِ المالِ إيجابًا وسَلْبًا، جمعًا وبَذْلًا؛ فبدَأَ بأقبَحِ الوُجوهِ مِنَ الإمساكِ؛ مِن عَدَمِ إكرامِ اليَتيمِ مَهيضِ الجَناحِ، مكسورِ الخاطِرِ، والتَّقاعُسِ عن إطعامِ المسكينِ خالي اليَدِ، جائعِ البَطنِ، ساكِنِ الحَركةِ، وهذان الجانبانِ أهَمُّ مُهمَّاتِ بَذْلِ المالِ، وهم يُمسِكونَ عنها! وقد بَيَّن تعالى أنَّ هذا الجانِبَ هو اقتِحامُ العَقَبةِ عند الشِّدَّةِ، في قَولِه تعالى في سُورةِ «البَلَدِ»: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

ومِنَ الجانِبِ الآخَرِ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: الميراثَ، فلا يُعطُونَ النِّسوةَ، وهنَّ ضعيفاتُ الشَّخصيَّةِ، أحوَجُ إلى مالِ مُورِّثِهنَّ، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ حتَّى استعبَدَكم وألهاكم التكاثُرُ فيه.

وهنا لَفتُ نَظَرٍ للفَريقَينِ؛ فمَن أُعطِيَ منهم لا ينبغي له أن يُغفِلَ طُرُقَ البَذلِ الهامَّةَ، ومَن مُنِعَ لا ينبغي له أن يَستَشرِفَ إلى ما لا ينبغي له(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذَمُّ جَمعِ المالِ مِن غَيرِ حِلِّه(٣).

١٢- قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ هذا ذَمٌّ للحِرْصِ على المالِ وشِدَّةِ الرَّغبةِ فيه(٤).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٤/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٦).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ سؤالٌ: كيف ذمَّ سُبحانَه مَن يقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع أنَّه صادِقٌ فيه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾، ومع أنَّه متحَدِّثٌ بالنِّعمةِ، وهو مأمورٌ بالتحَدُّثِ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المذموم هو أن يقولَ ذلك مفتَخِرًا، ومعتَقِدًا استِحقاقَه ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، أمَّا الممدوحُ فهو أن يقولَه على وَجهِ الشُّكرِ والتَّحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ تعالى[(١)]، فلا تَنافيَ بيْن إثباتِ إكرامِ اللهِ تعالى الإنسانَ بقَولِه: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وبيْن إبطالِ ذلك بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾؛ لأنَّ الإبطالَ وارِدٌ على ما قَصَده الإنسانُ بقَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أنَّ ما نالَه مِن النِّعمةِ عَلامةٌ على رِضا اللهِ عنه[(٢)].

الثَّاني: أن ينساقَ الإنكارُ والذَّمُّ إلى قَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يعني: أنَّه إذا تُفُضِّلَ عليه بالخَيرِ وأُكرِمَ به اعترَف بتفَضُّلِ اللهِ وإكرامِه، وإذا لم يُتفضَّلْ عليه سَمَّى تَرْكَ التَّفَضُّلِ هوانًا، وليس بهوانٍ[(٣)].

الثَّالثُ: أن اللَّفظَ الَّذي أَخْبَرَ اللهُ به وإن كان مِثْلَ اللَّفظِ الَّذي أنكَرَه اللهُ مِن كلامِ المبتلَى! لكنَّ المعنى مختلِفٌ؛ فإنَّ المبتلَى اعتقدَ أنَّ هذه كرامةٌ مطلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠).

وهي النِّعمةُ الَّتي يَقْصِدُ بها أنَّ النِّعَمَ إكرامٌ له، والإنعامَ بنعمةٍ لا يكونُ سببًا لعَذابٍ أعظَمَ منها، وليس الأمرُ كذلك، بلِ اللهُ تعالى ابتلاه بها ابتلاءً لِيتبيَّنَ أيُطيعُه فيها أم يَعصيه، مع عِلْمِه بما سيكونُ مِن الأمْرَينِ، لكِنَّ العلمَ بما سيكونُ شيءٌ، وكونُ الشَّيءِ والعِلمُ به شَيءٌ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ فإنَّه تكريمٌ بما فيه مِن اللَّذَّاتِ؛ ولهذا قرَنَه بقَولِه: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ ولهذا كانت خوارقُ العاداتِ الَّتي تُسَمِّيها العامَّةُ كرامةً ليست عندَ أهلِ التَّحقيقِ كرامةً مطلقًا، بل في الحقيقةِ الكرامةُ هي لزومُ الاستقامةِ، وهي طاعةُ اللهِ، وإنَّما تلك الخوارقُ هي ممَّا يَبتلي اللهُ به عبدَه، فإنْ أطاعَه بها رَفَعَه، وإنْ عصاه بها خَفَضَه، وإنْ كانت مِن آثارِ طاعةٍ أُخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وإذا كان في النِّعمةِ والكرامةِ هذان الوَجهانِ فهي مِن بابِ الأمرِ والشَّرعِ نعمةٌ يجِبُ الشُّكرُ عليها، وفي بابِ الحقيقةِ القَدَريَّةِ لم تكُنْ للفاجرِ إلَّا فِتنةً ومِحنةً استوجبَ بمَعصيةِ اللهِ فيها العَذابَ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّى اللهُ تعالى بَسْطَ الرِّزقِ وتَقديرَه ابتِلاءً؟!

الجوابُ: لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما اختبارٌ للعَبدِ؛ فإذا بَسَطَ له فقد اختبَرَ حالَه: أيَشكُرُ أم يَكفُرُ؟ وإذا قَدَر عليه فقد اختبَرَ حالَه: أيَصبِرُ أم يَجزَعُ؟ فالحِكمةُ فيهما واحِدةٌ، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٢) [الأنبياء: ٣٥].

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ قال: «كَلَّا»، وهذا فيه زجرٌ وتنبيهٌ؛ زجرٌ عن مِثْلِ هذا القَولِ، وتنبيهٌ على ما يُخبَرُ به ويُؤمَرُ به بَعْدَه؛ وذلك أنَّه ليس كلُّ مَن حَصَلَ له نِعَمٌ دُنيويةٌ تُعَدُّ كرامةً يكونُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مُكرِمًا له بها، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه ذلك يكونُ مُهينًا له بذلك، بل هو سُبحانَه يَبتلي عبدَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقد يُعْطي النِّعَمَ الدُّنيويَّةَ لِمَن لا يُحِبُّه ولا هو كَريمٌ عندَه؛ لِيَستدرِجَه بذلك، وقد يَحمي منها مَن يُحِبُّه ويُواليه؛ لئلَّا تَنْقُصَ بذلك مَرتبتُه عندَه، أو يَقَعَ بسَبَبِها فيما يَكرَهُه منه[1].

٤- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ اعلَمْ أنَّ مِن ضَلالِ أهلِ الشِّركِ ومِن فِتنةِ الشَّيطانِ لبَعضِ جَهَلةِ المؤمنينَ أن يُخَيِّلَ إليهم ما يحصُلُ لأحدٍ بجَعْلِ اللهِ مِن ارتباطِ المسَبَّباتِ بأسبابِها والمعلولاتِ بعِلَلِها، فيَضَعوا ما يصادِفُ نَفعَ أحَدِهم مِن الحوادِثِ مَوضِعَ كَرامةٍ مِنَ اللهِ للَّذي صادَفَتْه منافِعُ ذلك؛ تحكيمًا للشَّاهِدِ، ومحبَّةً للنَّفسِ، ورَجمًا بالغَيبِ، وافتياتًا على اللهِ، وإذا صادَفَ أحَدَهم مِن الحوادِثِ ما جَلَب له ضَرًّا تَخيَّلَه بأوهامِه انتقامًا مِنَ اللهِ قَصَدَه به؛ تشاؤمًا منهم، فهؤلاء الَّذين زَعَموا ما نالهم مِن نِعمةِ اللهِ إكرامًا مِنَ اللهِ لهم: ليسوا أهلًا لكَرامةِ اللهِ، وهؤلاء الَّذين توَهَّموا ما صادَفهم مِن فُتورِ الرِّزقِ إهانةً مِنَ اللهِ لهم: ليسوا بأحَطَّ عندَ اللهِ مِن الَّذين زعَموا أنَّ اللهَ أكرَمَهم بما هم فيه مِن نِعمةٍ. فذلك الاعتقادُ أوجَبَ تَغَلْغُلَ أهلِ الشِّركِ في إشراكِهم، وصَرْفَ أنظارِهم عن التَّدبُّرِ فيما يخالِفُ ذلك، ورُبَّما جَرَّت الوساوِسُ الشَّيطانيَّةُ فِتنةً مِن ذلك لبَعضِ ضُعَفاءِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣٠١).

الإيمانِ وقِصارِ الأنظارِ، والجُهَّالِ بالعَقيدةِ الحَقِّ[١].

٥- (أمَّا) كَلمةُ تَفصيلٍ، ولا يَجيءُ إلَّا مُتعدِّدًا، ومِن شَرطِ مَدخولِها التَّوازُنُ بيْنَ الفقرتينِ والتَّقابُلُ بيْنَهما؛ فإنْ كان بعْدَ الأُولى اسمًا، فالواجبُ بعْدَ الثَّانيةِ الاسمُ، نحْوُ قولِك: أمَّا الكافرُ فكَفورٌ، وأمَّا المؤمنُ فشَكورٌ، وإنْ كان شَرطًا فشَرطًا، نحْو قولِك: أمَّا إذا أحسَنتَ إلى زَيدٍ فهو مُحسِنٌ إليك، وأمَّا إذا أسَأْتَ إليه فهو مُسيءٌ إليك، وجاء هنا الاسمُ بعْدَ الأُولى ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والشَّرطُ بعْدَ الثَّانيةِ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾، فلا تَوازُنَ بيْنَهما.

والجوابُ عن هذا: أنَّ الموازنةَ حاصلةٌ؛ لأنَّ (أمَّا) التَّفصيليَّةَ تَقْتَضي أنْ يكونَ مَدخولُها مُبتدأً، وخبرُها مقيَّدًا بالفاءِ، و(إذا) هاهنا لَيست بشَرْطٍ، بلْ هي ظَرفٌ، و﴿فَيَقُولُ﴾ خبَرُ المبتدأِ، ودُخولُ الفاءِ لتَضمُّنِ (أمَّا) معْنى الشَّرطِ، فيُقدَّرُ في قولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ مُبتدأٌ، فتَقديرُ الكلامِ: وأمَّا هو إذا ما ابتَلاهُ ربُّه[٢].

٦- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنَّ المسكينَ حَظُّه الإطعامُ ودَفْعُ حاجتِه، أمَّا اليتيمُ فالإكرامُ؛ فإنْ كان غنيًّا فإنَّه يُكرِمُه لِيُتْمِه، ولا يُطْعَمُ لِغناه، وإنْ كان اليتيمُ فقيرًا فإنَّه يُكرَمُ لِيُتمِه ويُطعَمُ لفَقْرِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ في إضافةِ الطَّعامِ إلى المسكينِ إشارةٌ إلى أنَّه شَريكٌ للغَنيِّ في مالِه بقَدْرِ الزَّكاةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩، ٧٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ رابطةٌ بيْن الكلامَين، ومُؤذِنةٌ بالبَونِ بيْن الأمْرين المُتنافِيَين؛ وذلك أنَّه تعالَى يَطلُبُ مِن العِبادِ الطَّاعةَ والعِبادةَ، وهو بالمرصادِ كالمُترقِّبِ الَّذي لا يَفوتُه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه، فيُحاسِبُهم على النَّقيرِ والقِطميرِ ويُجازيهم عليها، والإنسانُ غافلٌ مُولَعٌ بالتَّلهِّي، ومُنغمِسٌ في أُمورِ العاجلةِ؛ إنْ أصابَه نَصيبٌ مِن الدُّنيا اطمَأنَّ إليه، وإنْ جاوَزَه حظٌّ منها ضَجِرَ وقَنِطَ[١]؛ فدلَّت الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ على أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها مُتَّصِلٌ بما قبْلَها ومُتفرِّعٌ عليه لا مَحالةَ؛ وذلك أنَّ الكلامَ السَّابقَ اشتَمَلَ على وصْفِ ما كانت تَتمتَّعُ به الأُمَمُ المُمثَّلُ بها ممَّا أنعَمَ اللهُ عليها به مِن النِّعَمِ، وهُمْ لاهُونَ عن دَعوةِ رُسلِ اللهِ، ومُعرِضون عن طلَبِ مَرضاةِ ربِّهم، مُقتحِمون المَناكرَ الَّتي نُهُوا عنها، بَطِرون بالنِّعمةِ، مُعجَبون بعَظَمتِهم، فعُقِّبَ ذِكرُ ما كانوا عليه وما جازاهُم اللهُ به عليه مِن عَذابٍ في الدُّنيا؛ باستخلاصِ العِبرةِ؛ ففاءُ التَّفريعِ مُرتبطةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بما فيها مِن العُمومِ الَّذي اقتضاهُ كَونُها تَذْييلًا، والمعْنى: هذا شأْنُ ربِّك الجاري على وَفْقِ عِلمِه وحِكمتِه، فأمَّا الإنسانُ الكافرُ فيَتوهَّمُ خِلافَ ذلك؛ إذ يَحسَبُ ما يَنالُه مِن نِعمةٍ وسَعةٍ في الدُّنيا تَكريمًا من اللهِ له، وما يَنالُه مِن ضِيقِ عَيشٍ إهانةً أهانَه اللهُ بها، وهذا التَّوهُّمُ يَستلزِمُ ظَنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٤).

أفعالَ اللهِ تعالَى جاريةً على غيرِ حِكمةٍ، فأعْلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالحقيقةِ الحقِّ، ونبَّهَهم لتَجنُّبِ تَخليطِ الدَّلائلِ الدَّقيقةِ السَّاميةِ، وتَجنُّبِ تَحكيمِ الواهمةِ والشَّاهيةِ، وذكَّرَهم بأنَّ الأحوالَ الدُّنيويَّةَ أعراضٌ زائلةٌ ومُتفاوتةُ الطُّولِ والقِصَرِ، وفي ذلك كلِّه إبطالٌ لمُعتقَدِ أهلِ الشِّركِ وضَلالِهم الَّذي كان غالبًا على أهْلِ الجاهليَّةِ(١).

- والمرادُ بالإنسانِ هنا الجِنسُ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيَستغرِقُ أفرادَ الجِنسِ، ولكنَّه استغراقٌ عُرْفيٌّ مُرادٌ به النَّاسُ المشرِكون؛ لأنَّهم الغالبُ على النَّاسِ المُتحدَّثِ عنهم؛ فلَمَّا كان هذا غالبًا على الكفَّارِ، جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ باسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزعِ! وقيل: أُريدَ إنسانٌ مُعيَّنٌ(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الَّذي هُوَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وجِيءَ بالفاءِ لِما في (أمَّا) مِن مَعْنى الشَّرطِ، والظَّرفُ المتوسِّطُ ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ على نِيَّةِ التَّأخيرِ، كأنَّه قيلَ: فأمَّا الإنسانُ فيَقولُ: ربِّي أكْرَمَنِ وَقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، وإنَّما تَقديمُه للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتَّنعيمَ بطَريقِ الابتلاءِ؛ ليتَّضِحَ اختلالُ قولِه المَحكيِّ(٣).

- وحرْفُ (أمَّا) يُفيدُ تَفصيلًا في الغالبِ، أي: يدُلُّ على تَقابُلٍ بيْن شَيئين مِن ذَواتٍ وأحوالٍ؛ ولذلك قد تكرَّرَ في الكَلامِ -﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦).

رَبُّهُۥ ...﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ...﴾-؛ فليس التَّفصيلُ المُستفادُ منها بمعْنى تَبيينِ مُجمَلٍ قبْلَها، بلْ هو تَفصيلٌ وتَقابُلٌ وتَوازُنٌ، وهو ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّفصيلِ الَّذي تَأتي له (أمَّا)، فارتباطُ التَّفصيلِ بالكلامِ السَّابقِ مُستفادٌ مِن الفاءِ الدَّاخلةِ على (أمَّا)، فالمُفصَّلُ هنا أحوالُ الإنسانِ الجاهلِ؛ فُصِّلَت إلى حالِه في الخفْضِ والدَّعةِ، وحالِه في الضَّنكِ والشِّدَّةِ، فالتَّوازُنُ بيْن الحالينِ المُعبَّرِ عنهما بالظَّرفَينِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ إلخ، وقولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، وهذا التَّفصيلُ ليس مِن قَبيلِ تَبيينِ المُجمَلِ، ولكنَّه تَمييزٌ وفصْلٌ بيْن شَيئينِ، أو أشياءَ تَشتبِهُ أو تَختلِطُ[١].

- ومعْنى ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أعطاهُ بقَدْرٍ مَحدودٍ، ومنه التَّقتيرُ، وكلُّ ذلك كِنايةٌ عن القِلَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿فَقَدَرَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[٣]، وهما بمعنًى واحدٍ بمعنى ضَيَّقَ، وفي قراءةِ التَّشديدِ مُبالَغةٌ[٤].

- واقتصارُ الآيةِ على تَقتيرِ الرِّزقِ في مُقابَلةِ النِّعمةِ دُونَ غيرِ ذلك مِن العِلَلِ والآفاتِ؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المشركين المُتحدَّثِ عنهم صِحَّةُ المزاجِ وقُوَّةُ الأبدانِ، فلا يَهلِكون إلَّا بقتْلٍ أو هَرَمٍ فيهم وفي ذَويهم، وقد عُرِفَ هذا الاعتقادُ الضَّالُّ مِن كَلامِ أهلِ الجاهليَّةِ، وجَعَلوا هذا الغُرورَ مِقياسًا لمراتبِ النَّاسِ؛ فجَعَلوا أصحابَ الكَمالِ أهلَ المظاهرِ الفاخرةِ، ووَصَموا بالنَّقصِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

(٣) قرأ أبو جَعفرٍ وابنُ عامرٍ بتَشديدِ الدَّالِ، وقرأ الباقونَ بتَخْفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤١).

أهلَ الخَصاصةِ وضُعفاءَ النَّاسِ؛ فنَبَّهَ اللهُ على خَطأِ اعتقادِهم بمُناسَبةِ ذِكرِ مُماثِلِه ممَّا اعتَقَدَه الأُمَمُ قبْلَهم الَّذي كان مُوجِبًا صَبَّ العذابِ عليهم، وأعلَمَهم أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تُتَّخَذُ أصلًا في اعتبارِ الجزاءِ على العمَلِ، وأنَّ الجزاءَ المُطَّرِدَ هو جَزاءُ يومِ القيامةِ[١].

- وجُملتَا ﴿فَيَقُولُ﴾ في الموضعينِ جَوابانِ لـ(أمَّا) الأُولى والثَّانيةِ، أي: يطَّرِدُ قولُ الإنسانِ هذه المقالةَ كلَّما حَصَلَت له نِعمةٌ، وكلَّما حَصَلَ له تَقتيرُ رِزقٍ؛ فأُوثِرَ الفِعلُ المضارِعُ في الجوابينِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك القولِ وتَجدُّدِه كلَّما حصَلَ مَضمونُ الشَّرطينِ[٢].

- وتَقديمُ ﴿رَبِّيٓ﴾ على فِعلِ ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ وفِعلِ ﴿أَهَٰنَنِ﴾ دُونَ أنْ يقولَ: أكرَمَني ربِّي أو أهانَني ربِّي؛ لقصْدِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: يقولُ ذلك جازمًا به غيرَ مُترَدِّدٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

قال القِنَّوجيُّ: (قُرِئَ بإثباتِ الياءِ في ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ وصلًا، وحَذْفِها وَقفًا، وقُرِئَ بإثباتِها فيهما، وقُرِئَ بحَذْفِها في الوَصْلِ والوَقْفِ اتِّباعًا لرَسمِ المصحَفِ ومُوافَقةً لرُؤوسِ الآيِ، والأصلُ إثباتُها؛ لأنَّها اسمٌ). ((تفسير القنوجي)) (١٥/ ٢٢٧). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٨٢، ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (وما حُذِفَ مِن هذه الياءاتِ نَحْوُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ونَحوُ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ فهو على ضَربَينِ مع النُّونِ؛ فإذا كان رأسَ آيةٍ فأهلُ اللُّغةِ يُسَمُّونَ أواخِرَ الآيِ الفواصِلَ، فيُجيزون حَذْفَ الياءاتِ كما يُجيزونَه في قوافي الشِّعرِ... فإذا لم يكُنْ آخِرَ قافيةٍ أو آخِرَ آيةٍ، فالأكثَرُ إثباتُ الياءِ، وحَذْفُها جَيِّدٌ بالِغٌ أيضًا بخاصَّةٍ مع النُّوناتِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (١/ ٣٨٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجْرٌ للإنسانِ عن قولِه: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ عندَ حُصولِ النِّعمةِ، وقولِه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ عندَما ينالُه تَقتيرٌ؛ فهو ردْعٌ عن اعتقادِ ذلك، فمَناطُ الرَّدعِ كِلَا القولَينِ، وهذا ردْعٌ مُجمَلٌ لم يتعرَّضِ القرآنُ لتَبيينِه؛ اكتفاءً بتَذييلِ أحوالِ الأُمَمِ الثَّلاثِ في نِعمتِهم بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بعْدَ قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[1] [الفجر: ١٣].

- و(بَلْ) إضرابٌ انتقاليٌّ، والمناسَبةُ بيْن الغرَضَينِ المُنتقَلِ منه والمُنتقَلِ إليه مُناسبةُ المُقابَلةِ لمَضمونِ ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ مِن جِهةِ ما توهَّموه أنَّ نِعمةَ مالِهم وسَعةَ عَيشِهم تَكريمٌ مِن اللهِ لهم، فنَبَّهَهم اللهُ على أنَّهم إنْ أكرَمَهُم اللهُ، فإنَّهم لمْ يُكرِموا عَبيدَه شُحًّا بالنِّعمةِ؛ إذ حَرَموا أهلَ الحاجةِ مِن فُضولِ أموالِهم، وإذ يَستزيدون مِن المالِ ما لا يَحتاجون إليه، وذلك دحْضٌ لتَفخُّرِهم بالكرَمِ والبذْلِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ استئنافٌ كما يَقتضيهُ الإضرابُ، فهو إمَّا استئنافُ ابتداءِ كَلامٍ، وإمَّا اعتراضٌ بيْن ﴿كَلَّا﴾ وأختِها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

- وفي قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ الْتفاتٌ إلى الخِطابِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ مُلاحظةِ جِنايتِه السَّابقةِ لمُشافهتِه بالتَّوبيخِ تَشديدًا للتَّقريعِ، وتَأكيدًا للتَّشنيعِ. والجَمْعُ باعتبارِ مَعْنى الإنسانِ؛ إذِ المرادُ هو الجنسُ[(١)].

- وتَعريفُ اليَتيمِ هنا للجِنسِ، أي: لا تُكرِمون اليَتامَى، وكذلك تَعريفُ المسكينِ[(٢)].

- ونفْيُ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ نفْيٌ لإطعامِهِ بطَريقِ الأَوْلى، وهي دَلالةُ فَحوى الخِطابِ[(٣)]، أي: لقِلَّةِ الاكتراثِ بالمساكينِ لا يَنفَعونهم ولو نفْعَ وَساطةٍ، بلْهَ أنْ يَنفَعوهم بالبَذْلِ مِن أموالِهم[(٤)].

- وقد حصَلَ في هذِه الآيةِ احتباكٌ[(٥)]؛ لأنَّهم لَمَّا نُفِيَ إكرامُهم اليتيمَ، وقُوبِلَ بنفْيِ أنْ يَحُضُّوا على طَعامِ المسكينِ؛ عُلِمَ أنَّهم لا يَحُضُّون على إكرامِ أيتامِهم، أي: لا يَحُضُّون أولياءَ الأيتامِ على ذلك، وعُلِمَ أنَّهم لا يُطعِمونَ المساكينَ مِن أموالِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الحَضُّ على الطَّعامِ كِنايةً عن الإطعامِ؛ لأنَّ مَن يحُضُّ على فِعلِ شَيءٍ يكونُ راغبًا في التَّلبُّسِ به، فإذا تَمكَّنَ أنْ يَفعَلَه فَعَلَه[(٦)].

- و(لا تُكرِمون، ولا تَحاضُّون، وتَأكُلون، وتُحبُّون) على الخِطابِ بطَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ الآياتِ؛ لقصْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

مُواجهتِهِم بالتَّوبيخِ، وهو بالمُواجَهةِ أوقَعُ منه بالغَيبةِ[(١)].

- قولُه: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ أصْلُه: تَتحاضُّون، فحُذِفَت إحْدى التَّاءينِ اختصارًا للتَّخفيفِ[(٢)].

- والأكلُ: مُعبَّرٌ به عن الانتِفاعِ بالشَّيءِ انتفاعًا لا يُبْقي منه شَيئًا، ولعلَّ هذا التَّعبيرَ مِن مُبتكراتِ القُرآنِ[(٣)].

- وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ بأنَّ المرادَ التُّراثُ الَّذي لا حقَّ لهم فيه، ومنه يَظهَرُ وجْهُ إيثارِ لَفظِ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وتَأكُلون المالَ)؛ لأنَّ التُّراثَ مالٌ مات صاحبُه، وأكْلُه يَقْتضي أنْ يَستحِقَّ ذلك المالَ عاجزٌ عن الذَّبِّ عن مالِه لصِغَرٍ أو أُنوثةٍ[(٤)].

- وتَعريفُ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: تُراثَ اليَتامَى[(٥)].

- قولُه: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ اللَّمُّ: الجمْعُ، ووَصْفُ الأكلِ به وصْفٌ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[(٦)].

- قولُه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ الجَمُّ: الكثيرُ، أي: حُبًّا كَثيرًا، ووَصْفُ الحُبِّ بالكثرةِ مُرادٌ به الشِّدَّةُ؛ لأنَّ الحُبَّ معنًى مِن المعاني النَّفْسيَّةِ لا يُوصَفُ بالكثرةِ الَّتي هي وَفرةُ عدَدِ أفرادِ الجِنسِ، فالجَمُّ مُعبَّرٌ به عن معْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القَويِّ الشَّديدِ، أي: حُبًّا مُفرِطًا، وذلك مَحلُّ ذمِّ حُبِّ المالِ؛ لأنَّ إفراطَ حُبِّه يُوقِعُ في الحِرصِ على اكتِسابِه بالوَسائلِ غيرِ الحقِّ؛ كالغصْبِ والاختلاسِ، والسَّرقةِ وأكْلِ الأماناتِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

الآيات (٢١-٣٠)

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ
بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾
فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾: أي: زُلزِلَت الأرضُ، وحُرِّكَت تحريكًا بعدَ تحريكٍ، والدَّكُّ: الكَسرُ والدَّقُّ وحَطُّ المُرتَفِعِ مِنَ الأرضِ بالبَسْطِ، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[1].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ﴾: الوَثاقُ بفتحِ الواوِ اسْمُ مَصْدَرِ أوْثَق، وهو الرَّبْطُ، يقالُ: أَوْثَقْتُه: أي: شددتُه، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ، وأصل (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ[2].

﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾: أي: السَّاكِنَةُ الموقِنَةُ بالإيمانِ وتوحيدِ اللهِ، فلا يُخالِطُها شَكٌّ، ولا يَعْتَريها رَيْبٌ، الَّتي اطْمَأَنَّتْ إلى وَعْدِ اللهِ، وصدَّقَتْ بما قال، والطُّمَأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ، وأصلُ الطُّمأنينةِ: السُّكونُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾

﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾: مَجموعُ المَصدرَينِ في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ، والمعنى: مُكَرَّرًا عليها الدَّكُّ، كعَلَّمتُه الحِسابَ بابًا بابًا، أي: علَّمتُه الحِسابَ مُفَصَّلًا باعتبارِ أبوابِه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿دَكّٗا﴾ الأوَّلُ مَصدرًا مؤكِّدًا لِفعْلِه، و﴿دَكّٗا﴾ الثَّاني تأكيدًا لفظيًّا للأوَّلِ.

﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾: مَجموعُهما في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ المفيدةِ للتَّرتيبِ، أي: مُصطَفِّينَ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ على معنى التَّشبيهِ، نائِبٌ عن المصدَرِ، وكذا ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾، والعَذابُ: اسمُ مَصدَرِ عَذَّب، والوَثاقُ: اسمُ مَصدَرِ أوثَقَ، والضَّميرُ فيهما يعودُ على الله تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ: والمعنى: لا يُعَذِّبُ أحدٌ تعذيبًا مِثلَ تعذيبِ اللهِ هذا الكافِرَ، ولا يُوثِقُ أحدٌ إيثاقًا مِثلَ إيثاقِ اللهِ هذا الكافِرَ؛ في الشِّدَّةِ والمُبالَغةِ، و﴿أَحَدٞ﴾ فيهما فاعِلٌ للفعلِ قَبْلَه.

وقُرِئَ ﴿يُعَذَّبُ ... يُوثَقُ﴾ بالبناء للمَفعولِ فيهما[2]، فيكونُ ﴿أَحَدٞ﴾ فيهما نائِبَ فاعلٍ، والضَّميرُ في ﴿عَذَابَهُۥٓ... وَثَاقَهُۥٓ﴾ يعودُ على الإنسانِ الكافِرِ، والمصدَرُ مُضافٌ إلى المفعولِ: والمعنى: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ تعذيبِ هذا الكافِرِ يومَئذٍ،

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٥٢).

(٢) يُنظر: القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفْسيرِ (ص: ٣٤٤).

ولا يُوثَقُ أحَدٌ مِثلَ وَثاقِه، ويجوزُ عَودُ الضَّميرِ كذلك على اللهِ تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، كالقراءةِ المتقَدِّمةِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بأهوالِ الآخرةِ: كَلَّا! فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّه إذا دُكَّت الأرضُ يومَ القيامةِ، وزُلزِلتْ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً، وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ للفَصلِ بيْن عبادِه، وجاءت الملائِكةُ صَفًّا بعدَ صَفٍّ، وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ؛ يَومَ يَتذَكَّرُ الإنسانُ أعمالَه، فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمَولاه! يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ لحياتي في الآخِرةِ، فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ. ثمَّ يختِمُ اللهُ السُّورةَ بهذه البِشارةِ للمؤمنينَ، فيقولُ: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، ارجِعي إلى رَبِّك راضيةً مَرْضِيَّةً، فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ، وادْخُلي جَنَّتي معهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن تَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢٨).

بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] الآياتِ، إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، فإنِ استَخفُّوا بما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم أو أُمهِلوا، فأُخِّرَ عنهم العذابُ في الدُّنيا؛ فإنَّ عَذابًا لا مَحيصَ لهم عنه يَنتظِرُهم يومَ القيامةِ حِينَ يَتذكَّرون قسْرًا، فلا يَنفَعُهم التَّذكُّرُ، ويَندَمون وَلاتَ ساعةَ مَندمٍ(١).

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمرُ؛ فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ الَّتي لا يَبقى منها ولا مِن مَتاعِها شَيءٌ؛ فإنَّه إذا وقع دَكُّ الأرضِ يومَ القيامةِ ورَجُّها وزلزلتُها مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ لِحسابِ عبادِه والقَضاءِ بيْنَهم مَجيئًا يَليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وجاءت الملائِكةُ صُفوفًا صَفًّا بعدَ صَفٍّ، خاضِعينَ للهِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ١٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩-٢٠١).

قال ابنُ كثير: (ذلك بَعْدَما يَستشفعونَ إليه بسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ على الإطلاقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بعدَما يَسألونَ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ واحِدًا بعدَ واحدٍ، فكُلُّهم يقولُ: لستُ بصاحِبِ =

كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

أي: وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١١، ١٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= ذاكم، حتَّى تنتهيَ النَّوبةُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: «أنا لها، أنا لها». فيذهَبُ فيَشفَعُ عندَ اللهِ في أن يأتيَ لفَصلِ القَضاءِ، فيُشَفِّعُه اللهُ في ذلك [يُنظر: البخاري «٧٥١٠»، ومسلم «١٩٣»]، وهي أوَّلُ الشَّفاعاتِ، وهي المقامُ المحمودُ... فيجيءُ الرَّبُّ تعالى لفَصلِ القَضاءِ كما يشاءُ، والملائكةُ يَجيئونَ بيْن يدَيه صُفوفًا صُفوفًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (﴿صَفّٗا﴾ الأوَّلُ حالٌ مِنَ المَلَكِ، و﴿صَفّٗا﴾ الثَّاني لم يختَلِفِ المفَسِّرونَ في أنَّه مِنَ التَّكريرِ المرادِ به التَّرتيبُ والتَّصنيفُ، أي: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، أو خَلْفَ صَفٍّ، أو صِنفًا مِنَ الملائِكةِ دونَ صِنفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠١).

وسلَّم: ((يُؤْتَى بجَهنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعونَ ألْفَ زِمامٍ[١]، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَتذكَّرُ الإنسانُ عِصيانَه وطُغيانَه، وما فاته مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ؛ فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمولاه[٣].

---

(١) الزِّمامُ: ما يُزَمُّ به الشَّيءُ، أي: يُشَدُّ ويُربَطُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٧/ ١٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: يتذَكَّرُ أعمالَه في الدُّنيا وعِصيانَه وطُغْيانَه، وتفريطَه في طاعةِ اللهِ وما يُقَرِّبُ إليه مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثيرٍ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٣).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويَتوبُ. وممَّن اختاره: الواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨).

وممَّن قال مِنَ السَّلَفِ: إنَّ المرادَ التَّوبةُ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٢).

واقتَصَر السَّمَرْقَنديُّ، والسَّمْعانيُّ، والنَّسَفيُّ على تفسيرِ التَّذَكُّرِ بالاتِّعاظِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤١).

وقال الشوكاني: (يتذكَّرُ الإنسانُ، أي: يتَّعِظُ ويَذكُرُ ما فَرَط منه، ويَندَمُ على ما قَدَّمَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥). =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾.

أي: يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ والطَّاعةِ لحياتي الأبَديَّةِ في الآخِرةِ، فألقَى فيها ثَوابَها(١)!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦﴾.

= وقال ابنُ عثيمين: (يتذَكَّرُ أنَّه وُعِدَ بهذا اليوم، وأنَّه أُعلِمَ به مِن قِبَلِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأُنذِروا وخُوِّفوا، ولكِنْ مَن حَقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ فإنَّه لا يُؤمِنُ ولو جاءَتْه كُلُّ آيةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابنُ جُزَي: (والإنسانُ هنا جِنسٌ، وقيل: يعني: عُتْبَةَ بنَ رَبيعةَ، وقيل: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هذا على حَذْفٍ تقديرُه: أنَّى له الانتِفاعُ بالذِّكْرى، كما تقولُ: نَدِمَ حينَ لم تنفَعْه النَّدامةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

ممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الكافِرُ: السمرقنديُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لَا يُعَذَّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بفَتحِ الذَّالِ والثَّاءِ، أي: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ عَذابِ هذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ، وكذا لا يُوثَقُ وَثاقَه أحَدٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكَسرِ الذَّالِ والثَّاءِ. قيل: المعنى: لا يعذِّبُ أحدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخرةِ، ولا يُوثِقُ أحدٌ مِثلَ وَثاقِ اللهِ لأهلِ النَّارِ. وقيل: أي: لا يتولَّى يومَ القيامةِ عَذابَ اللهِ أحدٌ غَيْرُه؛ فالمُلْكُ له وَحْدَه، وملائِكةُ العَذابِ يَأتَمِرونَ بأمْرِه في تعذيبِ الكافِرينَ وأَسْرِهم في القُيودِ[٢].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ عَذابًا منه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

أي: ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ وَثاقًا منه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدُّنيا فاتَّهم اللهَ في إغنائِه وإفقارِه؛ ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّت نَفْسُه إلى اللهِ تعالى، فسَلَّم لأمْرِه، واتَّكَل عليه[٢].

وأيضًا لَمَّا استوعَبَ ما اقتَضاهُ المقامُ مِن الوعيدِ والتَّهديدِ والإنذارِ؛ ختَمَ الكلامَ بالبِشارةِ للمؤمنينَ الَّذين تَذَكَّروا بالقرآنِ واتَّبَعوا هَدْيَه، على عادةِ القرآنِ في تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكسِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ رَغبةَ النَّاسِ في فِعلِ الخَيرِ، ورَهبتَهم مِن أفعالِ الشَّرِّ[٣].

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾.

أي: يُقالُ[٤]: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، الثَّابِتةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٤) قال الزَّمخشري: (أي: يقولُ اللهُ للمُؤمِنِ: يا أيَّتُها النَّفْسُ، إمَّا أن يُكَلِّمَه إكرامًا له... أو على لِسانِ مَلَكٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).

الحَقِّ[(١)].

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ارجِعي إلى اللهِ الَّذي ربَّاك بنِعَمِه وفَضْلِه، راضيةً باللهِ وثَوابِه، مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).
قال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: متى يُقالُ لها ذلك؟ قُلتُ: إمَّا عندَ الموتِ، وإمَّا عندَ البَعثِ، وإمَّا عندَ دُخولِ الجنَّةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).
وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ البَعثِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والخازنُ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢).
وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ الموتِ: الواحِديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيميُّ، وابنُ عُثَيمين، ونَسَبه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤).
وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٩).
وممَّن قال بكِلا القولَين: ابنُ القَيِّم، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).
وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطيبِ نَفحةِ[٣] مِسكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَليها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأَرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[٤].

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: قريبًا منه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ من نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

أي: فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ الطَّائِعينَ وفي زُمْرتِهم، وادْخُلي جَنَّتي معهم(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ دليلٌ على أنَّ الحياةَ الَّتي ينبغي السَّعيُ في أصلِها وكَمالِها، وفي تتميمِ لَذَّاتِها: هي الحياةُ في دارِ القَرارِ؛ فإنَّها دارُ الخُلْدِ والبَقاءِ(٢)، فالحياةُ الحقيقيَّةُ هي حياةُ الآخرةِ، ولذلك يقولُ الكافِرُ يومَ القيامةِ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾؛ فالحياةُ الدُّنيا ليست حياةً، ووجْهُ ذلك:

أوَّلًا: لأنَّها مُنَغَّصةٌ؛ فكُلُّ صَفوِها كَدَرٌ.

وثانيًا: أنَّها غيرُ باقيةٍ.

وثالثًا: أنَّ الإنسانَ مُهَدَّدٌ فيها، فلا يدري متى يجيئُه أَجَلُه صُبحًا أو مساءً، وكم مِن إنسانٍ خَرَجَ مِن أهلِه ولم ترجِعْ إلَّا جُثَّتُه! وكم مِن إنسانٍ على كُرسيِّه فَجَأه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

الموتُ، فلم يُكْمِلِ الكتابةَ الَّتي يَخُطُّها بيَمينِه! ولهذا يقولُ الشَّاعِرُ:

«لا طِيبَ للعَيــشِ ما دامتْ مُنغَّصَةً لَذَّاتُــه بــادِّكارِ المَــوتِ والهَــرَمِ»

فمهما طالَتْ بك الحياةُ فسوف تَهرَمُ وتَدَعُ هذا العَيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتُ فلا تبقى لهذا العَيشِ أصلًا[1]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أنَّه على المسلِمينَ أن يَحذَروا عِقابَ اللهِ، ولا يتعَرَّضوا لسَخَطِ اللهِ الموجِبِ لعِقابِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ عَذابَه أحَدٌ، ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحَدٌ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أضافها اللهُ سُبحانَه إلى نفْسِه؛ للدَّلالةِ على شَرَفِها وعنايةِ اللهِ بها، وهذا يُوجِبُ للإنسانِ أنْ يَرغَبَ فيها غايةَ الرَّغبةِ، كما أنَّه يَرغَبُ في بُيوتِ اللهِ -الَّتي هي المساجِدُ-؛ لأنَّ اللهَ أضافَها إلى نفْسِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا يُوهِمُ أنَّه مَلَكٌ واحِدٌ، وقَولُه: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يقتضي أنَّه غَيرُ مَلَكٍ واحِدٍ، بل صفوفٌ مِن جماعاتِ الملائكةِ؟

الجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ معناه: والملائِكةُ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[4] [الحاقة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٢).

نظيرُ قَولِه في سورةِ (البقرة): ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهي حُجَّةٌ خانِقةٌ لهم، شَديدةٌ عليهم[١]. والقاعِدةُ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه: أنَّ كُلَّ ما أسنده اللهُ إلى نَفْسِه فهو له نَفْسِه لا لغَيرِه، فنُجري كلامَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ظاهِرِه، ولا نُحَرِّفُ فيه، وعلى هذا فالَّذي يأتي هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، وليس كما حَرَّفه أهلُ التَّعطيلِ؛ حيث قالوا: إنَّه جاء أمرُ اللهِ! فإنَّ هذا إخراجٌ للكلامِ عن ظاهِرِه بلا دَليلٍ، فاللهُ تعالى يجيءُ يومَ القيامةِ هو نَفْسُه، ولكِنْ كيف هذا المجيءُ؟ هذا هو الَّذي لا عِلْمَ لنا به، لا ندري كيف يَجيءُ، والسُّؤالُ عن مِثْلِ هذا بِدْعةٌ، كما قال الإمامُ مالِكٌ رحمه الله[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ دَلالةٌ على قِيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ تعالى[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ جوازُ إتيانِ الحالِ مِنَ المعطوفِ فقط دونَ المعطوفِ عليه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ أنَّ النَّفْسَ في القرآنِ قد تُطْلَقُ على الرُّوحِ وَحْدَها[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أنَّ النَّفْسَ لا تَرْجِعُ إليه سُبحانَه إلَّا إذا كانت مُطمَئِنَّةً، فهناك

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩).

ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢١٧).

ترجِعُ إليه، وتَدخُلُ في عبادِه، وتَدخُلُ جنَّتَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا * وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾

- ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن الأعمالِ المَعدودةِ قبْلَه، وإنكارٌ لِفعلِهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا...﴾ استئنافٌ جِيءَ به بطَريقِ الوعيدِ تَعليلًا للرَّدعِ[٣].

- وقولُه: ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ أوَّلُهما مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ المُؤكِّدِ لفِعلِه، ولعلَّ تأكيدَه هنا؛ لأنَّ هذه الآيةَ أوَّلُ آيةٍ ذُكِرَ فيها دكُّ الجِبالِ، وإذ قد كان أمرًا خارقًا للعادةِ، كان المقامُ مُقتضيًا تَحقيقَ وُقوعِه، فأُكِّدَ مَرَّتين هنا، ولم يُؤكَّدْ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ في سُورةِ الحاقةِ [١٤]؛ فقولُه: ﴿دَكّٗا﴾ الأوَّلُ مَقصودٌ به تَحقيقُ الوُقوعِ. و﴿دَكّٗا﴾ الثَّاني مَنصوبٌ على التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لـ ﴿دَكّٗا﴾ الأوَّلِ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ إرادةِ مَدلولِ الدَّكِّ؛ لأنَّ دكَّ الأرضِ العَظيمةِ أمرٌ عَجيبٌ، فلِغرابتِه اقْتَضى إثباتُه زِيادةَ تَحقيقٍ لمعْناهُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦).

ويَجوزُ أنْ يكونَ مَجموعُ المَصدرينِ ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على المفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ للنَّوعِ، وتأويلُه: أنَّه دكٌّ يَعقُبُ بَعضُه بعضًا، كما تَقولُ: قرَأتُ الكتابَ بابًا بابًا، والعرَبُ تقولُ الشَّيءَ مرَّتينِ، فتَستوعِبُ تَفصيلَ جِنسِه باعتبارِ المعْنى الَّذي دلَّ عليه لَفظُ المُكرَّرِ، فإذا قلْتَ: بيَّنْتُ له الكتابَ بابًا بابًا، فمعْناه: بيَّنْتُه له مُفصَّلًا باعتبارِ أبوابِه، فالتَّكرارُ للدَّلالةِ على الاستيعابِ وليس للتَّأكيدِ، وهذا الوجهُ أوْفَى بحقِّ البلاغةِ؛ فإنَّه معْنًى زائدٌ على التَّوكيدِ، والتَّوكيدُ حاصلٌ بالمَصدرِ الأوَّلِ. أو الدَّكُّ كِنايةٌ عن التَّسويةِ؛ لأنَّ التَّسويةَ مِن لَوازمِ الدَّكِّ، أي: صارتِ الجِبالُ مع الأرضِ مُستوياتٍ لم يَبْقَ فيها نُتوءٌ[1].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ المَلَكُ: اسمُ جِنسٍ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيُرادِفُه الاستغراقُ، أي: والملائكةُ[2].

- قولُه: ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ ليس للتَّأكيدِ؛ إذِ المرادُ صفًّا بَعْدَ صفٍّ، أي: صفًّا يتلوه صَفٌّ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ إنَّما اقتُصِرَ على ذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ في هذه السُّورةِ وَعيدُ الَّذين لم يَتذكَّروا، وإلَّا فإنَّ الجنَّةَ أيضًا مُحضَرةٌ يَومَئذٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠ وص: ٢٩٣).

قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١] [الشعراء: ٩٠، ٩١].

- قولُه: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الأوَّلُ مُتعلِّقٌ بفعلِ (جِيءَ)، والتَّقديرُ: وجِيءَ يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا دكًّا... إلى آخِرِه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثَّاني بدَلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، والمعْنى: يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا... إلى آخِرِه، يَتذكَّرُ الإنسانُ، والعاملُ في البدَلِ والمُبدَلِ منه معًا فِعلُ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وتَقديمُه للاهتِمامِ، مع ما في الإطنابِ مِن التَّشويقِ؛ ليَحصُلَ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، مع حُسنِ إعادةِ ما هو بمعْنى (إذا)؛ لزِيادةِ الرَّبطِ؛ لطُولِ الفصْلِ بالجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا)[٢].

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الإنسانُ هنا: قيل: هو الإنسانُ الكافرُ، وهو الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه في قولِه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] الآيةَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وجُملةِ ﴿يَقُولُ ...﴾ إلخ؛ جِيءَ به لتَحقيقِ أنَّه ليس يَتذكَّرُ حَقيقةً؛ لعَرائِه عن الجَدوَى بعدَمِ وُقوعِه في أوانِه[٤].

- ولَفظُ ﴿وَأَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ بمعْنى: أيْن له الذِّكرى؟ وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والنَّفيِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: ومِن أينَ له مَنفعةُ الذِّكرى[1]؟!

- قولُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾. أو استئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ منه، كأنَّه قيل: ماذا يقولُ عندَ تَذَكُّرِه[3]؟ فإنَّ جُمْلةَ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قولًا باللِّسانِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، فتَكونَ الجُملةُ حالًا مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أو بدَلَ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ فإنَّ تذكُّرَه مُشتمِلٌ على تَحسُّرٍ ونَدامةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ قَولُه في نفْسِه، فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾[4].

- ومَفعولُ ﴿قَدَّمْتُ﴾ مَحذوفٌ للإيجازِ[5].

- يَحتمِلُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِحَيَاتِى﴾ للعِلَّةِ، أي: قدَّمْتُ الأعمالَ الصالحةَ مِن أجْلِ أنْ أحْيا في هذه الدَّارِ، والمرادُ: الحياةُ الكاملةُ السَّالِمةُ مِن العَذابِ؛ لأنَّ حَياتَهم في العذابِ حَياةُ غِشاوةٍ وغِيابٍ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[6] [الأعلى: ١٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- وحرْفُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ للتَّنبيهِ؛ اهتِمامًا بهذا التَّمنِّي في يومِ وُقوعِه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

- المقصودُ مِن الكلامِ هو قولُه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ وقولُه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وأمَّا ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ فهو تَوطئةٌ وتَشويقٌ لسَماعِ ما يَجيءُ بعْدَه، وتَهويلٌ لشَأنِ ذلك اليومِ، وهو الوقتُ الَّذي عُرِّف بإضافةِ جُملةِ ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ وما بعْدَها مِن الجُمَلِ، وقد عُرِّفَ بأشراطِ حُلولِه وبما يَقَعُ فيه مِن هَولِ العِقابِ[٢].

- والتَّنوينُ في (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تُفيدُ ما تَقدَّمَ مِن هَولِ الموقفِ[٣].

- قولُه: ﴿أَحَدٞ﴾ في الموضعينِ فاعلُ ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾، و﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه، والضَّميرُ قيل: هو عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وهو مَفعولٌ مُطلَقٌ مُبيِّنٌ للنَّوعِ على معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: عَذابًا مِثلَ عَذابِه، وانتفاءُ المُماثلةِ في الشِّدَّةِ، أي: يُعذِّبُ عَذابًا هو أشدُّ عَذابٍ يُعَذَّبُه العُصاةُ، أي: عَذابًا لا نَظيرَ له في أصْنافِ عَذابِ المُعذَّبين. و(أحدٌ) يُستعمَلُ في النَّفيِ لاستغراقِ جِنسِ الإنسانِ، (فأحدٌ) في سِياقِ النَّفيِ يعُمُّ كلَّ أحدٍ؛ فانحصَرَ الأحدُ المُعذِّبُ -بكسْرِ الذَّالِ- في فرْدٍ، وهو اللهُ تعالَى. وانتصابُ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ كانتصابِ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ لمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

التَّشبيهِ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾

- اتِّصالُ هذه الآيةِ بالآياتِ الَّتي قبْلَها في التِّلاوةِ وكِتابةِ المصحفِ، الأصلُ فيه أنْ تكونَ نَزَلَتْ مع الآياتِ الَّتي قبْلَها في نسَقٍ واحدٍ، وذلك يَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ يُقالُ في الآخرةِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ يومَ الجَزاءِ، فهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو جَوابُ (إذا) في ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١] الآيةَ، وما بيْنَهما مُستطرَدٌ واعتراضٌ، فهذا قولٌ يَصدُرُ يومَ القِيامةِ مِن جانبِ القُدسِ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، أو مِن كَلامِ الملائكةِ؛ فإنْ كان مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، كان قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، بقَرينةِ تَفريعِ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ عليه، ونُكتةُ هذا الإظهارِ ما في وصْفِ (ربّ) مِن الولاءِ والاختصاصِ، وما في إضافتِه إلى ضَميرِ النَّفْسِ المُخاطَبةِ مِن التَّشريفِ لها، وإنْ كان مِن قولِ الملائكةِ فلَفْظُ ﴿رَبِّكِ﴾ جرى على مُقْتضى الظَّاهرِ، وعطْفُ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ عطْفُ تَلقينٍ يَصدُرُ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى؛ تَحقيقًا لقولِ الملائكةِ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ استِئنافًا ابتدائيًّا جَرَى على مُناسَبةِ ذِكرِ عَذابِ الإنسانِ المشرِكِ، فتكونَ خِطابًا مِن اللهِ تعالَى لنُفوسِ المؤمنينَ المُطمئنَّةِ[(٢)].

- والمُطمئنَّةُ: يجوزُ أنْ يكونَ مِن سُكونِ النَّفْسِ بالتَّصديقِ لِما جاء به القرآنُ دونَ تَردُّدٍ ولا اضطرابِ بالٍ، فيكونَ ثَناءً على هذه النَّفْسِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٢).

- ووَصْفُ النَّفسِ بالمُطمئنَّةِ ليس وَصْفًا للتَّعريفِ ولا للتَّخصيصِ، أي: لتَمييزِ المُخاطَبينَ بالوصْفِ الَّذي يُميِّزُهم عمَّن عَداهم، فيَعرِفون أنَّهم المُخاطَبونَ المَأْذونونَ بدُخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أنَّهم مُطمئنُّونَ إلَّا بعْدَ الإذنِ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فالوصْفُ مُرادٌ به الثَّناءُ، والإيماءُ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وتَبشيرُ مَن وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بأنَّهم مُطمئنُّونَ آمِنونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّعريفِ، أو التَّخصيصِ بأنْ يَجعَلَ اللهُ إلهامًا في قُلوبِهم يَعرِفون به أنَّهم مُطمئنُّون[١].

- والأمرُ في ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ مُرادٌ منه تَقييدُه بالحالَينِ بعْدَه؛ وهما ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، وهو مِن استعمالِ الأمرِ في الوعْدِ. والإضمارُ في قولِه: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ وقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ[٢].

- والرَّاضيةُ: الَّتي رَضِيت بما أُعطِيَتْه مِن كَرامةٍ، وهو كِنايةٌ عن إعطائِها كلَّ ما تَطمَحُ إليه[٣].

- والمَرضيَّةُ: اسمُ مَفعولٍ، وأصْلُه: مَرضيًّا عنها، فوَقَعَ فيه الحذْفُ والإيصالُ[٤]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٤) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفِعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدِّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابِقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جِنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

فصار نائبَ فاعلٍ بدونِ حرْفِ الجرِّ، والمقصودُ مِن هذا الوصفِ زِيادةُ الثَّناءِ مع الكِنايةِ عن الزِّيادةِ في إفاضةِ الإنعامِ؛ لأنَّ المَرْضيَّ عنه يَزيدُه الرَّاضي عنه مِن الهِباتِ والعَطايا فوقَ ما رَضِيَ به هو[١].

- وفُرِّعَ على هذه البُشرَى الإجماليَّةِ تَفصيلُ ذلك بقولِه: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، فهو تَفصيلٌ بعْدَ الإجمالِ؛ لتَكريرِ إدْخالِ السُّرورِ على أهْلِها، والمعْنى: ادخُلي في زُمرةِ عِبادي، والمرادُ العِبادُ الصَّالحونَ؛ بقَرينةِ مَقامِ الإضافةِ، مع قَرْنِه بقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾[٢].

- وإضافةُ (جنَّة) إلى ضَميرِ الجَلالةِ إضافةُ تَشريفٍ، وهذه الإضافةُ هي ممَّا يَزيدُ الالتفاتَ إلى ضَميرِ التَّكلُّمِ حُسنًا بعْدَ طَريقةِ الغَيبةِ بقولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[٣].

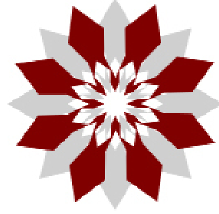
- وفيه تَكريرُ فِعلِ ﴿وَٱدۡخُلِي﴾، حيثُ لم يقلْ: (فادْخُلي جنَّتي في عِبادي)؛ للاهتِمامِ بالدُّخولِ بخُصوصِه؛ تَحقيقًا للمَسَرَّةِ لهم[٤].

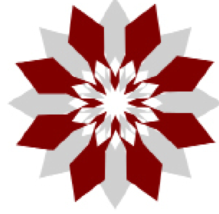


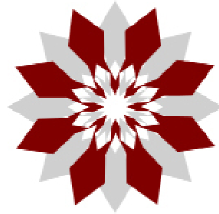
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ البَلَدِ







سُورةُ البَلَدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (البَلَدِ)[١].

بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ البَلَدِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ طبيعةِ الدُّنيا وما يُعانيه الإنسانُ فيها مِن مُكابَدةٍ للشَّدائِدِ، وما يُوصِلُه إلى السَّعادةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ مَكَّةَ.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، وسورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وسورةَ (العَقَبة). يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠١).

٢- ما ابتُلِيَ به الإنسانُ في الدُّنيا مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ.

٣- ذَمُّ الاغترارِ بالقُوَّةِ، والتَّفاخُرِ.

٤- تَعدادُ نِعَمِ اللهِ تعالى على الإنسانِ.

٥- الحَضُّ على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكُفَّارِ.



الآيات (١-١٠)

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى
كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ
أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِلٌّ﴾: أي: حَلالٌ تَصنَعُ فيه ما تُريدُ مِنَ القَتلِ والأَسْرِ. وقيل: حالٌّ ساكِنٌ به، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ[(١)].

﴿كَبَدٍ﴾: أي: مَشقَّةٍ وتَعَبٍ ومُكابَدةٍ لأُمورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأصلُ (كبد): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ وقُوَّةٍ[(٢)].

﴿لُّبَدًا﴾: أي: كثيرًا مجتَمِعًا بَعضُه على بَعضٍ، مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ، أي: تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[(٣)].

﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: أي: الطَّريقَينِ؛ طَريقَ الخَيرِ، وطريقَ الشَّرِّ، والنَّجْدُ: الطَّريقُ في ارتِفاعٍ. وكلُّ عَالٍ مِنَ الأرضِ: نَجْدٌ، وأصلُ (نجد): يدُلُّ على اعتِلاءٍ وإشرافٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، =

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائلًا: أُقسِمُ بالبَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكرَّمةُ، والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القتالِ فيه، وأُقسِمُ بوالِدٍ وبوَلَدِه؛ لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه.

ثمَّ قال تعالى: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ يَقولُ وقد بَذَّر أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه: أنفَقْتُ مالًا كثيرًا! أيظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ؟

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ نِعَمِه، فقال: ألم نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما، ولِسانًا وشفَتينِ؟ وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بهذا البَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ[1].

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

قال السَّمْعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ معناه: أُقسِمُ، و«لا» صِلَةٌ. قال الفرَّاءُ: وهو على مَذهَبِ كَلامِ العَرَبِ، يَقولونَ: لا واللهِ لا أفعَلُ كذا، أي: واللهِ. وكذلك: لا واللهِ لَأَفْعَلَنَّ كذا، أي: واللهِ، فيجوزُ أن تكونَ «لا» صِلةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لقَولٍ سابقٍ، وابتداءُ القَسَمِ مِن قَولِه: واللهِ، فكذلك قَولُه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ يجوزُ أن يكونَ «لا» صِلَةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لزَعْمِهم مِن إنكارِ البَعْثِ أو إنكارِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ، والقَسَمُ مِن قَوْلِه: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وقال الفرَّاءُ: هذا الثَّاني أَولى). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ويُنظر أيضًا ما =

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

أي: أُقسِمُ بمكَّةَ والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ؛ يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها[1].

= يأتي في الفوائد (ص: ٣٢٥ - ٣٢٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أُقسِمُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والسمعاني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. ومِنهم مَن نَصَّ على أنَّ (لا) صِلَةٌ مُؤكِّدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: ﴿لَآ﴾ للاستِفتاحِ، أي: استفتاحِ الكلام وتوكيدِه، وليست نافيةً؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ القَسَمِ، يعني: أنا أُقسِمُ بهذا البلَدِ، لكِنْ «لا» هذه تأتي هنا للتَّنبيهِ والتَّأكيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال الواحديُّ: (أجمَعَ المفسِّرونَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بالبلَدِ الحَرامِ، وهو مكَّةُ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٨٨).

وممَّن نَقَل اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على ذلك أيضًا: ابنُ عطيَّةَ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

ونسَبَه مكِّيٌّ إلى قولِ أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: وأنت -يا محمَّدُ- في المستقبَلِ حلالٌ في مكَّةَ، يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها، فيكونُ في هذا إشارةٌ إلى فتحِ مكَّةَ، وأنَّ اللهَ سيُحِلُّ لنبيِّه القِتالَ في مكَّةَ ساعةَ الفَتحِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، =

= والقرطبي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَير، ومجاهدٌ، وأبو صالح، وعَطاءٌ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: وأنت يا محمَّدُ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ -ونظيرُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]- حلالٌ بهذا البلدِ، تَصنَعُ فيه ما تَشاءُ، مِن قتْلٍ وأَسْرٍ، فيكونُ خارجًا مخرَجَ البِشارةِ له، بأنَّه سيُفتَحُ عليه، فيكونُ [فيه] حِلًّا، فظهَر أثرُ ذلك يومَ الفتحِ، وأحلَّه له ساعةً مِن النَّهارِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٢٨).

وقيل: المرادُ: وأنت حالٌّ مقيمٌ بمكَّةَ. وقد استظهَر هذا المعنى: أبو حيَّانَ، وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٠).

قال ابن عاشور: (وهو تأويلٌ جميلٌ لو ساعَد عليه ثُبوتُ استعمالِ ﴿حِلٌّ﴾ بمعنَى: حالٌّ، أيْ: مُقيمٌ في مكانٍ، فإنَّ هذا لم يَرِدْ في كُتُبِ اللُّغةِ... ولم يُعَرِّجْ عليه صاحِبُ «الكشَّافِ»، ولا أَحسِبُ إعراضَه عنه إلَّا لِعَدَمِ ثِقَتِه بصِحَّةِ استِعْمالِه. وقال الخفاجيُّ: «والحِلُّ: صِفَةٌ أو مَصدَرٌ بمعنَى الحالِّ هنا على هذا الوجهِ، ولا عِبْرةَ بمَن أنْكَره لعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ». اهـ وكيف يُقالُ: لا عِبْرةَ بِعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ، وهل المَرجِعُ في إثباتِ اللُّغةِ إلَّا كُتُبُ أئمَّتِها؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٦٢).

وقيل: المعنى: وأنت حِلٌّ عندَ المشركينَ بهذا البَلَدِ، يَستَحِلُّونَ إخراجَك وقَتْلَك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: شُرَحْبِيلُ بنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٨).

وقيل: هو نَفْيٌ للقسَمِ، والمعنى: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ إذا لم تكُنْ فيه بعدَ خُروجِك منه. يُنظر: =

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عنه، قال: ((إنَّ خُزاعَةَ قَتَلوا رجلًا مِن بني لَيْثٍ عامَ فَتْحِ مَكَّةَ بقَتيلٍ منهم قَتَلوه، فأُخْبِر بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَكِب راحِلَتَه، فخَطَب، فقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ حَبَس عن مَكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رَسولَه والمُؤْمِنينَ، ألَا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، ولنْ تَحِلَّ لأحَدٍ بَعْدي، ألَا وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن النَّهارِ، ألا وإنَّها ساعَتي هذه حَرامٌ))[١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عنهما، أنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّم مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لأحَدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدي وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ))[٢].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بوالِدٍ، وأقسِمُ بوَلَدِه[٣].

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٨٠) ومسلمٌ (١٣٥٥).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

قيل: المرادُ بالوالِدِ: آدَمُ عليه السَّلامُ، وبالوَلَدِ: ذُرِّيَّتُه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، ونَسَبَه ابنُ القَيِّمِ إلى جمهورِ المُفَسِّرينَ، واستحسَنه وقوَّاه ابنُ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وخُصَيفٌ، وشُرَحْبِيلُ =

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه، يُكابِدُ أُمورَ حياتِه ومَعيشتِه، وهمومَ دُنياه وآخِرتِه[1].

= ابنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١١).

وقيل: إنَّ اللهَ أقسَمَ بكُلِّ والدٍ ووَلَدِه، فهي عامَّةٌ تَشملُ كُلَّ والدٍ وكُلَّ مولودٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦).

قال ابنُ عاشور: (الَّذي يناسِبُ القَسَمَ بهذا البَلَدِ أن يكونَ المرادُ بـ «والدٍ» إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه الَّذي اتَّخذ ذلك البلَدَ لإقامة وَلَدِه إسماعيلَ وزَوجِه هاجَرَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثمَّ قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وإبراهيمُ والِدُ سُكَّانِ ذلك البلَدِ الأصليِّينَ؛ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ولأنَّه والِدُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ مَوصولٌ وصِلةٌ، والضَّميرُ المستَتِرُ في ﴿وَلَدَ﴾ عائِدٌ إلى «والِدٍ»، والمقصودُ: وما ولَدَه إبراهيمُ مِنَ الأبناءِ والذُّرِّيَّة، وذلك مخصوصٌ بالَّذين اقتَفَوا هَدْيَه، فيَشملُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩).

وقيل: الوالدُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه، وما ولَدَ: أُمَّتُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨، ٤١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٦).

قال ابنُ جرير: (هذا هو جوابُ القَسَم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (اختَلَف النَّاسُ في «الكَبَد»؛ فقال جمهورُ النَّاسِ: «الإنسانُ» اسمُ الجِنسِ كُلِّه، و«الكَبَدُ» المشقَّةُ والمُكابَدةُ، أي: يُكابِدُ أمرَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: ما يُكابِدُه ويُقاسيه =

= مِن الشَّدائدِ في الدُّنيا، وفي البَرزخِ، ويومَ يقومُ الأشهادُ، وأنَّه يَنبغي له أن يَسعى في عَمَلٍ يُريحُه مِن هذه الشَّدائِدِ، ويوجِبُ له الفَرَحَ والسُّرورَ الدَّائِمَ، وإن لم يَفعَلْ فإنَّه لا يَزالُ يُكابِدُ العَذابَ الشَّديدَ أبَدَ الآبادِ.
ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ، وأقْوَمِ خِلقةٍ، يَقدِرُ على التَّصَرُّفِ والأعمالِ الشَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢، ٦٣).
ممَّن اختار القولَ المذكورَ في قولِه: ﴿كَبَدٍ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرَّسْعَني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحَلِّي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥).
وممَّن قال: إنَّ المعنى: خلَقْناه مُعتَدِلَ الخَلقِ والقامةِ، مُنتصِبًا قائمًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢).
قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ رُويَ عن ابنِ مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةَ، ومُجاهِدٍ، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وخَيْثَمةَ، والضَّحَّاكِ، وغيرِهم: يعني: مُنتَصِبًا، زاد ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه: في بَطنِ أمِّه.
والكبَدُ: الاسْتِواءُ والاستِقامةُ. ومعنى هذا القولِ: لقد خلَقْنا الإنسانَ سَويًّا مستقيمًا، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وكقولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣).
وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿فِى كَبَدٍ﴾ فيها مَعنيان: =

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ فاللهُ غالِبُه وقاهِرُه، وهو قادِرٌ عليه وعلى بَعْثِه وعُقوبتِه(١).

= المعنى الأوَّلُ: في استِقامةٍ، يعني: أنَّه خُلِقَ على أكمَلِ وَجهٍ في الخِلْقةِ، مُستقيمًا يَمشي على قَدَمَيه، ويرفعُ رَأْسَه وبَدَنَه مُعتَدِلًا، والبهائِمُ بالعَكْسِ؛ الرَّأسُ على حِذاءِ الدُّبُرِ، أمَّا بنو آدَمَ فالرَّأسُ مُرتَفِعٌ أعلى البَدَنِ، فهو كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

وقيل: المرادُ بـ﴿كَبَدٍ﴾ مُكابَدةُ الأشياءِ ومُعاناتُها، وأنَّ الإنسانَ يُعاني المشَقَّةَ في أمورِ الدُّنيا، وفي طَلَبِ الرِّزقِ، وفي إصلاحِ الحَرْثِ وغَيرِ ذلك، ويُعاني أيضًا معاناةً أشَدَّ مع نَفْسِه ومجاهَدتِها على طاعةِ اللهِ، واجتنابِ مَعاصي اللهِ، وهذا الجِهادُ الَّذي هو أشَقُّ مِن مُعاناةِ طَلَبِ الرِّزقِ، ولا سيَّما إذا ابتُلِيَ الإنسانُ ببيئةٍ مُنحَرِفةٍ، وصار بيْنَهم غريبًا؛ فإنَّه سيَجِدُ المشَقَّةَ في مُعاناةِ نَفْسِه، وفي مُعاناةِ النَّاسِ أيضًا).

ثمَّ ذكَرَ القاعِدةَ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيينِ فتُحمَلُ عليهما إذا لم يكُنْ بيْنَهما مُناقَضةٌ، ثمَّ قال: (﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ يَصِحُّ أن تكونَ الآيةُ شامِلةً للمعنَيَينِ، أي: في حُسنِ قامةٍ واستِقامةٍ، و﴿فِي كَبَدٍ﴾ في مُعاناةٍ لِمَشاقِّ الأمورِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

وقيل: التَّعريفُ في الإنسان تَعريفُ الجِنسِ، والمرادُ به خُصوصُ أهلِ الشِّركِ، والمرادُ بالكَبَدِ: التَّعَبُ الَّذي يُلازِمُ أصحابَ الشِّركِ مِن اعتِقادِهم تعدُّدَ الآلهةِ، واضطرابِ رأيِهم في الجَمعِ بيْن ادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لله تعالى وبيْن توَجُّهِهم إلى اللهِ بطَلَبِ الرِّزقِ وبطَلَبِ النَّجاةِ إذا أصابَهم ضُرٌّ، ومِن إحالَتِهم البَعْثَ بعْدَ المَوتِ، مع اعتِرافِهم بالخَلْقِ الأوَّلِ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني بالأحَدِ: اللهَ عزَّ وجَلَّ، يعني: نَفْسَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢).

وقال البِقاعي: (﴿أَحَدٌ﴾ أي: مِن أهلِ الأرضِ أو السَّماءِ، فيَغلِبَه؛ حتَّى إنَّه يُعانِدُ خالِقَه مع ما يَنظُرُ مِن اقتِدارِه على أمثالِه بنَفْسِه وبمَن شاء مِن جُنودِه، فيُعادي رُسُلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، =

كما قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

أي: يَقولُ هذا الإنسانُ المبَذِّرُ أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه ومَلَذَّاتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

أي: أيَظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ، وأنَّه لن يُحاسِبَه ويُجازيَه

= ويَجحَدُ آياتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أيَظُنُّ ابنُ آدَمَ أنْ لن يُعاقِبَه اللهُ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ جرير: (أهلَكْتُ مالًا كثيرًا في عَداوةِ محمَّدٍ، فأنفَقْتُ ذلك فيه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢، ٤١٣).

وقال ابنُ عاشور: (كان أهلُ الجاهليَّةِ يتبجَّحونَ بإتلافِ المالِ ويَعُدُّونَه مَنقَبةً؛ لإيذانِه بقِلَّةِ اكتِراثِ صاحِبِه به). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

على ذلك[١]؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عن ذلك الكافِرِ قَولَه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أقام الدَّلالةَ على كَمالِ قُدرتِه؛ فقال تعالى[٢]:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

أي: أَلَمْ نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما[٣]؟

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

أي: أَوَلم نجعَلْ له لِسانًا وشفَتينِ يَستعينُ بهما على النُّطقِ أو غَيرِه مِنَ المنافِعِ[٤]؟

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

أي: وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطَريقَ الشَّرِّ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).
قال القرطبي: (المعنى: نحن فعَلْنا ذلك، ونحن نَقدِرُ على أنْ نبعَثَه ونُحصيَ عليه ما عَمِلَه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥، ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أنَّه سُبحانَه سَمَّى الإنفاقَ في الشَّهَواتِ والمعاصي إهلاكًا، ووَجْهُه: أنَّه لا ينتَفِعُ المُنفِقُ بما أنفَقَ، ولا يَعودُ عليه مِن إنفاقِه إلَّا النَّدَمُ والخَسارُ والتَّعَبُ والقِلَّةُ، لا كمَن أنفَقَ في مَرضاةِ اللهِ في سَبيلِ الخَيرِ؛ فإنَّ هذا قد تاجَرَ مع الله، ورَبِحَ أضعافَ أضعافِ ما أنفَقَ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أعقَبَ سُبحانَه ما به اكتِسابُ العِلمِ، وما به الإبانةُ عن المعلوماتِ بما يُرشِدُ الفِكرَ إلى النَّظَرِ والبَحثِ، وذلك قَولُه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، فاستكمَلَ الكلامُ أُصولَ التَّعَلُّمِ والتَّعليمِ؛ فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ مُحِبًّا للمَعرفةِ محِبًّا للتَّعريفِ، فبِمَشاعِرِ الإدراكِ يكتَسِبُ المُشاهَداتِ -وهي أصولُ المعلوماتِ اليَقينيَّةِ-، وبالنُّطقِ يُفيدُ ما يَعْلَمُه لغيرِه، وبالهَدْيِ إلى الخَيرِ والشَّرِّ يُمَيِّزُ بيْنَ مَعلوماتِه ويُمَحِّصُها[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ يتبادَرُ مِن ظاهِرِها أنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّه لا يُقسِمُ بهذا البلَدِ الَّذي هو مكَّةُ المكَرَّمةُ، مع أنَّه تعالى أقسَمَ به في قَولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

= القرطبي)) (٢٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المعنى: ألَمْ نُعَرِّفْه طريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ونُبَيِّنْه له كتَبيينِ الطَّريقَينِ العالِيَينِ؟). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٨٠).

وقال أبو حيَّانَ: (﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ قال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والجُمهورُ: طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، وعليٌّ، وابنُ المسَيِّبِ، والضَّحَّاكُ: الثَّديَينِ؛ لأنَّهما كالطَّريقَينِ لحياةِ الوَلَدِ ورِزْقِه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ -وعليه الجُمهورُ-: أنَّ «لا» هنا صِلةٌ على عادةِ العرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، كقَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ «لا» نَفيٌ لكلامِ المُشرِكينَ المكَذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَولُه: ﴿أُقْسِمُ﴾ إثباتٌ مُستأنَفٌ، وهذا القَولُ وإن قال به كثيرٌ مِن العُلَماءِ فليس بوَجيهٍ؛ لِقَولِه تبارك وتعالى في سورةِ (القيامةِ): ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يُرِدِ الإثباتَ المؤتَنِفَ بعدَ النَّفيِ بقَولِه: ﴿أُقْسِمُ﴾.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّها حَرفُ نَفيٍ أيضًا، ووَجْهُه أنَّ إنشاءَ القَسَمِ يتضَمَّنُ الإخبارَ عن تعظيمِ المقسَمِ به، فهو نفيٌ لذلك الخبَرِ الضِّمنيِّ على سبيلِ الكِنايةِ، والمرادُ أنَّه لا يَعظُمُ بالقَسَمِ، بل هو نَفْسُه عظيمٌ أُقسِمَ به أوْ لا.

الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ اللَّامَ لامُ الابتِداءِ أُشبِعَت فتحتُها، وأصلُ الكلامِ: لَأُقْسِمُ، والعرَبُ رُبَّما أشبعَتِ الفَتحةَ بألِفٍ، والكسرةَ بياءٍ، والضَّمَّةَ بواوٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهينا عن القَسَمِ بغيرِه.

والجوابُ عنه مِن وَجهين:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مَسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣-٢٦٦).
وذكَرَ الشنقيطيُّ أنَّ القولَ الثَّالثَ لا يخلو مِن بُعدٍ.

الثَّاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تَقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ تَضَمَّنَ القَسَمُ أصلَ المكانِ وأصلَ السُّكَّانِ؛ فمَرجِعُ البلادِ إلى مكَّةَ، ومَرجِعُ العِبادِ إلى آدمَ[٢]. وذلك على قولٍ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ استدَلَّ به مَن مَنَعَ قِتالَ البُغاةِ فيه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ليس في الدُّنيا إلَّا الكَدُّ والمِحْنةُ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ * وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ * وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ هذا الدَّليلُ العقليُّ القاطعُ فيه تنبيهٌ أنَّ الَّذي جَعَلَك تُبْصِرُ وتَتكلَّمُ وتَعلَمُ: أَولى أنْ يكونَ بَصيرًا متكَلِّمًا عالِمًا، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قَطعيٍّ أقوى مِن هذا وأبْيَنُ وأقرَبُ إلى المعقولِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

لا خِلافَ بيْن الفُقهاءِ في أنَّ مَن دخَل مِن البُغاةِ الحرَمَ مُقاتِلًا وبدأ القِتالَ فيه أنَّه يُقاتَلُ، لكنِ اختلَفوا في قتالِهم في الحرَمِ إذا لم يَبدَؤوا بالقتالِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩١٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ذِكْرُ الشَّفَتينِ مع اللِّسانِ؛ لأنَّ الإبانة تَحصُلُ بهما معًا، فلا ينطِقُ اللِّسانُ بدونِ الشَّفَتين، ولا تنطِقُ الشَّفتانِ بدونِ اللِّسانِ. ومِن دقائِقِ القرآنِ الكريمِ أنَّه لم يقتَصِرْ على اللِّسانِ ولا على الشَّفَتينِ، خِلافَ عادةِ كلامِ العرَبِ أن يقتَصِروا عليه؛ يقولون: «يَنطِقُ بلِسانٍ فَصيحٍ»، ويقولون: «لم ينطِقْ ببِنتِ شَفَةٍ» أو «لم يَنبِسْ ببِنتِ شَفَةٍ»؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استِدلالٍ، فجيءَ فيه بما لَه مزيدُ تصويرٍ لخَلْقِ آلةِ النُّطقِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

- ابتُدِئَت السُّورةُ الكريمةُ بالقسَمِ؛ تَشويقًا لِما يَرِدُ بعْدَه، وأُطِيلَت جُملةُ القسَمِ؛ زِيادةً في التَّشويقِ[2].

- والإشارةُ بـ(هذا) مع بَيانِه بـ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ إشارةٌ إلى حاضرٍ في أذهانِ السَّامِعينَ، كأنَّهم يَرَونه؛ لأنَّ رُؤيتَه مُتكرِّرةٌ لهم، وهو بلَدُ مَكَّةَ، وفائدةُ الإتيانِ باسمِ الإشارةِ تَمييزُ المُقسَمِ به أكمَلَ تَمييزٍ؛ لقصْدِ التَّنويهِ به[3].

- والقسَمُ بالبَلدةِ -مع أنَّها لا تدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، ولا مِن صِفاتِ أفعالِه-؛ كِنايةٌ عن تَعظيمِ اللهِ تعالَى إيَّاها وتَفضيلِها[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في سُورةِ (التِّينِ): ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، ولم يَصِفْه -هنا- بالأمْنِ؛ لأنَّه لا يُناسِبُ سِياقَ المشَقَّةِ، بخِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٧).

ما في (التِّينِ)؛ فإنَّ المرادَ هناك الكَمالاتُ[١].

- وجُملة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ مُعترِضةٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوعْدِ بفتْحِه، على مَعْنى: وأنتَ حِلٌّ بِهِ في المُستقبَلِ، و(أنت) على هذا الوجْهِ مِن بابِ التَّقديمِ للاختِصاصِ، وقيل غيرُ ذلك[٢]. والمقصودُ مِن الاعتراضِ يَختلِفُ باختلافِ مَحمَلِ معْنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾[٣].

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ تَجديدِ التَّعجيبِ، ولقَصْدِ تأكيدِ فتْحِ ذلك البلدِ العزيزِ عليه، والشَّديدِ على المشرِكين أنْ يَخرُجَ عن حَوزتِهم[٤].

وقيل: إنَّه لمْ يُكرِّرْه؛ إذِ التَّقديرُ: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ المحرَّمِ الَّذي جُبِلَت العرَبُ على تَعظيمِه وتَحريمِه، ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أي: أُحِلَّ لك فيه مِن حُرُماتِه ما لمْ يَحِلَّ لأحدٍ قبْلَك ولا بعْدَك؛ من قتْلِ ابنِ خَطَلٍ، وقِتالِ المشركين ساعةً مِن نَهارٍ، فالمرادُ بالبلدِ الأوَّلِ الباقي على تَحريمِه، وبالثَّاني الَّذي أُحِلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إكرامًا له، وتَعظيمًا لمَنزلتِه[٥].

- قولُه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ نُكِّرَ الوالدُ والولَدُ للإبهامِ المُستقِلِّ بالمدْحِ والتَّعجُّبِ، ومَجيءَ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دونَ (مَن)، مع أنَّ (مَن)

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣، ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٩).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٢).

أكثَرُ استعمالًا في إرادةِ العاقلِ، وهو مُرادٌ هنا؛ فعُدِلَ عن (مَن)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ إبهامًا، فأُرِيدَ تَفخيمُ أصحابِ هذه الصِّلةِ، فجِيءَ لهم بالمَوصولِ الشَّديدِ الإبهامِ؛ لإرادةِ التَّفخيمِ، ونَظيرُه قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: ٣٦]، يعْني: مَولودًا عَجيبَ الشَّأنِ، ولأنَّ قُوَّةَ الإبهامِ في (ما) أنسَبُ بإرادةِ الجَماعةِ دونَ واحدٍ مُعيَّنٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ الجُملةُ جَوابُ القَسَمِ، وهو الغرَضُ مِن السُّورةِ[٢].

- قولُه: ﴿فِي كَبَدٍ﴾، أي: تعَبٍ ومَشقَّةٍ، وهو تَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ الهَمزةُ للإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّخطئةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أُعقِبَت مَساوي نفْسِه بمَذامِّ أقوالِه، وهو التَّفخُّرُ الكاذبُ، والتَّمدُّحُ بإتلافِ المالِ في غيرِ صَلاحٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ كِنايةٌ عن عِلمِ اللهِ تعالَى بدَخيلتِه، وأنَّ افتِخارَه بالكرَمِ باطلٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۞ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۞ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ [البلد: ٥]، أو قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، أي: هو غافلٌ عن قُدرةِ اللهِ تعالَى، وعن عِلمِه المُحيطِ بجَميعِ الكائناتِ الدَّالِّ عليهما أنَّه خلَقَ مَشاعرَ الإدراكِ، الَّتي منها العَينانِ، وخلَقَ آلاتِ الإبانةِ، وهي اللِّسانُ والشَّفتانِ، فكيف يكونُ مُفيضُ العِلمِ على النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالِمٍ بأحوالِهم[٣]؟!

- قولُه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الاستِفهامُ تَقْريريًّا، وأنْ يكونَ إنكاريًّا[٤].

- والاقتِصارُ على العَينينِ؛ لأنَّهما أنفَعُ المشاعِرِ، ولأنَّ المُعلَّلَ إنكارُ ظنِّه أنْ لم يَرَه أحدٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ النَّجْدُ: الأرضُ المرتفِعةُ ارتفاعًا دُونَ الجبَلِ، وعُبِّرَ بالنَّجْدَينِ عن الخَيرِ والشَّرِّ، وجُعِلَا نَجْدينِ؛ لصُعوبةِ اتِّباعِ أحدِهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

وهو الخيرُ، فغُلِّبَ على الطَّريقَين. أو لأنَّ كلَّ واحدٍ صعْبٌ باعتبارٍ؛ فطَريقُ الخَيرِ صُعوبتُه في سُلوكِه، وطَريقُ الشَّرِّ صُعوبتُه في عَواقبِه؛ ولذلك عُبِّرَ عنه بعْدَ هذا بـ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾[1] [البلد: ١١].

- وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ على الإنسانِ بما وُهِبَه مِن وَسائلِ العَيشِ المُستقيمِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥).

الآيات (١١-٢٠)

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾: أي: لم يَقتَحِمْها ولا جاوَزَها، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الأمرِ الشَّديد، والمُجاوَزةُ له بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، والعَقَبةُ: طَريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والعَقَبةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لِمُجاهدةِ النَّفْسِ والهوى والشَّيطانِ في أعمالِ البِرِّ، فجعَلَه كالَّذي يتكلَّفُ صُعودَ العَقَبةِ، يقولُ: لم يَحمِلْ على نَفْسِه المشَقَّةَ بعِتقِ الرَّقَبةِ ولا الإطعامِ. وقيل: هي عَقَبةُ جهنَّمَ، أو: هي عقَبةٌ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ. وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ(١).

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي: عِتقُ مَملوكٍ وتخليصُه مِن إسارِ الرِّقِّ، وكلُّ شَيءٍ أطْلَقْتَه فقَدْ فَكَكْتَه، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانْفِراجٍ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ، ومِن ذلك اشتِقاقُ الرَّقَبةِ؛ لأنَّها مُنتَصِبةٌ، ولأنَّ النَّاظِرَ لا بُدَّ يَنتَصِبُ عندَ نَظَرِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧) و(٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧) و(٤/ ٤٣٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) =

﴿مَسْغَبَةٍ﴾: أي: مَجاعةٍ، وأصلُ (سغب): يدُلُّ على جوعٍ[(١)].

﴿مَتْرَبَةٍ﴾: أي: فقرٍ، يُقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتَقَر، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ، فليس له شيءٌ غير التُّرابِ، وأصلُ (ترب) هنا: التُّرابُ وما يُشتَقُّ منه[(٢)].

﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾: أي: بالرَّحمةِ والعطفِ والتَّراحُمِ فيما بيْنَهم، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأْفةِ[(٣)].

﴿الْمَيْمَنَةِ﴾: أي: اليمينِ، أو مُشتَقَّةٌ مِن اليُمْنِ، وهو ضِدُّ الشُّؤمِ، واليُمْنُ: البَرَكةُ[(٤)].

= للهروي (٥/ ١٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٥٢).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ إنَّما هي مَفْعَلةٌ مِن: تَرِبَ الرَّجُلُ، إذا أصابَه التُّرابُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١).

وقال الواحديُّ: (المَتْرَبةُ: مَصدَرُ قولِهم: تَرِبَ يَترَبُ تَرَبًا ومَتْرَبةً -مِثل مَسْغَبة- إذا افتقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلماءِ: قيل لهم أصحابُ اليمينِ؛ لأنَّهم يُؤْتَونَ كُتُبَهم بأَيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم =

﴿الْمَشْأَمَةِ﴾: أي: الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانِبِ اليَسارِ[(١)].

﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ استُشكِلَ عَدَمُ تَكرارِ «لا» هنا، مع أنَّها دخلَت على الماضي هنا غيرَ مُفيدةٍ للدُّعاءِ، وهم قالوا: يلزمُ تَكرارُها حينَئذٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١].

وأُجيبَ: بأنَّ اللَّازِمَ تَكرارُها لَفظًا أو معنًى، وهي هنا مُكَرَّرةٌ معنًى؛ لأنَّ تفسيرَ العَقَبةِ بما فُسِّرَت به مِن الأُمورِ المتعَدِّدةِ يلزَمُ منه تفسيرُ الاقتحامِ، فيكونُ: فلا اقتَحَمَ العَقَبةَ في معنى: فلا فَكَّ رَقَبةً ولا أطعمَ يتيمًا، ويجوزُ أن يكونَ عدَمُ تكريرِ (لا) هنا استِغناءً بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، فكأنَّه قيل: فلا اقتحَمَ العقَبةَ ولا آمَنَ.

ونُقِلَ قولٌ بعدَمِ وُجوبِ تَكريرِها، وأنَّها كـ«لَمْ»، وإذا كانت «لَا» بمعنى «لَمْ»

= النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كذلك ليلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليمينِ وأصحابَ المَيْمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدخلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢).

لم يَلزَمْ تكريرُها، كما لا يلزمُ التَّكريرُ مع «لَمْ»، فإن تكرَّرَت في موضعٍ، نحوُ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، فهو كتكرير «لَمْ»، نحوُ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]. والمُتيَقَّنُ أكثريَّةُ التَّكَرُّر، وأمَّا وُجوبُه فليس بمتيقَّنٍ.

﴿فَكُّ﴾ خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعولٌ به للمَصدرِ ﴿إِطْعَامٌ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

قال الله تعالى محرِّضًا على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبَةَ الشَّديدةَ، ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوَى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والإحسانِ، وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ؟

ثمَّ فسَّر الله تعالى ذلك، فقال: اقتِحامُ تلك العَقَبةِ تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ، أو إطعامٌ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ يتيمًا ذا قَرابةٍ، أو مِسكينًا لا شيءَ له، ثمَّ يكونُ ذلك المنفِقُ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا، وأوصَى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ والرَّحمةِ بالمَساكينِ واليَتامى؛ أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ، عليهم نارٌ مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِنَ النِّعَمِ الجليلةِ؛ أتْبَعَ سُبحانَه ذلك بحَضِّه على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وعلى إصلاحِ نَفْسِه، فقال تعالى[1]:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

أي: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويتكَلَّفْ صُعودَها ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ والإحسانِ[2].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أنَّه لا خَلاصَ مِنَ النَّكَدِ إلَّا بهذا الاقتحامِ؛ شرَعَ في تفسيرِ العَقَبةِ بادِئًا بتهويلِ أمْرِها؛ لعَظيمِ قَدْرِها[3].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ العَظيمةُ الَّتي حَثَّ اللهُ على اقتِحامِها[4]؟

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

والعقبةُ عبارةٌ عن الأعمالِ الصَّالحةِ المذكورةِ بعدُ، وفسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بالنَّارِ، وفسَّرها ابنُ عمرَ بعقبةٍ في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

قيل: المخاطَبُ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٧).
=

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾.

أي: تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أَعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى فَرْجَه بفَرْجِه))[٢].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ. فقال: لَئِنْ كُنتَ أقصَرْتَ الخُطْبةَ لَقد أعرَضْتَ المسألةَ، أَعتِقِ النَّسمةَ، وفُكَّ الرَّقَبةَ. فقال: يا رَسولَ الله، أوَلَيْستا بواحِدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعينَ في عِتْقِها[٣]))[٤].

= وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ لغَيرِ مُعَيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

قال السمينُ الحلبيُّ: (وفي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾، تقديرُه: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العَقَبةِ؟ فالتَّقديرُ: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رَقَبةٍ أو إطعامٌ، وإنَّما احْتِيج إلى تقديرِ هذا المُضافِ لِيَتطابَقَ المفسِّرُ والمفسَّرُ). ((الدر المصون)) (١١/ ٩).

وقال السعدي: (مِن بابٍ أَولى فَكاكُ الأسيرِ المسلِمِ عندَ الكُفَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٧١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٥٠٩).

(٣) فكُّ الرقبةِ: تخليصُ الشَّخصِ مِن الرِّقِّ، وخُصَّ في هذا الحديثِ بمَن أعان في عتقِها حتَّى تعتقَ، وإذا ثبَت الفضلُ في الإعانةِ ثبَت في التفرُّدِ بالعتقِ مِن بابِ أولَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٤٦).

(٤) أخرجه أحمدُ (١٨٦٤٧) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٣٧٤)، والحاكمُ (٢٨٦١).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح =

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾.

أي: أوْ تَقديمُ الطَّعامِ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾.

أي: ليتيمٍ مِن أقارِبِه[(٢)].

﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾.

أي: أوْ لِمسكينٍ لا شيءَ له[(٣)].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

= الموارد)) (١٠١٧)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وكذا شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٦٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

قال الشوكاني: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: لا شَيءَ له، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ؛ لفَقْرِه، وليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ، يقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ يَترَبُ تَرَبًا ومَترَبةً: إذا افتقَرَ حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا﴾ أي: شَخْصًا لا كِفايةَ له ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: حاجةٍ مُقعِدةٍ له على التُّرابِ، لا يَقدِرُ على سِواه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٢، ٦٣).

أي: ثمَّ إنَّ المُنفِقَ مالَه في فَكِّ الرِّقابِ، أو إطعامِ اليتيمِ القَريبِ، أو إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ: يَنبغي أن يكونَ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به؛ فتلك القُرُباتُ إنَّما تَنفَعُ مع الإيمانِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهِليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا يَنفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ))[٢].

﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ[٣].

﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بعضُهم بعضًا بالرَّحمةِ بالمساكينِ واليَتامى والضُّعَفاءِ،

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

وسائِرِ الخَلْقِ[(١)].

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ: إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[(٢)].

وعن جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[(٣)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَوَّهَ بالَّذين آمَنوا؛ أعقَبَ التَّنويهَ بالثَّناءِ عليهم وبِشارتِهم[(٤)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ[(٥)].

ثُمَّ بيَّن الله سُبحانَه سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال[(٦)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).
وقال البِقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: الجانِبِ الَّذي فيه اليُمْنُ والبَرَكةُ والنَّجاةُ مِن كُلِّ هَلَكةٍ بِقسمَيهم مِن السَّابقِينَ المُقَرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ الأبرارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٧).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ(١).

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

أي: عليهم نارٌ مُطبَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبدًا(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أفاد نفْيُ الاقتحامِ أنَّه عَدَلَ عن الاهتِداءِ إيثارًا للعاجلِ على الآجِلِ، ولو عَزَمَ وصَبَرَ لَاقتَحَمَ العَقَبَةَ(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ. في تَفسيرِ العَقَبةِ بالمذكوراتِ؛ فَكُّ الرَّقبةِ، وإطعامُ اليتيمِ والمِسكينِ: توجيهٌ إلى ضَرورةِ الإنفاقِ حَقًّا، لا ما يدَّعيه الإنسانُ بدونِ حَقيقةٍ في قَولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾(٤) [البلد: ٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

وقال البقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الخَصْلةِ المُكسِبةِ للشُّؤمِ والحِرْمانِ والهَلَكةِ، فهؤلاء مَشائيمُ على أنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال البقاعي: (﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: مُطبَقةُ البابِ مع إحاطَتِها بهم مِن جميعِ الجوانِبِ -بما أفهَمَتْه أداةُ الاستِعلاءِ-، ومع الضِّيقِ والوُعورةِ، وهذا لعَمْري أشَدُّ الضِّيقِ والكَبَدِ، والنَّصَبِ والنَّكَدِ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- إطعامُ الطَّعامِ يُوجِبُ دخولَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، ويُنجِّي منها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمرةٍ))[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ فَضلُ الإطعامِ، خُصوصًا عِندَ الحاجةِ إليه في زَمَنِ الجُوعِ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ جعَلَ الأعمالَ الصَّالحةَ عَقَبةً، وعَمَلَها اقتحامًا لها؛ لِما في ذلك مِن مُعاناةِ المَشقَّةِ ومُجاهَدةِ النَّفْسِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ فخَصَّ أهلَ المَيْمَنةِ بأنَّهم أهلُ الصَّبرِ والمَرحَمةِ، الَّذين قامتْ بهم هاتان الخَصْلتانِ، ووَصَّوا بهما غَيرَهم، وهذا حَصرٌ لأصحابِ المَيمنةِ فيمَن قام به هذانِ الوَصفانِ. والنَّاسُ بالنِّسبةِ إليهما أربعةُ أقسامٍ: هؤلاء خيرُ الأقسامِ. وشَرُّهم مَن لا صَبْرَ له ولا رحمةَ فيه، ويَليه مَن له صَبرٌ ولا رحمةَ عِندَه، ويليه القِسمُ الرَّابعُ، وهو مَن له رحمةٌ ورِقَّةٌ، ولكِنْ لا صَبْرَ له[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّواصيَ بالخَيرِ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٦).
والحديث أخرجه البخاريُّ (١٤١٧)، ومسلمٌ (١٠١٦) من حديث عَديِّ بنِ حاتمٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٥٨).

هو مِن محمودِ الأخلاقِ، ومَرْضِيِّ الأفعالِ، ومُكتَسبِ الفَوزِ بالجَنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ أنَّه يجِبُ على المرءِ أن يدُلَّ غَيرَه على طريقِ الحَقِّ، ويَمنَعَه مِن سُلوكِ طريقِ الشَّرِّ والباطِلِ ما أمكَنَه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ الحَثُّ على التَّواصي بالرَّحمةِ مع الصَّبرِ[٣]؛ فإنَّ الصَّبرَ مِلاكُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها؛ لأنَّها لا تَخْلو مِن كَبْحِ الشَّهوةِ النَّفسانيَّةِ، وذلك مِن الصَّبرِ، والمَرحمةَ مِلاكُ صَلاحِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتَّواصي بالرَّحمةِ فَضيلةٌ عَظيمةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ لا بدَّ أن يَصبِرَ وأن يَرحَمَ، وهذا هو الشَّجاعةُ والكَرَمُ؛ ولهذا يَقرِنُ اللهُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ تارةً -وهي الإحسانُ إلى الخَلْقِ، وبَيْنَهما وبيْن الصَّبرِ تارةً، ولا بُدَّ مِن الثَّلاثةِ: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصَّبرُ، لا تقومُ مَصلَحةُ المؤمِنينَ إلَّا بذلك؛ في صلاحِ نُفوسِهم، وإصلاحِ غَيرِهم، لا سيَّما كُلَّما قَوِيَت الفِتنةُ والمِحْنةُ؛ فالحاجةُ إلى ذلك تكونُ أشَدَّ، فالحاجةُ إلى السَّماحةِ والصَّبرِ عامَّةٌ لجَميعِ بني آدَمَ، لا تقومُ مَصلحةُ دِينِهم ولا دُنياهم إلَّا به؛ ولهذا جميعُهم يتمادَحونَ بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، حتَّى إنَّ ذلك عامَّةُ ما يَمدَحُ به الشُّعراءُ في شِعْرِهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخلِ والجُبنِ[٥].

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾[1] [الشورى: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تَشَوُّفُ الشَّارعِ إلى العِتْقِ وإيقاعِه[2]، وإشعارٌ بحقيقةِ مَوقِفِ الإسلامِ مِنَ الرِّقِّ، ومدى حِرصِه وتطَلُّعِه إلى تحريرِ الرِّقابِ؛ فها هو هنا يجعَلُ عِتقَ الرَّقَبةِ سُلَّمَ اقتِحامِ العَقَبةِ، وجَعَلَه عِتقًا للمُعتِقِ مِن النَّارِ، كُلُّ عُضوٍ بعُضوٍ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مُسلِمٍ يسعى لذلك، وجعَلَه كَفَّارةً لكُلِّ يمينٍ، وللظِّهارِ بيْن الزَّوجَينِ، وكفَّارةَ القَتلِ الخطَأِ، كُلُّ ذلك نوافِذُ عِتقِ الرِّقابِ وإطلاقِها، في الوقتِ الَّذي لم يُفتَحْ للاستِرقاقِ إلَّا بابٌ واحِدٌ، هو الأَسْرُ في القِتالِ مع المُشرِكينَ لا غيرُ، وفي ذلك رَدٌّ على المُستَشرِقينَ ومَن تأثَّرَ بهم في ادِّعائِهم على الإسلامِ أنَّه مُتعَطِّشٌ لاسترقاقِ الأحرارِ[3]!

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وهو يَشمَلُ العِتْقَ، ويَشمَلُ فَكَّ الأسيرِ مِن العدُوِّ؛ فإنَّ هذا مِن فَكِّ الرِّقابِ، ففي الآيةِ دَليلٌ على فَضيلةِ العِتْقِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ أنَّ العِتقَ أفضَلُ أنواعِ الصَّدَقاتِ؛ وَجْهُه: تقَدُّمُ العِتقِ على الصَّدَقةِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ على الأقارِبِ أفضَلُ منها على الأجانِبِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ فَضلُ إطعامِ اليتيمِ -خصوصًا القَريبَ-، وإطعامِ المِسكينِ[4].

٧- قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ المِسكينَ قد يكونُ بحيث يَملِكُ شَيئًا؛ لأنَّه لو كان لَفظُ المِسكينِ دَليلًا على أنَّه لا يملِكُ شَيئًا البتَّةَ، لَكان تقييدُه بقَولِه: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ تكريرًا، وهو غيرُ جائزٍ[5]. فالمُرادُ بالمِسْكينِ هاهنا الفقيرُ؛ لأنَّه لم يُطْلِقْ ذِكْرَه، ولكِنْ قَيَّدَه بصِفاتِ الفُقَراءِ، بخِلافِ المِسكينِ الَّذي قد أُطْلِقَتْ صِفَتُه[6].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠).

وقال الشنقيطي: (وممَّا استدَلَّ به القائلونَ بأنَّ المسكينَ أحْوَجُ مِن الفقيرِ: أنَّ اللهَ قال في المسكينِ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، قالوا: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ عِندَه، حتَّى كأنَّه قد لَصِق بالتُّرابِ مِن الفَقرِ، ليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوردي (٨/ ٤٩٠). =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سُؤالٌ: أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ شَرطًا للانتِفاعِ بهذه الطَّاعاتِ وجَبَ كَونُه مُقَدَّمًا عليها، فما السَّبَبُ في أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَه عنها بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لمجرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، فكَونُه مِن الَّذين آمَنوا لا ترَتُّبَ له على ما قبْلَه إلَّا مُطلَقُ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، كما قيل:

«إنَّ مَــن ســادَ ثــمَّ ســاد أبوه ثمَّ قد ســاد قَبْــلَ ذلــك جَدُّه»

فلم يُرِدْ بقَولِه: «ثمَّ ساد أبوه» التَّأخُّرَ في الوُجودِ، وإنَّما المعنى: ثمَّ اذكُرْ أنَّه ساد أبوه، كذلك في الآيةِ.

ثانيها: أنَّه يجوزُ أن يُحملَ على الظَّاهِرِ، بمعنَى: ثمَّ كان في عاقِبةِ أمْرِه مِنَ الَّذين آمَنوا، وهو أن يَموتَ مؤمِنًا، فإنَّ مَن كان موافاتُه على الإيمان نفَعَتْه القُرَبُ، ومَن لا، فلا.

فالتَّراخي رُتبيٌّ، فالإيمانُ فوقَ جميعِ ما قبْلَه؛ لأنَّه يَستقِلُّ بكَونِه سببًا للنَّجاةِ، وهو شَرْطٌ في الاعتِدادِ بالأعمالِ.

ثالثُها: أنَّ مَن أتى بهذه القُرَبِ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى قبْلَ إيمانِه بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ آمَنَ بعْدَ ذلك بمحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أُجِر على ما سلَف له مِن الخَيرِ(١).

= وقال أيضًا: (وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٥١] ولم يَقُل: المساكينُ؛ فدَلَّ على أنَّ الفقيرَ أمَسُّ حاجَةً وأسْوَأُ حالًا مِن المسكينِ، وقال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسَمَّاهم مَساكينَ ولهم سَفينةٌ، فدَلَّ على أنَّ المسكينَ أحسَنُ حالًا). ((الحاوي الكبير)) (٨/ ٤٨٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠)، ((تفسير الألوسي)) =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، وفي قَولِه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَدارُ أمرِ الطَّاعاتِ ليس إلَّا على هذَينِ الأصلَينِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تَفريعَ إدماجٍ بمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: هَديناهُ الطَّريقَينِ فلم يَسلُكِ النَّجْدَ المُوصِلَ إلى الخَيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على جُملةِ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٦]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وتكونَ (لَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) استِفهامًا حُذِفَ منه أداتُه، وهو استفهامُ إنكارٍ، والمعْنى: أنَّه يَدَّعي إهلاكَ مالٍ كَثيرٍ في الفسادِ مِن مَيْسِرٍ وخَمرٍ ونحْوِ ذلك، أفلا أهْلَكَه في القُرَبِ والفضائلِ، بفَكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المساكينِ في زمَنِ المَجاعةِ؟! فإنَّ الإنفاقَ في ذلك لا يَخْفَى على النَّاسِ، خِلافًا لِما يَدَّعيه مِن إنفاقٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الاقتِحامُ افتعالٌ؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّفِ مِثلَ (اكتَسَبَ)، فشُبِّهَ تَكلُّفُ الأعمالِ الصَّالحةِ باقتحامِ عَقَبةِ الجبَلِ في شِدَّتِه على النَّفْسِ ومَشقَّتِه[٣].

= (١٥/ ٣٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩١).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ على عدَمِ اهتداءِ هؤلاء للأعمالِ الصَّالحةِ، مع قِيامِ أسبابِ الاهتداءِ مِن الإدراكِ والنُّطقِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ اعتِراضٌ مُقحَمٌ لبَيانِ العقَبةِ، مُقرِّرٌ لمَعْنى الإبهامِ والتَّفسيرِ؛ فإنَّ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ مُفسَّرٌ بقولِه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * إِطۡعَٰمٌ﴾، والمفسَّرُ مَنفيٌّ، والمفسِّرُ كذلك؛ لاتِّحادِهما في الاعتِبارِ، كأنَّه قيل: فلا فكَّ رقبةً، ولا أطعَمَ مِسكينًا، ولزيادةِ تَقريرِها وكَونِها عندَ اللهِ تعالَى بمَكانةٍ رَفيعةٍ، والمعْنى: أنَّك لم تَدْرِ كُنْهَ صُعوبتِها على النَّفْسِ، وكُنْهَ ثَوابِها عندَ اللهِ تعالَى(٢).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قيل: هو حالٌ مِن ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾ في قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ للتَّنويهِ بها، وأنَّها لأهمِّيَّتِها يُسأَلُ عنها المخاطَبُ هلْ أعلَمَه مُعلِمٌ ما هي؟ أي: لمْ يَقتحِمِ العقَبةَ في حالِ جَدارتِها بأنْ تُقتحَمَ، وهذا التَّنويهُ يُفيدُ التَّشويقَ إلى مَعرفةِ المُرادِ مِن العقَبةِ(٣).

- و(ما) الأُولى والثَّانيةُ أيضًا في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ استفهامٌ، والتَّقديرُ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَك ما هي العقَبةُ؟ أي: أعلَمَك جَوابَ هذا الاستفهامِ، كِنايةً عن كَونِه أمْرًا عَزيزًا يَحتاجُ إلى مَن يُعلِمُك به. والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ لأنَّ هذا بمَنزلةِ المَثَلِ(٤). وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قُرِئَ برَفْعِ ﴿فَكُّ﴾ وإضافتِه إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾، ورفعِ ﴿إِطۡعَٰمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عطْفًا على ﴿فَكُّ﴾، وجُملةُ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بَيانٌ للعقبةِ، والتَّقديرُ: هي فكُّ رَقبةٍ، فحُذِفَ المُسنَدُ إليه حذْفًا لمُتابعةِ الاستِعمالِ[١]. وقُرِئَ ﴿فَكَّ﴾ بفتْحِ الكافِ على صِيغةِ فِعلِ المُضيِّ، وبنصْبِ ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعولِ لـ ﴿فَكَّ﴾، ﴿أو أطعَمَ﴾ بدونِ ألِفٍ بعْدَ عَينِ (إطعام) على أنَّه فِعلُ مُضيٍّ عطْفًا على ﴿فَكَّ﴾[٢]، فتكون جُملةُ ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، وما بيْنَهما اعتراضًا، أو تكون بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، أي: فلا اقتحَمَ العَقَبَةَ، ولا فكَّ رَقَبةً أو أطعَمَ[٣]. ومَن قرَأَ ﴿فَكُّ﴾ بالرَّفعِ، فهو تَفسيرٌ لاقتحامِ العقَبةِ، والتَّقديرُ: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العقَبةِ، ومَن قرَأَ فِعلًا ماضيًا ﴿فَكَّ﴾، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُضافٍ، بلْ يكونُ التَّعظيمُ للعَقَبةِ نفْسِها، ويَجِيءُ ﴿فَكَّ﴾ بدلًا مِن ﴿ٱقْتَحَمَ﴾[٤].

- وإيثارُ لَفظِ الرَّقَبةِ هنا؛ مع أنَ المُرادَ ذاتُ الأسيرِ أو العبْدِ؛ لأن أول ما يَخطُرُ بذِهنِ النَّاظرِ لواحدٍ مِن هؤلاء هو رَقَبتُه؛ لأنَّه في الغالِبِ يُوثَقُ مِن رَقَبتِه، وأُطلِقَ الفكُّ على تَخليصِ المأخوذِ في أسْرٍ أو مِلْكٍ؛ لمُشابَهةِ تَخليصِ الأمْرِ العَسيرِ بالنَّزعِ مِن يَدِ القابضِ المُمتنِعِ[٥].

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بهما ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ، والباقونَ برفعِ ﴿فَكُّ﴾ وخَفضِ ﴿رَقَبَةٍ﴾ وكَسرِ الهمزةِ في ﴿إِطْعَٰمٌ﴾ والميمِ المرفوعةِ مع التَّنوينِ وألِفٍ قبْلَها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٧)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

- قولُه: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ إضافةُ ﴿ذِى﴾ إلى ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ تُفيدُ اختِصاصَ ذلك اليومِ بالمَسغبةِ، أي: يوم مَجاعةٍ، وذلك زمَنُ البرْدِ وزمَنُ القحْطِ، ووَجْهُ تَخصيصِ اليومِ ذي المَسغبةِ بالإطعامِ فيه أنَّ الناسَ في زمَنِ المَجاعةِ يَشتَدُّ شُحُّهم بالمالِ خَشيةَ امتِدادِ زمَنِ المَجاعةِ والاحتياجِ إلى الأقواتِ، فالإطعامُ في ذلك الزَّمنِ أفضَلُ، وهو العقَبةُ، ودونَ العقَبةِ مَصاعِدُ مُتفاوِتةٌ[١].

- واليتيمُ: الشَّخصُ الَّذي ليس له أبٌ وهو دونَ البُلوغِ، ووَجْهُ تَخصيصِه بالإطعامِ أنَّه مَظِنَّةُ قِلَّةِ الشِّبَعِ؛ لصِغَرِ سِنِّه، وضَعفِ عمَلِه، وفَقْدِ مَن يَعولُه، ولِحيائِه مِن التَّعرُّضِ لطلَبِ ما يَحتاجُه؛ فلذلك رُغِّبَ في إطعامِه وإنْ لم يَصِلْ حَدَّ المَسكنةِ والفقْرِ، ووُصِفَ بكَونِه ذا مَقرَبةٍ، أي: مَقرَبةٍ مِن المُطعِمِ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ يُؤكِّدُ إطعامَه؛ لأنَّ في كَونِه يَتيمًا إغاثةً له بالإطعامِ، وفي كَونِه ذا مَقرَبةٍ صِلةً للرَّحِمِ[٢].

- إنْ كان المرادُ بالإنسانِ الجِنسَ المَخصوصَ -أي: المُشركين- كان نفْيُ فكِّ الرِّقابِ والإطعامِ كِنايةً عن انتفاءِ تَحلِّيهم بشَرائعِ الإسلامِ؛ لأنَّ فكَّ الرِّقابِ وإطعامَ الجِياعِ مِن القُرُباتِ الَّتي جاء بها الإسلامُ مِن إطعامِ الجِياعِ والمَحاويجِ، وفيه تَعريضٌ بتَعييرِ المشركينَ بأنَّهم إنَّما يُحِبُّون التَّفاخُرَ والسُّمعةَ وإرضاءَ أنفُسِهم بذلك، أو لمُؤانَسةِ الأخِلَّاءِ، وذلك غالبُ أحوالِهم، أي: لم يُطعِموا يَتيمًا ولا مِسكينًا في يومِ مَسغَبةٍ، أي: هو الطَّعامُ الَّذي يَرْضاهُ اللهُ؛ لأنَّ فيه نفْعَ المُحتاجينَ مِن عِبادِه، وليس مِثْلَ إطعامِكم في المآدِبِ والولائمِ والمُنادَمةِ الَّتي لا تَعودُ بالنَّفعِ على المُطعَمينَ؛ لأنَّ تلك المَطاعمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥٨، ٣٥٩).

كانوا يَدْعون لها أمثالَهم مِن أهْلِ الجِدَةِ والغِنى دونَ حاجةٍ إلى الطَّعامِ، وإنَّما يُريدون المُؤانَسةَ أو المُفاخَرةَ. وإنْ كان المرادُ مِن الإنسانِ واحدًا مُعيَّنًا، جاز أنْ يكونَ المعْنى على نحْوِ ما تَقدَّمَ، وجاز أنْ يكونَ ذمًّا له باللُّؤمِ والتَّفاخُرِ الكاذبِ، وفضْحًا له بأنَّه لم يَسبِقْ منه عمَلٌ نافعٌ لقَومِه قبْلَ الإسلامِ، فلم يغرَمْ غَرامةً في فَكاكِ أَسيرٍ أو مَأخوذٍ بدَمٍ، أو مَنَّ بحُرِّيةٍ على عبْدٍ[(١)].

- في قَولِه: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ احتِباكٌ[(٢)]؛ ذِكْرُ القُرْبِ أوَّلًا يدُلُّ على ضِدِّه ثانيًا، وذِكْرُ المَتْرَبةِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر في اليتيمِ القُرْبَ المُعَطِّفَ، وفي المِسكينِ الوَصْفَ المرَقِّقَ الملَطِّفَ؛ فهو لا يَقصِدُ بإطعامِه إلَّا سَدَّ فاقتِه، ودخَلَ فيه اليتيمُ البعيدُ والفقيرُ مِن بابِ الأَولى، وإن كان أجنبيًّا[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل: (ثُمَّ) لتَراخي الإيمانِ وتَباعُدِه في الرُّتبةِ، فتدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ بها أرْقى رُتبةً في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ مِن مَضمونِ الكلامِ المعطوفةِ عليه، فيَصيرُ تَقديرُ الكلامِ: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ بفكِّ رقَبةٍ أو إطعامٍ، بعْدَ كونِه مُؤمنًا؛ لأنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ المقدَّمُ على غيرِه، ولا يَثبُتُ عمَلٌ صالحٌ إلَّا به، أو يكونُ التَّراخي في الذِّكرِ، كأنَّه قيل: ثمَّ اذكُرْ أنَّه كان مِن الَّذين آمَنوا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) =

- وفي فِعلِ ﴿كَانَ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيمانَه سابقٌ على اقتِحام العقَبةِ المطلوبةِ فيه بطَريقةِ التَّوبيخِ على انتفائِها عنه، فعطْفُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الجُمَلِ المَسوقةِ للتَّوبيخِ والذَّمِّ، يُفيدُ أنَّ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ -أو هذا الإنسان المُعيَّن- لم يكُنْ مِن المؤمنينَ، وأنَّه مَلومٌ على ما فرَّطَ فيه؛ لانتفاءِ إيمانِه، وأنَّه لو فعَلَ شيئًا مِن هذه الأعمالِ الحَسَنةِ، ولم يكُنْ مِن الَّذين آمَنوا؛ ما نَفَعه عمَلُه شيئًا؛ لأنَّه قد انتَفى عنه الحظُّ الأعظمُ مِن الصَّالحاتِ، كما دلَّت عليه (ثُمَّ) مِن التَّراخي الرُّتبيِّ، فهو مُؤذِنٌ بأنَّه شرْطٌ في الاعتدادِ بالأعمالِ[1].

- وقال هنا: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (ثُمَّ كان مؤمنًا)؛ لأنَّ كَونَه مِن الَّذين آمَنوا أدَلُّ على ثُبوتِ الإيمانِ مِن الوَصفِ بمؤمنٍ؛ لأنَّ صِفةَ الجَماعةِ أقوَى، مِن أجْلِ كَثرةِ الموصوفينَ بها؛ فإنَّ كثرةَ الخَيرِ خَيرٌ. ثم في هذه الآيةِ تقويةٌ أُخرَى للوصفِ، وهو جَعْلُه بالموصولِ المُشعِرِ بأنَّهم عُرِفوا بالإيمانِ بيْنَ الفِرَقِ[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للعِلمِ به، أي: آمَنوا باللهِ وحْدَه، وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِ الإسلامِ؛ فجُعِلَ الفِعلُ كالمُستغني عن المُتعلَّقِ، وأيضًا لِيَتأتَّى مِن ذِكرِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَخلُّصٌ إلى الثَّناءِ عليهم بقولِه: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾، ولبِشارتِهم بأنَّهم أصحابُ المَيمنةِ[3].

= (٣٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أوصافِ المؤمنينَ تَواصِيهم بالصَّبرِ وتَواصِيهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ ذلك أشرَفُ صِفاتِهم بعْدَ الإيمانِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن اتِّصافِهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ مَن يُوصي بالمَرحمةِ هو الَّذي عَرَفَ قَدْرَها وفضْلَها، فهو يَفعَلُها قبْلَ أنْ يُوصِيَ بها. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لَيسوا مِن أهلِ الصَّبرِ ولا مِن أهْلِ المَرحمةِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ * عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ افتتح باسمِ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لإحضارِهم بصِفاتِهم في ذِهنِ السَّامعِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن إرادةِ التَّنويهِ والتَّعظيمِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ خُولِفَ في التَّعبيرِ؛ فقدْ أشارَ إلى المؤمنينَ تَكريمًا لهم، وأنَّهم حاضِرون عندَه تعالَى في مَقامِ كَرامتِه، وبمنزلةِ الجالسينَ أمامَه، لا يَعْدو الأمرُ أكثَرَ مِن الإشارةِ إليهم بالبَنانِ، ثمَّ استُعمِلَ لَفظُ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، فلمْ يُقلْ: (هؤلاء)؛ إيذانًا ببُعدِ مَنزلتِهم عندَه، ونَيلِهم شَرَفَ الحُظوةِ والقُربِ منه، أمَّا الكافرون فقدْ ذَكَرَهم بضَميرِ الغَيبةِ إشارةً إلى أنَّهم غائبون عن مَقامِ تَجلِّياتِه وسُبحاتِ فُيوضاتِه، وأنَّهم لا يَستأهِلون أنْ يَمُتُّوا إليه ولو بأوهَنِ الأسبابِ، وهذا مِن العَجَبِ العُجابِ، فتَدبَّرْه[٣]!

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تَتميمٌ لِما سِيقَ مِن ذَمِّ الإنسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٢).

المذكورِ آنِفًا؛ إذ لم يُعقَبْ ذمُّه هنالك بوَعيدِه عِنايةً بالأهمِّ، وهو ذِكرُ حالةِ أضْدادِه ووَعْدِهم، فلمَّا قُضِيَ حقُّ ذلك ثُنِيَ العِنانُ إلى ذلك الإنسانِ، فحَصَل مِن هذا النَّظمِ البديعِ مُحسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[١]، ومُحسِّنُ الطِّباقِ[٢] بيْن المَيْمَنةِ والمَشْأمةِ[٣].

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، وليس للقصْرِ؛

---

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

إذ قدِ استُفِيدَ القَصرُ مِن ذِكرِ الجُملةِ المُضادَّةِ الَّتي قبْلَها، وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[1].

– وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم أصحابُ المَشأمةِ[3].

– و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، وقُدِّمَ على عامِلِه؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِ الغلْقِ عليهم تَعجيلًا للتَّرهيبِ. وقدِ استَتَبَّ بهذا التَّقديمِ رِعايةُ الفواصلِ بالهاءِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾[4] [البلد: ١١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

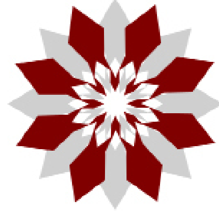
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

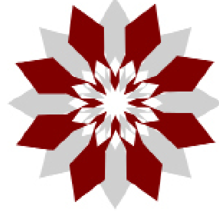
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

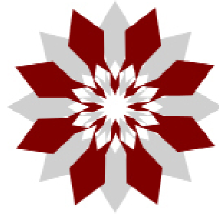
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الشَّمسِ







سُورةُ الشَّمسِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (الشَّمسِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾.

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[1]: فعن جابرٍ، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفتَّانٌ[2] أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[3].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الشَّمسِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[4].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- التَّرغيبُ في الطَّاعاتِ، والتَّحذيرُ مِن المعاصي[5].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) أفَتَّانٌ: أي: مُنَفِّرٌ عن الدِّينِ وصادٌّ عنه، فالفِتنةُ على وُجوهٍ، ومعناها هاهنا: صَرفُ النَّاسِ عن الدِّينِ، وحَمْلُهم على الضَّلالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٨٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٤) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٣).

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصِيبَهم عَذابٌ بسببِ كفرِهم، كما أصاب مَن قبْلَهم[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- البَدءُ بالقَسَمِ بالمخلوقاتِ العَظيمةِ؛ مِمَّا هو دليلٌ على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ أحوالِ النُّفوسِ ومَراتِبِها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ مَن يُزَكِّي نَفْسَه، وسوءِ عاقِبةِ مَن يَتبَعُ هَواها.

٤- الخَبَرُ عن إهلاكِ ثَمودَ، وتهديدِ المُشرِكينَ بأنَّهم سيُصيبُهم عذابٌ كما أصاب ثمودَ إذا ما استمَرُّوا في كُفْرِهم.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

الآيات (١-١٠)

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا
(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَضُحَاهَا﴾: الضُّحى: ارتِفاعُ الضَّوءِ وكَمالُه، وقيل: الضُّحى هنا: النَّهارُ كُلُّه، وأصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[١].

﴿تَلَاهَا﴾: أي: تَبِعَها، يقال: تلَوْتُ زَيدًا، أي: تَبِعْتُه، وأصلُ (تلو): الاتِّباعُ[٢].

﴿جَلَّاهَا﴾: أي: بَيَّنَها وكشَفَها، والتَّجْلِيةُ: الإظهارُ والكَشْفُ، يقالُ: جَلَّى الأمرَ يُجَلِّيه: إذا أظهَرَه وأبرَزَه وبَيَّنَه، وأصلُ (جلو): انكِشافُ الشَّيءِ وبُروزُه[٣].

﴿يَغْشَاهَا﴾: أي: يُغَطِّيها، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطِيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).
قال ابن عاشور: (الضُّحَى: وَقْتُ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ عن أُفُقِ مَشْرِقِها، وظُهورِ شُعاعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٨).
وقال الراغب: (أصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظَّاهرُ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، =

﴿طَحَاهَا﴾: أي: بسَطَها ووسَّعَها، وأصلُ (طحو): يدُلُّ على البَسطِ والمَدِّ[١].

﴿سَوَّاهَا﴾: أي: عَدَّل خَلْقَها، وسَوَّى أعضاءَها، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿فُجُورَهَا﴾: الفُجورُ: شَقُّ سِترِ الدِّيانةِ، يقال: فَجَرَ فُجورًا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسِعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ، ومنه الفُجورُ، وهو الانْبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي[٣].

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ ونجا مِن المَرهوبِ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبَقاءُ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[٤].

﴿زَكَّاهَا﴾: أي: طهَّرها مِن الكُفْرِ والمَعاصي، وأصْلَحَها بالصَّالِحاتِ مِن الأعمالِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طَهارةٍ ونَماءٍ وزيادةٍ[٥].

﴿خَابَ﴾: أي: خَسِرَ وفاتَه الظَّفَرُ. والخَيْبةُ: الحِرمانُ والخُسْرانُ، وأصلُ (خيب):

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص:١٦٦، ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧).

يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ[١].

﴿دَسَّىٰهَا﴾: أي: نَقَصَها وأخفاها بالفُجورِ والمعاصي، مِنَ التَّدسيسِ: وهو إخفاءُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالشَّمسِ وبضَوئِها، وبالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، وبالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها، وباللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها، وبالسَّماءِ وبالَّذي بناها، وبالأرضِ وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ.

ثمَّ أقسَمَ الله تعالى بكُلِّ نَفْسٍ وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها، فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعصيةِ.

ثمَّ قال تعالى مُؤكِّدًا على أهميَّةِ تزكيةِ النَّفسِ: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وأرداها بالرَّذائِلِ والعُيوبِ والذُّنوبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦١).

أي: أُقسِمُ بالشَّمسِ وبضَوئِها(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).
ممَّن اختار القَولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ بضُحاها ضَوْؤُها: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).
ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).
قال الزَّمخشريُّ: (ضُحاها: ضَوْؤُها إذا أشرَقَت وقام سُلطانُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨).
وقيل: المرادُ بضُحاها: النَّهارُ. وممَّن قال بهذا: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جَرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥).
ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).
قال ابنُ جريرٍ: (اختَلَفَ أهلُ التَّأويلِ في معنَى قوله: ﴿وَضُحَاهَا﴾؛ فقال بعضُهم: معنَى ذلك: والشَّمسِ والنَّهارِ، وكان يَقولُ: الضُّحَى: هو النَّهارُ كُلُّه... وقال آخَرونَ: معنَى ذلك: وضَوْئِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤).
وقال الواحِديُّ: (القَولُ الثَّالِثُ ما ذكره مقاتِلٌ، قال: أقسَمَ اللهُ بالشَّمْسِ وحَرِّها، وهو قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).
ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ مِنَ السَّلَفِ أيضًا: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

لَمَّا افتَتَح بذِكرِ آيةِ النَّهارِ؛ أتْبَعَه ذِكرَ آيةِ اللَّيلِ، فقال[(١)]:

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، فخَرَج مُضيئًا بَعْدَها[(٢)].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ؛ ذَكَر ما هما آيَتاه، وبدأ بهما؛ لأنَّه لا صلاحَ للإنسانِ إلَّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبَدَنِ إلَّا بالنَّفْسِ والعَقْلِ[(٣)].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

قيل: المرادُ بـ﴿جَلَّىٰهَا﴾: جَلَّى الشَّمسَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الثَّعْلبيُّ، ومكِّيٌّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والبِقاعيُّ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٠). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مَعدِنَ الضِّياءِ؛ ذَكَر محَلَّ الظَّلامِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها[2].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

= قال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جَلَّى الشَّمسَ بحِليةٍ عَظيمةٍ بَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ باعتبارِ الطُّولِ والقِصَرِ، والصَّحوِ والغَيمِ والضَّبابِ، والصَّفاءِ والكَدَرِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيَّان: (والَّذي تَقْتَضيه الفصاحةُ أنَّ الضَّمائرَ كُلَّها إلى قولِه: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ عائِدةٌ على الشَّمسِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

وقال الألوسيُّ: (والأوَّلُ أَولى [أي: عود الضَّمائرِ على الشَّمسِ] لذِكْرِ المرجِعِ، واتِّساقِ الضَّمائرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الظُّلمةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢).

قال البغَويُّ: (يعني: إذا جَلَّى الظُّلمةَ، كنايةً عن غيرِ مذكورٍ؛ لكَونِه مَعروفًا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الأرضَ. وقد مال إليه وقوَّاه: ابنُ كثيرٍ، وذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١، ٧٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ ومحَلَّ أثَرِهما؛ ذكَرَ محَلَّ الكُلِّ[(١)]، فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ، وبالَّذي بناها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ -أنَّ «ما» مَوصولةٌ بمعنى: الَّذي، وأنَّ الإقسامَ بالسَّماءِ وبانيها، الَّذي هو اللهُ تبارك وتعالى-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٩).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والحسَنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٣).

قال ابنُ جُزَي: (فإن قيل: لِمَ عَدَل عن «مَنْ» إلى قَولِه: «ما»، في قَولِ مَن جعلَها مَوصولةً؟ فالجوابُ: أنَّه فعَل ذلك لإرادةِ الوَصْفيَّةِ، كأنَّه قال: والقادِرِ الَّذي بناها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٧٩).

وقيل: «ما» مَصدريَّةٌ، والمعنى: وبنائِها. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والمُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((المقتضب)) للمبرد (٢/ ٥٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر البِناءَ؛ ذَكَر المِهادَ[(١)].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ، وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

أي: وأُقسِمُ بكُلِّ نَفْسٍ، وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها[(٣)].

= قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ «ما» هاهنا مَصدريَّةً، بمعنى: والسَّماءِ وبنائِها، وهو قَولُ قتادةَ، ويحتَمَلُ أن تكونَ بمعنى «مَن» يعني: والسَّماءِ وبانيها، وهو قَولُ مجاهِدٍ، وكِلاهما متلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والثَّوريُّ، وأبو صالحٍ، وابنُ زَيدٍ: ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسَطَها، وهذا أشهَرُ الأقوالِ، وعليه الأكثَرُ مِنَ المفَسِّرينَ، وهو المعروفُ عِندَ أهلِ اللُّغةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) =

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾.

أي: فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ وعَرَّفَها طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ والطَّاعةِ والمَعصيةِ، وجعَلَها مُهَيَّأةً ومُستَعِدَّةً لسُلوكِ الطَّريقَينِ(١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾.

أي: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والمعاصي والخِصالِ الرَّذيلةِ، ونمَّاها بالإيمانِ والعِلمِ النَّافِعِ، والأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحَسَنةِ

= للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨-٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قيل: المرادُ بالنَّفْسِ هنا: نفْسُ آدَمَ عليه السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ نُفوسِ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال الثعلبي: (﴿سَوَّاهَا﴾: عدَّل خَلْقَها). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣).

وقال البغوي: (﴿سَوَّاهَا﴾: عدَّل خلقَها، وسوَّى أعضاءَها). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (تَسويتُها: إكمالُ عَقْلِها ونَظَرِها؛ ولذلك ربطَ الكلامَ بقَولِه تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ الآيةَ، فالفاءُ تُعطي أنَّ التَّسويةَ هي هذا الإلهامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨).

وقال ابنُ كثير: (خلَقَها سَوِيَّةً مُستقيمةً، على الفِطرةِ القَويمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (التَّسويةُ: تعديلُ الخِلْقةِ، وإيجادُ القُوى الجَسَديَّةِ والعَقليَّةِ، ثمَّ تَزدادُ كيفيَّةُ القُوى، فيَحصُلُ الإلهامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (أي: عرَّفَها طريقَ الفُجورِ والتَّقوى، وجعل لها قوَّةً يَصِحُّ معها اكتِسابُ أحدِ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

الحميدةِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٣١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).
قال ابنُ جُزي: (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَمِ عندَ الجُمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).
وقال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: فأين جوابُ القَسَمِ؟ قلتُ: هو محذوفٌ تقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ عليهم، أي: على أهلِ مكَّةَ؛ لتَكذيبِهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لأنَّهم كذَّبوا صالحًا. وأمَّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فكلامٌ تابعٌ لقَولِه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على سبيلِ الاستطرادِ، وليس مِن جوابِ القَسَمِ في شَيءٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).
ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وأيضًا في ﴿دَسَّىٰهَا﴾، وأنَّ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى نَفْسَه: ابنُ قُتَيبةَ، ومَكِّيٌّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي، والشربيني، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).
وقيل: المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه. وبه قال: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقُرطبيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣).
قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، أي: بطاعةِ اللهِ -كما قال قَتادةُ- وطهَّرها مِن الأخلاقِ الدَّنيئةِ والرَّذائلِ. =

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾.

أي: وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وقَمَعَها وحقَّرها وأرداها بالكفرِ والرَّذائِلِ والعُيوبِ، ودنَّسَها بالسَّيِّئاتِ والذُّنوبِ[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ تلك النَّفْسَ أوَّلًا، ثمَّ سوَّاها على حالةٍ تَقبَلُ تلَقِّيَ الإلهامِ بقِسمَيه: الفُجورِ والتَّقْوى، ثمَّ تَسلُكُ أحدَ الطَّريقَينِ، فكأنَّ مجيءَ القَسَمِ بها بعدَ تلك المُسَمَّياتِ دَلالةٌ على عِظَمِ ذاتِها، وقُوَّةِ دَلالتِها على قُدرةِ خالِقِها، ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ مُستَعِدَّةً قابلةً لتلَقِّي إلهامِ اللهِ إيَّاها، وفي مجيئِها بعدَ الآياتِ الكَونيَّةِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ولَيلٍ ونهارٍ، وسماءٍ وأرضٍ: لَفتٌ إلى وُجوبِ التَّأمُّلِ في تلك المخلوقاتِ، يُستَلْهَمُ منها الدَّلالةُ على قُدرةِ خالِقِها، والاستدلالُ على تغيُّرِ الأزمانِ، وحركةِ الأفلاكِ، وإحداثِ السَّماءِ بالبناءِ، وأنَّه لا بُدَّ لهذا العالَمِ مِن صانعٍ، ولا بُدَّ للمُحْدَثِ المتجَدِّدِ من فَناءٍ وعَدَمٍ، كما عَرَض إبراهيمُ عليه السَّلامُ على النُّمْرُوذِ نَماذِجَ الاستِدلالِ على

= ويُروى نحوُه عن مجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ. وكقَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسَّسَها، أي: أخمَلَها ووضَعَ منها بخِذْلانِه إيَّاها عن الهُدى، حتَّى رَكِبَ المعاصيَ، وتَرَك طاعةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

وقد يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه، كما قال العَوفيُّ وعليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٢).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١).

الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فأشار إلى الشَّمسِ أوَّلًا، ثمَّ إلى القَمَرِ، ثمَّ انتقَلَ به إلى اللهِ سُبحانَه[١].

٢- تزكيةُ الإنسانِ نَفْسَه ضربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو محمودٌ، وإليه قَصَد بقَولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، والثَّاني: بالقَولِ، كتَزكيةِ العَدْلِ غَيْرَه، وذلك مذمومٌ أن يَفعلَه الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ونَهْيُه عن ذلك تأديبٌ لقُبحِ مَدْحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرْعًا؛ ولهذا قيل لحكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإن كان حَقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[٢]. فلا مُعارَضةَ بيْن الآيتَينِ، فالتَّزكيةُ الَّتي يُحمَدُ عليها الإنسانُ أنْ يَعمَلَ عمَلًا صالحًا تَزْكو به نَفْسُه، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه ويَمدَحَ، وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ، يقولُ: صلَّيتُ، وتصدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبرَرْتُ والدي، وما أشْبَهَ ذلك! فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[٣].

٣- المكَلَّفُ المخاطَبُ مِنَ الإنسانِ هو نَفْسُه، وما البَدَنُ إلَّا آلةٌ لها ومَظهَرٌ لتصَرُّفاتِها، وإنَّ صلاحَ الإنسانِ وفَسادَه إنَّما يُقاسانِ بصَلاحِ نَفْسِه وفسادِها، وإنَّما رُقيُّه وانحطاطُه باعتِبارِ رُقيِّ نَفْسِه وانحطاطِها، وما فَلاحُه إلَّا بزكائِها، وما خَيبتُه إلَّا بخُبثِها؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أنَّ النَّفْسَ أمانةٌ عندَك، يجبُ أنْ تَرعاها حقَّ رعايتِها، وإذا عَصَيتَ ربَّك فإنَّك ظالمٌ لنَفسِك[٥].

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٤).

٥- المعاصي تُصَغِّرُ النَّفْسَ وتَقْمَعُها، وتُدَسِّيها فتَنخَفِضُ، وتَصيرُ كالَّذي يُدَسُّ في التُّرابِ، وتُحَقِّرُها؛ حتَّى تكونَ أصغرَ كلِّ شيءٍ وأحقَرَه، كما أنَّ الطَّاعةَ تُنمِّيها وتُزَكِّيها وتُكَبِّرُها وتُطَهِّرُها فترتفِعُ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ...﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهِينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

والجوابُ عنه مِن وَجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

الثاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجَلَّ بما تَقتضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ تعالى أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «ونهارِها» ولا «ضيائِها»؛ لأنَّ الضُّحى يدُلُّ على النُّورِ والحرارةِ جميعًا، وبالأنوارِ والحرارةِ تقومُ مَصالحُ العِبادِ[3].

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٩).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القمَرِ مُستفادٌ مِن نورِ الشَّمسِ -أي: مِن توَجُّهِ أشِعَّةِ الشَّمسِ إلى ما يُقابِلُ الأرضَ مِنَ القَمَرِ-، وليس نَيِّرًا بذاتِه، وهذا إعجازٌ عِلميٌّ مِن إعجازِ القُرآنِ الكريمِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ولم يقُلْ: «ومَن بناها»؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ هو الإشارةُ إلى الوَصفيَّةِ، كأنَّه قِيل: والسَّماءِ والقادرِ العَظيمِ الَّذي بَناها، ودلَّ على وُجودِه وكَمالِ قُدرتِه بِناؤُها. ونفْسٍ، والحَكيمِ الباهرِ الحِكمةِ الَّذي سَوَّاها؛ ولذلك أُفرِدَ ذِكرُه، وفي كَلامِهم: سُبحانَ ما سخَّرَكنَّ لنا.

الثَّاني: أنَّ «ما» تُستعمَلُ في موضِعِ «مَن»، كقَولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢]. والاعتمادُ على الأوَّلِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر في تعريفِ ذاتِ اللهِ تعالى هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وهي: السَّماءُ، والأرضُ، والنَّفْسُ؟

الجوابُ: لأنَّ الاستدلالَ على الغائِبِ لا يمكِنُ إلَّا بالشَّاهِدِ، والشَّاهِدُ ليس إلَّا العالَمَ الجُسْمانيَّ، وهو قِسمانِ: بَسيطٌ، ومُركَّبٌ، والبسيطُ قِسمانِ: العُلويَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والسُّفْليَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، والمركَّبُ هو أقسامٌ، وأشرَفُها ذواتُ الأنفُسِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

سَوَّىٰهَا ﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ في المؤمِنِ التَّقْوى، وفي الكافِرِ الفُجورَ[٢]، وفيه الرَّدُّ على القَدَريَّةِ[٣]. فالآية فيها دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَجعَلُ الفُجورَ والتَّقوى في القلْبِ، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ فُجورَ العبْدِ وتَقواهُ باختيارِه ومَشيئتِه، كقولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]، ونحْوِ ذلك، وقد ضلَّ في هذه المسألةِ القَدَريَّةُ والجَبْريَّةُ؛ أمَّا القَدَريَّةُ فضَلُّوا بالتَّفريطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ يَخلُقُ عمَلَ نفْسِه استقلالًا مِن غيرِ تأثيرٍ لقُدرةِ اللهِ فيه! وأمَّا الجَبْريَّةُ فضَلُّوا بالإفراطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ لا عمَلَ له أصلًا حتَّى يُؤاخَذَ به! وأمَّا أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فلم يُفرِّطوا ولم يُفرِطوا، فأثْبَتوا للعبْدِ أفعالًا اختياريَّةً -ومِن الضَّروريِّ عندَ جَميعِ العُقلاءِ أنَّ الحَرَكةَ الارتعاشيَّةَ لَيستْ كالحركةِ الاختياريَّةِ- وأثْبَتوا أنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شَيءٍ؛ فهو خالِقُ العبْدِ، وخالِقُ قُدرتِه وإرادتِه، وتأثيرُ قُدرةِ العبْدِ لا يكونُ إلَّا بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، فالعبْدُ وجَميعُ أفعالِه بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، مع أنَّ العبْدَ يَفعَلُ اختيارًا بالقُدرةِ والإرادةِ اللَّتَينِ خَلَقَهما اللهُ فيه فِعلًا اختياريًّا يُثابُ عليه ويُعاقَبُ[٤].

٧- إذا كان الضَّلالُ في القَدَرِ حَصَلَ تارةً بالتَّكذيبِ بالقَدَرِ والخَلْقِ، وتارةً بالتَّكذيبِ بالشَّرعِ والوعيدِ، وتارةً بتظليمِ الرَّبِّ؛ فإنَّه في هذه السُّورةِ ردٌّ على هذه الطَّوائفِ كلِّها؛ فقولُه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثباتٌ للقَدَرِ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٠).

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وإثباتٌ لفعلِ العبدِ بإضافةِ الفُجورِ والتَّقوى إلى نَفْسِه؛ لِيُعلَمَ أنَّها هي الفاجرةُ والمتَّقيةُ؛ وإثباتٌ للتَّفريقِ بيْن الحَسَنِ والقبيحِ، والأمرِ والنَّهيِ بقَولِه: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ إثباتٌ لِفعلِ العبدِ والوَعدِ والوعيدِ بفلاحِ مَن زَكَّى نفْسَه، وخَيبةِ مَن دَسَّاها، وهذا صريحٌ في الرَّدِّ على القَدَرِيَّةِ المجوسيَّةِ، وعلى الجَبْرِيَّةِ، وأمَّا المظلِّمون للخالقِ فإنَّه قد دلَّ على عدْلِه بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، والتَّسويةُ: التَّعديلُ؛ فبَيَّنَ أنَّه عادِلٌ في تسويةِ النَّفْسِ الَّتي ألهَمَها فُجورَها وتَقْواها[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تُسَمَّى زكاةً، فكلُّ ما تَزكو به النُّفوسُ مِن مالٍ أو عَمَلٍ فهو زكاةٌ شَرْعًا، لكنْ تُطلَقُ الزَّكاةُ أيضًا على المعنى الخاصِّ، أي: أنَّه يُرادُ بها بَعضُ معانيها كما في قَولِنا: زكاةُ المالِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

- الغَرَضُ مِن هذه السُّورةِ تَهديدُ المشرِكين بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصيبَهم عَذابٌ بإشراكِهم وتَكذيبِهم برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما أصاب ثَمودَ بإشراكِهم وعُتُوِّهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي دَعاهم إلى التَّوحيدِ. وقُدِّمَ لذلك تأكيدُ الخبَرِ بالقسَمِ بأشياءَ مُعظَّمةٍ، وذُكِرَ مِن أحوالِها ما هو دَليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ تعالَى الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه؛ فهو دَليلٌ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٨٧).

على أنَّه المنفرِدُ بالإلهيَّةِ، والَّذي لا يَستحِقُّ غيرُه الإلهيَّةَ، وخاصَّةً أحوالَ النُّفوسِ ومَراتِبَها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ، والسَّعادةِ والشَّقاءِ(١).

- والقسَمُ لتَأكيدِ الخبَرِ، والمقصودُ بالتَّأكيدِ هو ما في سَوقِ الخبَرِ من التَّعريضِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالاستئصالِ، وكلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ، والسَّماءِ والأرضِ، ونفْسِ الإنسانِ؛ مِن أعظَمِ مَخلوقاتِ اللهِ -ذاتًا ومعنًى- الدَّالَّةِ على بَديعِ حِكمتِه، وقَويِّ قُدرتِه، وكذلك كلٌّ مِن الضُّحى، وتُلُوِّ القمَرِ الشَّمسَ، والنَّهارِ، واللَّيلِ؛ مِن أدَقِّ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ تعالَى، ومُهِّدَ لذلك بالتَّنبيهِ على أنَّ تَزكيةَ النَّفْسِ سَببُ الفَلاحِ، وأنَّ التَّقصيرَ في إصلاحِها سَببُ الفُجورِ والخُسرانِ(٢).

- وابتُدِئَ بالشَّمسِ لمُناسَبةِ المَقامِ إيماءً للتَّنويهِ بالإسلامِ؛ لأنَّ هَدْيَه كنُورِ الشَّمسِ لا يَترُكُ للضَّلالِ مَسلَكًا. وفيه إشارةٌ إلى الوعْدِ بانتِشارِه في العالَمِ كانتشارِ نُورِ الشَّمسِ في الأُفقِ. وأُتبِعَ بالقمَرِ؛ لأنَّه يُنيرُ في الظَّلامِ كما أنارَ الإسلامُ في ابتداءِ ظُهورِه في ظُلْمةِ الشِّركِ. ثمَّ ذُكِرَ النَّهارُ واللَّيلُ معه؛ لأنَّهما مَثَلٌ لوُضوحِ الإسلامِ بعْدَ ضَلالةِ الشِّركِ، وذلك عكْسُ ما في سُورةِ اللَّيلِ(٣).

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ التُّلُوُّ: التَّبَعُ، وأُريدَ به خَلْفُ ضَوئِه في اللَّيلِ ضَوءَ الشَّمسِ، أي: إذا ظَهَرَ بعْدَ مَغيبِها، فكأنَّه يَتبَعُها في مَكانِها. والقمَرُ يَتبَعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كَثيرةٍ، وهو أيضًا يُضِيءُ في أكثَرِ لَيالي الشَّهرِ، جَعَلَه اللهُ عِوَضًا عن الشَّمسِ في عِدَّةِ لَيالٍ في الإنارةِ؛ ولذلك قُيِّدَ القسَمُ بحِينِ تُلُوِّه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

لأنَّ تُلُوَّه للشَّمسِ حينَئذٍ تَظهَرُ منه مَظاهِرُ التُّلُوِّ للنَّاظِرينَ، فهذا الزَّمانُ مِثلُ زَمانِ الضُّحى في القسَم به، فكان بمَنزلةِ قسَمٍ بوَقْتِ تُلوِّه الشَّمسَ، فحَصَلَ القسَمُ بذاتِ القمَرِ وبتُلوِّه الشَّمسَ.

وأيضًا ابتُدِئَ القسَمُ بالشَّمسِ وأضوائِها الثَّلاثةِ الأصليَّةِ والمُنعكِسةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ أعظَمُ النَّيِّراتِ الَّتي يَصِلُ نُورٌ شَديدٌ منها للأرضِ، ولِما في حالِها وحالِ أضوائِها مِن الإيماءِ إلى أنَّها مَثَلٌ لظُهورِ الإيمانِ بعْدَ الكُفْرِ، وبَثِّ التَّقْوى بعْدَ الفُجورِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ تُمثَّلُ بالظُّلمةِ، والإيمانَ والطَّاعاتِ تُمثَّلُ بالضِّياءِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٦]. وأُعقِبَ القسَمُ بالنَّهارِ بالقسَمِ باللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ مُقابِلُ وَقْتِ النَّهارِ، فهو وَقْتُ الإظلامِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ الضَّميرُ المُؤنَّثُ في قولِه: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ عائدٌ إلى الشَّمسِ، فمعْنى تَجْليةِ النَّهارِ الشَّمسَ وَقْتُ ظُهورِ الشَّمسِ، والقسَمُ إنَّما هو بالنَّهارِ؛ لأنَّه حالةٌ دالَّةٌ على دَقيقِ نِظامِ العالَمِ الأرضيِّ. وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الأرضِ، أي: أضاء الأرضَ فتَجلَّت للنَّاظِرينَ؛ لظُهورِ المقصودِ، كما يُقالُ عندَ نُزولِ المطَرِ: أرسَلَتْ، يَعْنون: أرْسَلَت السَّماءُ ماءَها، وقُيِّدَ القسَمُ بالنَّهارِ بقيْدِ وَقتِ التَّجليةِ؛ إدماجًا للمِنَّةِ في القسَمِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ تَقييدُ القسَمِ بالظُّروفِ الثَّلاثةِ ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، أي: مُقسَمًا بكلِّ واحدٍ مِن هذه الثَّلاثةِ في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦ - ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بوقتِ تَغشيَتِه تَذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ(١).

- قيل: لَمَّا كانت الفواصلُ تَرتَّبَت على ألِفٍ وهاءِ المُؤنَّثِ، أتى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ بالمُضارِعِ؛ لأنَّه الَّذي تَرتَّب فيه، ولو أتَى بالماضي -كالذي قبْلَه وبعْدَه- كان يكونُ التَّركيبُ: (إذا غَشِيَها)، فتَفوتُ الفاصلةُ، وهي مَقصودةٌ(٢).

- ومُناسَبةُ استِحضارِ السَّماءِ عَقِبَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمَرِ، واستِحضارِ الأرضِ عَقِبَ ذِكرِ النَّهارِ واللَّيلِ؛ واضحةٌ. ثمَّ ذُكِرَت النَّفْسُ الإنسانيَّةُ؛ لأنَّها مَظهَرُ الهُدى والضَّلالِ، وهو المقصودُ(٣).

- قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وإنَّما أُوثِرَت على (مَن)؛ لإرادةِ معْنى الوَصفيَّةِ تَفخيمًا(٤)!

- قولُه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نُكِّرَت النَّفْسُ لوُجوهٍ؛ أحدُها: أنْ يُريدَ نفْسًا خاصَّةً مِن بيْنِ النُّفوسِ، وهي نفْسُ آدَمَ، كأنَّه قال: وَواحدةٍ مِن النُّفوسِ، والثَّاني: أنْ يُريدَ كلَّ نفْسٍ، ويُنكَّرُ للتَّكثيرِ، والثَّالثُ: نُكِّرَت للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فنُكِّرَ لَفظُ (نفْس) دونَ بَقيَّةِ ما أُقسِمَ به؛ لأنَّه لا سَبيلَ إلى لامِ الجِنسِ الدَّاخلةِ لنفْسِ غيرِ الإنسانِ، مع أنَّها ليستْ مُرادةً؛ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾، ولا إلى لامِ العهْدِ؛ إذ ليس المرادُ نفْسًا واحدةً مَعهودةً، وبتَقديرِ أنَّه أُريدَ بها آدَمُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٢٢).

فالتَّنكيرُ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[١].

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على ﴿سَوَّاهَا﴾، فهو مُقسَمٌ به، وفِعلُ (أَلْهَمَها) في تأويلِ مَصدَرٍ؛ لأنَّه مَعطوفٌ على صِلةِ (ما) المَصدريَّةِ -على قولٍ-، وعُطِفَ بالفاءِ؛ لأنَّ الإلهامَ ناشئٌ عن التَّسويةِ[٢].

- وتَعديةُ الإلهامِ إلى الفُجورِ والتَّقْوى في هذه الآيةِ، مع أنَّ اللهَ أعلَمَ النَّاسَ بما هو فُجورٌ وما هو تَقْوى بواسطةِ الرُّسلِ؛ باعتبارِ أنَّه لولا ما أودَعَ اللهُ في النُّفوسِ مِن إدراكِ المعلوماتِ على اختلافِ مَراتبِها، لَما فَهِموا ما تَدْعوهم إليه الشَّرائعُ الإلهيَّةُ، فلولا العُقولُ لَما تَيسَّرَ إفهامُ الإنسانِ الفُجورَ والتَّقوى، والعِقابَ والثَّوابَ[٣].

- وتَقديمُ الفُجورِ على التَّقوى مُراعًى فيه أحوالُ المُخاطَبينَ بهذه السُّورةِ، وهم المشرِكون، وأكثَرُ أعمالِهم فُجورٌ ولا تَقْوى لهم، والتَّقوى صِفةُ أعمالِ المسلمينَ، وهم قليلٌ يومَئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ الجُملةُ جَوابُ القسَمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وحُذِفَت اللَّامُ -فلم يقلْ: (لقَدْ)-؛ لطُولِ الكلامِ، كأنَّه لَمَّا أراد به الحثَّ على تَكميلِ النَّفْسِ والمُبالَغة فيه، أقسَمَ عليه بما يَدُلُّهم على العِلمِ بوُجودِ الصانعِ، ووُجوبِ ذاتِه، وكَمالِ صِفاتِه الَّذي هو أقْصى درَجاتِ القوَّةِ النَّظريَّةِ، ويُذكِّرُهم عَظائمَ آلائِه؛ ليَحمِلَهم على الاستِغراقِ في شُكرِ نَعمائِه الَّذي هو مُنْتهى كَمالاتِ القوَّةِ العمَليَّةِ؛ فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾ [الشمس: ١١]، كلامًا تابعًا على سَبيلِ الاستطرادِ لقولِه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ فإنَّ الطُّغيانَ أعظَمُ أنواعِ التَّدسيةِ. وقيل: هو استطرادٌ بذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّفْسِ، وليس مِن جَوابِ القسَمِ في شَيءٍ، والجوابُ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ على كفَّارِ مكَّةَ لتَكذيبِهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لتَكذيبِهم صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ استطرادًا لجوابِ القسَمِ على طَريقِ التَّشبيهِ[1].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن القسَمِ والجَوابِ لمُناسَبةِ ذِكرِ إلهامِ الفُجورِ والتَّقوى، أي: أفلَحَ مَن زكَّى نفْسَه واتَّبَعَ ما ألْهَمَه اللهُ مِن التَّقوى، وخاب مَن اختارَ الفُجورَ بعْدَ أنْ أُلهِمَ التَّمييزَ بيْن الأمْرَينِ بالإدراكِ والإرشادِ الإلهيِّ. وهذه الجُملةُ تَوطئةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾ [الشمس: ١١]؛ فإنَّ ما أصاب ثَمودَ كان مِن خَيبتِهم؛ لأنَّهم دسُّوا أنفُسَهم بالطَّغوى، وقُدِّمَ الفلاحُ على الخَيبةِ لمُناسَبةِ التَّقوى، وأُردِفَ بخَيبةِ مَن دسَّى نفْسَه؛ لتَهيئةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧).

الانتقالِ إلى المَوعظةِ بما حَصَلَ لثَمودَ مِن عِقابٍ على ما هو أثَرُ التَّدْسيةِ[١].

- وتَكريرُ (قَدْ) في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِه، والإيذانِ بتَعلُّقِ القسَمِ به أيضًا أصالةً[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

الآيات (١١-١٥)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِطَغْوَاهَا﴾: أي: بِطُغْيانِها، والطَّغْوى: اسمٌ مِن الطُّغْيانِ، وأصْلُه مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[١].

﴿انْبَعَثَ﴾: أي: نَهَض، وخَرَج بسُرعةٍ ونَشاطٍ، والانبِعاثُ هو الإسْراعُ في الطَّاعةِ للباعِثِ، وأصلُ (بعث): الإثارةُ[٢].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: نَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرْحِ شَيْءٍ[٣].

﴿فَدَمْدَمَ﴾: أي: دَمَّر عليهم وأهلَكَهم، والدَّمْدَمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ، ودَمدَمَ مُكَرَّرُ دَمَّ؛ للمُبالَغةِ، وأصلُ (دمم): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ، ومنه الدَّمْدَمة

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعير بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه، وغلَب إطلاقُه على قتلِ البعيرِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

بمعنى الإهلاكِ، وذلك لِمَا غَشَّاهم به مِن العذابِ، والإهلاكِ[(١)].

﴿عُقْبَٰهَا﴾: أي: عاقِبَتَها وتَبِعَتَها، وأصلُ (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بَعْدَ غَيرِه[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: مَنصوبٌ على التَّحذيرِ بفِعلٍ محذوفٍ، أي: احْذَروا ناقةَ اللهِ، وجملةُ «احذَروا ناقةَ اللهِ» في محَلِّ نَصبٍ مَقولُ القَولِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما حَلَّ بالمكَذِّبينَ السَّابِقينَ: كذَّبتْ ثَمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغْيانِهم، حينَ نَهَض أشقى قَومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ، فقال لهم رَسولُهم صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يَومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نصيبًا لها، فكَذَّبوا نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا، فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ، ولا يَخافُ اللهُ سُبحانَه ما يكونُ مِن عاقِبةِ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٢٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٤٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ۝١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى خَيبةَ مَن دَسَّى نَفْسَه؛ ذكَرَ فِرقةً فعَلَت ذلك؛ ليُعتبَرَ بهم[١].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ۝١١﴾.

أي: كذَّبت ثمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾.

أي: حينَ نَهَض أشقى قومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ الَّتي جعَلَها اللهُ آيةً عَظيمةً لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).

قال الشوكاني: (﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ العامِلُ في الظَّرفِ ﴿كَذَّبَتْ﴾، أو ﴿بِطَغْوَاهَآ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧).

بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ النَّاقةَ، وذكَرَ الَّذي عقَرَها، فقال: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾: انبَعَثَ بها رجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِه، مِثلُ أبي زَمْعةَ[1]))[2].

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: فقال لهم رَسولُ اللهِ صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تَمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نَصيبًا لها[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨].

---

(١) العَزيزُ: الغالِبُ القَليلُ المِثْلِ. والعارِمُ: الجَبَّارُ الصَّعْبُ على مَن يُريدُه. والمَنيعُ في رَهْطِه: المُمتَنِعُ بسُلطانِه وعَشيرتِه. وأبو زَمْعةَ: هو الأَسوَدُ بنُ المُطَّلِبِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى، وهو جَدُّ عَبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ بنِ الأسودِ؛ راوي الحديثِ المَذْكورِ، وكان الأَسْوَدُ أحدَ المُستَهزئينَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومات على كُفرِه بمكَّةَ، وقُتِلَ ابنُه زَمْعةَ يومَ بَدرٍ كافرًا أيضًا. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٧/ ٤٢٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٢)، ومسلمٌ (٢٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي: فكَذَّب كُفَّارُ ثمودَ نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

أي: فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ؛ فلم يَنْجُ منهم أحَدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).
قال ابنُ جريرٍ: (فكَذَّبوا صالحًا في خبرِه الَّذي أخبَرَهم به مِن أنَّ اللهَ الَّذي جعَل شِرْبَ النَّاقةِ يومًا، ولهم شِرْبُ يومٍ معلومٍ، وأنَّ اللهَ يُحِلُّ بهم نِقمَتَه إنْ هم عَقَروها... وقد يحتَمِلُ أن يكونَ التَّكذيبُ بالعَقْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩).
وقال الواحِديُّ: (فكَذَّبوه بتَحذيرِه إيَّاهم العَذابَ بعَقْرِها، فعَقَروها). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٠).
وقال ابنُ كثيرٍ: (كَذَّبوه فيما جاءهم به؛ فأعقَبَهم ذلك أنْ عَقَروا النَّاقةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤، ٢٢٥).
قال ابنُ جُزَي: (﴿فَدَمْدَمَ﴾ عبارةٌ عن إنزالِ العَذابِ بهم، وفيه تهويلٌ بِذَنْبِهم، أي: بسَبَبِ ذَنْبِهم، وهو التَّكذيبُ أو عَقْرُ النَّاقةِ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ قال ابنُ عَطيَّةَ: معناه: فسَوَّى القَبيلةَ في الهلاكِ، لم يُفلِتْ أحَدٌ منهم. وقال الزَّمَخْشريُّ: الضَّميرُ للدَّمْدَمةِ، أي: سوَّاها بيْنَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ١٥﴾.

أي: ولا يَخافُ اللهُ ما يكونُ مِن عاقِبةِ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ[1].

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذه الدَّمْدَمةِ صوتُ الصَّاعقةِ والرَّجفةِ الَّتي أُهلِكوا بها... وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: دَمْدَمَ عليهم: أطبَقَ عليهم الأرضَ... ومَن فَسَّروا «دَمْدَمَ» بمعنى: أطبَقَ عليهم الأرضَ، قالوا: معنى «سَوَّاها»: جعَلَ الأرضَ مُستويةً عليهم، لا تظهَرُ فيها أجسادُهم ولا بلادُهم، وجعَلوا ضميرَ المؤنَّثِ عائدًا إلى الأرضِ المفهومةِ مِن فِعْلِ «دمدم»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: فسَوَّى بيْنَهم في الهلاكِ، قاله السُّدِّيُّ، ويحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: فسوَّى بهم الأرضَ، ذكَرَه ابنُ شَجَرةَ. ويحتَمِلُ ثالثًا: فسوَّى مَن بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشريُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابنُ عثُيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (قَولُه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ يعني: فسَوَّى بيوتَهم على قُبورِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾ تخويفٌ مِن عاقِبةِ الذُّنوب[1]، وإنذارٌ عَظيمٌ بعاقِبةِ الذَّنْبِ، فعلى كلِّ مُذنبٍ أنْ يَعتبِرَ ويَحذَرَ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالنَّاقةِ والبيتِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أنَّ القومَ

= قال ابنُ كثير: (قال ابنُ عبَّاس: لا يَخافُ اللهُ مِن أحَدٍ تَبِعةً. وكذا قال مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وبَكرُ ابنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ، وغيرُهم. وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي: لم يخَفِ الَّذي عَقَرها عاقبةَ ما صنَعَ. والقَولُ الأوَّلُ أَوْلى؛ لدَلالةِ السِّياقِ عليه. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

لَمَّا كانوا راضِينَ، ونادَوا العاقِرَ فعقَرَها وَحْدَه؛ كان هذا باسمِ الجَميعِ[١]، فكانت العقوبةُ باسمِ الجَميعِ، ويؤخَذُ مِن هذا قَتْلُ الجماعةِ بالواحِدِ، وعقوبةُ الرَّبيئةِ[٢] مع الجاني[٣].

٣- الإنسانُ يُصابُ بالمصائبِ مِن عندِ نفْسِه؛ لهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾، أي: بسبَبِ ذَنْبِهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾

- إنْ كانت جُملةُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ...﴾ [الشمس: ٩] إلخ مُعترِضةً، كانتْ جُملةُ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ جَوابًا للقَسَمِ باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليها بقولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾، أي: حقًّا لقدْ كان ذلِك لذلِك. ولامُ الجوابِ مَحذوفٌ تَخفيفًا لاستِطالةِ القسَمِ، والمَقصودُ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشركين الَّذين كذَّبوا الرَّسولَ طُغيانًا هم يَعلَمونه مِن أنفُسِهم، كما كذَّبَت ثَمودُ

---

(١) يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣٩٤).

(٢) الرَّبِيئة: هو العَينُ والطَّليعةُ الَّذي يَنظُرُ للقَومِ؛ لئَلَّا يَدهَمَهم عَدُوٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (اللهُ مَرَّةً نَسَب العَقْرَ إلى واحِدٍ، وهو قولُه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، وتارةً نسَبَ العَقْرَ إلى الجَميعِ؛ قالوا: لأنَّهم كُلَّهم متمالِئون، وأنَّه لم يذهَبْ لعَقْرِها حتَّى اتَّفق جميعُهم، حتَّى إنَّه لَيستأذِنُ المرأةَ في خِدْرِها، فتقولُ: نعم. فوافقوا جميعًا على عَقْرِها، والمتمالِئونَ على شَيءٍ المتَّفِقون عليه، كأنَّهم فَعَلوه كُلُّهم، وإنْ كان المباشِرُ واحِدًا منهم. هكذا قاله بعضُ العُلَماءِ، مع أنَّ عادةَ اللُّغةِ العرَبيَّةِ إسنادُ الفِعْلِ للنَّاسِ وفاعِلُه بَعْضُهم، وهو معروفٌ في كلامِ العَرَبِ، وكثيرٌ في القُرآنِ العظيم). ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

رَسولَهم طُغيانًا، وذلك هو المحتاجُ إلى التَّأكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ المشرِكين لم يَهْتَدوا إلى أنَّ ما حلَّ بثَمودَ مِن الاستِئصالِ كان مِن أجْلِ تَكذيبِهم رَسولَ اللهِ إليهم، فنَبَّهَهم اللهُ بهذا ليَتدبَّروا، أو لتَنزيلِ عِلْمِ مَن عَلِمَ ذلك منهم مَنزلةَ الإنكارِ؛ لعدمِ جَرْيِ أمْرِهم على مُوجَبِ العِلمِ، فكأنَّه قيل: أُقسِمُ لَيُصيبُكم عَذابٌ كما أصاب ثَمودَ. وإنْ كانت جُملةُ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جَوابَ القسَمِ، فجُملةُ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ في مَوقعِ الدَّليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خاب كخَيبةِ ثَمودَ[(١)].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما ذُكِرَ مِن فَلاحِ مَن زكَّى نفْسَه، أو زكَّاها اللهُ، وخَيْبةِ مَن دسَّى نفْسَه أو دسَّاها اللهُ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ فيه تَعريضٌ بتَنظيرِ مُشرِكي قُرَيشٍ في تَكذيبِهم بثَمودَ في أنَّ سَببَ تَكذيبِهم هو الطُّغيانُ والتَّكبُّرُ عن اتِّباعِ مَن لا يَرَون له فضْلًا عليهم[(٣)].

- ومَفعولُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه بعْدَه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: كذَّبوا رسولَ اللهِ[(٤)].

- وكلٌّ مِن الطَّغوى والطُّغيانِ مَصدرٌ، والطُّغيانُ: فَرْطُ الكِبْرِ، لكنِ اختِيرَ التَّعبيرُ بالطَّغْوى؛ لأنَّه أشبَهُ برُؤوسِ الآيِ[(٥)].

- قولُه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ (إذْ) مُضافٌ إلى جُملةِ ﴿ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾، وقُدِّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

ذِكرُ هذا الظَّرفِ عن مَوقعِه بعْدَ قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ انبعاثَ أشْقاها لعقْرِ النَّاقةِ جُزئيٌّ مِن جُزئيَّاتِ طَغْواهم، فهو أشدُّ تعلُّقًا بالتَّكذيبِ المُسبَّبِ عن الطَّغْوى، ففي تَقديمِه قَضاءٌ لحقِّ هذا الاتِّصالِ، ولإفادةِ أنَّ انْبعاثَ أشْقاهُم لعقْرِ النَّاقةِ كان عن إغراءٍ منهم إيَّاه، ولا يَفوتُ مع ذلك أنَّه وقَعَ بعْدَ أنْ قال لهم رسولُ اللهِ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، ويُستفادُ أيضًا مِن قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[(١)].

- والتَّفضيلُ في الشَّقاوةِ ﴿أَشْقَىٰهَا﴾؛ لأنَّ مَن تَولَّى العَقْرَ وباشَرَه كانت شَقاوتُه أظهَرَ وأبلَغَ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

- الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطِفةٌ على ﴿كَذَّبَتْ﴾، فتُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، ويكونُ معْنى الكلامِ: كذَّبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَحدَّاهم بآيةِ النَّاقةِ، وحذَّرَهم مِن التَّعرُّضِ لها بسُوءٍ، ومِن مَنْعِهم شُرْبَها في نَوبتِها مِن السُّقيا. وعُطِفَ عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فيما أنْذَرَهم به، فعَقَروها بالتَّكذيبِ المذكورِ أوَّلَ مرَّةٍ غيرِ التَّكذيبِ المذكورِ ثانيًا، وهذا يَقْتضي أنَّ آيةَ النَّاقةِ أُرسِلَت لهم بعْدَ أنْ كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آياتِ الرُّسلِ، وهو ظاهرُ ما جاء في سُورةِ (هُودٍ)، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكريِ المُجرَّدِ، وهي تُفيدُ عطْفَ مُفصَّلٍ على مُجمَلٍ، فيكونَ المعْنى: كذَّبَت ثَمودُ بطَغْواها إذ انبَعَث أشْقاها، ثمَّ فُصِّلَ ذلك بقولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والعقْرُ عندَ انبعاثِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣).

وعلى القولِ بأنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ المجرَّدِ؛ فلا ضرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تأخيرٍ كما سيأتي.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).

أشْقاها، وعليه فلا ضَرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تَأخيرٍ[١].

- وأُعِيدَت عليهم ضَمائرُ الجمْعِ باعتِبارِ أنَّهم جمْعٌ، وإنْ كانت الضَّمائرُ قبْلَه مُراعًى فيها أنَّ ثَمودَ اسمُ قَبيلةٍ[٢].

- وعُبِّرَ عن صالحٍ عليه السَّلامُ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بوُجوبِ طاعتِه، وبَيانًا لغايةِ عُتُوِّهم وتَماديهم في الطُّغيانِ، وهو السِّرُّ في إضافةِ النَّاقةِ إلى اللهِ تعالَى في قولِه تعالَى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾[٣].

وأيضًا إضافةُ (ناقة) إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّها آيةٌ جَعَلَها اللهُ على صِدقِ رِسالةِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولأنَّ خُروجَها لهم كان خارقًا للعادةِ[٤].

- والسُّقيا: اسمُ مَصدرِ (سَقى)، وهو مَعطوفٌ على التَّحذيرِ، أي: احْذَروا سَقْيَها، أي: احْذَروا غضْبَ سَقْيِها؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ. أو أُطلِقَ السُّقيا على الماءِ الَّذي تُسْقى منه إطلاقًا للمصدرِ على المفعولِ، فيَرجِعُ إلى إضافةِ الحُكمِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ: حالةٌ تُعرَفُ مِن المَقامِ؛ فإنَّ مادَّةَ سُقْيا تُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ التَّحذيرُ مِن أنْ يَسْقوا إبلَهم مِن الماءِ الَّذي في يومِ نَوبتِها[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾

- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ التَّكذيبُ المُعقَّبُ به تَحذيرُه إيَّاهم بقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ تكذيبٌ ثانٍ، وهو تكذيبُهم بما اقتضاهُ التَّحذيرُ من الوعيدِ والإنذار بالعَذابِ إنْ لم يَحذَروا الاعتداءَ على تلك النَّاقةِ، وهو المُصرَّحُ به في آيةِ سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٧٣]، وبهذا الاعتبارِ استَقامَ التَّعبيرُ عن مُقابَلةِ التَّحذيرِ بالتَّكذيبِ، مع أنَّ التَّحذيرَ إنشاءٌ، فالتَّكذيبُ إنَّما يَتوجَّهُ إلى ما في التَّحذيرِ مِن الإنذارِ بالعذابِ(١).

- والعقْرُ: جَرْحُ البَعيرِ في يَدَيه ليَبرُكَ على الأرضِ مِن الألَمِ، فيُنحَرَ في لَبَّتِه(٢)؛ فالعقْرُ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن النَّحرِ؛ لتَلازُمِهما(٣).

- وأُسنِدَ العقْرُ للجماعةِ؛ لكَونِهم راضينَ به، ومُتمالِئينَ عليه(٤)، فلمَّا رَضُوا بذلك كانوا كالفاعِلينَ له، فنُسِب التَّكذيبُ والعَقرُ إلى جميعِهم(٥).

- و(دمْدَمَ) مُكرَّرُ (دَمَ)؛ للمُبالَغةِ، مِثلُ كَبْكَبَ، أي: أطْبَقَ عليهم العذابَ مُكرَّرًا(٦).

- والباءُ ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: بسَببِ ذَنْبِهم، والتَّصريحُ بذلكَ مع دَلالةِ الفاءِ عليهِ؛ للإنذارِ بعاقِبةِ الذَّنْبِ؛ ليَعتبِرَ به كلُّ مُذنبٍ(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).
(٢) لَبَّةُ البَعِيرِ: مَوضِعُ نَحْرِه، والنَّحْرُ في اللَّبَّةِ كالذَّبحِ في الحَلْقِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).
(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٣٠٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٨).

- والعُقْبى: ما يَحصُلُ عَقِبَ فِعلٍ مِن الأفعالِ مِن تَبِعةٍ لفاعِلِه أو مَثُوبةٍ، ولَمَّا كان المذكورُ عِقابًا وغَلَبةً، وكان العُرفُ أنَّ المغلوبَ يُكنِّي في نفْسِه الأخْذَ بالثَّأرِ مِن غالِبِه، فلا يَهدَأُ له بالٌ حتى يَثأَرَ لنفْسِه؛ أخبَرَ اللهُ أنَّه الغالِبُ الَّذي لا يَقدِرُ مَغلوبُه على أخْذِ الثَّأرِ منه، وهذا كِنايةٌ عن تَمكُّنِ اللهِ مِن عِقابِ المشرِكين، وأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم إمهالٌ لهم وليس عن عجْزٍ، فجُملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وإيذانٌ بالختامِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ تَمثيلًا لحالِهم في الاستِئصالِ بحالِ مَن لم يَترُكْ مَن يَثأَرُ له، فيكونَ المثَلُ كِنايةً عن هَلاكِهم على بَكرةِ أبيهم لم يَبْقَ منهم أحدٌ[1].

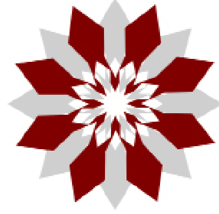
- وعلى قِراءةِ ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ -بفاءِ العطْفِ[2]- تَفريعًا على ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ - فمعْنى التَّفريعِ بالفاءِ على هذه القِراءةِ تَفريعُ العِلمِ بانتفاءِ خَوفِ اللهِ منهم مع قُوَّتِهم؛ لِيَرتَدِعَ بهذا العِلمِ أمثالُهم مِن المشرِكين[3].

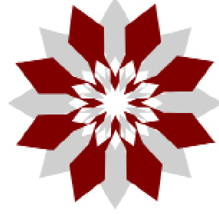


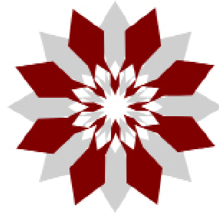
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) قرأ بها نافعٌ، وأبو جعفر، وابنُ عامر. وقرأ الباقونَ بالواو: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٥٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٦).

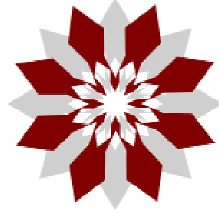


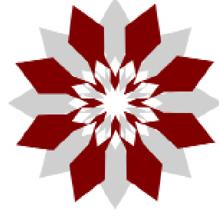


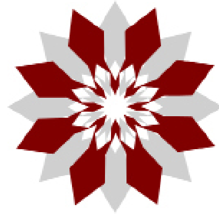


تَفْسِيرُ

سُورَةِ اللَّيلِ







سُورةُ اللَّيلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (اللَّيلِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾.

وسُمِّيَت كذلك بسُورةِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[(١)]:

فعن جابرٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفَتَّانٌ أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[(٢)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ اللَّيلِ مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٤)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ البَونِ بيْنَ حالِ المؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٥)].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وقيل: مَدَنيَّةٌ، وقيل: فيها مَدَنيٌّ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦١).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على تَفاوُتِ حالِ الخَلْقِ في الإساءةِ والإحسانِ.

٢- بيانُ شَرَفِ المؤمِنينَ وفَضائِلِ أعمالِهم، ومَذَمَّة المُشرِكينَ وسُوءِ أعمالِهم، وجزاءِ كُلٍّ منهم.

٣- أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتَّذكيرِ بالحَقِّ، وأنَّ عاقِبةَ المكَذِّبينَ النَّارُ، وأنَّ المتَّقينَ يَنجونَ منها.



الآيات (١-١١)

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا
مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ
بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغۡشَىٰ﴾: يُغطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ(١).

﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: ظهَرَ وأضاءَ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ وبُروزِه(٢).

﴿لَشَتَّىٰ﴾: أي: مختَلِفٌ، جمْعُ شَتِيتٍ، مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، يُقالُ: شَتَّ جَمْعُهم، إذا تَفرَّقوا، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ(٣).

﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وقيلَ غَيرُ ذلك، والحُسْنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، وهو عِبارةٌ عن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: اليُسْرَى فُعلَى من اليُسْرِ، وهو ضدُّ العسرِ، وأصلُ (يسر) هنا: يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وَخِفَّتِه[(١)].

﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾: مِن العُسرِ، وهو نَقيضُ اليُسْرِ، وأصلُ (عسر): يَدُلُّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ[(٢)].

﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: أي: ماتَ، أو هلَك وسَقَط في جَهنَّمَ، وهو تَفَعَّل، مِنَ الرَّدى: وهو الهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَمْيٍ وما أشْبَهَه[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا باللَّيلِ إذا غَطَّى بظَلامِه كلَّ شَيءٍ، وبالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر، وباللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه- على أنَّ أعمالَكم -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، والمطيعُ والعاصي.

ثمَّ فصَّل الله سبحانَه ما أجملَه، فقال: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه في سَبيلِ اللهِ، واتَّقى اللهَ، وصدَّق بالجنَّةِ؛ فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ، وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه، واستَغْنى عن رَبِّه سُبحانَه، وكذَّبَ بالجنَّةِ؛ فسنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ، وما يَنفَعُه مالُه إذا هوى في جهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨، ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ باللَّيلِ وهو يُغطِّي بظَلامِه الخلائقَ[1].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي، ولم يَذكُرْ معه مفعولًا؛ للعِلمِ به. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: الأرضَ. وقيل: الخلائِقَ. وقيل: يَغشى كُلَّ شَيءٍ بظُلْمتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠).

وممَّن قال: يغشَى النَّهارَ بظَلامِه: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١).

وممَّن قال في الجملة: يُغَطِّي الأرضَ وما فيها بظَلامِه: ابنُ عطيَّة، والعُلَيميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

وممَّن قال: يَغشى الخلائِقَ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال الشَّوكاني: (وقَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي بظُلمتِه ما كان مُضِيئًا. قال الزَّجَّاجُ: يَغشى اللَّيلُ الأُفُقَ وجميعَ ما بيْن السَّماءِ والأرضِ، فيَذهَبُ ضَوءُ النَّهارِ. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: يَغشى الأرضَ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٥).

عن سَعيدِ بنِ جُبَير: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ قال: إذا أقبَلَ فغطَّى كُلَّ شَيءٍ). يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٣٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَم باللَّيلِ إذا يَغْشَى، أقسَمَ بالنَّهارِ إذا تجَلَّى؛ لأنَّ النَّهارَ إذا جاء انكشَفَ بضَوئِه ما كان في الدُّنيا مِن الظُّلْمةِ، وجاء الوَقتُ الَّذي تتحَرَّكُ فيه النَّاسُ لِمَعايشِهم(١).

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر بنُورِه(٢).

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللهِ الَّذي خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القُرطبيُّ: (وفي المرادِ بالذَّكَرِ والأُنْثى قَولانِ؛ أحَدُهما: آدَمُ وحوَّاءُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. الثَّاني: يعني جميعَ الذُّكورِ والإناثِ مِن بني آدَمَ والبهائِمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ جميعَهم مِن ذَكَرٍ وأُنثى مِن نَوعِهم. وقيل: كُلُّ ذكَرٍ وأُنثى مِن الآدَميِّينَ دونَ البهائِمِ؛ لاختِصاصِهم بوَلايةِ اللهِ وطاعتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ، والعُلَيميُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥٥).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّم، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ المُقسَمِ به للمُقسَمِ عليه: أنَّ سَعْيَ النَّاسِ منه خَيرٌ، ومنه شَرٌّ، وهما يُماثِلانِ النُّورَ والظُّلمةَ، وأنَّ سَعْيَ النَّاسِ يَنبثِقُ عن نَتائجَ؛ منها النَّافعُ، ومنها الضَّارُّ، كما يُنتِجُ الذَّكَرُ والأُنثى ذُرِّيَّةً صالحةً وغيرَ صالحةٍ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما هو محسوسُ التَّخالُفِ مِنَ المعاني والأجرامِ، أتْبَعَه ما هو معقولُ التَّبايُنِ مِن الأعراضِ، فقال[٢]:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

أي: إنَّ أعمالَكم الَّتي تجتَهِدونَ فيها -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفَرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، ومنكم المطيعُ والعاصي، ومنكم المُهتَدي والضَّالُّ، ومنكم المخلِصُ والمُرائي، ومنكم المتَّبِعُ والمبتَدِعُ[٣].

= (ص: ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).
وممَّن اختار القَولَ الثَّالِثَ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦-٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعن أبي مالِكٍ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدو؛ فبائِعٌ نَفْسَه فمُعتِقُها، أو مُوبِقُها[1]))[2].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ معنى اختِلافِ الأعمالِ مِن العاقِبةِ المحمودةِ والمذمومةِ، والثَّوابِ والعِقابِ[3].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

أي: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه فأنفَقَه في سَبيلِ اللهِ، وجَعَل بيْنَه وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا يَقيه ذلك[4].

= قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جوابُ القَسَمِ، والكلامُ: واللَّيلِ إذا يغشى إنَّ سَعْيَكم لشَتَّى، وكذا قال أهلُ العِلمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٠).

(١) قال النَّوويُّ: (معناه: كُلُّ إنسانٍ يَسْعى بنَفْسِه؛ فمِنهم مَن يَبيعُها لله تعالى بطاعتِه فيُعتِقُها مِن العذابِ، ومنهم مَن يَبيعُها للشَّيطانِ والهوى باتِّباعِهما، فيُوبِقُها، أي: يُهلِكُها). ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ قال ابنُ مَسْعودٍ: يَعْني: أبا بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنه، وقالَه عامَّةُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾.

أي: وصدَّق بالجنَّةِ الَّتي وعَدَ اللهُ بها المحسِنينَ المتَّقِينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ [الحديد: ١٠، ١١].

وقال سُبحانَه حكايةً عن ذي القرنَينِ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

قال القُرطبيُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلَّا اللهُ، قاله الضَّحَّاكُ، والسُّلَميُّ، وابنُ عبَّاسٍ أيضًا. وقال مجاهِدٌ: بالجنَّة، دليلُه قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] الآيةَ. وقال قَتادةُ: بمَوْعودِ اللهِ الَّذي وَعَده أن يُثيبَه. زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوم. الحسَنُ: بالخَلَفِ مِن عَطائِه، وهو اختيارُ الطَّبَريِّ. وتَقدَّمَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وكلُّه مُتقارِبُ المَعْنى؛ إذْ كلُّه يَرجِعُ إلى الثَّوابِ الَّذي هو الجَنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (قال كَثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ: الحُسْنى: الأجْرُ والثَّوابُ مُجْملًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

وقال الواحِديُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: بالجَنَّة، وثَوابِ اللهِ، والخَلَفِ من اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (التَّصْديقُ بالحُسْنى، وفُسِّرَتْ بلا إلهَ إلَّا اللهُ، وفُسِّرَتْ بالجَنَّة، وفُسِّرَتْ بالخَلَف، وهي أقوالُ السَّلَفِ... والأقوالُ الثَّلاثةُ تَرجِعُ إلى أفضَلِ الأعمالِ وأفضَلِ الجَزاءِ، فمَن فَسَّرَها بلا إلهَ إلَّا اللهُ فقدْ فَسَّرَها بمُفرَدٍ يَأتي بكلِّ جَمْعٍ؛ فإنَّ التَّصْديقَ الحَقيقيَّ بلا إلهَ إلَّا اللهُ يَسْتلزِمُ التَّصديقَ بشُعَبِها وفُروعِها كلِّها. وجَميعُ أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه من شُعَبِ هذه الكَلِمة...، ومَن فَسَّرَ الحُسْنى بالجَنَّةِ فَسَّرَها بأَعْلى أنْواعِ الجَزاءِ وكَمالِه، ومَن فَسَّرَها بالخَلَفِ ذَكَرَ نَوْعًا من الجَزاءِ، فهذا جَزاءٌ دُنْيويٌّ، والجَنَّةُ الجَزاءُ في الآخِرة، فرَجَعَ التَّصْديقُ بالحُسْنى إلى التَّصْديقِ بالإيمانِ وجَزائِه. والتَّحْقيقُ أنَّها تَتَناوَلُ الأمْرَينِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٥٨).

وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴾ [الكهف: ٨٨].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ[١].

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جَنازةٍ، فقال: ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ النَّارِ، ومَقعَدُه من الجنَّةِ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العمَلَ؟! قال: اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فيُيَسَّرُ لعمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشَّقاءِ فيُيَسَّرُ لعمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥ - ١٠]))[٢].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُزَكِّي وثَمرتَه؛ أتْبَعَه المُدَسِّيَ وشِقْوَتَه[٣]:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

أي: وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه فلم يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، واستغنى عن رَبِّه سُبحانَه فلم

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

وقال ابنُ عُثَيْمينَ: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾... في أُمورِه كلِّها؛ في أُمورِ دينِه ودُنْياه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

يَرغَبْ في طاعتِه ولا في ثوابِه(١).

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: وكذَّبَ بالجنَّةِ(٢).

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

قيل: المرادُ: اسْتَغنى عن رَبِّه فلم يَرغَبْ في طاعتِه، وتَرَك عُبوديَّتَه، ورأى أنَّه في غِنًى عن رَحْمتِه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، والسعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: استغنى عن ثَوابِ اللهِ فلم يَرغَبْ فيه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والسَّمْعانيُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠).

وقال الثعلبي: (﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربِّه، فلَمْ يَرغَبْ في ثَوابه). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨).

وذهَبَ البَيْضاويُّ والعُلَيْميُّ إلى أنَّ المَعْنى: اسْتَغنى بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها عن نَعيمِ الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦). =

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أهلُ الدُّنيا إذا وَقَعوا في وَرطةٍ تخَلَّصوا منها بأموالِهم، قال[1]:

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

أي: وما يَنفَعُه مالُه الَّذي بَخِلَ به، وأعرَضَ بسَبَبِه عن اللهِ، إذا هوى في جَهنَّمَ[2].

= قال ابنُ القيِّم: (التَّيسيرُ للعُسْرى يكونُ بأمْرَين؛ أحَدُهما: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْن أسبابِ الخَيرِ، فيَجري الشَّرُّ على قَلْبِه ونيَّتِه، ولِسانِه وجَوارِحِه. والثَّاني: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْنَ الجزاءِ الأيسَرِ كما حال بيْنَه وبيْنَ أسبابِه). ((التبيان)) (ص: ٦٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾... في أمورِه كلِّها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤، ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩).

قال القُرطبي: («مَا»: يحتَمِلُ أن تكونَ جَحْدًا، أي: ولا يُغْني عنه مالُه شَيئًا، ويحتَمِلُ أن تكونَ استفهامًا معناه التَّوبيخُ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يُغْني عنه إذا هلك ووقَع في جهنَّمَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧).

ممَّن اختارَ أنَّ (ما) نافِيةٌ: النَّسَفيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

وممَّن اختارَ أنَّ (ما) استِفْهاميَّةٌ ومعناها: أيُّ شيءٍ: ابنُ جَرير، ومَكِّيٌّ، والنَّيْسابوريُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قال مجاهِدٌ: أي: إذا مات. وقال أبو صالحٍ، ومالِكٌ عن زَيدِ بنِ أسْلَمَ: إذا تَرَدَّى في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١).

مِمَّن اخْتارَ القَوْلَ الأوَّلَ أنَّ ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: ماتَ وهَلَكَ: مَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والقُرْطُبيُّ، والخازِنُ، والنَّيْسابوريُّ، والشَّوْكانيُّ، والسَّعْديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ فأقسَمَ باللَّيلِ وبالنَّهارِ، وفيه التَّنبيهُ على الاعتبارِ بهما في الاستِدلالِ على حِكْمةِ نِظامِ اللهِ في هذا الكَونِ، وبَديعِ قُدْرتِه[(١)].

٢- إنَّ ذِكْرَ العَواقِبِ الحَسَنةِ من أجْلِ الحَثِّ على الطَّاعةِ لا يُنافي الإخلاصَ، وهذا مِنَ الثَّوابِ العاجِلِ، ومِن عاجِلِ بُشْرى المؤمِنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[(٢)].

٣- إذا رأيتَ اللهَ قد يسَّر لك عمَلَ أهلِ السَّعادةِ فأبشِرْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ، فإذا رأيتَ مِن نفْسِك الانقيادَ للصَّلاةِ والزَّكاةِ ولفِعلِ الخَيرِ، وعندَك تقوَى مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاعلَمْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ واستبشِرْ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ

= (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

وممَّن اختارَ القَولَ الثَّانيَ -أي: تَردَّى في النَّارِ وسَقَطَ فيها-: ابنُ جَرير، والسَّمْعانيُّ، والعُلَيْميُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

وممَّن جَمَعَ بَيْنَ المَعْنيينِ السَّابقَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والبِقاعيُّ:

قال مُقاتِلٌ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يعني: إذا ماتَ، وتَردَّى في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعني: ما يَنفَعُه مالُه، إذا ماتَ وتَرَكَه في الدُّنْيا، وهو يَرِدُ إلى النَّارِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩).

وقال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾: أي هَلَكَ بالسُّقوطِ في حُفْرةِ القَبْرِ والنَّارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٩٢).

وقال الماوَرْديُّ: (ويَحتمِلُ ثالِثًا: إذا تَردَّى في ضَلالِه، وهَوى في مَعاصيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٢).

وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وإنْ رأيتَ العَكسَ؛ رأيت نفْسَك تَنشرِحُ بفِعلِ السَّيِّئاتِ -والعياذُ باللهِ-، وتَضِيقُ ذَرْعًا بفِعلِ الطَّاعاتِ؛ فاحذَرْ، وأنقِذْ نفْسَك، وتُبْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّى يُيَسِّرَ اللهُ لك(١).

٤- إنَّ العبدَ إذا وُفِّقَ للانقيادِ للهِ سُبحانَه وتعالى سَهُلَ عليه دِينُه، وصار أيسَرَ عليه مِن كلِّ شَيءٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾(٢).

٥- إنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ مِن العَبدِ نيَّةً صالحةً، وإرادةً للخَيرِ؛ يَسَّرَ له ذلك وأعانه عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بزَمانِ السَّعْيِ -وهو اللَّيلُ والنَّهارُ- وبالسَّاعي -وهو الذَّكَرُ والأُنثى- على اختلافِ السَّعيِ، كما اختلف اللَّيلُ والنَّهارُ والذَّكَرُ والأُنثى، وسَعْيُه وزَمانُه مختَلِفٌ، وذلك دليلٌ على اختلافِ جَزائِه وثوابِه، وأنَّه سُبحانَه لا يُسَوِّي بيْن مَنِ اختلَفَ سَعْيُه في الجزاءِ، كما لم يُسَوِّ بيْن اللَّيلِ والنَّهارِ والذَّكَرِ والأُنثى(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ كانت غالِبةً لضَوءِ النَّهارِ، وأنَّ النَّهارَ يَعقُبُها، والظُّلمةُ هي أصلُ أحوالِ أهلِ الأرضِ وجَميعِ العوالَمِ المرتَبِطةِ بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وإنَّما أضاءت بَعْدَ أن خَلَقَ اللهُ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٨٧).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦).

الشَّمسَ؛ ولذلك اعتُبِرَ التَّاريخُ في البَدءِ باللَّيالي، ثمَّ طَرَأ عليه التَّاريخُ بالأيَّام[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهِينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

الجوابُ عنه مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

الثَّاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها متضَمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ قابَلَ سُبحانَه بيْنَ الذَّكَرِ والأُنثى كما قابَلَ بيْنَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وكلُّ ذلك مِن آياتِ رُبوبيَّتِه؛ فإنَّ إخراجَ اللَّيلِ والنَّهارِ بواسِطةِ الأجرامِ العُلويَّةِ كإخراجِ الذَّكَرِ والأنثى بواسطةِ الأجرامِ السُّفْليَّةِ، فأخْرَجَ مِنَ الأرضِ ذُكورَ الحيوانِ وإناثَه على اختلافِ أنواعِها، كما أخْرَجَ مِن السَّماءِ اللَّيلَ والنَّهارَ بواسطةِ الشَّمسِ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أنَّ الخُنْثى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ أنَّ مِن طَبيعةِ البَشَرِ أنْ يكونَ لهم نَزَعاتٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

مُتبايِنةٌ؛ فمنها نَزَعاتٌ إلى الخَيرِ والحَقِّ، ومنها نَزَعاتٌ إلى الباطِلِ والشَّرِّ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أنَّه لَمَّا كان الدِّينُ يدورُ على ثلاثِ قواعِدَ: فِعْلِ المأمورِ، وتَرْكِ المحظورِ، وتصديقِ الخبرِ، وإنْ شئتَ قلتَ: الدِّينُ طَلَبٌ وخَبَرٌ، والطَّلَبُ نَوعانِ: طلَبُ فِعلٍ، وطلَبُ تَركٍ- فقد تضَمَّنَتْ هذه الكَلِماتُ الثَّلاثُ مراتبَ الدِّينِ أجمَعَها؛ فالإعطاءُ: فعلُ المأمورِ، والتَّقْوى: ترْكُ المحظورِ، والتَّصديقُ بالحسنى: تصديقُ الخبَرِ، فانتظَمَ ذلك الدِّينَ كلَّه، وأكمَلُ النَّاسِ مَن كَمَلَتْ له هذه القُوى الثَّلاثُ(٢).

٨- قَولُه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى آخِرِه: فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ أخرج الشَّيخانِ وغَيرُهما عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ الجنَّةِ، ومَقعَدُه مِنَ النَّارِ. فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نتَّكِلُ؟ قال: لا، اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾))(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السِّينُ هنا: للتَّحقيقِ، أي: إنَّ مَنْ أَعطى واتَّقى، وصَدَّقَ بالحُسنى؛ فسيُيَسِّرُه اللهُ عزَّ وجلَّ لليُسْرى في أُمورِه كلِّها، في أمورِ دينِه ودُنياه-على قولٍ في التفسيرِ-، وكُلَّما كان الإنسانُ أتقى للهِ كانت أمورُه أيسَرَ له؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾(٤) [الطلاق: ٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ دَلالةٌ

---

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩١).
والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٩٤٧)، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

على أنَّ التَّوفيقَ والخِذْلانَ مِنَ اللهِ تعالى(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ مع قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ سؤالٌ: كيف قابَلَ «اتَّقى» بـ«استَغْنى»؟ وهل يُمكِنُ للعبدِ أنْ يَستغنيَ عن ربِّه طَرْفةَ عَينٍ؟!

الجَوابُ: هذا مِن أحسَنِ المُقابَلةِ؛ فإنَّ المتَّقيَ لَمَّا استشعرَ فَقْرَه وفاقتَه وشِدَّةَ حاجتِه إلى ربِّه اتَّقاه، ولم يَتعرَّضْ لسَخَطِه وغَضَبه ومَقْتِه بارتكابِ ما نهاه عنه؛ فإنَّ مَن كان شديدَ الحاجةِ والضَّرورةِ إلى شَخصٍ فإنَّه يتَّقي غَضَبَه وسَخَطَه عليه غايةَ الاتِّقاءِ، ويجانِبُ ما يَكرَهُه غايةَ المجانَبةِ، ويَعتمِدُ فِعْلَ ما يُحِبُّه ويُؤْثِرُه؛ فقابَلَ «التَّقْوى» بـ«الاستغناءِ»؛ تبشيعًا لحالِ تاركِ التَّقوى، ومُبالَغةً في ذَمِّه بأنْ فَعَلَ فِعْلَ المُستغني عن ربِّه، لا فِعْلَ الفقيرِ المضطرِّ إليه الَّذي لا مَلجأَ له إلَّا إليه، ولا غِنَى له عن فَضْلِه وَجُودِه وبِرِّه طَرْفةَ عَينٍ(٢)!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وكذا قَولُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكذا قَولُه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أنَّ عامَّةَ ما يَذْكُرُه اللهُ في خَلْقِ الكُفرِ والمعاصي يَجْعَلُه جزاءً لذلك العَمَلِ، وهؤلاء وأمثالُهم بَذَلوا فيه أعمالًا عاقبَهم بها على فِعْلِ محظورٍ وترْكِ مأمورٍ، وتلك الأمورُ إنَّما كانت منهم وخُلِقَتْ فيهم؛ لكَونِهم لم يَفعَلوا ما خُلِقوا له، ولا بُدَّ لهم مِن حركةٍ وإرادةٍ؛ فلمَّا لم يَتحرَّكوا بالحسَناتِ حُرِّكوا بالسَّيِّئاتِ عَدْلًا مِن اللهِ تعالى؛ حيثُ وَضَعَ ذلك مَوضِعَه في مَحَلِّه القابِلِ له، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٣).

القلبُ الَّذي لا يكونُ إلَّا عامِلًا، فإذا لم يَعْمَلِ الحسَنةَ استُعمِلَ في عمَلِ السَّيِّئةِ، كما قيل: نفْسُك إنْ لم تَشْغَلْها شَغَلَتْك، وهذا الوجهُ إذا حُقِّقَ يَقْطَعُ مادَّةَ كلامِ القَدَريَّةِ المُكذِّبَةِ، والمُجْبِرةِ؛ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مخلوقةً للهِ، ويَجعلونَ خَلْقَها والتَّعذيبَ عليها ظُلْمًا، والَّذين يقولون: إنَّه خَلَقَ كُفْرَ الكافِرينَ ومعصيتَهم، وعاقَبَهم على ذلك لا لسببٍ ولا لحِكمةٍ[1]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ العُسْرى في الأمورِ كلِّها- سؤالٌ: أنَّنا نَجِدُ أنَّ الكُفَّارَ تُيَسَّرُ أمورُهم!

الجوابُ: نعَمْ. قد تُيَسَّرُ أمورُهم، لكِنَّ قلوبَهم تَشْتَعِلُ نارًا وضِيقًا وحَرَجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ثُمَّ ما يُنَعَّمُون به فهو تنعيمُ جَسَدٍ فقط، لا تنعيمُ رُوحٍ، ثُمَّ هو أيضًا وَبَالٌ عليهم؛ لقولِ اللهِ تعالى فيهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه))، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2] [هود: ١٠٢]، وهؤلاء عُجِّلَتْ لهم طيِّبَاتُهم في حياتِهم الدُّنيا، ومع ذلك فإنَّ هذه الدُّنيا جَنَّةٌ لهم بالنِّسبةِ للآخرةِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٣) من حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

- خُصَّ بالذِّكرِ ما في اللَّيلِ مِن الدَّلالةِ مِن حالةِ غِشْيانِه الجانبَ الَّذي يَغشاهُ مِن الأرضِ، ويَغْشى فيه مِن الموجوداتِ، فتَعُمُّها ظُلمتُه فلا تَبْدو للنَّاظِرينَ؛ لأنَّ ذلك أقْوى أحوالِه، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِ النَّهارِ حالةُ تَجليتِه عن الموجوداتِ وظُهورِه على الأرضِ كذلك[١].

- واختيرَ القسَمُ باللَّيلِ والنَّهارِ لمُناسَبتِه للمَقامِ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ بَيانُ البَونِ بيْن حالِ المؤمنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ابتُدِئَ في هذه السُّورةِ بذِكرِ اللَّيلِ، ثمَّ ذِكرِ النَّهارِ، عكْسَ ما في سُورةِ (الشَّمسِ)؛ لأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (الشَّمسِ) بمُدَّةٍ، وهي سادسةُ السُّوَرِ، وأيَّامَئذٍ كان الكُفْرُ مُخيِّمًا على النَّاسِ إلَّا نفَرًا قَليلًا، وكان الإسلامُ قدْ أخذَ في التَّجلِّي، فناسَبَ تلك الحالةَ بالإشارةِ إلى تَمثيلِها بحالةِ اللَّيلِ حينَ يَعقُبُه ظُهورُ النَّهارِ، ويتَّضِحُ هذا في جَوابِ القسَمِ بقولِه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾[٣] [اللَّيل: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ حُذِفَ مفعولُ ﴿يَغْشَىٰ﴾ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ العِبرةَ بغِشْيانِه كلَّ ما تَغشاهُ ظُلمتُه[٤].

- وأُسنِدَ إلى النَّهارِ التَّجلِّي؛ مَدْحًا له بالاستنارةِ الَّتي يَراها كلُّ أحدٍ[٥].

- وتَقييدُ اللَّيلِ بالظَّرفِ ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وتَقييدُ النَّهارِ بمِثلِه ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ لأنَّ المُرادَ القسَمُ بكلِّ واحدٍ مِنهما في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بَوقتِ تَغشِيَتِه تذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ[1].

- وأَتَى سُبحانَه بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَغْشَىٰ﴾؛ لأنَّه يَغْشَى شيئًا بعدَ شيءٍ، وأمَّا النَّهارُ فإنَّه إذا طَلَعَتِ الشَّمسُ ظَهَرَ وتَجلَّى وَهْلةً واحدةً؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى في سورةِ (الشَّمسِ وضُحاها): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[2] [الشمس: ٣، ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إجمالٌ يُفيدُ التَّشويقَ إلى تفصيلِه بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيةَ؛ ليتمكَّنَ تَفصيلُه في الذِّهنِ[3].

- وشتَّى: مُشتَقٌّ مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، وأُريدَ به هنا التَّنوُّعُ والاختِلافُ في الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن الأعمالِ المُتخالِفةِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يَلزَمُه الاختِلافُ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا﴾ تَفريعٌ وتَفصيلٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، والمُحتاجُ للتَّفصيلِ هنا هو السَّعيُ المَذكورُ، ولكنْ جُعِلَ التَّفصيلُ ببَيانِ السَّاعينَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾؛ لأنَّ المُهِمَّ هو اختِلافُ أحوالِ السَّاعينَ ويُلازِمُهم السَّعيُ؛ فإيقاعُهم في التَّفصيلِ بحسَبِ مَساعِيهم يُساوي إيقاعَ المَساعي في التَّفصيلِ، وهذا تَفنُّنٌ مِن أفانينِ الكلامِ الفَصيحِ يَحصُلُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨، ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٠).

مَعنَيانِ، وانحصَرَ تَفصيلُ «شتَّى» في فَريقينِ: فَريقٌ مُيسَّرٌ لليُسْرى، وفَريقٌ مُيسَّرٌ للعُسْرى؛ لأنَّ الحالَينِ هما المُهِمُّ في مَقامِ الحثِّ على الخَيرِ، والتَّحذيرِ مِن الشَّرِّ، ويَندرِجُ فيهما مُختلِفُ الأعمالِ، كقَولِه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨]، ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفصيلُ (شتَّى) هِمْ مَن أعْطى واتَّقى وصدَّقَ بالحُسنى، ومَن بَخِلَ واستَغْنى وكذَّبَ بالحُسنَى، وذلك عدَدٌ يصِحُّ أنْ يكونَ بَيانًا لـ (شتَّى)[(١)].

- وحُذِف مَفعولَا ﴿أَعْطَى﴾؛ إذ المقصودُ الثَّناءُ على المُعطِي دونَ تَعرُّضٍ للمُعطَى والعَطيَّةِ[(٢)]. أو حُذِفَ مَفعولُ ﴿أَعْطَى﴾؛ لأنَّ فِعلَ الإعطاءِ إذا أُريدَ به إعطاءُ المالِ بدونِ عِوَضٍ، يُنزَّلُ مَنزِلةَ اللَّازمِ؛ لاشتِهارِ استِعمالِه في إعطاءِ المالِ، ولذلك يُسمَّى المالُ الموهوبُ عَطاءً، وكذلك حُذِفَ مَفعولُ (اتَّقى)؛ لأنَّه يُعلَمُ أنَّ المُقدَّرَ: اتَّقى اللهَ. وكذلك فِعلُ ﴿بَخِلَ﴾ لم يُذكَرْ مُتعلَّقُه؛ لأنَّه أُريدَ به البُخلُ بالمالِ[(٣)]. أو حُذِف مفعولُ ﴿أَعْطَى﴾؛ ليَعُمَّ كُلَّ عَطاءٍ مِن مالِه وجاهِه وجُهْدِه، حتَّى الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ، بل حتَّى طَلاقةِ الوَجه[(٤)].

- والحُسنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، فهي بالأصالةِ صِفةٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرٍ، وتَأنيثُها مُشعِرٌ بأنَّ مَوصوفَها المُقدَّرَ يُعتبَرُ مُؤنَّثَ اللَّفظِ، ويَحتمِلُ أُمورًا كَثيرةً؛ فالتَّصديقُ بها الاعتِرافُ بوُقوعِها، ويُكنَّى به عن الرَّغبةِ في تَحصيلِها[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢، ٣٨٣).

- والسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وقولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ قيل: هي حرْفُ تنفيسٍ مُرادٌ منه الاستِمرارُ مِن الآنَ إلى آخِرِ الحياةِ(١).

- وفي قولِه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ عَدَلَ الكَلامَ إلى مَظهَرِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى صعوبةِ الطَّاعةِ على النَّفْسِ، وإن كانت في غايةِ اليُسرِ في نَفْسِها؛ لأنَّها في غايةِ الثِّقَلِ على النَّفْسِ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ فالمرادُ به الاستغناءُ عن امتثالِ أمْرِ اللهِ ودَعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكُفْرِ المُعرِضَ عن الدَّعوةِ يَعُدُّ نفْسَه غَنيًّا عن اللهِ مُكتفيًا بولايةِ الأصنامِ وقَومِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الفِعلِ، وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتَكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ، وهذه الخِلالُ كِنايةٌ عن كَونِه مِن المشركين(٣).

- قولُه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ جاء تَرتيبُ النَّظْمِ في هذه الآيةِ على عكْسِ المُتبادرِ؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، وجُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، أي: الَّذي صار الفِعلُ صَعْبُ الحُصولِ حاصلًا له، وإذ وَقَعَ المَجروران باللَّامِ (اليُسرى) و(العُسرى)، فيَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٥).

يكونَ الكلامُ جاريًا على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهِرِ بطَريقِ القلْبِ(١)؛ بأنْ يكونَ أصلُ الكلامِ: فسَنُيَسِّرُ اليُسرى له، وسَنُيَسِّرُ العُسرى له، ومُقْتضى القلبِ إفادةُ المُبالَغةِ في هذا التَّيسيرِ حتى جُعِلَ المُيسَّرُ مُيسَّرًا له والمُيسَّرُ له مُيسَّرًا، على نحْوِ ما وَجَّهوا به قولَ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ(٢).

ويَجوزُ أنْ يكونَ معْنى الآيةِ على ظاهِرِه مِن تَيسيرِ الإنسانِ لليُسرى أو العُسرى، ويُجعَلَ اليُسرى وَصْفًا، أي: الحالةِ اليُسرى، والعُسرى، أي: الحالةِ غيرِ اليُسرى، وليس في التَّركيبِ قلْبٌ، والتَّيسيرُ بمعْنى الدَّوامِ على العمَلِ، وإذ كان الوعْدُ بتَيسيرِ اليُسرى لصاحبِ تلك الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على أعمالِ الإعطاءِ والتَّقوى والتَّصديقِ بالحُسنى، كان سُلوكُ طَريقِ المَوصوليَّةِ للإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو التَّيسيرُ، فتَعيَّنَ أنَّ التَّيسيرَ مُسبَّبٌ عن تلك الصِّلاتِ، أي: جَزاءً عن فِعلِها، فالمُتيسِّرُ: تَيسيرُ الدَّوامِ عليها، وتكون اليُسرى صِفةً للأعمالِ، وذلك مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، والأصْلُ: مُستيسرٌ له أعمالُه، وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى وَصْفِ اليُسرى؛ للثَّناءِ على تلك الأعمالِ بأنَّها مُيسَّرةٌ مِن اللهِ(٣).

- ولعلَّ تَصديرَ القِسْمينِ بالإعطاءِ والبُخلِ، مع أنَّ كلًّا منهما أدْنى رُتبةً ممَّا بعْدَهما في استتباعِ التَّيسيرِ لليُسرى والتَّيسيرِ للعُسرى؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما أصلٌ فيما ذُكِرَ، وليس تَتمَّةً لِما بعْدَهما مِن التَّصديقِ والتَّقوى والتَّكذيبِ والاستغناءِ(٤).

أو إنَّما خُصَّ الإعطاءُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ مع شُمولِ (اتَّقى)

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧).

لمُفادِه، وخُصَّ البُخلُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ مع شُمولِ (استَغْنى) له؛ لتَحريضِ المسلمينَ على الإعطاءِ، فالإعطاءُ والتَّقوى شِعارُ المسلمينَ مع التَّصديقِ بالحُسنى، وضِدُّ الثَّلاثةِ مِن شِعارِ المشرِكين(١).

- قولُه: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، أي: سنُعجِّلُ به إلى جهنَّمَ، فالتَّقديرُ: إذا تَردَّى فيها. و(ما) نافيةٌ، والتَّقديرُ: وسَوفَ لا يُغْني عنه مالُه إذا سَقَطَ في جهنَّمَ، وذلك على قولٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً للإنكارِ والتَّوبيخِ، ويجوزُ على هذا الوجْهِ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والمعْنى: وأيُّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه(٢)؟!



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٢).

الآيات (١٢-٢١)

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلَظَّىٰ﴾: أي: تتوقَّدُ وتَشتَعِلُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت(١).

﴿يَصْلَاهَا﴾: أي: يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ(٢).

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ(٣).

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: أي: يَتَطَهَّرُ، ويَتنمَّى، والتَّزَكِّي: تَكَلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخيرِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارة ونَماءٍ وزِيادةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾: مَنصوبٌ على الاستثناءِ المنقَطِعِ؛ لِعَدَمِ اندراجِه تحتَ جِنسِ النِّعمةِ، فالمعنى: لكِنَّه فَعَل ذلك لابتغاءِ وَجْهِ رَبِّه سُبحانَه، وطَلَبِ رِضاه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لأجْلِه على المعنى؛ لأنَّ المعنى: لا يُؤتِي مالَه مِن أجْلِ شَيءٍ مِنَ الأشياءِ إلَّا مِن أجْلِ طَلَبِ رِضا رَبِّه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ؛ فهو استثناءٌ مُفَرَّغٌ مِن أعَمِّ العِلَلِ والأسبابِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ علينا تَبيينَ طريقِ الهُدى للنَّاسِ، وإنَّ لنا وَحْدَنا لَلآخِرةَ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما؛ فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ، لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ الَّذي كذَّب بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، والَّذي يتصَدَّقُ بأموالِه في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه، وليس إنفاقُه ليكافِئَ به مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ، ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، ولَسوف يَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَرَّفهم سُبحانَه أنَّ سَعْيَهم شَتَّى، وبَيَّن ما للمُحسِنينَ مِنَ اليُسرى، وما

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧١).

للمُسيئينَ مِن العُسرى- أخبَرَهم بأنَّ عليه بيانَ الهُدى مِنَ الضَّلالِ(١).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٢﴾.

أي: إنَّ علينا أن نبَيِّنَ طريقَ الهُدى الَّذي يوصِلُ سالِكَه إلى اللهِ تعالى وجنَّتِه(٢).

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ١٣﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣-٢١٦) و(١٧/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

ممَّن اختارَ المَعْنى المَذْكورَ في الجُمْلةِ وأنَّ المُرادَ: إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ طَريقَ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالِ، والحَقَّ مِن الباطِلِ، وأنَّ الهُدى هنا هو هُدى البَيانِ والإرْشادِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّازيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، والبِقاعيُّ، والعُلَيْميُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (وقيل: المعنى: مَن سلَك الهُدَى فعلى الله سبيلُه، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. وهذا قولُ مجاهدٍ، وهو أصحُّ الأقوالِ... وهو معنًى شريفٌ جليلٌ، يدُلُّ على أنَّ سالكَ طريقِ الهُدى يُوصِلُه طريقُه إلى اللهِ ولا بُدَّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٦٩).

وهذا القولُ هو قولُ الفرَّاءِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٣٧).

أي: وإنَّ لنا وَحْدَنا مُلْكَ الآخِرةِ والدُّنيا، والتَّصرُّفَ فيهما(١).

كما قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ(٢).

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

أي: لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ(٣).

كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).
قال ابنُ جرير: (عنَى بذلك جَلَّ ثناؤه أنَّه يوفِّقُ لطاعتِه مَن أحَبَّ مِن خَلْقِه، فيُكرِمُه بها في الدُّنيا، ويُهيِّئُ له الكرامةَ والثَّوابَ في الآخرة، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ خِذْلانَه مِن خَلقِه عن طاعتِه، فيُهينُه بمعصيتِه في الدُّنيا، ويُخْزيه بعُقوبتِه عليها في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦).
وقال القرطبي: (﴿لَلْآخِرَةَ﴾: الجنَّة. ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾: الدُّنيا. وكذا روى عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، أي: الدُّنيا والآخرةُ لله تعالى. وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: ثوابُ الدُّنيا والآخرة، وهو كقَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، فمَن طلَبَهما مِن غيرِ مالِكِهما فقد أخطأ الطَّريقَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٤).

أي: الَّذي كذَّب بالحَقِّ، فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عن اتِّباعِه والعمَلِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾.

أي: وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه[2].

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما يتعَلَّقُ بالقُوَّةِ العِلميَّةِ؛ أتْبَعَه ما ينظُرُ إلى القوَّةِ العَمَليَّةِ؛ فقال[3]:

---

(١) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيميَّة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أهلُ التَّأويلِ أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، ثمَّ هي تتناوَلُ كُلَّ مَن دخل في هذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٧، ١٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

وقال الواحِديُّ: (﴿ٱلْأَتْقَى﴾ يَعْني: أبا بكرٍ في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٥). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥).

ونَسَبَه السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد ذكَرَ غيرُ واحِدٍ مِن المُفَسِّرينَ أنَّ هذه الآياتِ نزَلَتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، حتَّى إنَّ بعضَهم حَكى الإجْماعَ مِن المُفَسِّرينَ على ذلك. ولا شكَّ أنَّه داخِلٌ فيها، وأَوْلى الأُمَّةِ بعُمومِها؛ فإنَّ لَفظَها لَفْظُ العُمومِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، ولكنَّه مُقدَّمُ الأُمَّةِ وسابِقُهم في جَميعِ هذه الأوْصافِ، وسائِرِ الأوْصافِ الحَميدةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾.

أي: الَّذي يتصَدَّقُ بأموالِه في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه وتَنميتِها(١).

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ قد يُعْطي ليزكِّيَ نَفْسَه بدَفعِ مانِّه، ومكافأةِ نِعَمِه؛ قال(٢):

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾.

أي: وليس إنفاقُه مِن أجْلِ أن يكافِئَ مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ(٣).

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾.

أي: ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِ مالِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، فهو يَطمَعُ في رُؤيتِه في الآخِرةِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيم (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

أي: وأُقسِمُ إنَّ هذا المنفِقَ سيَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ صاحِبَ التَّقْوى لا يَنبغي له أنْ يَتحمَّلَ مِنَنَ الخَلْقِ ونِعَمَهم، وإنْ حَمَلَ منهم شيئًا بادرَ إلى جزائِهم عليه؛ لئلَّا يَتبقَّى لأحدٍ مِن الخَلْقِ عليه نِعمةٌ تُجزى، فيكونُ بعدَ ذلك عَمَلُه كلُّه للهِ وحْدَه، ليس جزاءً للمَخلوقِ على نِعمتِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تنبيهٌ على أنَّ مَن ليس لمخلوقٍ عليه نِعمةٌ تُجزى لا يَفْعَلُ ما يَفعَلُه إلَّا ابتغاءَ وجْهِ ربِّه الأعلى، بخِلافِ مَن تَطَوَّقَ بنِعَمِ المخلوقينَ ومِنَنِهم؛ فإنَّه مُضطرٌّ إلى أنْ يَفعَلَ مِن أجْلِهم، ويَترُكَ مِن أجْلِهم؛ ولهذا كان مِن كمالِ الإخلاصِ ألَّا يَجعَلَ العبدُ عليه مِنَّةً لأحدٍ مِن النَّاسِ؛ لِتَكونَ مُعامَلتُه كلُّها للهِ ابتغاءَ وَجهِه وطلب مَرضاتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه على المؤمنِ إذا أغناه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ شاكرًا للهِ، قائمًا بما أوجَبَ اللهُ عليه مِن بَذْلِ المالِ في حقِّه، على الوَجهِ الَّذي يُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه ينبغي أنْ نستحضِرَ نيَّةَ التَّقرُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٢).

في العبادةِ، والغالبُ أنَّنا نَفْعَلُ العبادةَ على أنَّنا مُلزَمون بها، فنَنْويها لتصحيحِ العمَلِ، وهذا نَقْصٌ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ سؤالٌ: في هذا دَلالةٌ على أنَّ اللهَ التزم على نَفْسِه الهدى للخَلْقِ، مع أنَّه جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على عدَمِ هُداه لبعضِ النَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٨٦] الآيةَ، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؟

الجوابُ: أنَّ الهُدى يُستعمَلُ في القُرآنِ خاصًّا وعامًّا؛ فالمُثبَتُ: العامُّ، والمنفيُّ: الخاصُّ، ونَفيُ الأخَصِّ لا يستلزِمُ نَفيَ الأعمِّ، وأمَّا على قولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: إنَّ الطَّريقَ الَّذي يدُلُّ علينا وعلى طاعتِنا هو الهُدى لا الضَّلالُ»، وقولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: أنَّ مَن سلَكَ طريقَ الهُدى وصَل إلى اللهِ»؛ فلا إشكالَ في الآيةِ أصلًا[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وكذا قَولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقَولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] التَّعديةُ بحرفِ الاستعلاءِ دونَ حرفِ الغايةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ سالكَ طريقِ اللهِ متوكِّلٌ عليه، فلا بُدَّ له مِن عبادتِه، ومِن التَّوكُّلِ عليه، فإذا قيل: «عليه الطَّريقُ المستقيمُ» تضَمَّنَ أنَّ سالكَه عليه يتوكَّلُ، وعليه تدُلُّه الطَّريقُ، وعلى عبادتِه وطاعتِه يقَعُ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٣).

والهُدَى الخاصُّ: هو التَّفضُّلُ بالتَّوفيقِ إلى دينِ الحقِّ، والهدَى العامُّ: هو إيضاحُ الحقِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠).

ويَسقُطُ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ التِزامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُبيِّنَ للخَلْقِ ما يَهتدونَ به إليه، والمرادُ بالهُدى هنا: هُدى البَيانِ والإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى التَزمَ على نفْسِه بيانَ ذلك؛ حتَّى لا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلا يمكِنُ للعَقلِ البَشَريِّ أنْ يَسْتَقِلَّ بمعرفةِ الهدى؛ ولذلك التَزمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يُبَيِّنَ الهُدى للإنسانِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ أمورَ الجزاءِ في الأُخرى تَجري على ما رَتَّبه اللهُ وأعلَمَ به عِبادَه، وأنَّ نِظامَ أُمورِ الدُّنيا وترَتُّبَ مُسَبَّباتِه على أسبابِه أمرٌ قد وضعه اللهُ تعالى، وأمَرَ بالحِفاظِ عليه، وأرشَدَ وهدى؛ فمَن فَرَّط في شيءٍ مِن ذلك فقد استحَقَّ ما تَسَبَّب فيه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ سؤالٌ عن هذه الآيةِ الَّتي مِن أجْلِها قال أهلُ الإرجاءِ بالإرجاءِ، فزَعَموا أنَّه لا يدخُلُ النَّارَ إلَّا كافِرٌ؛ لِقَولِه: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

الجوابُ: أنَّ الأمرَ ليس كما ظنُّوا؛ فهذه نارٌ موصوفةٌ بعَينِها، لا يَصْلَى هذه النَّارَ إلَّا الأشقى الَّذي كَذَّب وتوَلَّى، ولأهلِ النَّارِ مَنازِلُ؛ فمنها قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، واللهُ عزَّ وجَلَّ كُلُّ ما وعد

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

عليه بجِنسٍ مِنَ العذابِ فجائزٌ أن يعذِّبَ به، وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كُلُّ مَن لم يُشرِكْ باللهِ لا يُعَذَّبُ، لم يكُنْ في قَولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدةٌ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكونَ قَصْدُه به تزكيةَ نَفْسِه، وتطهيرَها مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، قاصدًا به وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فدَلَّ هذا على أنَّه إذا تضمَّن الإنفاقُ المستحَبُّ تَرْكَ واجبٍ -كدَينٍ، ونَفَقةٍ، ونحوِهما- فإنَّه غيرُ مَشروعٍ، بل تكونُ عَطِيَّتُه مردودةً عندَ كثيرٍ مِنَ العُلَماءِ؛ لأنَّه لا يتزكَّى بفِعلِ مُستحَبٍّ يُفَوِّتُ عليه الواجِبَ[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ استُدِلَّ به على أنه لا يُجزِئُ دفعُ الزَّكاةِ إلى الأبوَينِ صحيحَينِ كانا أو زَمِنَين، ولا إلى أحدٍ يَقْدَمُ منه إلى المُعطي إحسانٌ؛ لأنَّه يَصيرُ مكافأةً ومجازاةً، وإنَّما هي لِمَن لا يُكافي ولا يُجازي، ولا يَدفعُ بها

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وفيه... ما يُبيِّنُ أنَّ الفَضلَ بالصَّدَقةِ لا يكونُ إلَّا بعْدَ أداءِ الواجِبِ مِن المُعاوَضاتِ، كما قال تَعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فمَن عليه دُيونٌ مِن أثْمانٍ وقَرْضٍ وغَيرِ ذلك، فلا يُقدِّمُ الصَّدَقةَ على قَضاءِ هذه الواجِبات، ولو فَعَلَ ذلك؛ فهلْ تُرَدُّ صَدقتُه؟ على قَولَينِ مَعْروفَينِ للفُقَهاءِ، فهذه الآيةُ يَحتَجُّ بها مَن [قالَ:] تُرَدُّ صَدقتُه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى إنَّما أَثْنى على مَن آتى مالَه يَتَزَكَّى، وما لأحَدٍ عندَه مِن نِعمةٍ تُجزَى، فإذا كان عندَه نِعمةٌ تُجْزى فعليه أن يَجزيَ بها قبْلَ أن يُؤْتيَ مالَه يَتزكَّى، فإذا آتى مالَه يَتزكَّى قبْلَ أن يَجزيَ بها لم يكُنْ مَمْدوحًا، فيكونُ عَمَلُه مَرْدودًا؛ لقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: «مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ» [مسلم «١٧١٨»]). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥٠١).

ذَمًّا، بل تكونُ للهِ عزَّ وجلَّ خالصةً لوَجهِه فقط، فإنَّما المكافأةُ تكونُ في إخراجِ الأموالِ في التَّطَوُّعِ لا في الفَرْضِ(١).

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ نبَّه بقوله ﴿تُجۡزَىٰٓ﴾ على أنَّ نعمة الإسلامِ الَّتي لرسولِ اللهِ على هذا الأتقى لا تُجزَى؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ يمكنُ جزاءُ نعمتِه إلَّا نعمةَ الإسلامِ؛ فإنَّها لا يمكِنُ المنعَمَ بها عليه أنْ يَجزيَ بها، وهذا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه أوَّلُ وأَولى مَن ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وأنَّه أحقُّ الأُمَّةِ بها؛ فإنَّ عليًّا رضيَ اللهُ عنه تَربَّى في بيتِ النَّبيِّ، فلِرسولِ اللهِ عندَه نِعْمةٌ غيرُ نِعمةِ الإسلامِ يمكِنُ أنْ تُجزَى(٢).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ هذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ؛ لأنَّها يَندرِجُ تَحتَها كلُّ ما يَرغَبُ فيه الرَّاغبونَ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإخبارِهم بأنَّ عليه سُبحانَه بمُقْتضى حِكمتِه بَيانَ الهُدى مِن الضَّلالِ(٤). وهو استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الكلامِ السَّابقِ مِن قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥-١٠]؛ وذلك لإلقاءِ التَّبِعةِ على مَن صار إلى العُسرى بأنَّ اللهَ أعذَرَ إليه -إذ هَداهُ بدَعوةِ الإسلامِ إلى الخَيرِ- فأعرَضَ عن الاهتداءِ باختيارِه اكتِسابَ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّ التَّيسيرَ لليُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِ العبْدِ إلى عمَلِ الحَسَناتِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).

والتَّيسيرَ للعُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِه إلى عمَلِ السَّيِّئاتِ[١].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ: يُومِئُ إلى أنَّ هذا كالجوابِ عمَّا يَجيشُ في نُفوسِ أهلِ الضَّلالِ عندَ سَماعِ الإنذارِ السَّابقِ مِن تَكذيبِه بأنَّ اللهَ لو شاءَ منهم ما دَعاهم إليه لَألجَأَهم إلى الإيمانِ؛ فقد حُكِيَ عنهم في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾[٢] [الزخرف: ٢٠].

- وعطْفُ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[٣] وتَنبيهٌ على أنَّ تَعهُّدَ اللهِ لعِبادِه بالهُدى فضْلٌ منه، وإلَّا فإنَّ الدارَ الآخِرةَ مِلْكُه، والدارَ الأُولى مِلْكُه بما فِيهما[٤].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فيه تقديمُ الآخرةِ على الأُولى، مع أنَّ الأُولى متقَدِّمةٌ على الآخرةِ في الزَّمَنِ، لكِنَّه أَخَّرَها لفائدتَينِ:

الفائدةُ الأُولى: معنويَّةٌ، والفائدةُ الثَّانيةُ: لفظيَّةٌ. أمَّا المعنويَّةُ فلِأَنَّ الآخرةَ أهمُّ مِن الدُّنيا، ولأنَّ الآخرةَ يَظهَرُ فيها مُلْكُ اللهِ تعالى تمامًا؛ في الدُّنيا هناك رؤساءُ، وهناك ملوكٌ، وهناك أمراءُ، يَملِكونَ ما أعطاهم اللهُ عزَّ وجلَّ مِن المُلْكِ، لكِنْ في الآخرةِ لا مُلْكَ لأحَدٍ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ فلهذا قَدَّمَ ذِكْرَ الآخرةِ مِن أجْلِ هذه الفائدةِ المعنويَّةِ. أمَّا الفائِدةُ اللَّفظيَّةُ فهي مُراعاةُ الفواصلِ؛ أواخِرِ الآياتِ، فكلُّها آخِرُها ألِفٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ * لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٠).

- قولُه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لمُجرَّدِ التَّفريعِ الذِّكريِّ إذا كان فِعلُ (أنْذرْتُكم) مُستعمَلًا في ماضيهِ، وكان المرادُ الإنذارَ الَّذي اشتَمَلَ عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [اللَّيل: ٨- ١١]، وهذه الفاءُ يُشبِهُ معْناها معْنى فاءِ الفَصيحةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على مُراعاةِ مَضمونِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، وهو تَفريعُ إنذارٍ مُفصَّلٍ على إنذارٍ مُجمَلٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ المعنويِّ، فيَكونَ فِعلُ (أنذَرْتُكم) مُرادًا به الحالُ، وإنَّما صِيغَ في صِيغةِ المُضِيِّ؛ لتَقريبِ زَمانِ الماضي مِن الحالِ، وهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيل: ١٢]، والمعْنى: إنَّ علينا هَدْيَكم، فأنذَرْتُكم إبلاغًا في الهُدى[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿نَارًا﴾ للتَّهويلِ[(٢)].

- وأصْلُ ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تَتلظَّى بتاءينِ؛ حُذِفَتْ إحداهما للاختِصارِ[(٣)].

- وقد أُتبِعَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بصِفةِ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لزِيادةِ التَّنصيصِ على أنَّ المشرِكينَ المقصودُ بذلك؛ فإنَّهم يَعلَمون أنَّهم كذَّبوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَولَّوا، أي: أعْرَضوا عن القرآنِ، وقد انحصَرَ ذلك الوَصفُ فيهم يَومَئذٍ؛ فقدْ كان النَّاسُ في زمَنِ ظُهورِ الإسلامِ أحَدَ فَريقينِ: إمَّا كافرٌ، وإمَّا مُؤمنٌ تَقيٌّ، ولم يكُنِ الَّذين أسْلَموا يَغشَون الكَبائرَ؛ لأنَّهم أقْبَلوا على الإسلامِ بشَراشِرِهم[(٤)]؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ...﴾ إلخ تَصريحًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) أي: بكُلِّيَّتِهم. وقيل: الشَّراشِرُ: النَّفْسُ والمحبَّةُ جميعًا. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٧).

بمَفهومِ القصْرِ، وتَكميلًا للمُقابَلةِ[(١)].

- ووُصِفَ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[(٢)].

- والأشْقى والأتْقى مُرادٌ بهما: الشَّديدُ الشَّقاءِ، والشَّديدُ التَّقْوى[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ احتِباكٌ[(٤)]؛ ذَكَرَ التَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضَدِّه ثانيًا، وإيتاءَ المالِ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضِدِّه أوَّلًا[(٥)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ * وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ الواوُ عاطفةٌ، والسِّينُ حرْفُ استقبالٍ جِيءَ به للتَّأكيدِ[(٦)].

- ووُصِفَ ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[(٧)].

- وجُملةُ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ حالٌ في ضَميرِ ﴿يُؤۡتِي﴾، وفائدةُ الحالِ التَّنبيهُ على أنَّه يُؤتِي مالَه لقصْدِ النَّفعِ، والزِّيادةِ مِن الثَّوابِ، تَعريضًا بالمشرِكين الَّذي يُؤتُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).

المالَ للفخْرِ والرِّياءِ والمفاسِدِ والفُجورِ(١).

- والتَّزكِّي: تكلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخَيرِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لكَونِ إيتائِه للتَّزكِّي خالصًا لوَجْهِ اللهِ تعالَى، أي: ليس لأحدٍ عندَه نِعمةٌ مِن شأنِها أنْ تُجزى وتُكافأَ، فيَقصِدَ بإيتاءِ ما يُؤتي مُجازاتَها(٣).

- قولُه: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ جَوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَسوفَ يَرْضَى، وهو وعْدٌ بالثَّوابِ الجَزيلِ الَّذي يُرْضي صاحبَه، وهذا تَتميمٌ لقولِه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ لأنَّ ذلك ما أفادَ إلَّا أنَّه ناجٍ مِن عَذابِ النَّارِ؛ لاقتضاءِ المقامِ الاقتِصارَ على ذلك؛ لقصْدِ المُقابَلةِ مع قولِه: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾، فتُمِّمَ هنا بذِكرِ ما أُعِدَّ له مِن الخَيراتِ(٤).

- وحرْفُ (سوف) لتَحقيقِ الوعْدِ في المُستقبَلِ، أي: يَتغلغَلُ رِضاهُ في أزمنةِ المُستقبَلِ المديدِ، واللَّامُ لامُ الابتداءِ لتَأكيدِ الخبَرِ(٥).



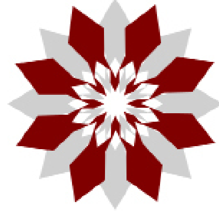
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

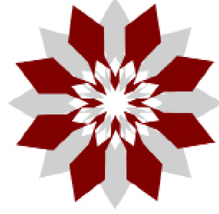
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

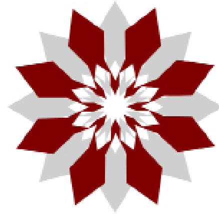
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

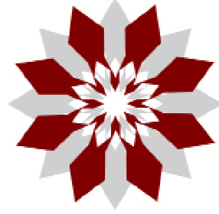


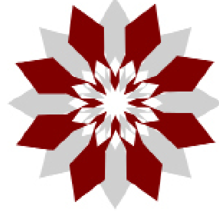


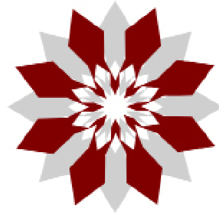


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الضُّحى







سُورةُ الضُّحى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الضُّحى)، وأيضًا ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[(١)]:

فعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفَتَّانٌ أنت يا مُعاذُ؟! أين أنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؟))[(٢)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الضُّحى مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[(٣)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ ما حفَّ الله به نبيَّه مِن ألْطافِه وعِنايَتِه[(٤)].

---

(١) قال ابن عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في أكثرِ المصاحِفِ وفي كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ، وفي «جامِعِ التِّرْمِذيِّ»: سُورَةَ الضُّحَى بدونِ وَاوٍ. وسُمِّيَتْ في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ»: سُورَةَ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ بإثْباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٣)

(٢) أخرجه النسائيُّ (٩٩٧).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

والحديث أصلُه في الصَّحيح دونَ ذِكرِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؛ أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بيانُ ما للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الشَّرَفِ والمَنقَبةِ.

٢- إبطالُ قَولِ المُشرِكينَ؛ إذ زَعَموا انقِطاعَ الوَحيِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجانِبٍ مِن نِعَمِ اللهِ سبُحانَه عليه.

٤- إرشادُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُداوَمةِ على مَكارِمِ الأخلاقِ؛ شُكرًا على نِعَمِه سُبحانَه، ومِن مَظاهِرِ ذلك: العَطفُ على اليتيمِ، والإحسانُ إلى السَّائِلِ، وعدَمُ كِتمانِ نِعَمِ اللهِ تعالى.



الآيات (١-١١)

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى
(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَجَى﴾: أي: سَكَن وغَطَّى بظَلامِه كُلَّ شَيءٍ، يُقالُ: سَجا اللَّيلُ: إذا ادْلَهَمَّ وسَكَن، وأصلُ (سجو): يدُلُّ على سُكونٍ وإطباقٍ[1].

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: أي: ما تركَك، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على التَّركِ والتَّخليةِ[2].

﴿وَمَا قَلَى﴾: أي: ما أبغَضَك، والقَلْيُ والقِلَى: البُغضُ الشَّديدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦).

قال الراغب: (مَن جعلَه مِن الواوِ فهو مِنَ القَلْوِ، أي: الرَّمْيِ، ... فكأنَّ المَقلُوَّ هو الَّذي يَقذِفُه القَلبُ مِن بُغضِه فلا يَقبَلُه). ((المفردات)) (ص: ٦٨٣).
وقال ابن فارس: («قلو» القافُ واللَّامُ والحرفُ المُعْتَلُّ أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على خِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ... ومِن البابِ القِلَى، وهو البغضُ. يُقالُ منه: قَلَيْتُه أقْليه قِلًى. وقدْ قالوا: قَلَيْتُه أقْلاه. والقِلَى تجافٍ عن الشَّيءِ وذهابٌ عنه). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٦).

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: أي: ضَمَّك إلى عَمِّك، وكفاك المَؤُونةَ، وأصلُ (أوي) هنا: التجَمُّعُ[١].

﴿عَآئِلًا﴾: أي: فَقيرًا، وأصلُ (عيل): يدُلُّ على فاقةٍ وحاجةٍ[٢].

﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾: أي: لا تَحقِرْه ولا تَقْهَرْه على مالِه؛ فتَذهَبَ بحَقِّه لضَعْفِه، والقَهْرُ: الغَلَبَةُ والإذلالُ، وأصلُ (قهر): يدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلُوٍّ[٣].

﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾: أي: لا تَزجُرْه، والنَّهرُ: الزَّجْرُ، ومُغالَظةُ القَولِ، مِثلُ أن يقولَ: إليكَ عَنِّي[٤].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه، وباللَّيلِ إذا سَكَن واشتدَّتْ ظُلمتُه، على أنَّه ما ترَكَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أبغَضَه.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى له مُبَشِّرًا: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها، ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضى.

ثُمَّ عَدَّد اللهُ تعالى بَعْضَ نِعَمِه على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك، ووجَدَك ضالًّا عن مَعرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك وهداك، ووجَدَك فَقيرًا فأغناك.

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشُكْرِ هذه النِّعَم، فقال: فأمَّا اليَتيمَ فلا تُهِنْه ولا تَظْلِمْه، وأمَّا السَّائِلُ فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه، وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((اشتكى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يَقُمْ ليلتَينِ أو ثلاثًا، فجاءته امرأةٌ فقالت: يا محمَّدُ، إنِّي لأرجو أن يكونَ شَيطانُك قد ترَكَك، لم أرَهُ قَرِبَك منذُ ليلتَينِ أو ثلاثٍ! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]))(١).

﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه(٢).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا سَكَن بأهلِه فأظلَمَ واشتدَّتْ ظُلمتُه(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٢٥)، ومسلمٌ (١٧٩٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

أي: ما ترَكَك ربُّك -يا محمَّدُ- وما أبغَضَك[1].

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في اتِّصالِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ بما تَقدَّمَ وُجوهٌ؛

أحدُها: أنْ يكونَ المعْنى: أنَّ انقطاعَ الوحْيِ لا يَجوزُ أنْ يكونَ؛ لأنَّه عزْلٌ عن النُّبوَّةِ، بلْ أقْصى ما في البابِ أنْ يكونَ ذلك لأنَّه حصَلَ الاستِغناءُ عن الرِّسالةِ، وذلك أمارةُ الموتِ، فكأنَّه يُقالُ: انقِطاعُ الوحْيِ متى حصَلَ دلَّ على الموتِ، لكنَّ الموتَ خيرٌ لك؛ فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأفضَلُ ممَّا لك في الدُّنيا.

وثانيها: لَمَّا نَزَل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] حصَل له بهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، فكأنَّه استَعظَمَ هذا التَّشريفَ، فقِيل له: ولَلآخِرةُ خيرٌ لك مِن الأُولى، أي: هذا التَّشريفُ وإنْ كان عظيمًا، فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأعظَمُ.

وثالثُها: هو أنْ يكونَ المعْنى: ولَلأحوالُ الآتيةُ خيرٌ لك مِن الماضيةِ، كأنَّه تعالَى

= كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال ابن كثير: (﴿سَجَىٰ﴾ أي: سَكَن فأظْلَمَ وادْلَهَمَّ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابُ القَسَم. قال المفسِّرونَ: أبطأَ جبريلُ على النَّبيِّ عليهما السَّلامُ، فقال المشرِكونَ: قد قلاه اللهُ وودَّعه؛ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٨).

وَعَدَه بأنَّه سيَزيدُه كلَّ يومٍ عِزًّا إلى عِزٍّ، ومَنصبًا إلى مَنصبٍ، فيقولُ: لا تَظُنَّ أنِّي قَليتُك، بلْ إنِّي أَزيدُك مَنصبًا وجَلالًا[١].

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)﴾.

أي: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِن الأُولى، ولكِنَّه لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك التَّفاوُتَ إلى أيِّ حَدٍّ يكونُ؛ فبَيَّن بهذه الآيةِ مِقدارَ ذلك التَّفاوُتِ، وهو أنَّه يَنتهي إلى غايةِ ما يتمَنَّاه الرَّسولُ ويَرتَضيه[٣].

وأيضًا فإنَّه تعالى كأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فقيل: ولِمَ قُلْتَ: إنَّ الأمرَ كذلك؟ فقال: لأنَّه يُعطيه كُلَّ ما يُريدُه، وذلك ممَّا لا تَتَّسِعُ الدُّنيا له؛ فثَبَت أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِنَ الأُولى[٤].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾.

أي: ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضَى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَده ذلك الموعودَ الجليلَ؛ ذَكَّرَه بنِعَمِه عليه في حالِ نَشأتِه(١).

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦﴾.

أي: ألم يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك ويُرَبِّيك(٢)؟

= (٥/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

مِنَ المفَسِّرينَ مَن حَمَل هذا الوَعدَ على الآخرةِ، أي: سيُعطيك في الآخرةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدِّينِ المحَلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

ونسَبَ هذا القولَ إلى الجمهورِ: ابنُ عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

وقيل: هو موعِدٌ شامِلٌ لِما أعطاه في الدُّنيا، ولِما ادَّخَر له في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّانَ، وابنُ القيِّم، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (وعَدَه بما تَقَرُّ به عينُه، وتَفرَحُ به نَفْسُه، ويَنشَرِحُ به صَدرُه، وهو أن يُعطيَه فيَرضى، وهذا يَعُمُّ ما يُعطيه مِنَ القُرآنِ والهُدى، والنَّصرِ وكثرةِ الأتْباعِ، ورَفْعِ ذِكْرِه وإعلاءِ كَلِمتِه، وما يعطيه بعدَ مماتِه، وما يُعطيه في موقِفِ القيامةِ، وما يُعطيه في الجنَّةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦). =

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾.

أي: ووجَدَك ضالًّا عن معرفةِ القُرآنِ والإيمان، فعَلَّمَك القُرآنَ، وهَداك إلى الإيمانِ، وعرَّفك أحكامَ الإسلامِ، وقد كنتَ غافلًا عن ذلك وجاهِلًا به قبْلَ النُّبُوَّة[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾.

أي: ووجَدَك فَقيرًا فأغناك[2].

= قال السعدي: (مات أبوه وأمُّه وهو لا يُدَبِّرُ نفْسَه، فآواه اللهُ، وكفَّله جَدَّه عبدَ المطَّلِبِ، ثمَّ لَمَّا مات جَدُّه كفَّلَه اللهُ عَمَّه أبا طالبٍ، حتَّى أيَّده بنَصْرِه وبالمؤمِنينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).
قال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ بالضَّلالِ هنا اتِّباعَ الباطِلِ؛ فإنَّ الأنبياءَ مَعصومون من الإشراكِ قبْلَ النُّبُوَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).
قال ابنُ تيميَّةَ: (كَثيرٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ يقولونَ: إنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِنَ الكُفرِ قبْلَ النُّبُوَّة، كما قال ذلك: ابنُ الأنباريِّ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبَغَويُّ). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠). =

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَه بما أنعَمَ عليه به مِن هذه النِّعَمِ الثَّلاثِ؛ طالَبه بشُكرِها، وأداءِ حقِّها، فأوصاه بما يَفعَلُ في ثلاثٍ؛ مُقابَلةً لها، فقال مُسَبِّبًا عنه[(١)]:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

أي: فأمَّا اليتيمَ فلا تُهِنْه وتُذِلَّه، ولا تَظْلِمْه بأخذِ حَقِّه وإساءَةِ مُعامَلتِه[(٢)].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بما كان بدايةً له؛ ثَنَّى بما هو نهايةٌ له مِن حيثُ كَونُه يصيرُ رأسَ الخَلْقِ، فيَصيرُ محطَّ الرِّجالِ في كُلِّ سُؤالٍ مِن عِلمٍ ومالٍ؛ فقال مقَدِّمًا له اهتِمامًا به، إشارةً إلى أنَّ جَبرَ الخواطِرِ واستِئلافَ الخَلْقِ هو مِن أعظَمِ المقاصِدِ في تمامِ الدِّينِ[(٣)]:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

أي: وأمَّا الَّذي يَسألُك شَيئًا فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه[(٤)].

= قال ابن القيِّم: (أجمَعَ المفَسِّرونَ أنَّ العائِلَ هو الفَقيرُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٠)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَيْنَما نحن جُلوسٌ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المسجِدِ، دخَلَ رجُلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المسجِدِ ثمَّ عَقَلَه[1]، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّكِئٌ بيْن ظَهرانَيْهم، فقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبيضُ المتَّكِئُ. فقال له الرَّجُلُ: يا ابنَ عبدِ المطَّلِبِ، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد أجَبْتُك. فقال الرَّجُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي سائِلُك فمُشَدِّدٌ عليك في المسألةِ، فلا تَجِدْ علَيَّ في نَفْسِك، فقال: سَلْ عمَّا بدا لك، فقال: أسألُك بربِّك وربِّ مَن قَبْلَك، آللهُ أرسَلَك إلى النَّاسِ كُلِّهم؟

= ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢، ٤٠٣).

قيل: المرادُ بالسَّائِلِ هنا: سائِلُ الصَّدَقةِ والمعروفِ مِن الفُقراءِ والمساكينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، ونسَبه ابنُ القيِّمِ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

ومِمَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ: سائِلُ العِلمِ المُسترشِدُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

ومِمَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ، ويحيى بنُ آدَمَ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ كِلا المعنيَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ القيِّمِ، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(١) عَقَلَه: أي: شدَّ على ساقِه مع ذراعِه حَبلًا بعدَ أن ثَنَى رُكْبَتَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ١٦٠).

فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك[١] باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نُصَلِّيَ الصَّلَواتِ الخَمْسَ في اليَوم واللَّيلةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نَصومَ هذا الشَّهرَ مِنَ السَّنةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن تأخُذَ هذه الصَّدَقةَ من أغنيائنا فتَقسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضِمَامُ بنُ ثَعْلبةَ أخو بني سَعدِ بنِ بَكرٍ))[٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

أي: وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك[٣].

---

(١) أَنشُدُك: أي: أسألُك، وأصلُه مِن النَّشيدِ، وهو الصَّوتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).
قال ابنُ الجوزي: (في النِّعمةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: النُّبُوَّةُ. والثَّاني: القرآنُ. رُوِيَا عن مجاهدٍ. والثَّالثُ: أنَّها عامَّةٌ في جميعِ الخَيراتِ. وهذا قَولُ مُقاتلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣).
وممَّن قال بأنَّها النُّبُوَّةُ: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٦).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ جنسُ النِّعَمِ؛ فهي تَعُمُّ نِعَمَ الدِّينِ والدُّنيا: الثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).
قال الفَرَّاء: (فكان القُرآنُ أعظَمَ نِعمةِ اللهِ عليه، فكان يقرَؤُه ويحَدِّثُ به وبغَيرِه مِن نِعَمِه). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ دَلالةٌ على اللُّطفِ باليَتيمِ، وبِرِّه، والإحسانِ إليه[1]. ولا يَدخُلُ في الآيةِ القَهرُ مِن أجْلِ الاستصلاحِ، كضَربِ التَّأديبِ؛ فهو مِن حُقوقِ التَّربيةِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾[2] [البقرة: ٢٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ هذا في مُقابلةِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإذا كان اللهُ آواك في يُتْمِك فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، إلَّا أنْ يكونَ قهرًا في مصلحةٍ له؛ فهذا ليس قَهرًا في الحقيقةِ وإنْ كان قَهرًا ظاهريًّا، ولكنَّ المصلحةَ عظيمةٌ لهذا اليتيمِ، فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، بل أَكرِمِ اليتيمَ، والإحسانُ إلى اليتامى وإكرامُهم مِن أوامرِ الشَّريعةِ، ومِن حَسَناتِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ اليتيمَ الَّذي مات أبوه قبْلَ أن يَبلُغَ مُنكَسِرُ الخاطرِ، يحتاجُ إلى جَبْرٍ، يَحتاجُ إلى مَن يُسَلِّيه، وإلى مَن

= ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٥).

وممَّن قال: ﴿فَحَدِّثْ﴾ أي: بالقرآنِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قَولُه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال مجاهدٌ: بالقرآنِ. وقال الكلبيُّ: بمعنى: أظهِرْها. والقرآنُ أعظَمُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه، فأمَره أنْ يُقرِئَه ويُعلِّمَه. وروى أبو بشرٍ عن مجاهدٍ: حدِّثْ بالنُّبُوَّةِ الَّتي أعطاك اللهُ. وقال الزَّجَّاجُ: بلِّغْ ما أُرسِلتَ به، وحدِّثْ بالنُّبوَّةِ الَّتي آتاك، وهي أجَلُّ النِّعَمِ. وقال مقاتلٌ: اشكُرْ هذه النِّعمةَ الَّتي ذكرتُ في هذه السُّورةِ. والتَّحقيقُ أنَّ النِّعَمَ تَعُمُّ هذا كُلَّه؛ فأُمِرَ ألَّا يَنهَرَ سائِلَ المعروفِ والعِلمِ، وأن يُحَدِّثَ بنِعَمِ اللهِ عليه في الدِّينِ والدُّنيا). ((التبيان)) (ص: ٧٥).

وقيل: المرادُ: كما كُنتَ عائلًا فقيرًا فأغناك اللهُ، فحَدِّثْ بنعمةِ اللهِ عليك. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

قال القاسميُّ: (سياقُ الآياتِ يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مقابلةٌ لقولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾، فتكونُ النِّعمةُ بمعنى الغِنَى). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

يُدخِلُ عليه السُّرورَ، لا سيَّما إذا كان قد بَلَغَ سِنًّا يَعرِفُ به الأُمورَ، كالسَّابعةِ والعاشرةِ وما أشْبَهَ ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مُقابِلِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وأوَّلُ ما يَدخُلُ في السَّائلِ السَّائلُ عن الشَّريعةِ وعن العِلمِ، فلا تَنْهَرْه؛ لأنَّه إذا سألك يريدُ أنْ تُبيِّنَ له الشَّريعةَ وَجَبَ عليك أنْ تُبيِّنَها له؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فلا تَنْهَرْه، إنْ نَهَرْتَه نَفَّرْتَه، ثُمَّ إنَّك إذا نَهَرْتَه وهو يَعتقدُ أنَّك فوقَه -لأنَّه لم يأتِ يسألُ إلَّا أنَّه يَعتقدُ أنَّك فوقَه- أصابه الرُّعبُ، واختلفتْ حَواسُّه، ورُبَّما لا يَفْقَهُ ما يُلقي إليك مِن السُّؤالِ، أو لا يَفْقَهُ ما تُلقيه إليه مِن الجوابِ، وقِسْ نفْسَك أنت، لو كلَّمتَ رجُلًا أكبرَ منك منزلةً ثُمَّ نَهَرك ضاعتْ حواسُّك، ولم تستطِعْ أنْ تُرتِّبَ فِكْرَك وعَقْلَك؛ لهذا لا تَنْهَرِ السَّائلَ، ورُبَّما يَدخُلُ في ذلك أيضًا سائلُ المالِ، يعني إذا جاءك سائِلٌ يسألُك مالًا فلا تَنْهَرْه. لكنَّ هذا العُمومَ يَدخلُه التَّخصيصُ؛ إذا عرَفْتَ أنَّ السَّائلَ في العِلمِ إنَّما يريدُ التَّعَنُّتَ، وأخْذَ رأيِك وأَخْذَ رأيِ فُلانٍ وفُلانٍ حتَّى يَضربَ آراءَ العلماءِ بعضَها ببعضٍ، فهنا لك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، وأنْ تقولَ: يا فلانُ، اتَّقِ اللهَ، ألم تَسألْ فلانًا؟ كيف تسألُني بعدَما سألتَه؟! أتلعَبُ بدِينِ اللهِ؟! أتُريدُ إنْ أفتاك النَّاسُ بما تُحِبُّ سَكَتَّ، وإنْ أفتَوك بما لا تُحِبُّ ذهبْتَ تسألُ؟! هذا لا بأسَ أنْ تَنْهَرَه؛ لأنَّ هذا النَّهْرَ تأديبٌ له، وكذلك سائلُ المالِ؛ إذا عَلِمْتَ أنَّ الَّذي سألك المالَ غنيٌّ، فلك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، ولك الحقُّ أيضًا أنْ تُوَبِّخَه على سُؤالِه وهو غنيٌّ، إذَنْ هذا العمومُ ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مخصوصٌ فيما إذا اقتضَتِ المصلحةُ أنْ يُنْهَرَ، فلا بأسَ[٢]. وكذلك لا يَدخُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في النَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ نهيُ السَّائِلِ عن مُخالَفةِ آدابِ السُّؤالِ في الإسلامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أي: لا يَصدُرْ منك إلى السَّائِلِ كلامٌ يَقتضي رَدَّه عن مطلوبِه بنَهْرٍ وشَراسةِ خُلُقٍ، بل أعْطِه ما تيسَّرَ عندَك، أو رُدَّه بمعروفٍ وإحسانٍ، وهذا يدخُلُ فيه السَّائِلُ للمالِ، والسَّائِلُ للعِلمِ؛ ولهذا كان المعلِّمُ مأمورًا بحُسنِ الخُلُقِ مع المتعَلِّمِ، ومُباشرتِه بالإكرامِ والتَّحَنُّنِ عليه؛ فإنَّ في ذلك مَعونةً له على مَقصَدِه، وإكرامًا لِمَن كان يَسعى في نَفعِ العِبادِ والبِلادِ[٢].

٥- يُستفادُ مِنَ النَّهيِ عن القَهْرِ والنَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ النَّهيُ عمَّا هو أشَدُّ منهما في الأذى؛ كالشَّتمِ، والضَّربِ، والاستيلاءِ على المالِ، وتَرْكِه مُحتاجًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ هذا يَشملُ النِّعَمَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ. ﴿فَحَدِّثۡ﴾ أي: أثْنِ على اللهِ بها، وخَصِّصْها بالذِّكرِ إن كان هناك مَصلَحةٌ، وإلَّا فحَدِّثْ بنِعَمِ اللهِ على الإطلاقِ؛ فإنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ داعٍ لشُكْرِها، ومُوجِبٌ لتحبيبِ القُلوبِ إلى مَن أنعَمَ بها؛ فإنَّ القُلوبَ مجبولةٌ على محبَّةِ المحسِنِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ أنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ على وَجهِ إظهارِ نِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مع التَّواضُعِ؛ أنَّ هذا لا بأسَ به[٥]، خِلافًا للتَّحَدُّثِ بالنِّعمةِ افتِخارًا بها على الخَلْقِ؛ لأنَّك إذا فعلْتَ ذلك افتخارًا على الخَلْقِ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٧٨).

هذا مذمومًا، أمَّا إذا ذَكَرْتَ نعمةَ اللهِ عليك تَحَدُّثًا بالنِّعَمِ، وشُكرًا للمُنْعِمِ؛ فهذا ممَّا أَمَرَ اللهُ به(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]؟

الجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ معناه: أنْ يَتَحَدَّثَ الإنسانُ بما أنْعَمَ اللهُ عليه، لا أنْ يُزَكِّيَ نفْسَه على رَبِّه، وبيْنَهما فَرْقٌ: إنسانٌ يقولُ: إنَّه صلَّى، زَكَّى، صام، حَجَّ، يريدُ أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويُزكِّي نفْسَه على اللهِ، هذا هو الممنوعُ، لكنْ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فيقولُ: الحَمدُ للهِ، هداني بعدَ أنْ كنتُ كذا وكذا؛ فهذا لا بأسَ به(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ إقسامُه سُبحانَه على إنعامِه على رَسولِه وإكرامِه له وإعطائِه ما يُرضيه، وذلك متضَمِّنٌ لتصديقِه له، فهو قَسَمٌ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه وعلى جزائِه في الآخرةِ، فهو قَسَمٌ على النُّبُوَّةِ والمَعادِ، وأقسَمَ بآيتَينِ عَظيمتَينِ مِن آياتِه دالَّتَينِ على رُبوبيَّتِه وحِكمتِه ورحمتِه، وهما اللَّيلُ والنَّهارُ، فتأمَّلْ مُطابَقةَ هذا القَسَمِ -وهو نورُ الضُّحى الَّذي يوافي بعدَ ظلامِ اللَّيلِ- للمُقْسَمِ عليه -وهو نورُ الوَحيِ الَّذي وافاه بعدَ احتباسِه عنه، حتى قال أعداؤه: وَدَّعَ محمَّدًا ربُّه-، فأَقْسَمَ بضَوءِ النَّهارِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ على ضَوءِ الوَحيِ ونُورِه بعدَ ظُلْمةِ احتباسِه واحتجابِه، وأيضًا فإنَّ فالِقَ ظُلمةِ اللَّيلِ عن ضوءِ النَّهارِ هو الَّذي فَلَقَ ظُلمةَ الجَهلِ والشِّركِ بنُورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ فهذان للحِسِّ، وهذان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٧٣).

للعَقلِ، وأيضًا فإنَّ الَّذي اقتضَتْ رحمتُه ألَّا يَترُكَ عِبادَه في ظُلمةِ اللَّيلِ سَرْمدًا بل هداهم بضَوءِ النَّهارِ إلى مَصالِحِهم ومَعايشِهم: لا يَليقُ به أنْ يَترُكَهم في ظُلمةِ الجَهلِ والغَيِّ، بل يَهديهم بنورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ إلى مَصالحِ دُنياهم وآخِرتِهم؛ فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباطِ المُقْسَمِ به بالمُقْسَمِ عليه، وتأمَّلْ هذه الجزالةَ والرَّونَقَ الَّذي على هذه الألفاظِ، والجلالةَ الَّتي على معانيها[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ونُزولِه بسَبَبِ واقِعةِ إبطاءِ جِبريلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَلالةٌ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لو كان مِن عندِه لَما امتَنَع[(٢)]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ اللَّامُ في «الآخِرةِ» و«الأُولى» لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلٍ أمْرُه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى -على قولٍ-، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّكَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أي: خيرٌ مُختصٌّ بك، وهو شامِلٌ لكلِّ ما لَه تَعلُّقٌ بنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذاتِه، وفي دِينِه، وفي أُمَّتِه، فهذا وَعدٌ مِن اللهِ تعالى بأنْ يَنشُرَ دِينَ الإسلامِ، وأنْ يُمكِّنَ أُمَّتَه مِن الخَيراتِ الَّتي يَأمُلُها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أنَّ الدُّنيا مهما طالَتْ فهي قليلةٌ، ولا تُنْسَبُ للآخِرةِ[(٤)].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ولَمْ يَقُلْ: خيرٌ على الإطلاقِ! وإنَّما

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٥).

المعنى: خيرٌ لك ولِمَن آمَنَ بك[١].

٦- قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ وقد اغترَّ بعضُهم بفَهمٍ فاسدٍ فيه، واتَّكلوا عليه، فقالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَرضى أنْ يكونَ في النَّارِ أحدٌ مِن أُمَّتِه، وهذا مِن أقبَحِ الجَهْلِ، وأبيَنِ الكَذِبِ عليه؛ فإنَّه يَرضى بما يَرضى به ربُّه عَزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى يُرضيه تَعذيبُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ والخَوَنةِ والمصِرِّينَ على الكبائرِ، فحاشا رَسولَه أنْ يَرضى بما لا يَرضى به ربُّه تبارك وتعالى[٢]!

٧- سُورةُ الضُّحى توالى فيها قَسَمانِ، وجَوابانِ مُثبَتانِ، وجوابانِ نافيانِ؛ فالقَسَمانِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، والجوابانِ النَّافيانِ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، والجوابانِ المثبَتانِ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ * وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ * فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ * وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ذَكَر سُبحانَه نِعَمَه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن إيوائِه بَعْدَ يُتْمِه، وهِدايتِه بعْدَ الضَّلالةِ، وإغنائِه بعدَ الفَقْرِ، فكان مُحتاجًا إلى مَن يُؤْويه ويَهْديه ويُغْنيه، فآواه رَبُّه وهَداه وأغناه؛ فأمَرَه سُبحانَه أن يُقابِلَ هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ بما يَليقُ بها مِنَ الشُّكرِ[٤]، فكما عَدَّد اللهُ عليه هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ وصَّاه بثلاثِ وصايا، في كُلِّ نِعمةٍ وَصِيَّةٌ مُناسِبةٌ لها؛ فبإزاءِ قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ قَولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾،

(١) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٤) وقد نقَلَه عن ابنِ هُبَيرةَ.

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٣، ١٦٤) نقلًا عن ابن هُبيرةَ.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

هذا على قولِ مَن قال: إنَّ السَّائلَ هنا هو السَّائِلُ عن العِلمِ والدِّينِ، وليس بسائلِ المالِ، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ قولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾، ومَن قال: إنَّ السَّائِلَ هو سائِلُ المالِ المحتاجُ جعَلَها بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾، وجَعَل قَولَه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ جاء التَّعبيرُ -واللهُ أعلَمُ- بـ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لسَبَبٍ لفظيٍّ، وسببٍ معنويٍّ؛ أمَّا السَّبَبُ اللَّفظيُّ فمِن أجْلِ أن تتوافقَ رُؤوسُ الآياتِ من أوَّلِ السُّورةِ، وأمَّا السَّبَبُ المعنويُّ فإنَّه لو كان التَّعبيرُ «فآواك» اختصَّ الإيواءُ به صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، والأمرُ أوسعُ مِن ذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالى آواه وآوى به؛ آوى به المؤمِنينَ، فنَصَرَهم وأيَّدَهم، ودَفَعَ عنهم، بل دافعَ عنهم سُبحانَه وتعالى.

وقال: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يأتِ التَّعبيرُ «فهَدَاك»؛ لِيَكونَ هذا أشملَ وأوسعَ؛ فهو قد هَدَاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهَدَى اللهُ به، فهو هادٍ مَهديٌّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقال: ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]. وما أكثَرَ ما غَنِمَ المُسلِمونَ مِنَ الكُفَّارِ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، غنائِمَ عظيمةً كثيرةً كُلُّها بسَبَبِ هذا الرَّسولِ الكريمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ اهتَدَوا بهَدْيِه، واتَّبَعوا سُنَّتَه، فنَصَرَهم اللهُ تعالى به، وغَنِموا مِن مَشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها[٢]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ سؤالٌ: كيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).

يَحسُنُ مِنَ الجَوَادِ أن يَمُنَّ بنِعَمِه، فيَقولَ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾؟! والَّذي يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن فِرعَونَ أنَّه قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: ١٨] في مَعرِضِ الذَّمِّ لفِرعَونَ، فما كان مذمومًا مِن فِرعَونَ كيف يحسُنُ مِنَ اللهِ؟!

الجوابُ: أنَّ ذلك يَحسُنُ إذا قَصَد بذلك أن يقوِّيَ قَلْبَه، ويَعِدَه بدَوام النِّعمةِ، وبهذا يظهَرُ الفَرقُ بيْن هذا الامتنانِ وبيْن امتنانِ فِرعَونَ؛ لأنَّ امتنانَ فِرعَونَ مُحبِطٌ؛ لأنَّ الغَرَضَ: «فما بالُك لا تَخدُمُني؟!»، وامتنانَ اللهِ بزيادةِ نِعَمِه، كأنَّه يقولُ: «ما لَك تَقطَعُ عنِّي رجاءَك؟! ألَسْتُ شَرَعْتُ في تربيتِك؟ أتَظُنُّني تاركًا لِما صَنعْتُ؟! بل لا بدَّ أن أتمِّمَ عليك وعلى أمَّتك النِّعمةَ»، كما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أمَا عَلِمْتَ أنَّ الحامِلَ الَّتي تُسقِطُ الوَلَدَ قبْلَ التَّمامِ مَعيبةٌ تُرَدُّ؟! ولو أسقَطَت أو الرَّجُلُ أسقَطَ عنها بعِلاجٍ تجِبُ الغُرَّةُ[1] وتَستَحِقُّ الذَّمَّ؟! فكيف يَحسُنُ ذلك مِنَ الحيِّ القيُّومِ؟! فما أعظَمَ الفَرقَ بيْن مانٍّ هو اللهُ، وبيْن مانٍّ هو فِرعَونُ[2]!

وأيضًا فإنَّ المِنَّةَ مِنَ المخلوقِ عَيبٌ ونَقْصٌ وأذًى، وأمَّا مِنَّةُ الخالِقِ فليست كذلك، وقد قال اللهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ [الحجرات: ١٧].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيواءَ والهُدى والغِنى مِنَ اللهِ؛ لإسنادِها هنا للهِ تعالى، ولكِنْ في السِّياقِ لطيفةٌ دقيقةٌ، وهي: في مَعرِضِ التَّقريرِ يأتي بكافِ الخِطابِ: «ألَمْ يَجِدْك يتيمًا، ألم يجِدْك ضالًّا، ألم يِجْدك عائلًا»؟! لتأكيدِ التَّقريرِ، ولم

(١) الغُرَّةُ: أي: مَمْلوكٌ عَبدٌ أو أَمَةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٦).

يُسنِدِ اليُتمَ ولا الإضلالَ ولا الفقْرَ للهِ، مع أنَّ كُلَّه مِن اللهِ، فهو الَّذي أوقع عليه اليُتمَ، وهو سُبحانَه الَّذي منه كُلُّ ما وَجَده عليه؛ وذلك لِما فيه من إيلامٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان ضالًّا قبل الوَحيِ، مع أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] يدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فُطِرَ على هذا الدِّينِ الحنيفِ، ومعلومٌ أنَّه لم يُهَوِّدْه أبَواه ولم يُنَصِّراه، ولم يُمَجِّساه، بل لم يَزَلْ باقيًا على الفِطرةِ حتَّى بَعَثه اللهُ رَسولًا، ويدُلُّ لذلك ما ثبَت مِن أنَّ أوَّلَ نُزولِ الوَحيِ كان وهو يتعبَّدُ في غارِ حِراءٍ، فذلك التَّعبُّدُ قبْلَ نُزولِ الوَحيِ دليلٌ على البقاءِ على الفِطرةِ.

الجوابُ: أنَّ معنى قَولِه: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غافِلًا عمَّا تَعلَمُه الآنَ مِنَ الشَّرائِعِ وأسرارِ عُلومِ الدِّينِ الَّتي لا تُعلَمُ بالفِطرةِ ولا بالعَقلِ، وإنَّما تُعلَمُ بالوَحْيِ؛ فهَداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فمعنى الضَّلالِ على هذا القَولِ: الذَّهابُ عن العِلمِ، ومنه بهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ المرادَ بالإيمانِ شَرائِعُ دينِ الإسلامِ[2].

١٣- النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأكُلُ الصَّدَقةَ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، ولأنَّ أَخْذَ الصَّدَقةِ مَنزِلةُ ضَعَةٍ، والأنبياءُ مُنَزَّهون عن ذلك؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كما وَصَفَه اللهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والصَّدَقةُ لا تَحِلُّ للأغنياءِ،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٤).

وهذا بخِلافِ الهَديَّةِ؛ فإنَّ العادةَ جاريةٌ بالإثابةِ عليها[(١)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ اختيارُ قَولِه: ﴿فَحَدِّثْ﴾ على قولِه: «فخَبِّرْ»؛ لِيَكونَ ذلك حديثًا عِندَه لا يَنساه، ويُعيدُه مرَّةً بعدَ أُخرى[(٢)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنْ أخَّرَ اللهُ تعالى حَقَّ نَفْسِه عن حقِّ اليتيمِ والعائلِ؟

الجوابُ: فيه وُجوهٌ:

أحَدُها: كأنَّه يقولُ: أنا غَنيٌّ، وهما مُحتاجانِ، وتقديمُ حَقِّ المُحتاجِ أَولى.

ثانيها: أنَّه وَضَع في حَظِّهما الفِعلَ، ورَضِيَ لنَفْسِه بالقَولِ.

ثالثُها: أنَّ المقصودَ مِن جميعِ الطَّاعاتِ استِغراقُ القَلْبِ في ذِكرِ اللهِ تعالى؛ فجَعَل خاتِمةَ هذه الطَّاعاتِ تحَدُّثَ القَلْبِ واللِّسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى؛ حتَّى يكونَ خَتْمُ الطَّاعاتِ على ذِكرِ اللهِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾

- القسَمُ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ لتَأكيدِ الخبَرِ ردًّا على زَعْمِ المشرِكينَ أنَّ الوحْيَ انقطَعَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ رَأَوْه لم يَقُمِ اللَّيلَ بالقُرآنِ بِضعَ لَيالٍ؛ فالتَّأكيدُ مُنصَبٌّ على التَّعريضِ المُعرَّضِ به لإبطالِ دَعْوى المشرِكين، فالتَّأكيدُ تَعريضٌ بالمشرِكينَ، وأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يَتردَّدُ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في وُقوعِ ما يُخبِرُه اللهُ بوُقوعِه[١].

- وإنَّما خُصَّ وقْتُ الضُّحى هنا بالقَسَمِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَقْوَى فيه[٢]؛ فمُناسَبةُ القسَمِ بالضُّحى واللَّيلِ: أنَّ الضُّحى وقْتُ انبِثاقِ نُورِ الشَّمسِ، فهو إيماءٌ إلى تَمثيلِ نُزولِ الوحْيِ وحُصولِ الاهتِداءِ به، وأنَّ اللَّيلَ وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ، وهو الوقتُ الَّذي كان يَسمَعُ فيه المشركون قِراءتَه مِن بُيوتِهم القَريبةِ مِن بَيتِه أو مِن المسجِدِ الحرامِ؛ ولذلك قُيِّدَ اللَّيلُ بظَرْفِ ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، فلعلَّ ذلك وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٢، ٣].

- وتَقديمُ اللَّيْلِ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١، ٢] باعتبارِ الأصلِ، وتَقديمُ النَّهارِ هاهنا ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ باعتِبارِ الشَّرفِ[٤].

وقيل: الحِكمةُ في أنَّه تعالَى في السُّورةِ الماضيةِ قدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ، وفي هذه السُّورةِ أخَّرَه: أنَّ باللَّيلِ والنَّهارِ يَنتظِمُ مَصالحُ المكلَّفينَ، واللَّيلُ له فَضيلةُ السَّبقِ؛ لقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وللنَّهارِ فَضيلةُ النُّورِ -بلِ اللَّيلُ كالدُّنيا، والنَّهارُ كالآخرةِ-، فلمَّا كان لكلٍّ واحدٍ فَضيلةٌ لَيستْ للآخَرِ؛ لا جَرَم قُدِّمَ هذا على ذاك تارةً، وذاك على هذا أُخرى، ونَظيرُه أنَّه تعالَى قدَّمَ السُّجودَ على الرُّكوعِ في قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، ثمَّ قدَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩).

الرُّكوعَ على السُّجودِ في قولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]. وقيل غيرُ ذلك[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ نفْيٌ لأنْ يكونَ اللهُ قَطَعَ عنه الوحْيَ، وقد عُطِفَ عليه ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ للإتيانِ على إبطالِ مَقالتَيِ المشرِكينَ؛ إذ قال بَعضُهم: ودَّعَه ربُّه، وقال بَعضُهم: قَلَاهُ ربُّه، يُريدون التَّهكُّمَ[٢].

- والتَّوديعُ مُبالَغةٌ في الوَدْعِ؛ لأنَّ مَن وَدَعَك مُفارِقًا فقدْ بالَغَ في تَرْكِك[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿قَلَىٰ﴾؛ لدَلالةِ ﴿وَدَّعَكَ﴾ عليه، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وهو إيجازٌ لَفظيٌّ؛ لظُهورِ المحذوفِ، ومِثلُه قولُه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾، ومُراعاةً للفواصلِ[٤].

- وقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ [ضحى: ٣] بكافِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّوديعَ يكونُ لِمَنْ تُحِبُّ ولِمَنْ تَكْرَهُ، أمَّا في القِلَى فلمْ يقُلْ: قَلاك؛ لأنَّ القِلَى لا يكونُ إلَّا لِمَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٠، ١٩١).

قال ابن جماعة: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ قدَّم فيها القسَمَ بالليلِ، وفى «الضُّحَى» قدَّم القسَمَ بالنَّهارِ.

جوابُه: لمَّا كان المقسَمُ عليه هنا: سعيُ الإنسانِ، وغالبُه المعاصى؛ قدَّم اللَّيلَ الذى هو مظِنَّةُ الظلمةِ، ولمَّا كان المقسَمُ عليه فى الضُّحَى لطفُه بنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم قدَّم الضُّحَى لحسنِه). ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

تَكْرَهُ[١].

- وقدْ نزَلَتْ رَدًّا على المشركين قولَهم: إنَّ محمَّدًا وَدَّعَهُ ربُّهُ وقَلَاهُ، وتَبْشيرًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكَرامةِ الحاصِلةِ والمُترَقَّبةِ، كما يُشعِرُ به إيرادُ اسمِ الرَّبِّ المُنبِئِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، فهو كَلامٌ مُبتدأٌ به، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الابتدائيَّةِ، وليستْ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، بلْ هي ابتدائيَّةٌ، لَمَّا كان في ضِمنِ نفْيِ التَّوديعِ والقِلَى: أنَّ اللهَ مُواصِلُك بالوحْيِ إليك، وأنَّك حَبيبُ اللهِ، ولا تَرى كَرامةً أعظَمَ مِن ذلك، ولا نِعمةً أجَلَّ منه؛ أخْبَرَه أنَّ حالَه في الآخرةِ أعظَمُ مِن ذلك وأجَلُّ، وهو السَّبقُ والتَّقدُّمُ على جَميعِ أنبياءِ اللهِ ورُسلِه، وشَهادةُ أُمَّتِه على سائرِ الأُمَمِ، ورفْعُ دَرَجاتِ المؤمنينَ وإعلاءُ مَراتبِهم بشَفاعتِه، وغيرُ ذلك مِن الكَراماتِ السَّنِيَّةِ[٣].

- وما في تَعريفِ (الآخِرةِ) و(الأُولى) مِن التَّعميمِ يَجعَلُ معْنى هذه الجُملةِ في معْنى التَّذييلِ الشَّاملِ لاستِمرارِ الوحْيِ، وغيرِ ذلك مِن الخيرِ[٤].

- والآخِرةُ: مُؤنَّثُ الآخِرِ، والأُولى: مُؤنَّثُ الأوَّلِ، وغَلَبَ لَفظُ الآخرةِ في اصطلاحِ القُرآنِ الكريمِ على الحياةِ الآخِرةِ وعلى الدَّارِ الآخِرةِ، كما غَلَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (١٥/ ٩١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

لَفظُ الأُولى على حَياةِ النَّاسِ الَّتي قبْلَ انخِرامِ هذا العالَمِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هنا مِن كِلا اللَّفظينِ كِلا مَعنيَيه، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ الآخرةَ خيرٌ له مِن هذه الحياةِ العاجِلةِ؛ تَبشيرًا له بالخَيراتِ الأبديَّةِ، ويُفيدُ أنَّ حالاتِه تَجْري على الانتقالِ مِن حالةٍ إلى أحسَنَ منها، فيكونَ تأنيثُ الوَصفَينِ جاريًا على حالَتَي التَّغليبِ وحالَتَي التَّوصيفِ، ويكونَ التَّأنيثُ في هذا المعْنى الثَّاني لمُراعاةِ معْنى الحالةِ، ويُومِئُ ذلك إلى أنَّ عَودةَ نُزولِ الوحْيِ عليه هذه المرَّةَ خيرٌ مِن العَودةِ الَّتي سَبقَت، أي: تَكفَّلَ اللهُ بألَّا يَنقطِعَ عنه نُزولُ الوحْيِ مِن بعْدُ؛ فاللَّامُ في (الآخرة) و(الأُولى) لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلِ أمْرِه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جُملةِ القسَمِ كلِّها، وحرْفُ الاستقبالِ لإفادةِ أنَّ هذا العطاءَ الموعودَ به مُستمِرٌّ لا يَنقطِعُ[2].

- واللَّامُ في ﴿وَلَسَوْفَ﴾ للابتداءِ، دَخَلتِ الخبرَ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ، والمُبتدأُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ولَأنتَ سَوفَ يُعطيكَ... إلخ، لا للقسَمِ؛ لأنَّها لا تَدخُلُ على المضارعِ إلَّا معَ النُّونِ المؤكِّدةِ، وجمْعُها معَ (سوفَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا مَحالةَ وإنْ تَراخَى لحِكمةٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ حذْفٌ؛ فقدْ حُذِفَ مَفعولُ ﴿يُعْطِيكَ﴾ الثَّاني تَهويلًا لأمْرِه، واستِعظامًا لشَأنِه، وأنَّ هذه المُعطَياتِ أجَلُّ مِن أنْ تُذكَرَ، وأكبَرُ مِن أنْ تُدرجَ، أي: الشَّيءُ الكثيرُ؛ مِن تَوارُدِ الوحْيِ عليك بما فيه إرشادٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

لك ولقَومِك، ومِن ظُهورِ دِينِك، وعُلوِّ كَلمتِك، وإسعادِ قَومِك بما تَشرَعُ لهم، وإعلائِك وإعلائِهم على الأُمَمِ في الدُّنيا والآخرةِ[1]؛ فقولُه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وَعدٌ شاملٌ لِما أعطاهُ في الدُّنيا مِن الفَوْزِ والظَّفَرِ بأعدائِه يومَ بدْرٍ ويومَ فتْحِ مكَّةَ وغيرِها، ودُخولِ النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وما فَتَحَ على الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن بعْدَهم مِن أقْطارِ الأرضِ شَرْقًا وغَرْبًا، ولِما ادَّخَرَ له مِن الثَّوابِ الَّذي لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[2]. فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لكَلمةِ ﴿يُعْطِيكَ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرْجوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيرٍ لنفْسِه ولأُمَّتِه، فكان مُفادُ هذه الجُملةِ تَعميمَ العطاءِ، كما أفادَتِ الجُملةُ قبْلَها تَعميمَ الأزمنةِ[3].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾؛ لإفادةِ كَونِ العَطاءِ عاجِلَ النَّفعِ بحيث يَحصُلُ به رِضا المُعطَى عندَ العطاءِ، فلا يَترقَّبُ أنْ يَحصُلَ نفْعُه بعْدَ تَربُّصٍ[4].

- وتَعريفُ ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافةِ دونَ اسمِ اللهِ العَلَمِ؛ لِما يُؤذِنُ به لَفظُ (ربّ) مِن الرَّأفةِ واللُّطفِ، وللتَّوسُّلِ إلى إضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبِ؛ لِما في ذلك مِن الإشعارِ بعِنايتِه برَسولِه، وتَشريفِه بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِه[5].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ الدَّليلِ على تَحقُّقِ الوعْدِ، أي: هو وَعْدٌ جارٍ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦، ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على سَنَنِ ما سَبَقَ مِن عِنايةِ اللهِ بكَ مِن مَبدأِ نَشأتِك ولُطفِه في الشَّدائدِ باطِّرادٍ، بحيث لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلك مِن قَبيلِ الصُّدَفِ؛ لأنَّ شَأنَ الصُّدَفِ ألَّا تتكرَّرَ؛ فقد عُلِمَ أنَّ اطِّرادَ ذلك مُرادٌ للهِ تعالَى، والمقصودُ مِن هذا إيقاعُ اليَقينِ في قُلوبِ المشرِكين بأنَّ ما وَعَدَه اللهُ به مُحقَّقُ الوُقوعِ، قياسًا على ما ذَكَّرَه به مِن مُلازَمةِ لُطْفِه به فيما مَضى -وهم لا يَجهَلون ذلك- عَسى أنْ يُقلِعوا عن العِنادِ، ويُسرِعوا إلى الإيمانِ، وإلَّا فإنَّ ذلك مَساءةٌ تَبْقى في نُفوسِهم، وأشباحُ رُعبٍ تُخالِجُ خَواطِرَهم، ويَحصُلُ مع هذا المقصودِ امتنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَقويةٌ لاطمئنانِ نفْسِه بوَعْدِ اللهِ تعالَى إيَّاه[1].

- والهَمزةُ لإنكارِ النَّفيِ، وتَقريرِ المَنفيِّ على أبلَغِ وَجْهٍ، كأنَّه قيلَ: قد وَجَدَك... إلخ[2].

- وحُذِفَت مَفاعيلُ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ للعِلمِ بها مِن ضَمائرِ الخِطابِ قبْلَها؛ إذ يُعلَمُ أنَّه ضَميرُ المُخاطَبِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحذْفُها إيجازٌ، وفيه رِعايةٌ على الفواصلِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ الفاءُ الأُولى فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن مُقدَّرٍ، و(أمَّا)

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).

تُفيدُ شَرطًا مُقدَّرًا، تَقديرُه: مهْما يكُنْ مِن شَيءٍ، فكان مُفادُها مُشعِرًا بشَرْطٍ آخَرَ مُقدَّرٍ هو الَّذي اجتُلِبَت مِن أجْلِه فاءُ الفَصيحةِ، وتَقديرُ نظْمِ الكلامِ: إذ كنتَ تَعلَمُ ذلك وأقرَرْتَ به، فعليكَ بشُكرِ ربِّك، وبيَّن له الشُّكرَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ...﴾ إلخ، وقد جُعِلَ الشُّكرُ هنا مُناسِبًا للنِّعمةِ المشكورِ عليها، وإنَّما اعتُبِرَ تَقديرُ: إذا أرَدْتَ الشُّكرَ؛ لأنَّ شُكرَ النِّعمةِ تَنساقُ إليه النُّفوسُ بدافعِ المُروءةِ في عُرفِ النَّاسِ. وصُدِّرَ الكلامُ بـ (أمَّا) التَّفصيليَّةِ؛ لأنَّه تَفصيلٌ لمُجمَلِ الشُّكرِ على النِّعمةِ، ولَمَّا كانت (أمَّا) بمعْنى: (ومهْما يكُنْ شَيءٌ)، قُرِنَ جَوابُها بالفاءِ[١].

- و﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وقُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بشَأنِه، وكذلك تَقديمُ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ و﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ على فِعلَيهِما[٢].

- وقد قُوبِلَت النِّعَمُ الثَّلاثُ المُتفرِّعُ عليها هذا التَّفصيلُ بثَلاثةِ أعمالٍ تُقابِلُها، فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ[٣]؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١).

(٣) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشْرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحد منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، =

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، أي: فكَما آواكَ ربُّك وحَفِظَك مِن عَوارضِ النَّقصِ المُعتادِ لليُتْم، فكنْ أنت مُكرِمًا للأيتامِ رَفيقًا بهم، فجُمِعَ ذلك في النَّهيِ عن قَهْرِه؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَقهَرون الأيتامَ.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ مُقابِلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ لأنَّ الضَّلالَ يَستدعي السُّؤالَ عن الطَّريقِ، فالضَّالُّ مُعتبَرٌ مِن صِنْفِ السَّائلينَ، والسَّائلُ عن الطَّريقِ قد يَتعرَّضُ لحَماقةِ المسؤولِ، فجَعَلَ اللهُ الشُّكرَ عن هِدايتِه إلى طَريقِ الخيرِ أنْ يُوسِّعَ بالَهُ للسَّائلينَ، فلا يَختَصُّ السَّائلُ بسائلِ العَطاءِ، بلْ يَشملُ كلَّ سائلٍ، وأعظَمُ تَصرُّفاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإرشادِ المُسترشِدينَ، والتَّعريفُ في السَّائلِ تَعريفُ الجِنسِ، فيَعُمُّ كلَّ سائلٍ، أي: عمَّا يُسأَلُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مِثلِه.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مُقابِلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]؛ فإنَّ الإغناءَ نِعمةٌ، فأمَرَه اللهُ أنْ يُظهِرَ نِعمةَ اللهِ عليه بالحديثِ عنها، وإعلانِ

= كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

شُكْرِها، وليس المرادُ بـ (نِعْمَةِ رَبِّكَ) نِعمةً خاصَّةً، وإنَّما أُريدَ الجِنسُ، فيُفيدُ عُمومًا في المَقامِ الخَطابيِّ، أي: حدِّث ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِن النِّعَمِ، فحَصَلَ في ذلك الأمرِ شُكرُ نِعمةِ الإغناءِ، وحَصَلَ الأمرُ بشُكرِ جَميعِ النِّعَمِ لتكونَ الجُملةُ تَذييلًا جامعًا.

وإمَّا أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المُرتَّبِ: إنْ فُسِّرَ السَّائلُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ بسائلِ مَعروفٍ، كان مُقابِلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مُقابِلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وكان المرادُ بنِعمةِ ربِّه نِعمةَ الهِدايةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ كُرِّر (أمَّا) ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ لوُقوعِها في مُقابَلةِ ثلاثِ آياتٍ مُناسِباتٍ لها؛ وهي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ واذكُرْ يُتْمَك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ واذكُر فقْرَك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الَّتي هي النُّبوَّةُ أو الإسلامُ، ﴿فَحَدِّثْ﴾ واذكُرْ ضَلالَك[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالالتزامِ، أو لُزومُ ما لا يَلزَمُ -ويُقالُ له أيضًا الإعناتُ[٣]- فقدْ لُزِمَت الهاءُ قبْلَ الرَّاءِ، وفي هاتَينِ الفاصلتَينِ مع الالتزامِ تَنكيتٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه لا يَجوزُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١ - ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

التَّبديلُ في القَرينتَينِ، ولا تَأتي كلُّ واحدةٍ مكانَ الأُخرى؛ لأنَّ النُّكتةَ في تَرجيح مَجيئِهما على ما جاءَتَا عليه: أنَّ اليتيمَ مَأمورٌ بأدَبِه، وأقلُّ ما يُؤدَّبُ به الانتهارُ، فلا يَجوزُ أنْ يُنْهى عن انتهارِه، وإنَّما الَّذي يُنْهى عنه قَهْرُه وغَلبتُه؛ لانكسارِه باليُتْمِ وعدَمِ ناصرِه، فمِن هاهنا تَرجَّحَ مَجيءُ كلِّ قَرينةٍ على ما جاءت عليه، ولم يَجُزِ التَّبديلُ(١).

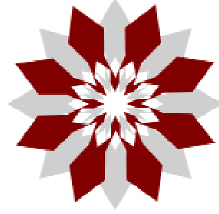
- قيل: لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الامتنانِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ الثَّلاثةِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أمَرَه بثَلاثةٍ: فذكَرَ اليتيمَ أوَّلًا، وهي البدايةُ، ثمَّ ذَكَرَ السَّائلَ ثانيًا، وهو العائلُ، وكان أشرَفُ ما امتنَّ به عليه هي الهدايةَ، فتَرقَّى مِن هذينِ إلى الأشرفِ، وجَعَلَه مَقطعَ السُّورةِ، وإنَّما وُسِّطَ ذلك عندَ ذِكرِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّه بعْدَ اليُتمِ هو زَمانُ التَّكليفِ، وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعصومٌ مِن اقترافِ ما لا يُرْضي اللهَ عزَّ وجلَّ في القولِ والفعلِ والعقيدةِ، فكان ذِكرُ الامتنانِ بذلك على حسَبِ الواقعِ بعْدَ اليُتمِ وحالةِ التَّكليفِ، وفي الآخِرِ تَرقَّى إلى الأشرفِ، فهُما مَقصدانِ في الخِطابِ(٢).

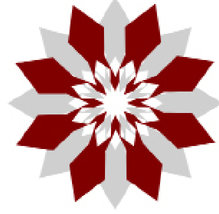


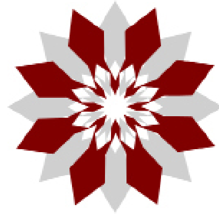
(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٨).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الشَّرْحِ







سُورةُ الشَّرْحِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الشَّرْحِ)(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالى(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تَعدادُ ما أنعَمَ اللهُ به على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّعَمِ؛ ومِن ذلك: شَرْحُ صَدرِه، ورَفْعُ قَدْرِه وذِكْرِه، ووَعْدُ اللهِ له بإزالةِ ما نَزَل به مِنَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ.

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ تسميةً لها بمصدرِ الفعلِ الواقعِ في مُفتتَحِها، وهو قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في مُعظَمِ التَّفاسير، وفي «صحيحِ البُخاريِّ» و«جامِعِ التِّرمذيِّ» سورةَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، وسُمِّيَت في بعضِ التَّفاسيرِ سُورةَ «الشَّرح»، ومِثلُه في بعضِ المصاحِفِ المَشْرِقيَّة... وفي بعضِ التَّفاسيرِ تَسميتُها «سورةَ الانشراحِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٢- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُداوَمةِ على الأعمالِ الصَّالِحةِ، والرَّغبةِ فيما عندَ الله، والإقبالِ على ذِكْرِه.



الآيات (١-٨)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَشْرَحْ﴾: نُفْسِحْ ونُوَسِّعْ، أو نفتَحْ، وأصلُ (شرح): يدُلُّ على الفَتحِ والبَيانِ[(١)].

﴿وِزْرَكَ﴾: ذَنْبَك، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: أثقَلَه حتَّى سُمِعَ نَقيضُه، أي: صَوتُه، وأصلُ (نقض) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الصَّوتِ[(٣)].

﴿فَٱنصَبْ﴾: فاتعَبْ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، ومنه النَّصبُ: العناءُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتَّى يُعيِيَ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بتذكيرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعَمِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

عليه؛ مُقَرِّرًا لها، حتَّى يُداوِمَ على شُكرِه تعالى، فقال: أَلَمْ نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، ومِن ذلك شقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا؟ وحطَطْنا عنك إثمَك، وغفَرْنا لك ذَنْبَك، الَّذي أثقَلَك حَمْلُه، ورفَعْنا لك ذِكْرَك، وأعلَيْنا شَأْنَك.

ثمَّ قال سُبحانَه مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه، ومُبَيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا، إنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالاجتِهادِ في عبادتِه، فقال: فإذا فرَغْتَ مِن أشغالِك الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ، واجعَلْ رَغبتَك في جميعِ أعمالِك وعباداتِك مِن أجْلِ إرضاءِ رَبِّك وَحْدَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

أي: ألم نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، والقيامِ بالدَّعوةِ، وتحمُّلِ أعباءِ النُّبُوَّةِ، ومِن ذلك شَقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤١، ٢٤٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (ذهب الجُمهورُ إلى أنَّ شَرْحَ الصَّدرِ المذكورَ هو تنويرُه بالحِكمةِ، وتوسيعُه لتلَقِّي ما يُوحَى إليه، وقال ابنُ عبَّاس وجماعةٌ: هذه إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جبريلَ عنه في وقتِ صِغَرِه، وفي وقتِ الإسراءِ؛ إذ التَّشريحُ شَقُّ اللَّحمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦).

وقال الثعلبي: (ألم نَفتَحْ ونُوسِّعْ ونُلَيِّنْ لك قَلْبَك بالإيمانِ والنُّبوَّةِ والعِلمِ والحِكمةِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سُبحانَه حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥، ٢٦].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتاه جِبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَه فصرَعَه، فشَقَّ عن قَلْبِه، فاستخرَجَ القَلْبَ، فاستخرَجَ منه عَلَقةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنك، ثمَّ غسَلَه في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ لَأَمَه، ثمَّ أعاده في مَكانِه، وجاء

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: شَرَحْناه وفتَحْناه ووسَّعْناه للهُدى وشرائِعِ الدِّينِ، والإيمانِ باللهِ ومَعرفةِ الحَقِّ، حتَّى قام بما قام به مِنَ الدَّعوةِ، وقَدَر على ما قَدَر عليه من حَملِ أعباءِ النُّبوَّةِ وحِفظِ الوَحيِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن يُجعَلَ الشَّرحُ شَرحًا بَدَنيًّا، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّر به، وهو ظاهِرُ صَنيعِ التِّرمذيِّ؛ إذ أخرجَ حديثَ شَقِّ الصَّدرِ الشَّريفِ في تفسيرِ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩).

وممَّن جَمَع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ للشَّرحِ: ابنُ العربيِّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٤١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (شَرَحْنا لك صَدْرَك، أي: نوَّرْناه وجعَلْناه فَسيحًا رَحيبًا واسِعًا... وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شَرْحُ صَدْرِه ليلةَ الإسراءِ... وهذا وإن كان واقِعًا، ولكِنْ لا مُنافاةَ؛ فإنَّ مِن جملةِ شَرْحِ صَدْرِه الَّذي فُعِلَ بصَدْرِه ليلةَ الإسراءِ، وما نشَأَ عنه مِن الشَّرحِ المعنويِّ أيضًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩).

الغِلْمانُ يَسْعَونَ إلى أُمِّه -يعني: ظِئْرَه- فقالوا: إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ! فاستَقْبَلوه وهو مُنتَقِعُ اللَّونِ، قال أنَسٌ: وقد كُنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صَدْرِه))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: فُرِج عن سَقْفِ بيتي وأنا بمكَّةَ، فنَزَل جِبريلُ ففَرَج صَدْري، ثُمَّ غَسَله بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأفْرَغه في صَدْري، ثُمَّ أطْبَقَه، ثُمَّ أخَذ بِيَدي فعَرَج بي إلى السَّماءِ الدُّنْيا...))[٢].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ عن مالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ، رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَيْنا أنا عندَ البيتِ[٣] بيْنَ النَّائِمِ واليَقْظانِ... فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، فشُقَّ مِن النَّحْرِ إلى مَراقِّ البَطنِ[٤]، ثُمَّ غُسِل البطنُ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، وأُتيتُ بدابَّةٍ....)) الحديثَ[٥].

وفي روايةٍ: ((فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذهَبٍ فيها مِن ماءِ زَمْزَمَ، فشُرِح صدري إلى كذا وكذا))[٦].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

أي: وحطَطْنا عنك إثمَك، وغفَرْنا لك ذَنْبَك[٧].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٣) عندَ البَيتِ: أي: الكعبة. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٥).

(٤) مراقِّ البطنِ: هو ما سفَل مِن البطنِ، ورقَّ مِن جلدِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٦).

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٦) رواه مسلم (١٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٤).

أي: الَّذي أثقَلَك حَمْلُه[١].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

أي: ورفَعْنا ذِكْرَك رِفعةً عَظيمةً، فأعلَيْنا شَأْنَك، ونوَّهْنا باسمِك، ونشَرْنا لك الثَّناءَ الحسَنَ العاليَ؛ تشريفًا لك وتعظيمًا[٢].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾.

أي: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا[٣].

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العُسرُ مَكروهًا إلى النُّفوسِ، وكان الله سُبحانَه وتعالى فيه حِكَمٌ عظيمةٌ، وكانت الحِكَمُ لا تتراءى إلَّا للأفرادِ مِنَ العِبادِ؛ كَرَّره سُبحانَه وتعالى على طريقِ الاستِئنافِ؛ لجوابِ مَن يقولُ: وهل بَعْدَه مِن عُسْرٍ؟ مؤكِّدًا له؛ ترغيبًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

قال الشوكاني: (في هذا وَعدٌ منه سبحانه بأنَّ كُلَّ عُسرٍ يتيسَّرُ، وكُلَّ شَديدٍ يَهُونُ، وكُلَّ صَعبٍ يَلينُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٤).

وقال السعدي: (كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

في أمرِه، وترَقُّبًا لِما يتسبَّبُ عنه، مُبَشِّرًا بتكريرِه مع وَحْدةِ العُسْرِ[١].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

أي: إنَّ الشِّدَّةَ والضِّيقَ يُصاحِبُهما السُّهولةُ والرَّخاءُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((...واعلَمْ أنَّ في الصبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكربِ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا))[٣].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَدَّد اللهُ عليه نِعَمَه السَّالِفةَ، ووعَدَه بالنِّعَمِ الآتيةِ؛ لا جَرَمَ بَعَثَه على الشُّكرِ والاجتِهادِ في العِبادةِ؛ فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

(٣) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) واللفظ له، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٤) مطَوَّلًا.

صحَّحه عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٨٠٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٩)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١).

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾.

أي: فإذا فرَغْتَ مِن كلِّ ما كنتَ به مشتغِلًا، مِن أمرِ دنياك وآخرتِك؛ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: إذا فرَغْتَ مِن أمرٍ فاجتَهِدْ في آخَرَ، ثمَّ اختُلِف في تعيينِ الأمْرَينِ؛ فقيل: إذا فرَغْتَ مِن الفرائضِ فانصَبْ في النَّوافلِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن الصَّلاةِ فانصَبْ في الدُّعاءِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن شُغلِ دُنياك فانصَبْ في عبادةِ ربِّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أن يواصِلَ بيْن بعضِ العباداتِ وبعضٍ، فإذا فرَغ مِن عبادةٍ أتْبَعَها بأخرى -على خِلافٍ بيْنَهم في تعيينِ العِبادةِ المَفروغ منها والَّتي يَنصَبُ إليها-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والكرماني، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والخازن، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٣).

قال الواحِديُّ: (قال قَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ المكتوبةِ فانصَبْ إلى رَبِّك في الدُّعاءِ، وارغَبْ إليه في المسألةِ يُعْطِيك، ونحوَ هذا روى عبدُ الوهَّابِ ابنُ مجاهِدٍ عن أبيه، قال: إذا صَلَّيْتَ فاجتَهِدْ في الدُّعاءِ والمَسْألةِ. وقال الشَّعبيُّ: إذا فرَغْتَ مِن التَّشَهُّدِ فادْعُ لدُنْياك وآخِرَتِك. ونحوَ هذا قال الزُّهْريُّ: إذا قَضَيتَ التَّشَهُّدَ فادْعُ بعْدَ التَّشَهُّدِ بكُلِّ حاجتِك). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: إذا فرَغْتَ مِن أُمورِ الدُّنيا وأشغالِها وقطَعْتَ علائِقَها، فانصَبْ في العبادةِ، وقُمْ إليها نشيطًا فارغَ البالِ، وأخلِصْ لرَبِّك النِّيَّةَ والرَّغبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣).

وقال الواحِديُّ: (وروى منصورٌ عن مجاهِدٍ: إذا فرَغْتَ بَعْدَ أمرِ دُنياك ﴿فَٱنصَبۡ﴾ فصَلِّ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٧).

قال السعديُّ: (أمَرَ اللهُ رَسولَه أصلًا والمؤمنينَ تبَعًا، بشُكْرِه والقيامِ بواجِبِ نِعَمِه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي: إذا تفرَّغْتَ مِن أشغالِك، ولم يَبْقَ في قَلْبِك ما يَعوقُه، فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَرَ نبيَّه =

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾.

أي: واجعَلْ رَغبتَك إلى اللهِ، فتَرجُوه وَحْدَه، وتَسألُه دونَ مَن سِواه، وتتوكَّلُ عليه لا على غَيرِه[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ أصحابِ الجنَّةِ الَّتي احترَقت: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

= أن يجعَلَ فَراغَه مِن كُلِّ ما كان به مُشتَغِلًا مِن أمرِ دُنياه وآخِرَته، ممَّا آدَى له الشُّغلُ به [أي: بلَغ منه المجهودُ والمشقَّةُ]، وأمَرَه بالشُّغلِ به: إلى النَّصَبِ في عِبادتِه، والاشتِغالِ فيما قَرَّبه إليه، ومَسألتِه حاجاتِه، ولم يَخصُصْ بذلك حالًا مِن أحوالِ فراغِه دونَ حالٍ، فسَواءٌ كُلُّ أحوالِ فَراغِه؛ مِن صلاةٍ كان فراغُه، أو جِهادٍ، أو أمْرِ دُنيا كان به مُشتَغِلًا؛ لعُمومِ الشَّرطِ في ذلك مِن غَيرِ خُصوصِ حالِ فَراغٍ دونَ حالٍ أُخرى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إذا فرَغْتَ من عَمَلٍ فانصَبْ في عَمَلٍ آخَرَ، إذا فرَغْتَ مِن عَمَلِ الدُّنيا عليك بعَمَلِ الآخِرةِ، [وإذا] فرَغْتَ مِن عمَلِ الآخِرةِ اشتغَلْتَ بأمرِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

وقال القاسميُّ: (والأظهَرُ عِندي اعتِمادًا على ما صَحَّحْناه من أنَّ الآيةَ مدَنيَّةٌ وأنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ- أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي: فَرَغْتَ مِن مُقارَعةِ المُشرِكينَ، وظَفِرْتَ بأُمنيَّتِك منهم بمَجيءِ نَصرِ اللهِ والفَتحِ؛ فانصَبْ في العِبادةِ والتَّسبيحِ والاستِغفارِ؛ شُكرًا لله على ما أنعَمَ، وارغَبْ إليه خاصَّةً ابتِغاءً لِمَرْضاتِه. فتكونُ الآيَتانِ بمعنى سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. ثمَّ رأيتُ ابنَ جريرٍ نَقَل مِثْلَه عن ابنِ زَيدٍ عن أبيه، قال: فإذا فرَغْتَ مِنَ الجِهادِ؛ جِهادِ العَرَبِ، وانقطَعَ جِهادُهم، فانصَبْ لعِبادةِ اللهِ، وإليه فارغَبْ. وهو ظاهِرٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

قال السعدي: (﴿فَٱرۡغَب﴾ أي: أعظِمِ الرَّغبةَ في إجابةِ دُعائِك، وقَبولِ عِباداتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أتَمَّ الشَّرحِ، ووَضَعَ عنه وِزْرَه كلَّ الوَضعِ، ورَفَعَ ذِكْرَه كلَّ الرَّفْعِ، وجَعَلَ لأتْبَاعِه حظًّا مِن ذلك؛ إذْ كلُّ مَتبوعٍ فلأتْباعِه حظٌّ ونصيبٌ مِن حظِّ مَتبوعِهم في الخيرِ والشَّرِّ على حسَبِ اتِّباعِهم له، فأَتْبَعُ النَّاسِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أشْرَحُهم صدرًا، وأوضَعُهم وِزْرًا، وأرفعُهم ذِكْرًا، وكلَّما قَوِيتْ مُتابَعتُه عِلمًا وعَمَلًا وحالًا وجِهادًا، قَوِيتْ هذه الثَّلاثةُ، حتَّى يصيرَ صاحِبُها أشرحَ النَّاسِ صدرًا، وأرفعَهم في العالَمينَ ذِكْرًا، وأمَّا وَضْعُ وِزْرِه، فكيف لا يُوضَعُ عنه ومَن في السَّمواتِ والأرضِ ودَوابُّ البَرِّ والبحرِ يَستغفِرونَ له؟! وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ مُتلازِمةٌ كما أنَّ أضْدادَها متلازِمةٌ؛ فالأوزارُ والخطايا تَقْبِضُ الصَّدرَ وتُضيِّقُه، وتُخمِلُ الذِّكْرَ وتَضَعُه، وكذلك ضِيقُ الصَّدرِ يَضَعُ الذِّكْرَ، ويَجلِبُ الوِزْرَ، فما وَقَعَ أحدٌ في الذُّنوبِ والأوزارِ إلَّا مِن ضِيقِ صدْرِه وعدمِ انشراحِه، وكلَّما ازداد الصَّدرُ ضيقًا كان أدْعَى إلى الذُّنوبِ والأوزارِ؛ لأنَّ مُرتكِبَها إنَّما يَقصِدُ بها شَرْحَ صدْرِه، ودَفْعَ ما هو فيه مِن الضِّيقِ والحَرَجِ، وإلَّا فلوِ اتَّسَعَ بالتَّوحيدِ والإيمانِ ومحبَّةِ اللهِ ومعرفتِه، وانشرحَ بذلك؛ لَاستغنى عن شرْحِه بالأوزارِ؛ ولهذا أكثرُ مَن يُواقِعُ المحظورَ إنَّما يَدْفَعُ به عن نفْسِه ما فيها مِن الهَمِّ والغَمِّ والضِّيقِ، وكثيرًا ما تَبْرُدُ شَهوتُه وإرادتُه، ومع هذا يَحرِصُ على المُعاوَدةِ؛ تداويًا منه بزَعمِه(١)!

٢- قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ هذه الآيةُ لم تترُكْ للمُسلِمِ فَراغًا في وقتِه؛ لأنَّه إمَّا في عَمَلٍ للدُّنيا، وإمَّا في عمَلٍ للآخِرةِ، وقد رُوِيَ عن شُريحٍ أنَّه مَرَّ على

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

رجُلَينِ يتصارَعانِ، فقال: (ليس بهذا أُمِرَ الفارغُ، إنَّما قال الله تبارَك وتعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾)[١]، ورُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ[٢] أنَّه قال: (إنِّي لَأمقُتُ الرَّجُلَ أن أراه فارغًا، ليس في شيءٍ مِن عمَلِ الدُّنيا ولا عمَلِ الآخرةِ)[٣]. ولهذا كانت حياةُ الإنسانِ العاقلِ حياةَ جِدٍّ، كلَّما فَرَغَ مِن عملٍ شَرَعَ في عَمَلٍ آخَرَ، وهكذا؛ لأنَّ الزَّمنَ يفوتُ على الإنسانِ، ففي حالِ يَقظَتِه ومَنامِه، وشُغْلِه وفراغِه يسيرُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يُمسِكَ الزَّمَنَ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ خَتْمُ السُّورةِ بهذينِ الأصلَينِ، وهما: تجريدُ التَّوحيدِ، وتجريدُ الطَّاعةِ بمُتابَعةِ الرَّسولِ؛ فالنَّصَبُ: التَّفَرُّغُ للعبادةِ والطَّاعةِ، والرَّغبةُ إلى اللهِ وَحْدَه: تجريدُ توحيدِه. ومتى قام العبدُ بهذينِ الأصلينِ حصَلَ له مِن شَرْحِ الصَّدرِ ووَضْعِ الوِزْرِ ورَفْعِ الذِّكْرِ بحسَبِ ما قام به، وبُدِّلَ عُسْرُه يُسرًا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ يعني: إلى اللهِ لا إلى غيرِه؛ فارغَبْ في جميعِ أمورِك، وثِقْ بأنَّك متى عَلَّقْتَ رغبتَك باللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّه سوف يُيَسِّرُ لك الأمورَ، وكثيرٌ مِن النَّاسِ تَنْقُصُهم هذه الحالُ، أي: يَنْقُصُهم أنْ يَكونوا دائمًا راغبينَ إلى اللهِ؛ فتَجِدُهم يَخْتَلُّ كثيرٌ مِن أعمالِهم؛ لأنَّهم لَمْ يكُنْ بيْنَهم وبيْنَ اللهِ تعالى صِلةٌ في أعمالِهم[٦]!

(١) أخرجه الفراء في ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ١٠٨)، ((الزهد)) لأبي داود (ص: ١٧١)، ((المعجم الكبير)) للطبراني (٩/ ١٠٦) (٨٥٣٩)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر سُبحانَه الصَّدْرَ، ولَمْ يَذكُرِ القَلْبَ؟

الجوابُ: لأنَّ محَلَّ الوَسوسةِ هو الصَّدرُ، على ما قال سُبحانَه: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]؛ فإزالةُ تلك الوَسْوَسةِ وإبدالُها بدَواعي الخَيرِ هي الشَّرحُ، فلا جَرَمَ خُصَّ ذلك الشَّرحُ بالصَّدرِ دونَ القَلْبِ[١]. أو ذلك إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جِبريلَ له.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾، ولم يقلْ: «ألَم نشرَحْ صَدْرَك»؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

أحدُهما: كأنَّه تعالى يقولُ: لامٌ بلامٍ؛ فأنت إنَّما تفعَلُ جميعَ الطَّاعاتِ لأَجْلي، كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فأنا أيضًا جميعُ ما أفعَلُه لأجْلِك.

ثانيها: أنَّ فيها تنبيهًا على أنَّ منافِعَ الرِّسالةِ عائِدةٌ إليه عليه السَّلامُ، كأنَّه تعالى قال: إنَّما شرَحْنا صَدْرَك لأجلِك لا لأجْلي[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ سؤالٌ: هلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُذْنِبُ؟

الجوابُ: نعَمْ، ولا يمكِنُ أنْ نَرُدَّ النُّصوصَ لمجرَّدِ أنْ نَستبعِدَ وُقوعَ الذَّنْبِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

منه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، ونحن لا نقولُ: الشأنُ ألَّا يُذنِبَ الإنسانُ، بلِ الشَّأنُ أنْ يُغْفَرَ للإنسانِ، هذا هو المهِمُّ: أنْ يُغْفَرَ له، فكلُّ بَني آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابونَ، لا بُدَّ مِن خطيئةٍ، لكنَّ هناك أشياءَ لا يمكنُ أنْ تقع مِن الأنبياءِ، مِثلُ الكَذِبِ والخيانةِ، فإنَّ هذا لا يمكنُ أنْ يقعَ منهم إطلاقًا؛ لأنَّ هذا لو فُرِضَ وُقوعُه لَكان طعنًا في رسالتِهم، وهذا شيءٌ مستحيلٌ، وسفاسِفُ الأخلاقِ مِن الزِّنا وشِبْهِه هذا أيضًا ممتنِعٌ؛ لأنَّه يُنافي أصلَ الرِّسالةِ؛ فالرِّسالةُ إنَّما وُجِدَتْ لتَتميمِ مَكارمِ الأخلاقِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ))(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه أحمدُ (٨٩٥٢) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٤٢٢١)، والبيهقيُّ (٢١٣٠٣) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

صحَّحه الحاكمُ -وقال: (على شرطِ مُسلِمٍ)-، وابنُ عبدِالبَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٥٢)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٤٩)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ١٩١): (رواه أحمدُ ورجالُه رجالُ الصَّحيح).

والقَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ عن الكبائرِ دونَ الصَّغائرِ هو قَولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قَولُ أكثَرِ أهلِ الكلامِ، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ، وقد اتَّفَق سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها ومَنِ اتَّبَعَهم على ما أخبَرَ اللهُ به في كتابِه وما ثبَت عن رَسولِه مِن تَوبةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن الذُّنوبِ الَّتي تابوا منها، وهذه التَّوبةُ رَفَع اللهُ بها دَرَجاتِهم؛ فإنَّ اللهَ يحبُّ التَّوابينَ ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وعِصمَتُهم هي مِن أن يُقَرُّوا على الذُّنوبِ والخَطأِ؛ فإنَّ مَن سِوى الأنبياءِ يجوزُ عليهم الذَّنبُ والخَطأُ مِن غيرِ تَوبةٍ، والأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَستدرِكُهم اللهُ فيَتوبُ عليهم ويبَيِّنُ لهم، وقد ذكَرَ الله تعالى مِن تَوبةِ الأنبياءِ واستغفارِهم؛ كقَولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا =

٤- في قولِه: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ اتِّصالُ حَرفَيِ الضَّادِ والظَّاءِ، وهما مُتقارِبَا المخرَجِ، فرُبَّما يَحصُلُ مِن النُّطقِ بهما شَيءٌ مِن الثِّقَلِ على اللِّسانِ، ولكنَّه لا يُنافي الفَصاحةَ؛ إذ لا يَبلُغُ مَبلَغَ ما يُسمَّى بتَنافُرِ الكَلِماتِ، بلْ مِثلُه مُغتفَرٌ في كَلامِ الفُصحاءِ، والعرَبُ فُصحاءُ الألسُنِ، فإذا اقْتَضى نظْمُ الكَلامِ وُرودَ مِثلِ هَذينِ الحَرفينِ المتقاربَينِ، لم يَعبَأِ البليغُ بما يَعرِضُ عندَ اجتماعِهما مِن بَعضِ الثِّقَلِ، ومِثلُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] في اجتماعِ الحاءِ مع الهاءِ، وذلك حيث لا يَصِحُّ الإدغامُ. وقد أَوصى عُلماءُ التَّجويدِ بإظهارِ الضَّادِ مع الظَّاءِ إذا تَلاقَيا كما في هذه الآيةِ، وقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾[1] [الفرقان: ٢٧].

٥- مِنَ الفُقهاءِ مَن استدَلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ على وُجوبِ الصَّلاةِ عليه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الخُطبةِ، وصلاةِ الجِنازةِ، واستِحبابِها عَقِبَ التَّلبيةِ[2].

= ﴿اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٦٩).

وقال الشَّوكانيُّ: (ذهب الأكثَرُ مِن أهلِ العِلمِ إلى عصمةِ الأنبياءِ بعدَ النُّبُوَّةِ مِنَ الكبائِرِ، وقد حكى القاضي أبو بكرٍ إجماعَ المُسلِمينَ على ذلك. وكذا حكاه ابنُ الحاجِبِ وغيرُه من متأخِّري الأصوليِّينَ، وكذا حكَوُا الإجماعَ على عِصْمَتِهم بعدَ النُّبُوَّةِ مِمَّا يُزري بمناصِبِهم؛ كرَذائِلِ الأخلاقِ والدَّناءاتِ وسائِرِ ما يُنفِّرُ عنهم، وهي الَّتي يُقالُ لها صغائِرُ الخِسَّةِ؛ كسَرِقةِ لُقمةٍ، والتَّطفيفِ بحَبَّةٍ). ((إرشاد الفحول)) (١/ ٩٨). ويُنظر: ((المحصول)) لابن العربي (ص: ١٠٩)، ((مختصر ابن الحاجب)) (١/ ٣٩٧)، ويُنظر أيضًا: ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ القَيِّمِ في الاستِدلالِ بهذه الآيةِ على وُجوبِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ في الخُطبةِ مع أثَرِ ابنِ =

٦- قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ: (أهلُ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلُ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم)؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنِئُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ فإنَّ ما أكرمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ فلِلْمُؤمنينَ المُتابِعين نصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أحَدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثَوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلِكُلِّ مؤمنٍ نصيبٌ بقَدْرِ ذلك[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ سُؤالٌ: أنَّ اليُسرَ لا يكونُ مع العُسْرِ؛ لأنَّهما ضِدَّانِ فلا يجتَمِعانِ.

الجوابُ: لَمَّا كان وُقوعُ اليُسرِ بعْدَ العُسرِ بزَمانٍ قليلٍ، كان مقطوعًا به؛ فجُعِلَ كالمقارِنِ له[2]، وفي ذلك تَبشيرٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحصولِ اليُسرِ عاجِلًا، فلَفْظُ (مع) للمُصاحَبةِ، لَمَّا عيَّر المشرِكون المسلِمينَ بفَقْرِهم، وَعَدَهم اللهُ يُسرًا قَريبًا مِن زَمانِ عُسْرِهم، وقُرِنَ اليُسرُ مع العُسْرِ زيادةً في التَّسليةِ وتَقويةِ

= عَبَّاسٍ: (رَفَع اللهُ له ذِكْرَه، فلا يُذكَرُ إلَّا ذُكِرَ مَعَه)، قال: (في هذا الدَّليلِ نَظَرٌ؛ لأنَّ ذِكْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معَ ذِكرِ رَبِّه هو الشَّهادَةُ له بالرِّسالةِ إذا شهِدَ لِمُرسِلِه بالوَحْدانيَّةِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣٦٨).

وقد استدَلَّ الرَّافِعيُّ على سُنِّيَّةِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُنوتِ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ على ما نقَله عن المفسِّرينَ أنَّ المعنى: لا أُذكَرُ إلَّا وتُذكَرُ معي. يُنظر: ((الشرح الكبير)) (١/ ٥١٦، ٥١٧).

قال ابن حجر: (قُلْتُ: في الاستِدلالِ به نَظَرٌ؛ فإنَّه لا يُسَنُّ في أذكارِ الرُّكوعِ والسُّجودِ، ولا مَعَ القِراءةِ في القيامِ؛ فدَلَّ على أنَّه عامٌّ مخصوصٌ). ((التلخيص الحبير)) (١/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩).

القلْبِ، فجُعِلَ اليسرُ كالمصاحِبِ للعُسرِ في سُرعةِ مَجيئِه[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ بِشارةٌ عَظيمةٌ أنَّه كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه، حتَّى لو دخل العُسرُ جُحْرَ ضَبٍّ لَدخَلَ عليه اليُسرُ فأخرَجَه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]، وكما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وإنَّ مع العُسرِ يُسْرًا))[(٢)].

٩- كَلِمةُ (مع) هنا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ مُستعمَلةٌ في قُربِ حُصولِ اليُسرِ عَقِبَ حُلولِ العُسرِ أو ظُهورِ بَوادرِه، وبذلك يَندفِعُ التَّعارُضُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالَى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]؛ فهذه الآيةُ في عُسْرٍ خاصٍّ يَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآيةُ سُورةِ (الطَّلاقِ) عامَّةٌ، وللبَعديَّةِ فيها مَراتبُ مُتفاوِتةٌ[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا * إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ غَنيمةٌ للمؤمنِ ليطمَئِنَّ إليه، ولا يَضيقَ صدْرُه من عُسْرٍ يَلْحَقُه؛ فإنَّ مع كلِّ عُسْرٍ يُسرَينِ[(٤)]، والعُسْرُ وإنْ تَكرَّرَ مرَّتينِ فتَكرَّرَ بلَفظِ المعرفةِ؛ فهو واحدٌ، واليُسْرُ تَكرَّرَ بلَفظِ النَّكِرةِ فهو يُسرانِ؛ فالعُسْرُ محفوفٌ بيُسْرَينِ: يُسْرٌ قَبْلَه، ويُسْرٌ بعدَه؛ فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرينِ[(٥)]، ففي تعريفِ العُسرِ بالألِفِ واللَّامِ -الدَّالَّةِ على الاستغراقِ والعُمومِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).
والحديثُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٥). =

دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ عُسرٍ وإنْ بلغ مِن الصُّعوبةِ ما بَلَغ فإنَّ التَّيسيرَ في آخِرِه ملازِمٌ له[1]. ففرَجُ اللهِ عزَّ وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْبِ؛ فكُلَّما اشتدَّ الكَرْبُ فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ، وقد جعَلَ سُبحانَه مقابِلَ العُسْرِ الواحِدِ يُسرَينِ[2].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ومن لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ بالكَرْبِ، واليُسْرِ بالعُسْرِ: أنَّ الكَرْبَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى حَصَلَ للعبدِ الإياسُ مِن كَشْفِه مِن جهةِ المخلوقينَ، وتَعَلَّقَ قلْبُه باللهِ وَحْدَه، وهذا هو حقيقةُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، وهو مِن أعظَمِ الأسبابِ الَّتي تُطْلَبُ بها الحوائجُ؛ فإنَّ اللهَ يَكفي مَن توكَّلَ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣][3]، وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذا استبطأَ الفَرَجَ، وأَيِسَ منه بعْدَ كثرةِ دُعائه وتضرُّعِه، ولم يَظْهَرْ عليه أثَرُ الإجابةِ؛ رَجَعَ إلى نفْسِه باللَّائمةِ، وقال لها: إنَّما أُتيتُ مِن قِبَلِكِ، ولو كان فيكِ خيرٌ لَأُجِبْتُ، وهذا اللَّومُ أحَبُّ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يُوجِبُ انكِسارَ العبدِ لِمَولاه، واعترافَه له بأنَّه أهلٌ لِمَا نَزَلَ مِن البلاءِ، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابةِ الدُّعاءِ؛ فلذلك تُسْرِعُ إليه حينَئذٍ إجابةُ الدُّعاءِ، وتفريجُ الكُرَبِ؛ فإنَّه تعالى عندَ المُنكَسِرةِ قُلوبُهم مِن أجْلِه[4].

١٢- قيل: إنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ وأكمَلْتَها فانصَبْ في الدُّعاءِ، وإلى رَبِّكَ فارغَبْ في سؤالِ مَطالِبِك، واستدَلَّ مَن

= والقاعِدةُ: أنَّ النَّكِرةَ إذا تكَرَّرَت دَلَّت على التَّعَدُّدِ، بخِلافِ المَعرِفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧١١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).

قال بهذا القَولِ على مَشروعيَّةِ الدُّعاءِ والذِّكرِ عَقِبَ الصَّلَواتِ المكتوباتِ[(١)].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ جَمَعَ نَوعَيْ دُعاءِ اللهِ؛ وذلك أنَّ دُعاءَ اللهِ المذكورَ في القُرآنِ نَوعانِ: دُعاءُ عبادةٍ، ودُعاءُ مسألةٍ ورَغبةٍ[(٢)].

١٤- الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَانْصَبْ﴾ وقولِه: ﴿فَارْغَبْ﴾ رابِطةٌ للفِعلِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ يَتضمَّنُ معْنى الاشتراطِ والتَّقييدِ؛ فإنَّ تَقديمَ المعمولِ لَمَّا أفادَ الاختصاصَ نَشَأَ منه معْنى الاشتراطِ، وهو كَثيرٌ في الكلامِ؛ قال تعالَى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٣- ٥]، وفي تَقديمِ المجرورِ قال تعالَى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، بلْ قد يُعامَلُ مُعامَلةَ الشَّرطِ في الإعرابِ بجَزْمِ الفِعلَينِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿نَشْرَحْ﴾؛ للإيذانِ بعظَمتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استُفهِمَ عن انتِفاءِ الشَّرحِ على وَجْهِ الإنكارِ؛ مُبالَغةً في إثباتِه، وللإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يُجيبَ عنه بغيرِ (بَلَى)؛ فالهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ للإنكارِ، والإنكارُ نفْيٌ، والنَّفيُ إذا دَخَل على النَّفيِ عاد إثباتًا، فأفاد إثباتَ الشَّرحِ وإيجابَه، فكأنَّه قِيل: شَرَحْنا لك صَدْرَك؛ ولذلك عُطِفَ عليه (وَضَعْنا)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

اعتبارًا للمعْنى[١].

- وقيل: هو استِفهامٌ تَقريريٌّ على النَّفيِ، والمقصودُ التَّقريرُ على إثباتِ المنفيِّ. وهذا التَّقريرُ مَقصودٌ به التَّذكيرُ مِن أجْلِ أنْ يُراعِيَ هذه المِنَّةَ عندَما يُخالِجُه ضِيقُ صَدْرٍ ممَّا يَلقاهُ مِن أذَى قومٍ يُريدُ صَلاحَهم، وإنقاذَهُم مِن النارِ، ورَفْعَ شَأنِهم بيْن الأُمَمِ؛ ليَدومَ على دَعوتِه العَظيمةِ نَشيطًا، غيرَ ذي أسَفٍ ولا كَمَدٍ[٢].

- والصَّدرُ مُرادٌ به الإحساسُ الباطنيُّ الجامعُ لمعْنى العقْلِ والإدراكِ. وشَرْحُ صَدرِه كِنايةٌ عن الإنعامِ عليه بكلِّ ما تَطمَحُ إليه نفْسُه الزَّكيَّةُ مِن الكَمالاتِ، وإعلامِه برِضا اللهِ عنه، وبِشارتِه بما سيَحصُلُ للدِّينِ الَّذي جاء به مِن النَّصرِ[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَكَ﴾ لامُ التَّعليلِ، وهو يُفيدُ تَكريمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ فَعَلَ ذلك لأجْلِه[٤].

- وفي ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ المشروحِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ ﴿نَشۡرَحۡ﴾ عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ مَشروحًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى: شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وَقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿صَدۡرَكَ﴾ تَعيَّنَ المشروحُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وللإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ مِن مَنافِعِه عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٠٩).

الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَصالِحِه، مُسارَعةً إلى إدخالِ المَسَرَّةِ في قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا الكلامُ في ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ﴾ [الشرح: ٢]، ﴿لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[١] [الشرح: ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ * ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

- قولُه: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(وَضَعْنا)، وتَقديمُه على المفعولِ الصَّريحِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنه؛ لأنَّ القصْدَ إلى تَعجيلِ المَسرَّةِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عندَ وَقتِ وُرودِه فضْلَ تَمكُّنٍ، ولِما أنَّ في وَصْفِه نَوعَ طُولٍ، فتَأخيرُ الجارِّ والمجرورِ عنه مُخِلٌّ بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[٢].

- وإنَّما لم يُذكَرْ مع ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ لَفظُ (لك) بأنْ يُقالَ: (ووَضَعْنا لك وِزرَك)؛ للاستِغناءِ بقولِه: ﴿عَنكَ﴾؛ فإنَّه في إفادةِ الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ مُساوٍ لكَلمةِ (لك)، وهي في إفادةِ العِنايةِ به تُساوي كَلمةَ (لك)؛ لأنَّ فِعلَ الوضْعِ المُعدَّى إلى الوِزرِ يدُلُّ على أنَّ الوضْعَ عنه، فكانتْ زِيادةُ ﴿عَنكَ﴾ إطنابًا يُشيرُ إلى أنَّ ذلك عِنايةٌ به نَظيرَ قولِه: ﴿لَكَ﴾ الَّذي قبْلَه، فحَصَلَ بذِكرِ ﴿عَنكَ﴾ إيفاءٌ إلى تَعديةِ فِعلِ (وَضَعْنا)، مع الإيفاءِ بحقِّ الإبهامِ ثمَّ البَيانِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ تَعديةُ فِعلِ ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الظَّهرِ تَبَعٌ لتَشبيهِ المَشقَّةِ بالحِمْلِ؛ فالتَّركيبُ تَمثيلٌ لمُتجشِّمِ المَشاقِّ الشَّديدةِ بالحَمولةِ المُثقَلةِ بالأحمالِ تَثقيلًا شَديدًا حتَّى يُسمَعَ لعِظامِ ظَهرِها فَرقعةٌ وصَريرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠، ٧٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢، ٤١٣).

وهو تَمثيلٌ بَديعٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ مُركَّبٌ قابلٌ لتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِه، ووَصْفُ الوِزرِ بهذا الوصْفِ تكميلٌ للتَّمثيلِ بأنَّه وِزرٌ عَظيمٌ(١).

- وعطفُ ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ﴿وَرَفَعْنَا﴾ بصيغةِ المُضيِّ على فِعلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بصيغةِ المضارِعِ؛ لأنَّ (لَمْ) قَلَبَت زمَنَ الحالِ إلى المُضيِّ، فعُطِفَ عليه الفِعلانِ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّهما داخِلانِ في حيِّزِ التَّقرير، فلمَّا لم يَقترِنْ بهما حرْفُ (لَمْ) صُيِّرَ بهما إلى ما تُفيدُه (لَمْ) مِن معْنى المُضيِّ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ الشَّيءِ المرفوعِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ (رَفَعَ) عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ شيئًا مَرفوعًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿ذِكْرَكَ﴾ تعيَّنَ الشَّيءُ المرفوعُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وفي تَقديمِه أيضًا تعجيلٌ للمَسرَّةِ(٣).

- ورفْعُ الذِّكرِ مُعبَّرٌ به عن إلهامِ النَّاسِ لأنْ يَذكُروه بخَيرٍ، وذلك بإيجادِ أسبابِ تلك السُّمعةِ حتَّى يَتحدَّثَ بها النَّاسُ، فعُبِّرَ بالرَّفعِ عن حُسنِ الذِّكرِ؛ لأنَّ الرَّفعَ جَعْلُ الشَّيءِ عاليًا لا تَنالُه جَميعُ الأيْدي ولا تَدوسُه الأرجُلُ، فقد فَطَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَكارِمَ يَعِزُّ وُجودُ نَوعِها، ولم يَبلُغْ أحدٌ شَأْوَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

ما بَلَغَه منها، حتَّى لُقِّبَ في قَومِه بالأمينِ، ومِن عَظيمِ رفْعِ ذِكْرِه أنَّ اسمَه مُقترِنٌ باسمِ اللهِ تعالَى في كَلمةِ الإسلامِ، وهي كَلمةُ الشَّهادةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ذَكَّرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما أنْعَمَ به عليه مِن جَلائلِ النِّعَمِ، ثمَّ قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كأنَّه قال: خَوَّلْناك ما خوَّلْناك، فلا تيْأَسْ مِن فضْلِ اللهِ؛ فإنَّ مع العُسرِ الَّذي أنتم فيه يُسرًا، فهو تَقريرٌ لِما قبْلَه، ووَعْدٌ كريمٌ بتَيسيرِ كُلِّ عسيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ(٢).

- والفاءُ في ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه الاستفهامُ التَّقريريُّ هنا، أي: إذا علِمْتَ هذا وتَقرَّرْ، فاعْلَمْ أنَّ اليُسرَ مُصاحبٌ للعُسرِ(٣).

- وحرْفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ، وإنَّما لم يُستَغْنَ بها عن الفاءِ -فـ (إنَّ) تُغْني غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ-؛ لأنَّ الفاءَ هنا أُريدَ بها الفَصيحةُ مع التَّسبُّبِ، فلو اقتُصِرَ على حرْفِ (إنَّ) لَفاتَ معْنى الفَصيحةِ(٤).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وجُملةِ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧]؛ تَنبيهًا على أنَّ اللهَ تعالى لَطيفٌ بعِبادِه، فقدَّرَ ألَّا يَخلُوَ عُسْرٌ مِن مُخالَطةِ يُسْرٍ، وأنَّه لولا ذلك لَهلَكَ النَّاسُ؛ قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٤).

دَآبَّةٍ﴾[1] [النحل: ٦١].

- ولَمَّا كان اليُسرُ نَقيضَ العُسرِ، كانت مُصاحَبةُ اليُسرِ للعُسرِ مُقتضيةً نقْضَ تَأثيرِ العُسرِ ومُبطِلةً لعَمَلِه، فهو كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[2] عن إدراكِ العِنايةِ الإلهيَّةِ به فيما سَبَقَ، وتَعريضٌ بالوعْدِ باستِمرارِ ذلك في كلِّ أحوالِه. وسِياقُ الكلامِ وَعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُيسِّرَ اللهُ له المَصاعبَ كلَّما عَرَضَت له، فاليُسرُ لا يَتخلَّفُ عن اللَّحاقِ بتلك المَصاعبِ، وذلك مِن خَصائصِ كَلمةِ (مع) الدَّالَّةِ على المُصاحَبةِ[3].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا * إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ ليس تَكرارًا؛ فالعسرُ واحدٌ، واليسرُ اثنانِ؛ بدَليلِ تَنكيرِهما. وقيل: كُرِّرَ ذلك للتَّأكيدِ؛ لتَعزيزِ معْناهُ في النُّفوسِ، وتَمكينِه في القلوبِ، وكما يُكرَّرُ المفرَدُ في قَولِك: جاءني زَيدٌ زيدٌ، ولاطِّرادِ هذا الوعْدِ وتَعميمِه؛ لأنَّه خبَرٌ عَجيبٌ، فاليُسرانِ مُتَّحدانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسام: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريض، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزوم بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْع: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزوم بلا تعريض نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادته وبلاهته. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزوم، بلا تعريض. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٣).

كالعُسرينِ[١]. ومِن المُقرَّرِ أنَّ المقصودَ مِن تَأكيدِ الجُملةِ في مِثلِه، هو تَأكيدُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَه الخبَرُ، ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ المُستفادَ مِن هذه الجُملةِ هو ثُبوتُ الْتِحاقِ اليُسرِ بالعُسرِ عندَ حُصولِه، فكان التَّأكيدُ مُفيدًا تَرجيحَ أثَرِ اليُسرِ على أثَرِ العُسرِ[٢].

- والتَّنكيرُ في اليُسرِ في الموضعينِ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كأنَّه قِيل: إنَّ مع العُسرِ يُسرًا عَظيمًا يَغلِبُ العُسرَ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ قيل: إنَّه تَعريفُ العهْدِ، أي: العُسرِ الَّذي عَهِدْتَه وعَلِمْتَه، وهو مِن قَبيلِ ما يُسمِّيه نُحاةُ الكوفةِ بأنَّ (ألْ) فيه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: فإنَّ مع عُسْرِك يُسرًا، فتكون السُّورةُ كلُّها مَقصورةً على بَيانِ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالَى، وَعَدَ اللهُ تعالَى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ جَعَلَ الأُمورَ العَسِيرةَ عليه يَسِيرةً له، وهو ما سَبَقَ وَعْدُه له بقولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨]. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا وعْدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأُمَّتِه؛ لأنَّ ما يَعرِضُ له مِن عُسرٍ إنَّما يَعرِضُ له في شُؤونِ دَعوتِه للدِّينِ ولصالحِ المسلمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ تَفريعٌ على ما تقرَّر مِن التَّذكيرِ باللُّطْفِ والعنايةِ ووعْدِه بتيسيرِ ما هو عَسيرٌ عليه في طاعَتِه الَّتي أعظمُها تبليغُ الرِّسالَةِ دُونَ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ(١).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ عاطِفةٌ على مُقدَّرٍ يَستحِقُّه المقامُ. ويجوزُ جعْلُها استئنافيَّةً كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ، وهو: ماذا بعْدَ الشُّكرِ والعبادةِ والاجتهادِ فيهما(٢)؟

- ولم يُذكَرْ هنا مُتعلَّقُ ﴿فَرَغْتَ﴾، وسِياقُ الكلامِ يَقْتضي أنَّه لازمُ أعمالٍ يَعمَلُها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ مَساقَ السُّورةِ في تَيسيرِ مَصاعبِ الدَّعوةِ وما يحُفُّ بها، فالمعْنى: إذا أتممْتَ عَمَلًا مِن مَهامِّ الأعمالِ، فأقبِلْ على عمَلٍ آخَرَ، بحيث يَعمُرُ أوقاتَه كلَّها بالأعمالِ العَظيمةِ -وذلك على قولٍ-؛ فالمَقصودُ بالأمرِ هو ﴿فَٱنصَبْ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ فتَمهيدٌ وإفادةٌ لإيلاءِ العمَلِ بعمَلٍ آخَرَ في تَقريرِ الدِّينِ ونفْعِ الأُمَّةِ، فحُذِفَ المُتعلَّقُ هنا لقصْدِ العُمومِ، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ لنَوعٍ مِن الأعمالِ الَّتي دلَّ عليها السِّياقُ؛ ليَشملَ كلَّ مُتعلَّقٍ عَمِلَه ممَّا هو مُهِمٌّ(٣).

- وتَقديمُ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ للاهتمامِ بتَعليقِ العمَلِ بوقْتِ الفراغِ مِن غيرِه لتَتعاقَبَ الأعمالُ(٤).

- وهذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكلِمِ القرآنيَّةِ؛ لِما احتوَت عليه مِن كَثرةِ المعاني(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦، ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ عُطِفَ على تَفريعِ الأمرِ بالشُّكرِ على النِّعَمِ، أَمْرٌ بطلَبِ استِمرارِ نِعَمِ اللهِ تعالَى عليه، كما قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[1] [إبراهيم: ٧].

- وتَقديمُ (إِلَى رَبِّكَ) على ﴿فَٱرۡغَب﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تكونُ رَغبتُك، ولا تَسأَلْ إلَّا فضْلَه مُتوكِّلًا عليه؛ فإنَّ صِفةَ الرِّسالةِ أعظَمُ صِفاتِ الخلْقِ، فلا يَليقُ بصاحِبِها أنْ يَرغَبَ إلى غيرِ اللهِ تعالَى[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ارْغَبْ)؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرغَبُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلْ يَرغَبُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا في الكَمالِ النَّفسانيِّ وانتشارِ الدِّينِ ونصْرِ المسلمينَ[3]؟!

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَٱرۡغَب﴾ هنا بحرْفِ (إلى)؛ لِتَضمينِه معْنى الإقبالِ والتَّوجُّهِ، تَشبيهًا بسَيرِ السَّائرِ إلى مَن عِندَه حاجتُه، كما قال تعالَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[4] [الصافات: ٩٩].

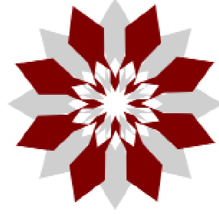


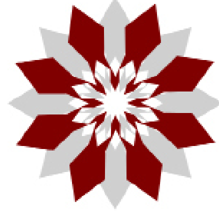
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

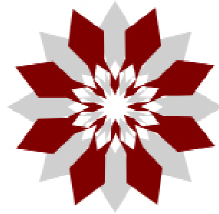
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

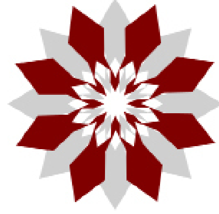


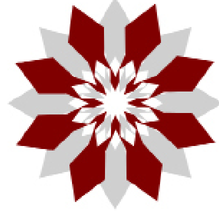


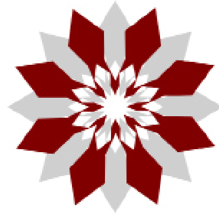


تَفْسِيرُ

سُورَةِ التِّينِ







سُورةُ التِّينِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التِّينِ)، وسُمِّيت (والتِّينِ) بإثباتِ الواوِ(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ(٢)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- القَسَمُ على أنَّ اللهَ خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ.

٢- انحِطاطُ الإنسانِ إلى أسفَلِ سافِلينَ بالكُفرِ باللهِ تعالى.

٣- إكرامُ المؤمِنينَ بأعظَمِ المَثوباتِ.

٤- بيانُ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ.



---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالتِّينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٩).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).

الآيات (١-٨)

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: أي: طُورِ سَيناءَ؛ والطُّورُ: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وسِينِينُ لغةٌ في سيناءَ، وهو اسمٌ للمَكانِ الَّذي به الجَبَلُ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لحُسْنِه أو لبَرَكَتِه أو لنَباتِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ[١].

﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: أي: أعدَلِ قامةٍ وأحسَنِ صُورةٍ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[٢].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[٣].

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَسْفَلَ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِـ «رَدَّ»، فهو بمعنى التَّصييرِ الَّذي ينصِبُ مفعولَينِ، وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ بالرَّدِّ: تغييرَ الحالِ، فهو متعَدٍّ لمفعولٍ واحِدٍ، و﴿أَسْفَلَ﴾: حالٌ مِن المفعولِ، أي: ردَدْناه حالَ كَونِه أسفَلَ.

وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِلِ مِن ضَميرِ ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ العائِدِ على الإنسانِ؛ فإنَّه في معنى الجَمعِ، أي: ردَدْنا الإنسانَ أسفَلَ سافِلينَ مِنَ النَّارِ إلَّا الَّذين آمَنوا ... فالمؤمِنونَ لا يُرَدُّونَ أسفَلَ سافِلينَ إلى النَّارِ يومَ القيامةِ، ولا تَقبُحُ صُوَرُهم، بل يَزدادونَ بهجةً إلى بهجتِهم، وحُسْنًا إلى حُسْنِهم. وقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ مُقَرِّرٌ لِما يُفيدُه الاستثناءُ مِن خُروجِهم عن حُكمِ الرَّدِّ، ومُبَيِّنٌ لكيفيَّةِ حالِهم.

ومَن قال: إنَّ المرادَ: رَدُّه إلى الهَرَمِ والخَرَفِ وضَعفِ القُوى، فالاستثناءُ عليه مُنقَطِعٌ، أي: لكِنِ الَّذين آمَنوا...، ووَجْهُه: أنَّ الهَرَمَ والرَّدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ يُصابُ به المؤمِنُ كما يُصابُ به الكافِرُ، فلا يكونُ لاستثناءِ المؤمنينَ على وَجهِ الاتِّصالِ مَعنًى، وعلى ذلك فقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والفاءُ رابطةٌ في الخَبَرِ؛ لتضَمُّنِ المبتدأِ المَوصولِ معنى الشَّرطِ، والكلامُ على معنى الاستدراكِ، كأنَّه قيل: لكِنِ الَّذين آمَنوا... فلَهم أجرٌ[1].

= للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالتِّينِ والزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، ومُقسِمًا بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبالبَلَدِ الآمِنِ؛ مكَّةَ المكَرَّمةِ -شَرَّفَها اللهُ تعالى- أقسَمَ أنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ، وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، سليمَ الفِطرةِ، ثمَّ هو يرُدُّه -سُبحانَه- إلى نارِ جهنَّمَ إنْ كفَر، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ؛ فلَهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

ثمَّ وبَّخ اللهُ تعالى المشركينَ على التَّكذيبِ بالحسابِ والجزاءِ بعدَ ظُهورِ الدَّليلِ عليه، فقال: فما الَّذي يَجعلُك تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بحِسابِ النَّاسِ على أعمالِهم بعدَ مَوتِهم؟! أليس اللهُ بأعدَلِ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالتِّينِ، وأقسِمُ بالزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ[1].

= (٢/ ١٢٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: التِّينُ الَّذي يؤكَلُ، والزَّيتونُ الَّذي يُعصَرُ منه الزَّيتُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل: المرادُ: القَسَمُ بالأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، =

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بهذا البَلَدِ الآمِنِ، وهو مكَّةُ الَّتي يأمَنُ فيها مَن يَحُلُّ بها مِن البَشَرِ وغَيرِهم[2].

= وأُنزِلَ عليه فيها الإنجيلُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٣).

قال ابن تيميَّةَ: (التِّينُ والزَّيْتونُ: هي الأرضُ الَّتي بُعِثَ فيها المسيحُ، وكثيرًا ما تُسمَّى الأرضُ بما يَنْبُتُ فيها، فيُقالُ: فلانٌ خَرَجَ إلى الكَرْمِ، وإلى الزَّيتونِ، وإلى الرُّمَّانِ، ونحوِ ذلك، ويُرادُ الأرضُ الَّتي فيها ذلك؛ فإنَّ الأرضَ تتناولُ ذلك؛ فعَبَّرَ عنها ببَعضِها). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٣٠).

وقال ابنُ جُزَي: (والأظهَرُ أنَّهما الموضعانِ مِنَ الشَّام، وهما اللَّذانِ كان فيهما مَولِدُ عيسى ومَسكَنُه؛ وذلك أنَّ اللهَ ذَكَر بعْدَ هذا الطُّورَ الَّذي كَلَّم عليه موسى، والبَلَدَ الَّذي بُعِثَ منه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

وذَكَر الشَّوكانيُّ أنَّ هذا القَولَ ونَحوَه فيه عُدولٌ عن المعنى الحقيقيِّ في اللُّغةِ العرَبيَّةِ، وليس فيه نَقلٌ عن الشَّارِعِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٦).

وقال السعدي: (التِّينُ: هو التِّينُ المعروفُ، وكذلك الزَّيتونُ، أقسَمَ بهاتَينِ الشَّجرتينِ؛ لكثرةِ مَنافِعِ شَجَرِهما وثَمَرِهما، ولأنَّ سُلطانَهما في أرضِ الشَّامِ؛ محَلِّ نُبوَّةِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢١).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: طُورُ سِينِينَ: جَبَلٌ معروفٌ؛ لأنَّ الطُّورَ هو الجبلُ ذو النَّباتِ، فإضافَتُه إلى سِينِينَ تعريفٌ له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨).

وقال البِقاعي: (سِينِينُ وسَيناءُ: اسمٌ للمَوضِعِ الَّذي هذا الجَبَلُ به). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣)، ((الجواب =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ، على الفِطرةِ السَّليمةِ(١).

= الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (البَلَدُ الأمينُ: مكَّةُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠-٥١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وممَّن قال في الجُملةِ بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠).

وقال القرطبي: (﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهو اعتِدالُه واستِواءُ شَبابِه، كذا قال عامَّةُ المفسِّرينَ، وهو أحسَنُ ما يكونُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٤).

وقال ابنُ عطيَّةَ بعدَ أن ذكر اختِلافَ النَّاسِ في تقويمِ الإنسانِ ما هو؟ وأنَّ مِنهم مَن قال: هو حُسنُ صُورتِه وحَواسِّه، ونَسَبه إلى النَّخَعيِّ ومجاهِدٍ وقَتادةَ، وأنَّ منهم مَن قال: هو انتصابُ قامتِه، ومنهم مَن قال: هو عقلُه وإدراكُه اللَّذانِ زَيَّناه بالتَّمييزِ، قال: (والصَّوابُ أنَّ جميعَ هذا هو حُسنُ التَّقويمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠).

قال ابن عاشور: (خَلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطْرةِ السَّليمةِ، مُدْرِكًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

وقال أيضًا: (هذا يَقتضي أنَّه تقويمٌ خاصٌّ بالإنسانِ، لا يُشارِكُه فيه غيرُه مِن المخلوقاتِ، ويتَّضِحُ =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾.

أي: ثمَّ ردَدْناه بعدَ موتِه إلى النَّارِ إنْ لم يُطِعِ اللَّهَ ويَتَّبعِ الرُّسلَ(١).

= ذلك في تعديلِ القُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، بحيثُ لا تكونُ إحدى قُواه مُوقِعةً له فيما يُفسِدُه، ولا يَعوقُ بعضُ قُواه البعضَ الآخَرَ عن أداءِ وظيفتِه، فإنَّ غيرَه مِن جِنسِه كان دونَه في التَّقويمِ... فأفادتِ الآيةُ أنَّ اللهَ كَوَّن الإنسانَ تكوينًا ذاتيًّا مُتناسِبًا مع ما خُلِق له نَوعُه مِن الإعدادِ لِنظامِه وحضارتِه... فإنَّ العقلَ أشرَفُ ما خُصَّ به نَوعُ الإنسانِ مِن بيْنِ الأنواعِ. فالمَرْضيُّ عندَ الله هو تقويمُ إدراكِ الإنسانِ ونظَرِه العقليِّ الصَّحيحِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي تَصدُرُ عنه أعمالُ الجسَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٤).

وقال ابنُ عثيمين: (أقسَمَ اللهُ أنَّه خَلَق الإنسانَ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ في أحسَنِ هيئةٍ وخِلْقةٍ و﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فِطرةً وقَصْدًا؛ لأنَّه لا يوجَدُ أحدٌ مِن المخلوقاتِ أحسَنُ مِن بني آدَمَ خِلقةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ هو حُسنُ الصُّورةِ، وكمالُ العقلِ والشَّبابِ والقوَّةِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الضَّعفُ والهَرَمُ والخَرَفُ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨]، وقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤]. وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعدَ هذا غيرُ مُتَّصِلٍ بما قبْلَه، والاستثناءُ على هذا القولِ مُنقطِعٌ بمعنَى: «لكِنْ»؛ لأنَّه خارجٌ عن معنى الكلامِ الأوَّلِ.

والآخَرُ: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ: الفِطرةُ على الإيمانِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الكفرُ أو تشويهُ الصُّورةِ في النَّارِ. والاستثناءُ على هذا متَّصِلٌ؛ لأنَّ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ لم يُرَدُّوا أسفَلَ سافِلينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).
ومِمَّن قال في الجملةِ بهذا المعنى المذكورِ: البيضاويُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والقاسميُّ، =

= والسعديُّ والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩).

قال البيضاوي: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بأنْ جعَلْناه مِن أهلِ النَّارِ، أو إلى أسفَلِ سافِلينَ وهو النَّارُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣).

ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: ثمَّ ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جريرٍ، والزجاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٣، ٥١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٧).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وقيل: إلى الضَّلالِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العصر: ٢، ٣]، وهو -واللهُ أعلَمُ- أنْ خُلِقَ الخَلقُ على الفِطرةِ، فمَن كفَرَ وضَلَّ فهو المردودُ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كلَّما ازدادت السِّنُّ في الإنسانِ تغيَّرَ إلى أردأَ في القوَّةِ الجسَديَّةِ، وفي الهيئةِ الجسَديَّةِ، وفي نَضارةِ الوَجهِ وغيرِ ذلك، يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ. وإذا قُلْنا: إنَّ أحسَنَ تقويم تَشملُ حتَّى الفِطرةَ الَّتي جَبَل اللهُ الخَلْقَ عليها، والعبادةَ الَّتي تترتَّبُ أو تَنبني على هذه الفِطرةِ؛ فإنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن تعودُ به حالُه -والعياذُ بالله- إلى أن يكونَ أسفَلَ سافِلينَ بعدَ أن كان في الأعلى والقِمَّةِ مِنَ الإيمانِ والعِلمِ. والآيةُ تَشملُ المعنيَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الإنسانَ أخَذَ يُغَيِّرُ ما فُطِرَ عليه مِن التَّقويمِ، وهو الإيمانُ بإلهٍ واحِدٍ، وما يَقتَضيه ذلك مِن تَقْواه ومُراقَبتِه؛ فصار أسفَلَ سافِلينَ، وهل أسفَلُ مِمَّن يَعتَقِدُ إلهيَّةَ الحِجارةِ والحيوانِ الأبكَمِ؛ مِن بَقَرٍ أو تماسيحَ أو ثعابينَ، أو مِن شَجَرِ السَّمُرِ، أو مَن يَحسَبُ الزَّمانَ إلهًا ويُسَمِّيه الدَّهرَ، أو مَن يَجحَدُ وُجودَ الصَّانِعِ وهو يُشاهِدُ مَصنوعاتِه ويُحِسُّ بوُجودِ نَفْسِه؟! قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. فإنْ مِلتَ إلى جانبِ الأخلاقِ رأيتَ الإنسانَ يَبلُغُ به انحِطاطُه إلى حضيضِ التَّسَفُّلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَم بذلك الرَّدِّ على جميعِ النَّوعِ إشارةً إلى كثرةِ المتَّصِفِ به منهم، وكان الصَّالحُ قليلًا جِدًّا؛ جعَلَه محَطَّ الاستثناءِ، فقال[1]:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، فإنَّهم لا يُرَدُّون إلى النَّارِ؛ ولهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ، دائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وهذا القولُ المذكورُ بناءً على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّارِ. وتقدَّم ذِكرُ القائلينَ به.

وعلى القولِ الثَّاني في قولِه: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ -أي: أنَّ المرادَ به: رددْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ- فالمعنى: إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وقْتَ صِحَّتِهم وشَبابِهم؛ فلَهم أجرٌ غيرُ مَنقوصٍ بَعْدَ هَرَمِهم؛ حيثُ يُعطَونَ ثوابَ الأعمالِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها زمَنَ صِحَّتِهم وشَبابِهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القيِّم: (إن قالوا: إنَّ الَّذي يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ هم الكفَّارُ دونَ المؤمنينَ؛ كابَروا الحِسَّ، وإن قالوا: إنَّ مِن النَّوعَينِ مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ احتاجوا إلى التَّكلُّفِ لصَحَّةِ الاستِثناءِ، فمنهم مَن قدَّر ذلك بأنَّ الَّذين آمَنوا وعَملوا الصَّالحاتِ لا تَبطُلُ أعمالُهم إذا رُدُّوا إلى أرذَلِ العُمُرِ، بل تجري عليهم أعمالُهم الَّتي كانوا يَعمَلونها في الصِّحَّةِ، فهذا وإن كان حقًّا فإنَّ الاستثناءَ إنَّما وقَع مِن الرَّدِّ لا مِن الأجرِ والعمَلِ، ولَمَّا عَلِم أربابُ هذا القولِ ما فيه من التَّكلُّفِ خَصَّ بَعضُهم الَّذين آمَنوا وعَملوا الصَّالحاتِ بقُرَّاءِ القُرآنِ خاصَّةً، فقالوا: مَن قرأ القرآنَ لا يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ. وهذا ضعيفٌ مِن وجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الاستِثناءَ عامٌّ في المؤمنينَ؛ قارئِهم وأُمِّيِّهم، الثَّاني: أنَّه لا دليلَ على ما ادَّعَوه، وهذا لا يُعلَمُ بالحِسِّ، ولا خَبَرَ يجِبُ التَّسليمُ له يَقتضيه. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان =

كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

أي: فما الَّذي يَجعلُك تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بأنَّ النَّاسَ يُحاسَبونَ على

= في أقسام القرآن)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فعلى أحدِ التَّفسيرَينِ في الآيةِ: أنَّ الإنسانَ إذا رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وكان هَرِمًا لا يَعقِلُ، أنَّه يُرَدُّ إلى أسفلِ السَّافِلينَ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ فلَهم مِن الأجرِ ما كان يُكتَبُ لهم، هذا وجْهٌ في الآيةِ، ولكنَّ الوجهَ الصَّحيحَ فيها عندَ المفسِّرينَ: أنَّ معنى: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعَلْناه إلى دَرَكاتِ النَّارِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وهو الجنَّةُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩، ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أن رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ، صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تقويمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

وقال القرطبي: (الاستثناءُ -على قَولِ مَن قال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: النَّارِ- متَّصِلٌ، ومَن قال: إنَّه الهَرَمُ، فهو منقَطِعٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٥).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ذكَرَ المفسِّرونَ فيه قَولَينِ؛ أحدُهما: غيرُ مَنقوصٍ ولا مقطوعٍ. والآخَرُ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٧).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيرُ مَقطوعٍ، ولا مَمنونٍ به أيضًا، فكلمةُ ﴿مَمْنُونٍ﴾ صالحةٌ لمعنَى القَطعِ، وصالحةٌ لمعنى المِنَّةِ، فهُم لهم أجرٌ لا يَنقطِعُ، ولا يُمَنُّ عليهم به، يعني أنَّهم إذا استَوفَوا هذا الأجرَ لا يُمَنُّ عليهم فيُقالُ: أعطَيْناكم وفعَلْنا وفعَلْنا، وإن كانت المِنَّةُ لله عزَّ وجلَّ عليهم بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ والثَّوابِ، كلُّها مِنَّةٌ مِن الله، لكنْ لا يمنُّ عليهم به). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وتقدَّم في (٤٢/ ٥٤٠) الكلامُ عن المعنى الثَّاني لقولِه: ﴿مَمْنُونٍ﴾ وأنَّ مِن العلماءِ مَن أنكرَه. يُنظر: ((الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيميَّة (ص: ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

أعمالِهم، ويُجازَونَ بها بعدَ الحُجَجِ الَّتي بَيَّنَها اللهُ[(١)]؟!

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [٨].

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَحَّ أنَّ تارِكَ الظَّالِمِ بغيرِ انتِقامٍ، والمحسِنِ بلا إكرامٍ: ليس على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ عطية: (اختُلِف في المخاطَبِ بقولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فقال قتادةُ والفرَّاءُ والأخفشُ: هو محمدٌ عليه السَّلامُ، قال الله له: فماذا الذي يُكذِّبُكَ فيما تخبِرُ به مِن الجزاءِ والبعثِ -وهو الدِّينُ- بعدَ هذه العبرِ التي يُوجِبُ النَّظَرُ فيها صحةَ ما قلتَ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ «الدينُ» على هذا التأويلِ جميعُ دينِه وشرعِه، وقال جمهورٌ مِن المتأولينَ: المخاطَبُ الإنسانُ الكافرُ، أي: ما الذي يجعلُك كذَّابًا بالدِّينِ، تجعلُ له أندادًا، وتزعمُ أن لا بعثَ بعد هذه الدلائلِ، وقال منصورٌ: قلْتُ لمجاهدٍ: قولُه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يريدُ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم؟ قال معاذَ الله، يعني به الشَّاكَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٧).

وقال الواحدي: (وعامةُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا خطابٌ للإنسانِ المكذِّبِ بالدِّينِ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٩).

وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ المعنَى: فما يُكذِّبُكَ أيُّها الشَّاكُّ بيومِ الحسابِ بعدَ ما شاهدْتَ مِن قُدرَةِ الله تعالى ما شاهدْتَ، هذا هو القولُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٤).

وقال ابن جرير: (أولَى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قولُ مَنْ قالَ: معنَى «مَا» معنَى «مَنْ». ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: فمَنْ يُكَذِّبُكَ يا محمَّدُ بعدَ الَّذي جاءَكَ مِنْ هذا البيانِ من الله بالدِّينِ؟ يعني: بطاعَةِ اللهِ، ومُجازاتِه العِبادَ على أعمالِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٤).

وقال البِقاعي: (أيْ: أيُّ شَيءٍ ينسبُك إلى الكذبِ يا أشرَفَ الخَلقِ وأكمَلَهم نفْسًا وأتْقاهم عِرضًا وأطهَرَهم خَلقًا وخُلقًا، وعبَّر بـ «ما» إشارةً إلى أنَّ الكذبَ بهذا مع هذا الدَّليلِ القَطعيِّ الَّذي تضَمَّنَتْه هذه السُّورةُ في عِدادِ ما لا يُعقلُ، بل دُونَه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٤٨).

العَدْلِ الَّذي شَرَعه اللهُ تعالى؛ حَسُنَ جِدًّا تكريرُ الإنكارِ بقَولِه سُبحانه وتعالى[(١)]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨﴾.

أي: أليس اللهُ هو أعدَلَ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه[(٢)]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فَضيلةٌ لِمَن أَسَنَّ في الإسلامِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَكتُبُ أجرَ ما كان

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: أنَّه أعدَلُ الحاكِمينَ قَضاءً بيْن خَلْقِه، وأقضَى القاضينَ، وأفصلُ الفاصِلينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٥).

قال السعدي: (﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل تَقتضي حِكمتُه أن يَترُكَ الخَلقَ سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنهَونَ، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبونَ؟! أمِ الَّذي خلَق الإنسانَ أطوارًا بعدَ أطوارٍ، وأوصَل إليهم مِن النِّعَمِ والخَيرِ والبرِّ ما لا يُحصونَه، وربَّاهم التَّربيةَ الحسَنةَ؛ لا بُدَّ أن يُعيدَهم إلى دارٍ هي مُستقَرُّهم وغايَتُهم، الَّتي إليها يَقصِدونَ، ونحوَها يَؤُمُّونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّه أتقَنُ الحاكِمينَ صُنعًا في خَلْقِه: القُرطبيُّ، وابنُ عادل، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الاستفهامُ للتَّقرير؛ يُقَرِّرُ اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه أحكَمُ الحاكِمينَ، وأحكَمُ هنا: اسمُ تَفضيلٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الحِكمةِ، ومِنَ الحُكمِ؛ فالحُكمُ الأكبَرُ الأعظَمُ الَّذي لا يُعارِضُه شيءٌ هو حُكمُ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والحِكمةُ العُلْيا البالغةُ هي حِكمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فهو سُبحانَه وتعالى أحكَمُ الحاكِمينَ قَدَرًا وشَرْعًا، وله الحُكمُ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كُلُّه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

يَعمَلُه في شَبيبتِه، ولا يَقْطَعُه عنه[(١)]. وذلك على أنَّ معنى ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] الآياتِ، وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] إلى غيرِ ذلك، ولم يدُلَّ التَّقديمُ في شَيءٍ مِن هذه المواضعِ على فَضْلِ المَبدوءِ به؛ فعُلِم أنَّ التَّقديمَ ليس لازمًا للفَضلِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ شَكْلَ الآدميِّ هو أحسنُ شَكْلٍ في المخلوقاتِ وأقومُه[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سؤالٌ؛ هذه الآيةُ الكريمةُ توهِمُ أنَّ الإنسانَ يُنكِرُ أنَّ ربَّه خلقَه؛ لِما تقرَّر في فنِّ المعاني مِن أنَّ خاليَ الذِّهنِ مِن التَّردُّدِ والإنكارِ لا يؤكَّدُ له الكلامُ -ويُسمَّى ذلك ابتدائيًّا-، والمُتردِّدَ يَحسُنُ التَّوكيدُ له بمؤكِّدٍ واحدٍ -ويُسمَّى طَلَبيًّا-، والمُنكِرَ يجبُ التَّوكيدُ له بحسَبِ إنكارِه -ويُسمَّى إنكاريًّا-، واللهُ تعالى في هذه الآيةِ أكَّد إخبارَه بأنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ بأربعةِ أقسامٍ، وباللَّامِ، وبـ «قد»؛ فهي ستَّةُ تأكيداتٍ، وهذا التَّوكيدُ يوهِمُ أنَّ الإنسانَ مُنكِرٌ لأنَّ ربَّه خلَقَه؛ وقد جاءت آياتٌ أخرى صريحةٌ في أنَّ الكفَّارَ يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُهم، وهي قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

الجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: هو ما حرَّره عُلماءُ البلاغةِ مِن أنَّ المُقِرَّ إذا ظهرَتْ عليه أمَارةُ الإنكارِ جُعِل كالمنكِرِ؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ، فالكفَّارُ لَمَّا أنكَروا البعثَ ظهرَتْ عليهم أمارةُ إنكارِ الإيجادِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مَن أقَرَّ بالأوَّلِ لَزِمه الإقرارُ بالثَّاني؛ لأنَّ الإعادةَ أيسَرُ مِن البَدءِ؛ فأكَّد لهم الإيجادَ الأوَّلَ، ويوضِّحُ هذا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّه المقصودُ بقولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: ما يَحمِلُك أيُّها الإنسانُ على التَّكذيبِ بالبعثِ والجزاءِ بعدَ عِلمِك أنَّ اللهَ أوجَدك أوَّلًا؟! فمَن أوجَدك أوَّلًا قادرٌ على أن يوجِدَك ثانيًا.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ القسَمَ شاملٌ لقولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّار، وهم لا يُصَدِّقونَ بالنَّارِ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الطور: ١٤].

٤- قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُؤخَذُ من هذه الآيةِ أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ على حالةِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّوعَ ليتَّصِفَ بآثارِها، وهي الفِطرةُ الإنسانيَّةُ الكامِلةُ في إدراكِه إدراكًا مُستقيمًا مِمَّا يتأدَّى مِن المحسوساتِ الصَّادِقةِ -أي: الموافِقةِ لحقائِقِ الأشياءِ، الثَّابتةِ في نفْسِ الأمرِ- بسَبَبِ سلامةِ ما تؤدِّيه الحواسُّ السَّليمةُ، وما يَتلقَّاه العَقلُ السَّليمُ من ذلك، ويتصَرَّفُ فيه بالتَّحليلِ والتَّركيبِ المنتظِمَينِ؛ بحيث لو جانبَتْه التَّلقيناتُ الضَّالَّةُ والعوائِدُ الذَّميمةُ والطَّبائِعُ المنحَرِفةُ والتَّفكيرُ الضَّارُّ، أو لو تسلَّطَت عليه تسلُّطًا ما، فاستطاع دفاعَها عنه بدَلائِلِ الحَقِّ والصَّوابِ- لَجرى في جميعِ شُؤونِه على الاستقامةِ، ولَمَا صَدَرَت منه إلَّا الأفعالُ الصَّالحةُ، ولكِنَّه قد يتعثَّرُ في ذُيولِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٦).

اغترارِه، ويُرخي العِنانَ لهَواه وشَهوتِه، فتَرمي به في الضَّلالاتِ، أو يتغَلَّبُ عليه دُعاةُ الضَّلالِ بعامِلِ التَّخويفِ أو الإطماعِ، فيُتابِعُهم طَوعًا أو كَرهًا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَستحكِمَ فيه ما تقلَّدَه فيَعتادُه ويَنسى الصَّوابَ والرُّشدَ! ويُفسِّرُ هذا المعنى قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه)) الحديثَ[1]؛ ذلك أنَّ أبَوَيه هما أوَّلُ مَن يتولَّى تأديبَه وتثقيفَه، وهما أكثَرُ النَّاسِ مُلازَمةً له في صِباه، فهما اللَّذان يُلْقِيانِ في نَفْسِه الأفكارَ الأُولى، فإذا سَلِمَ مِن تضليلِ أبَوَيه فقدْ سار بفِطرتِه شَوطًا، ثمَّ هو بعدَ ذلك عُرضةٌ لعديدٍ مِن المؤَثِّراتِ فيه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، واقتصَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأبَوَين؛ لأنَّهما أقوى أسبابِ الزَّجِّ في ضَلالتِهما، وأشَدُّ إلحاحًا على ولَدِهما[2].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ الإنسانَ مَفطورٌ على الخَيرِ، وأنَّ في جِبِلَّتِه جَلبَ النَّفعِ والصَّلاحِ لنَفْسِه، وكَراهةَ ما يَظُنُّه باطِلًا أو هلاكًا، ومحبَّةَ الخَيرِ والحَسَنِ مِنَ الأفعالِ؛ لذلك تَراه يُسَرُّ بالعَدْلِ والإنصافِ، ويَنصَحُ بما يَراه مجلبةً لِخَيرِ غَيرِه، ويُغيثُ المَلْهوفَ، ويُعامِلُ بالحُسنى، ويَغارُ على المُستضعَفينَ، ويَشمَئِزُّ مِن الظُّلمِ -ما دام مجرَّدًا عن رَوْمِ نفعٍ يَجلِبُه لنَفْسِه، أو إرضاءِ شَهوةٍ يُريدُ قَضاءَها، أو إشفاءِ غَضَبٍ يَجيشُ بصَدْرِه؛ تلك العَوارِضُ الَّتي تَحولُ بيْنه وبيْن فِطرتِه زمنًا- ويَهَشُّ إلى كلامِ الوُعَّاظِ والحُكَماءِ والصَّالحينَ، ويُكرِمُهم ويُعَظِّمُهم، ويَوَدُّ طُولَ بَقائِهم[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى ما خُصَّ به

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٥٨) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٦).

الإنسانُ مِنَ العَقلِ والفَهمِ وانتِصابِ القامةِ؛ الدَّالَّةِ على استيلائِه على كُلِّ ما في هذا العالَمِ[١].

٧- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمرُ الغيرِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه، فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجِبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكونُ فرضًا على الكفايةِ، وقد تكونُ مُستحَبَّةً[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أنَّه ما مِن شيءٍ يَحكُمُ اللهُ به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٣].

٩- أحكامُ اللهِ سُبحانَه لا تَجِدُ فيها عَيبًا ولا نَقْصًا[٤]؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وفيه أنَّ حُكْمَ اللهِ أحسَنُ الأحكامِ، فإذا كان اللهُ أحسَنَ الحاكِمينَ أحكامًا، وهو أحكَمُ الحاكِمينَ؛ فمَنِ ادَّعى أنَّ حُكْمَ غيرِ اللهِ مِثلُ حُكْمِ اللهِ أو أحسَنُ؛ فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٦٠).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ خَتَمَ سُبحانَه السُّورةَ به، وهذا تقريرٌ لمضمونِ السُّورةِ مِن إثباتِ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ، وحُكْمُه يَتضَمَّنُ نَصْرَه لرَسولِه على مَن كَذَّبَه وجَحَدَ ما جاء به بالحُجَّةِ والقُدرةِ والظُّهورِ عليه، وحُكْمَه بيْن عبادِه في الدُّنيا بشَرعِه وأَمْرِه، وحُكْمَه بيْنَهم في الآخرةِ بثَوابِه وعِقابِه، وأنَّ أَحْكَمَ الحاكِمينَ لا يَليقُ به تعطيلُ هذه الأحكامِ بعْدَما ظهَرتْ حِكمتُه في خَلْقِ الإنسانِ في أحسَنِ تقويمٍ، ونَقْلِه في أطوارِ التَّخليقِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أكْمَلِ الأحوالِ، فكيف يليقُ بأحْكَمِ الحاكِمينَ ألَّا يُجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه؟! وهل ذلك إلَّا قَدْحٌ في حُكْمِه وحِكمتِه؟! فلِلَّهِ ما أَخْصَرَ لفظَ هذه السُّورةِ، وأعْظَمَ شأنَها، وأَتَمَّ معناها[١]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

- ابتداءُ الكلامِ بالقسَمِ المؤكِّدِ يُؤذِنُ بأهمِّيَّةِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وإطالةُ القسَمِ تَشويقٌ إلى المقسَمِ عليه[٢].

- ومعْنى القسَمِ بهذه الأشياءِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: الإبانةُ عن شرَفِ البِقاعِ المُبارَكةِ، وما ظهَرَ فيها من الخَيرِ والبَرَكةِ بسُكْنى الأنبياءِ والصَّالحينَ؛ فمَنبتُ التِّينِ والزَّيتونِ مُهاجَرُ إبراهيمَ ومَولدُ عِيسى ومَنْشؤه، والطُّورُ: المكانُ الَّذي نُودِيَ منه مُوسى، ومكَّةُ: مكانُ البيتِ الَّذي هو هُدًى للعالَمينَ، ومَولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَبعثُه[٣].

- وكذلك أُقسِمَ بالتِّينِ والزَّيتونِ من أجلِ الدَّلالةِ على صِفاتٍ إلهيَّةٍ كما

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

يُقسَمُ بالاسمِ لدَلالتِه على الذَّاتِ، مع الإيذانِ بالمِنَّةِ على النَّاسِ؛ لِما في هاتَينِ الثَّمرَتينِ مِن المنافعِ للنَّاسِ المُقتضيةِ الامتِنانَ عليهم بأنْ خَلَقَها اللهُ لهم؛ فَفاكهةُ التِّينِ تَنبُتُ في كلِّ البلادِ، وهي سَهلةُ النَّباتِ لا تَحتاجُ إلى كَثرةِ عَمَلٍ وعِلاجٍ. والزَّيتونُ ثَمَرةٌ نافعةٌ صالحةٌ، تَكْفي النَّاسَ حَوائجَ طَعامِهم وإضاءتِهم، فهما عَجيبانِ مِن بيْنِ أصنافِ الأشجارِ المُثمِرةِ[1].

- وكذلك في ابتداءِ السُّورةِ بالقسَمِ بما يَشملُ إرادةَ مَهابطِ أشهَرِ الأديانِ الإلهيَّةِ، بَراعةُ استهلالٍ لغرَضِ السُّورةِ[2]؛ وهو أنَّ اللهَ سُبحانَه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطرةِ السَّليمةِ مُدركًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالقِ ووَحدانيَّتِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما خالَفَ ذلك مِن النِّحَلِ والمِلَلِ قد حادَ عن أُصولِ شَرائعِ اللهِ كلِّها، بقطْعِ النَّظرِ عن اختلافِها في الفُروعِ، ويَكْفي في تقَوُّمِ معْنى بَراعةِ الاستهلالِ ما يَلوحُ في المعْنى مِن احتمالٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٤).

(٢) براعةُ الاستهلالِ: هي كَوْنُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعْدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المَتلُوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عَجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢، ٤٢٣).

- البلدُ الأمينُ: هو مكَّةُ، و(أَمينٌ) للمُبالَغةِ في أمْنِه، أي: آمِنٌ مَن فيه ومَن دَخَلَه، وما فيه مِن طَيرٍ وحَيوانٍ[(١)].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ الإشارةُ إلى البلَدِ الأمينِ للتَّعظيمِ؛ ولأنَّ نُزولَ السُّورةِ في ذلك البلَدِ، فهو حاضرٌ بمَرأًى ومَسمَعٍ مِن المُخاطَبينَ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ * ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ مع ما عُطِفَ عليه هو جَوابُ القسَمِ، والقسَمُ عليه يدُلُّ على أنَّ التَّقويمَ تَقويمٌ خَفِيٌّ، وأنَّ الرَّدَّ ردٌّ خَفِيٌّ يَجِبُ التَّدبُّرُ لإدراكِه؛ فلذلك ناسَبَ أنْ يُحقَّقَ بالتَّوكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ تَصرُّفاتِ مُعظَمِ النَّاسِ في عَقائدِهم جاريةٌ على حالةٍ تُشبِهُ حالةَ مَن يُنكِرونَ أنَّهم خُلِقوا على الفِطرةِ[(٣)]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- وحرْفُ ﴿فِيٓ﴾ يُفيدُ الظَّرفيَّةَ، والمرادُ بها معْنى التَّمكُّنِ والمِلكِ، فهي مُستعمَلةٌ في معْنى باءِ المُلابَسةِ أو لامِ المِلكِ، وإنَّما عُدِلَ عن أحدِ الحرفينِ الحقيقيَّينِ لهذا المعْنى إلى حرْفِ الظَّرفيَّةِ؛ لإفادةِ قوَّةِ المُلابَسةِ، أو قوَّةِ المِلْكِ مع الإيجازِ، ولولا الإيجازُ لَكانت مُساواةُ الكلامِ أنْ يُقالَ: لقد خَلَقْنا الإنسانَ بتَقويمٍ مَكينٍ هو أحسَنُ تَقويمٍ[(٤)].

- و﴿أَحۡسَنِ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، أي: في تَقويمٍ أحسَنِ تقويمٍ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ (ثُمَّ) لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شَأنُها في عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الرَّدَّ أسفَلَ سافِلينَ بعْدَ خلْقِه مَحوطًا بأحسَنِ تقويمٍ عَجيبٌ؛ لِما فيه مِن انقلابِ ما جُبِلَ عليه، وتَغييرُ الحالةِ الموجودةِ أعجَبُ مِن إيجادِ حالةٍ لم تكُنْ، ولأنَّ هذه الجُملةَ هي المقصودُ مِن الكلامِ؛ لتَحقيقِ أنَّ الَّذين حادُوا عن الفِطرةِ صاروا أسفَلَ سافِلينَ[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- و﴿أَسۡفَلَ﴾ قيل: اسمُ تَفضيلٍ، أي: أشدَّ سَفالةٍ، وأُضِيفَ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ أي: الموصوفينَ بالسَّفالةِ، فالمرادُ: أسفَلَ سافِلينَ في الاعتِقادِ بخالِقِه، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التين: ٦]. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ظَرْفًا، أي: مكانًا أسفَلَ ما يَسكُنُه السَّافِلونَ، فإضافةُ ﴿أَسۡفَلَ﴾ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ من إضافةِ الظَّرفِ إلى الحالِّ فيه، ويَنتصِبُ ﴿أَسۡفَلَ﴾ بـ﴿رَدَدۡنَٰهُ﴾ انتصابَ الظَّرفِ، أو على نزْعِ الخافضِ، أي: إلى أسفَلِ سافِلينَ، وذلك هو دارُ العذابِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] [النساء: ١٤٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ مِن عُمومِ الإنسانِ، فلمَّا أخبَرَ عن الإنسانِ بأنَّه رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ، ثمَّ استَثْنى من عُمومِه الَّذين آمَنوا؛ بَقِيَ غيرُ المؤمنينَ في أسفَلِ سافِلينَ، والمعْنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تَقويمٍ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وعُطِفَ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ عَمَلَ الصَّالحاتِ من أحسَنِ التَّقويمِ بعْدَ مَجيءِ الشَّريعةِ؛ لأنَّها تَزيدُ الفِطرةَ رُسوخًا، ويَنسحِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

الإيمانُ على الأخلاقِ، فيَرُدُّها إلى فضْلِها، ثمَّ يَهْديها إلى زِيادةِ الفضائلِ مِن أحاسِنِها؛ فكان عطْفُ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ للثَّناءِ على المؤمنينَ بأنَّ إيمانَهم باعثٌ لهم على العمَلِ الصَّالحِ، وذلك حالُ المؤمنينَ حِينَ نُزولِ السُّورةِ، فهذا العطْفُ عطْفُ صِفةٍ كاشفةٍ[١].

- وفُرِّعَ على معْنى الاستِثناءِ -وهو أنَّهم لَيسوا ممَّن يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ- الإخبارُ بأنَّ لهم أجْرًا عَظيمًا؛ لأنَّ الاستثناءَ أفاد أنَّهم لَيسوا بأسفَلِ سافِلينَ، فأُرِيدَ زِيادةُ البَيانِ لفضْلِهم وما أُعِدَّ لهم[٢].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ احتِباكٌ[٣]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

والصِّفةُ الكاشِفةُ: هي الصِّفةُ الَّتي تُميِّزُ المَوصوفَ عن سائرِ الأجناسِ، وتُبيِّنُ حَقيقتَه، فهي صفة تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ وهي عكسُ الصِّفةِ المُقيِّدةِ الَّتي تُخرِجُ ما سواه، فالصِّفةُ الكاشفةُ هي خَبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تُبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأنْ تكونَ وَصْفًا لازمًا مُختَصًّا به؛ مِثالُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مَفهومَ مُخالَفةٍ له، فلا يَصِحُّ لأحدٍ أنْ يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وَصْفٌ مُطابِقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لِمُوافَقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (١/ ٣٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن =

حُذِفَ أوَّلًا -بما أفهمَتْه الآيةُ- عمَلُ السَّيِّئاتِ، وثانيًا: الإبقاءُ على أصلِ الخَلْقِ في أحسَنِ تقويم على الفِطرةِ الأُولى؛ لِيَكونَ نَظْمُها في الأصلِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بعَمَلِ السَّيِّئاتِ؛ فله على ذلك عذابٌ مُهينٌ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فإنَّا أبقَيْناهم على الفِطرةِ الأُولى في أحسَنِ تقويمٍ[1].

- وتَنوينُ ﴿أَجْرٌ﴾؛ للتَّعظيمِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن تَقويمِ خَلْقِ الإنسانِ، ثمَّ رَدِّه أسفَلَ سافِلِينَ؛ لأنَّ ما بعْدَ الفاءِ مِن الكلامِ مُسبَّبٌ عن البَيانِ الَّذي قبْلَ الفاءِ، أي: فقَدْ بانَ لك أنَّ غيرَ الَّذين آمَنوا همُ الَّذين رُدُّوا إلى أسفَلِ سافِلِينَ، فمَن يُكذِّبُ منهم بالدِّينِ الحقِّ بعْدَ هذا البَيانِ؟! أو: إنْ عَلِمْتَ هذا أيُّها الإنسانُ فما يُكذِّبُك، والفاءُ هي الفصيحةُ[3]؟!

- و(ما) في قولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً، والاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، والخِطابُ للإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنِ استُثْنِيَ منه الَّذين آمَنوا، بَقِيَ الإنسانُ المكذِّبُ. وضَميرُ الخِطابِ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فما يُكذِّبُه، ونُكتةُ الالْتِفاتِ هنا أنَّه أصرَحُ في مُواجَهةِ الإنسانِ المكذِّبِ بالتَّوبيخِ، ولتَشديدِ الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أيْ: فما يَجعلُكَ كاذبًا بسَببِ الدِّينِ وإنكارِه بعْدَ هذِه الدَّلائلِ؟!

= حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) مَوصولةً، و(ماصَدَقَها)[١]: المُكذِّبُ، فهي بمعْنى (مَن)، وهي في مَحلِّ مُبتدَأٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والضَّميرُ المستتِرُ في ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ عائدٌ إلى (ما)، وهو الرَّابطُ للصِّلةِ بالمَوصولِ، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: يَنسُبُك إلى الكذبِ بسَببِ ما جِئتَ به مِن الإسلامِ، أو مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه (بعْدُ) فبُنِيَت (بعْدُ) على الضَّمِّ، والتَّقديرُ: بعْدَ تَبيُّنِ الحقِّ، أو بعْدَ تَبيُّنِ ما ارتضاهُ لنفْسِه مِن أسفَلِ سافِلينَ. وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبرًا عن (ما)، والرَّابطُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بأحكَمِ الحاكمينَ فيه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ دَليلًا على الخبَرِ المُخبَرِ به عن (ما) المَوصولةِ، وحُذِفَ إيجازًا؛ اكتِفاءً بذِكرِ ما هو كالعِلَّةِ له، فالتَّقديرُ: فالَّذي يُكذِّبُك بالدِّينِ يَتولَّى اللهُ الانتِصافَ منه، أليسَ اللهُ بأحكَمِ الحاكمينَ؟ والاستفهامُ تَقريريٌّ[٢].

- وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ تحقيقٌ لِمَا سبَقَ، والاستِفهامُ تقريريٌّ، والمعنى: أليس الَّذي فعَلَ ذلك مِن الخَلقِ والرَّدِّ بأحْكَمِ الحاكِمِينَ صُنعًا وتدبيرًا؟ ومَن كان كذلك كان قادرًا على الإعادةِ والجزاءِ. وعلى القَولِ بأنَّ الحُكمَ بمعْنَى القَضاءِ؛ فالجملةُ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ؛ فهي وعيدٌ

---

(١) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدق، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

للكُفَّارِ، وأنَّه يَحكُم عليهم بما هُم أهلُه، وإخبارٌ بعدلِه سُبحانَه[(١)].

- ونَوطُ الخبَرِ بذي وَصْفٍ يُؤذِنُ بمُراعاةِ خَصائصِ المعْنى المُشتَقِّ منه الوصفُ، فلمَّا أُخبِرَ عن اللهِ بأنَّه أفضلُ الَّذين يَحكُمون بقولِه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، عُلِمَ أنَّ اللهَ يَفوقُ قَضاؤه كلَّ قَضاءٍ في خَصائصِ القضاءِ وكَمالاتِه، وهي: إصابةُ الحقِّ، وقطْعُ دابرِ الباطلِ، وإلزامُ كلِّ مَن يَقْضي عليه بالامتثالِ لقَضائِه، والدُّخولِ تحْتَ حُكمِه[(٢)].

- وأيضًا في الكلامِ تَعجُّبٌ وتَعجيبٌ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا قرَّرَ أنَّه خَلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ ردَّه إلى أرذَلِ العُمُرِ -على قولٍ-؛ دلَّ على كَمالِ قُدرتِه على الإنشاءِ والإعادةِ، فسَأَلَ بعْدَ ذلك عن سَببِ تَكذيبِ الإنسانِ بالجزاءِ، كأنَّه قِيل: فما سَببُ تَكذيبِك أيُّها الإنسانُ بالجزاءِ بعْدَ هذا الدَّليلِ القاطعِ؟! وعلى هذا فقولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وَعيدٌ للكفَّارِ، وأنَّه يُحكِمُ عليهم بما هو أهْلُه[(٣)].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ العَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤، ٧٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨).



الفهرس







الفهرس

سورةُ البُرُوجِ

سورةُ الطَّارِقِ

سورةُ الأعلَى

سورةُ الغاشِيةِ

سورةُ الفَجْرِ

سُورةُ البَلَدِ

سُورةُ الشَّمسِ

سُورةُ اللَّيلِ

سُورةُ الضُّحى

سُورةُ الشَّرْحِ

سُورةُ التِّينِ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠